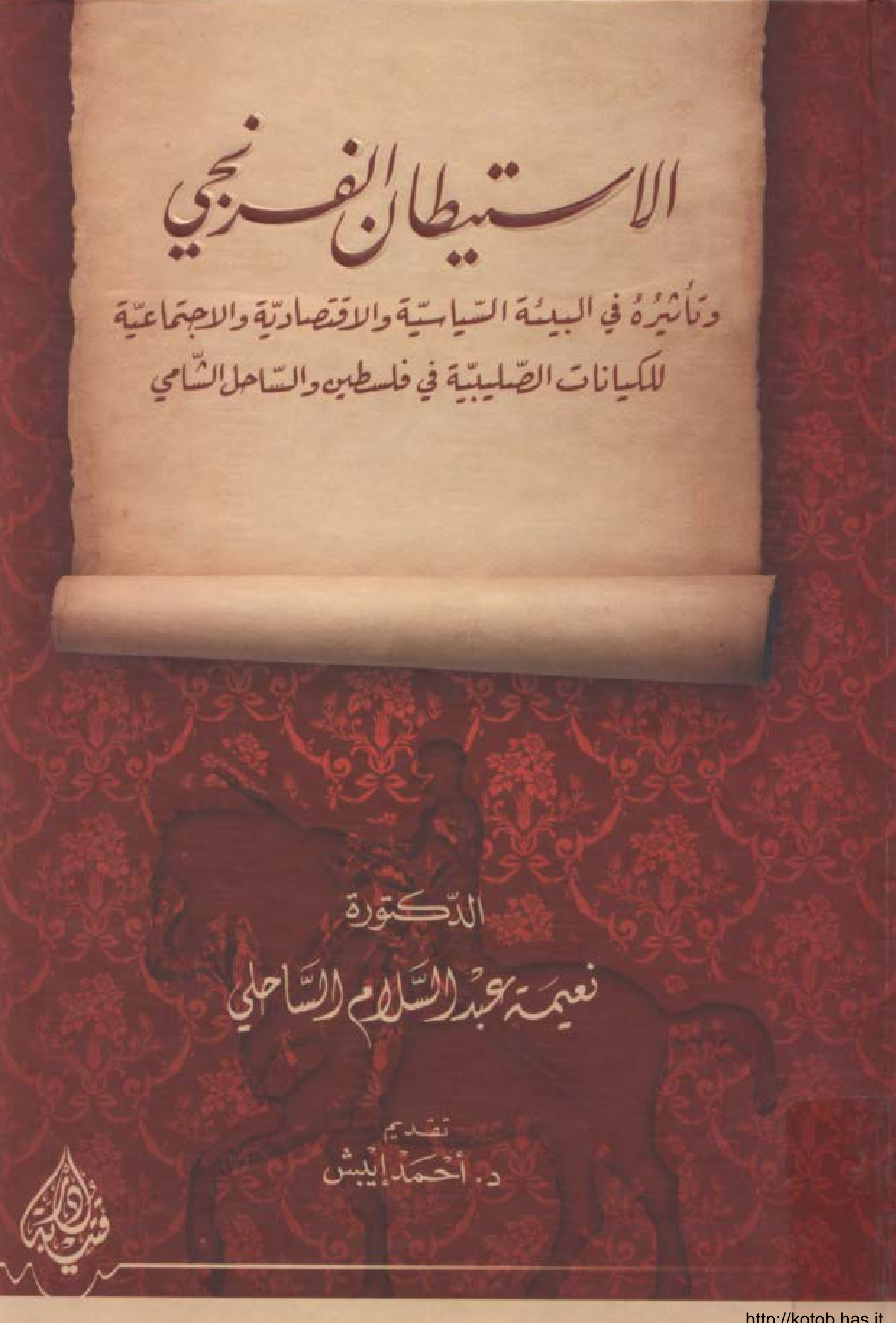

الاستيطان الفرنجي
وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي
الدكتورة
نعيمة عبد السلام الساحلي
تقديم
د. أحمد إيبش

الاستيطان الفرنجي

وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي

491 - 690 هـ/1098 - 1291م

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا

ص.ب: 13414

هاتف: 30 24 224 11 963+

فاكس: 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com

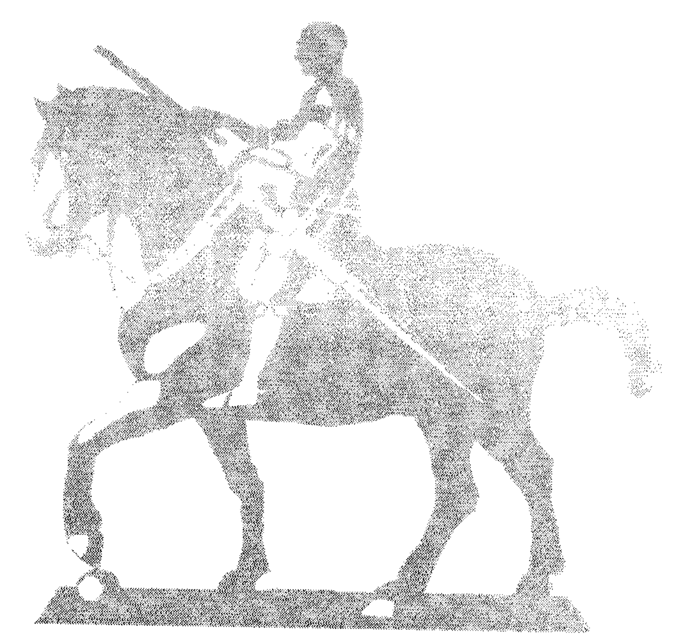
E-mail : dar@kotaiba.com

الدّكتورة

نعيمة عبد السّلام السّاحلي

الاستيطان الفرنجي

وتأثيرُه في البيئة السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للكيانات الصّليبيّة في فلسطين والسّاحل الشّامي



تقديم

د. أحمد إيبش



I . A
04130110

إهـــداء

إلى روح أمي الطاهرة النقية

التي علمتني وأخذت بيدي في طريق العلم والمعرفة،

وغرست في نفسي الإيمان والتمسك

بحبل الله المتين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وما توفيقي إلا بالله

تقديم

تعدُّ «الحروب الصليبية» واحدة من أطول الحروب العالمية وأقساها وأكثرها دمويَّة وشراسة، ولقد بدأت منذ أنْ أخفق المسلمون في هداية أوربا، حين عجزوا عن إكمال حركة الفتوحات في الغرب الأوربي بعد معركة بلاط الشهداء في بواتييه Poitier، ولم يتمكَّنوا في العهد الأموي من فتح القسطنطينية، فكان أن أُلْقِيَ بأسُهم بينهم، وتفرَّقوا، وبذلك نالت أوربا الغربية الفرصة بإعادة تأسيس الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدَّسة مع شارلمان، بالتحالف مع مؤسسة البابوية المتنامية قوَّة وفعالية.

وكذلك امتلكت الإمبراطورية البيزنطية الفرصة بحل مشاكلها السياسية والكنسية والعسكرية، لذلك عندما توفَّرت لها المقدرة شنَّت حملات صليبية القرن العاشر للميلاد، فانْتزعت كريت من المسلمين، واجتاحت شمالي بلاد الشام، ودخلت مدينة حلب أكثر من مرَّة، ووصلت حتَّى دمشق.

وفي الغرب، قامت إمبراطورية شارلمان بالتعاون مع البابوية بتطوير عقيدة الحرب المقدَّسة، وبذلك فرضت الكاثوليكية على شعوب الغرب مشروع الحرب والغزو العسكري، فأمست أوربا الغربية كلَّها كاثوليكية متهيِّئة من جميع الجوانب، ومستعدَّة للشروع بحرب مقدَّسة ضد الإسلام والمسلمين، وفي عام 1095م أعلن البابا أوربان الثاني قيام الحروب الصليبية الَّتي ما زالت ـ وبعد 900 سنة ـ قائمة حتَّى الآنَ.

وخلال قرنين، وبعد مذابح طويلة ودمار لا نظير له، تمكَّن المسلمون من إنهاء الوجود الصليبي على أرض الشام، ومن ثمَّ مشروع الاستيطان الغربي الذي استهدف تحويل أرض الشام والمنطقة الساحلية من مصر إلى وطن كاثوليكي ما وراء البحار.

وتمركزت بقايا القوى الصليبية في قبرص بعد العام 1291م، ونشطت البابوية والعقول الأوربية من جميع الاختصاصات في وضع دراسات حول دروس

الحروب التي دارت رحاها خلال القرنين الماضيين واستخلاص العبر، ووضع مخطَّطات جديدة لحملات صليبية جديدة، وكان هذا أحياناً بالتحالف مع المغول، لا سيَّما دولتهم الإيلخانية في تبريز.

وأخفقت المشاريع الصليبية ـ المغولية من كافَّة الجوانب بفضل الوحدة ما بين بلاد الشام ومصر، ومع هذا لم يتوقَّف الغرب عن متابعة التخطيط والسعي الحثيث في سبيل الهدف الصليبي، وتركَّزت الأهداف الأولى ضدَّ مصر لفصلها عن بلاد الشام.

وكان للحروب الصليبية من جانب آخر أعظم الآثار على أوربا الغربية نفسها، ومثل ذلك على أوربا الشرقية حيث كانت الحملة الصليبية الرابعة احتلَّت القسطنطينية، وأحلَّت فيها حكم إمبراطورية لاتينية كاثوليكية، وشهدت أوربا الغربية منذ أواخر القرن الثالث عشر أوضاعاً سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية جديدة حيث تراجع الحكم الإمبراطوري، وظهرت بوادر الدول القومية الأوربية، وتراجع نفوذ البابوات السياسي بعض الشيء، لكن بقيت قبضة الكنيسة الكاثوليكية محكمة من الجوانب الدينية، وذلك على الرغم من مشاريع كثيرة للإصلاح.

ومن المعلوم أنَّ فرنسا وحكَّامها قد تحمَّلوا أعباء الشطر الأكبر من الحملات الصليبية، حتَّى إنَّ كثيراً من المؤرخين يؤثرون إطلاق اسم «حروب الفرنجة» على الحروب الصليبية كلها، وفي فرنسا بُدِئَ بعد تحرير عكا في العام 1291م، وزاد ملوك فرنسا من سلطانهم، فبعدما كان الملك الفرنسي إقطاعيّاً كبيراً بين عدد من الإقطاعيين، صار يمتلك حكماً مركزياً كان له أبعد الآثار على الأنظمة الإقطاعية في فرنسا، ومنح ذلك الفرصة إلى الملوك الفرنسيين بمدِّ سلطانهم إلى المقاطعات التي كانت من قبل تحت حكم التاج الإنكليزي لا سيَّما في نورماندي وطولوز والجنوب الفرنسي.

وصارت فرنسا الآن «مملكة كاثوليكية مقدَّسة» فيها جامعات ومراكز للتعليم، وفيها صار للملوك نفقات بلاط عالية، وسلطات مطلقة، وكذلك كنيسة مستقلَّة إلى حد كبير إداريّاً وسياسيّاً.

وهناك من نتائج الحروب الصليبية أكثر من هذا بكثير، ما برحت تتفاعل حتّى الآن، والمهمّ أنَّ الفكر الغربي لم يُلغ أبداً المشاعر الصليبية في إزالة الأمّة العربية من الوجود ومعها الإسلام، بكل وسيلة من الوسائل.

لذلك لابُدَّ لنا على الدَّوام من إبقاءِ هذه الصورة حيَّة وحاضرة في الأذهان، وبين أيدينا اليوم دراسة قيِّمة وجديدة قامت بها السيِّدة الباحثة نعيمة عبد السلام الساحلي لنيل الإجازة الدقيقة (الدكتوراه) من قسم التاريخ، شعبة الحضارات المقارنة بجامعة الفاتح، بعنوان «الاستيطان الفرنجي، وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي 491 - 690هـ/ 1098 ـ 1291م».

درج المؤرخون المحدثون في تأريخهم للحروب الصليبية على اتِّخاذ اتجاهين: يتعلَّق الأوَّل منهما بالأحداث السياسية والحربية للحروب الصليبية، وأمَّا الثاني فينبع من ازدياد الاهتمام في الآونة الأخيرة بالمظاهر الحضارية، وتأثيراتها في الحملات الصليبية، وما ترتَّب عليها من قيام الإمارات اللاتينية وتنظيماتها، كما في كتاب الباحث البريطاني سميل مثلاً R.C.Smail, The Crusaders وكتب أخرى كثيرة تتمحور حول موضوع «الحياة الحضرية في سوريَّة الفرنجية».

فأوَّلاً: بخصوص أنظمة الحكم في مملكة القدس، نرى أنَّ نظام الحكم الملكي للفرنجة في القدس إنجازٌ خالصٌ للملك بودوان الأول Baudouin I^er (1100 - 1118م) الذي كان أوَّل ما فعله أَنْ قضى على محاولة البطريرك دمبير Daimbert لتطبيق الحكم الثيوقراطي (أي: تسلُّط اللاهوتيين)، وبدءاً من حكم بودوان الثاني (1118 ـ 1131م) استبدل نظام الانتخاب نهائيّاً بالنظام الوراثي في الحكم، دون تطبيق شريعة الإفرنج التي لا تبيح الملك للنساء.

لذا انتقل التاج عن طريق النسوة من أسرة ريتيل Rethel (1118 ـ 1131م) إلى أسرة d'Anjou (1131 ـ 1186م)، ثـمَّ إلى آل لوزينيان Lusignan (1186 - 1192م)، ثُمَّ إلى آل شامباني Champagne (1192 ـ 1197م) ثُمَّ إلى آل لوزينيان

ثانيةً (1197 ـ 1205م)، ثـمَّ إلى آل مـونفيرا Montherrat (1205 ـ 1212م)، ومـنهم آل بـريين Brienne (1210 ـ 1225م)، وأخـيراً إلى أسرة سـفابن المالكـة الألمانيـة Schwaben (1225 ـ 1268م)، ليعـود في النهايـة مـن جديـد إلى آل لوزنيان (1269 ـ 1291م).

ومع ذلك، وإنْ كان هذا النظام الملكي وراثّياً فإنَّ النظام الإقطاعي قـد سـبقه في ذلك؛ فكانت مملكة القدس دولة إقطاعيَّة تتمثَّل فيها السيادة أقل في الملك مما هي في هيئة النبلاء المتشكِّلة ضـمن «محكمـة المقطعـين Cour des Liges» أو «المحكمـة العليا Haute Cour».

وكان يترتَّب على الملك عند تنـصيبه أداء قـسم أمـام المحكمـة العليـا يلزمـه باحترام الامتيازات والحصانات الإقطاعية، ولم يكن في وسـعه تـشريع القـوانين أو منح الإقطاعات من تلقاء نفسه دون الحصول عـلى الموافقـة المـسبَّقة مـن المحكمـة العليا، وهذا ما تبرزه لنـا بكـل وضـوح المجموعـة المعروفـة بــ «دواويـن القـدس الاشتراعية Les Assises» وهي مجموعة القوانين وأنظمة الحكم الـصادرة في مملكـة القدس وقبرص اللاتينية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

وطالما توسَّد عرش المملكة شخصيَّات قويَّة، كما جـرى منـذ عـام 1100 إلى 1185م، فقد بقيت كلمة التاج نافذة بالرغم من أنظمـة «الـدواوين الاشـتراعية»، ولكن عقب كارثة 1187م (معركة حطين) أخذت سلطة الملك تضمحل بازديـاد، وبعد طرد أعوان الملك الإمبراطور فريدريك الثاني عام 1232م بـدا وكـأنَّ النظـام الملكي قد ألغيَ، وأضـحت «المحكمـة العليـا» التـي تزعَّمتهـا أسرة إيـبلان Ibelin (وهم أسياد بيروت وأرسوف ويافا) هي الحاكمة الحقيقية لمملكة القدس اللاتينية.

أمَّا سورية فلم تعد بعد ذلك سوى جمهورية إقطاعية، تتألَّف مـن اتحـاد عـدة أقطاعات، ومارست أسرة إيبلان فضلاً عن ذلك تأثيراً مفعولاً راجحاً عـلى جمعيَّـة رهبان سان أندريه St. André التي تولَّت تنظيم مدينـة عكـا عـام 1232م بـشكل مشترك، وطوال فترة حكم جان الأول ديبلان Jean 1er d'Ibelin الملقَّـب بــ «سـيِّد

بيروت العجوز Le Vieux sire de Beyrouth» الذي حكم هـذه المدينـة مـن عـام 1197 إلى عام 1236م، ثمَّ في فترة حكم ابنه باليان الثالث Balian III سيِّد بيروت من عام 1236 إلى عام 1247م أبقى هذا النظام غير المألوف عـلى قـدر كـاف مـن التماسك، ولكنه من بعد عام 1247م تردَّى في مهاوي التجزئة.

ولقد وصلتنا نظرية الحقوق والواجبات المتعلِّقـة بكـل مـن التـاج والأمـراء الإقطاعيين عـن طريـق «دواويـن القـدس الاشـتراعية» غـير أنَّ هـذه «الـدواوين والأعراف» قد تلاشت منذ كارثـة عـام 1187م، ولقـد اسـتعيض عنهـا في القـرن الثالث عشر بعدة مواثيق، أشهرها ميثاق فيليب دي نوفار، وهو ميثـاق في القـانون الإقطاعي كتب قبل عام 1253م، كما ظهر كتاب جان ديبلان (كونت يافـا) الـذي كتب نحو عام 1253م كنسخة مطوَّرة عن ميثاق نوفار، ومما يـذكر أيـضاً «كتـاب الملك»، و«كتاب مؤتمرات البورجوازيين» (1229 ـ 1244م).

تبيِّن لنا هـذه النـصوص أربـع محـاكم قـضائية وسياسـية: «المحكمـة العليـا La Haute Cour»، وهي محكمة النبلاء المذكورة آنفاً التـي تـضطلع بـشتَّى القـضايا المتعلقة بشؤون النبلاء، و«محكمـة البورجـوازيين La Cour des Bourgeois» التـي تتألَّف من 12 محلفاً أو وجيهاً، وتحكم ما بين الناس الأحرار ذوي الأصول العاميَّة، و«محكمة الرئيس La Cour de Rais» المؤلَّفة من محلّفين من أبناء الـبلاد الأصـليين، والمختصة بالفصل في نزاعات أهالي البلاد، وأخيرا «المحكمة الإكليركية (الكنـسية) La Cour ecclésiastique» نشير كذلك إلى وجود دار قضائية تجاريـة هـي «محكمـة التفـويض La Cour de la fonde»، ودار قـضاء بحريـة هـي «محكمـة السلـسلة La Cour de la chaîne».

وحول نظام الدفاع في سورية كان جيش مملكـة القـدس يتـألَّف مـن الجنـود الإقطاعيين غير النظاميين، كما كان الحال في فرنـسا آنـذاك، وكـان يتـضمَّن كـذلك فرساناً ومرتزقة الذين كانوا ينتقون بالأخص من السوريين، وكذلك الخيَّالة الخفيفة المؤلفة من مسيحيِّي البلاد المسمَّاة «الترُّكبلية Les Turcoples».

وقد عُزِّز النظام الدفاعي للدول الفرنجية بسلسلة متماسكة من القلاع الموزَّعة في المناطق الأكثر تهديداً بالخطر، نذكر منها مثلاً في مملكة القدس: إسكندرونة Scandélion، وعثليث Château – Pèlerin وشقيف أرنون Beaufort، وتبنين Le Toron، وهونين Châteauneuf، وصفد Saphet، وقلعة القرين Montfort، وفي شرقي الأردن قلعة الكرك Le Crac de Moab.

أمَّا في كونتيَّة طربلس: فهناك حصن الأكراد Le Crac des Chevaliers، وصافيتا Chastel- Blanc، وفي إمارة إنطاكية/ حصن المرقب Margat، وقلعة صهيون Le Château de Saone.

وتنقسم العمارة العسكرية لهذه القلاع إلى أسلوبين اثنين:

الطراز الأول: اتَّخذه فرسان المشفى (الإسبتاريَّة Les Hospitaliers) ويتألَّف من قلاع مشيَّدة بشكل ناتئ على هضاب شديدة الانحدار، ولها سور مزدوج محصَّن بأبراج مستديرة، وهذا الطراز يشابه حصون السين La Seine، واللوار La Loire في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ومن أمثلته: قلعة المرقب، وحصن الأكراد.

الطراز الآخر: اتَّخذه فرسان الهيكل (الدَّاويَّة Les Templiers) وهو مستوحى من الحصون البيزنطية أو العربية، ويتميَّز بأسوار (بدنات) محصَّنة بأبراج مضلعة، وهذه الأسوار تتقدَّمها خنادق عميقة، ومن أمثلة هذا الطراز: عثليث، وصافيتا.

كان الدفاع عن الأرض المقدسة الغاية التي كرَّست من أجلها منظمات الفرسان المترهبنين كلَّ طاقاتها، وقد قامت هذه المنظمات بدور كبير الأهميَّة في حياة الشرق اللاتيني، من إسبتارية وداويَّة وفرسان توتونيين.

فأمَّا منظَّمة مشفى القديس يوحنا St. Jean الأورشليمي، وهي منظَّمة خيرية تعود إلى عام 1070م، فقد تمَّت إعادة تشكيلها بدءاً من الحملة الصليبية الأولى على يد المعلم جيرار الطوباوي Gérard le bienheurux (حوالي 1100 ـ 1120م) ثمَّ قام خلفه ريمون دي بوي Raymond de Puy بتحويلها إلى منظَّمة عسكريَّة.

أمَّا منظَّمة الهيكل التي كانت عسكريَّة منذ بداءتها الأولى، فقد تأسست عام 1118م على يدي الفارس الشامباني أوغ دي بايان Hugues de Payens، وكان فرسان الاسبتارية يتَّشحون بمعاطف سود في أيَّام السلم، وحمر في أيَّام الحرب، وعليها صلبان بيضاء؛ وأمَّا الدَّاويَّة فيلبسون معاطف بيضاً ذوات صلبان حمراء.

أمَّا منظمة الفرسان التوتونيين فقد تأسَّست عام 1143م، وأعيد تنظيمها عام 1198م، ودخلت هذه المنظمات الثلاث في سلك الفروسية Chevalerie، وكان على رأس كل منها معلِّم أكبر ينتخبه مجلس الرهبان.

واتَّخذت هذه المنظمات العسكرية شكل جيش دائم في الشرق اللاتيني، وعهد الحكام إليها بأخطر المناصب وأهمها، وتبعاً لذلك، تسلَّم الإسبتاريَّة زمام حصن الأكراد عام 1142م، والمرقب، وتسلَّم الدَّاويَّة حصن عثليث عام 1218م، وصفد بعد عام 1240م، وصافيتا.

ومن جرَّاء تفوُّق القدرات القتالية العالية والشجاعة المتهوِّرة لهذه المنظمات الثلاث، نعمت الدويلات الصليبية في الشام بفوائد كبيرة إلاَّ أنَّ عنفوانهم الزائد، وتعطشهم للإثراء (وكانوا يقيمون المصارف، الدَّاويَّة بشكل أساسي)، وكذلك عدم انصياعهم لأحد، مراراً ما عاد بالوبال على الدول الفرنجية، وفوق ذلك لم يكن التنافس التقليدي الدائم والاشتجار بين الدَّاويَّة والإسبتاريَّة بأقل ضرراً وإشاعة للقلاقل.

وعلى الرغم من أنَّ ملك القدس كان مراراً ما يقوم بدور الوصيِّ على الأقليَّات الفرنجية الأخرى، بقيت إمارة أنطاكية على الدوام في حالة استقلال تام عن المملكة، وكان لهذه الإمارة مجالسها المنفردة، ولها بلاط بارونات، وبلاط بورجوازيين.

ولَّما كانت إمارة أنطاكية قد تأسَّست على أيدي أسرة حاكمة نورمانديَّة فقد احتفظت بالطابع النورماندي في مؤسَّسات حكمها، وعلى عكس ما كان سائداً في الدول الفرنجية الأخرى في المشرق، بل بشكل يقارب الملوك النورمانديين في

إنكلترة وإيطالية الجنوبية، تجنَّب أمراء أنطاكية التنازل عن مساحات شاسعة من أملاكهم لصالح المقطعين الكبار، الأمر الذي أبقى لهم الاحتفاظ بمركزيَّة نسبية أكبر بكثير مما لدى ملوك القدس أو كونتية طرابلس.

وثمَّة كلمة نضيفها ـ هنا ـ حول الاستيطان الفرنجي والسكَّان المحليِّين: لم تكن بلاد الشام على وجه الإطلاق في نظر الفرنجة مستوطنة للإعمار، فبقيت الهجرة الفرنجية مقتصرة على الطبقات الإقطاعيَّة، أي على طبقة الفرسان والطبقة البورجوازية المدنية، وأمَّا سكان الأرياف فما برحوا يتألَّفون من الأهالي السوريين المسيحيين أو المسلمين.

وإن كانت الدويلات الفرنجية كناية عن مستعمرة طبقات؛ فالأمر يتبدَّى بالطبقات التي رسخت بشكل نهائي، وتكيَّفت مع الأوساط السائدة دون أن تكون راغبة في العودة، يروي المؤرخ فوشيه دي شارتر Foucher de Chartres ام 1152م عند كلامه على الفرسان ورجال الإكليروس والبورجوازيين المقيمين في الأرض المقدسة «إنَّ الرجل الذي كان إيطاليّاً أو فرنسيّاً بالأمس أضحى اليوم جليليّاً أو فلسطينيّاً، وتحوَّل ابن رانس Reims أو شارتر Chartres إلى مواطن سوري أو أنطاكي، إنَّنا اليوم قد نسينا مواطننا الأصلية، فلماذا نعود إلى الغرب طالما أنَّ الشرق يفي باحتياجاتنا؟».

ومع ذلك كان هناك العديد من مولَّدي الزواج بين رجال الفرنجة والنساء السوريَّات، وقد كان يلقَّب هؤلاء بـ «الأمهار Les poulains» ثمَّ أصبح هذا المصطلح شاملاً لكل الفرنجة المولَّدين (Créoles).

كان المسيحيُّون السوريُّون يتبعون ثلاث كنائس: اليعقوبية (العقيدة الوحدانية، على المذهب السرياني)، والنسطوريَّة (عقيدة حلول شخصين في المسيح، على المذهب السرياني) وكنيسة الروم الأرثوذكس وكان اليعاقبة هم الغالبين في مملكة القدس وكونتية طرابلس، وكذلك في بضع مقاطعات حول أنطاكية، وقد ترك لنا اثنان من أحبار هؤلاء اليعاقبة مؤلفات تاريخية هامَّة، هما ميخائيل السرياني

(بطريرك من سنة 1166 إلى 1199م)، وأبو الفرج ابن العبري (بارهبراوس Bar Gebraeus 1226 ـ 1286م).

كذلك أيضاً كانت هناك موجوديَّة لموارنة جبل لبنان الذين التحقوا في عام 1181م بالكنيسة الرومانية، وكان للسوريين من مذهب الروم الأغلبية في المدن، حتَّى أنطاكية نفسها، كان هؤلاء السوريُّون المسيحيُّون يعاملون على قدم المساواة الحقوقيَّة مع الطبقة البورجوازية الفرنجية، وكانوا محكومين حسب أعرافهم هم من قبل حاكمهم الخاص الذي يسمَّى «الرئيس Le raïs» .

وكان الأرمن بوجه الخصوص كثيري العدد في كونتيَّة الرُّها حيث ـ كما رأينا ـ شاركوا بشكل محدود في أمور السلطة الفرنجية، وحيث كان البارونات والفرسان الفرنجة يتزوجون في الغالب من نساء أرمنيات، ومن جهة أخرى كان الزواج بالأرمنيات عُرفاً متَّبعاً لدى كل السلالات الحاكمة الفرنجية، ففي القدس مثلاً سرعان ما أضحت سلالة بودوان أسرة فرنجية ـ أرمينية.

أمَّا فيما يتعلق بالمسلمين، فقد بقوا بطبيعة الحال منفردين بأنفسهم، ومع ذلك فبالرغم من الهوَّة الدينيَّة العميقة، وحالة الحرب شبه الدائمة بين الطرفين انطوت مرحلة الحروب الصليبية على حد أدنى من التسامح المتبادل، ونرى في كتاب «الاعتبار» للأمير أسامة بن منقذ كيف نشأ بين البارونات الفرنجة والأمراء المسلمين نوع من الصلات تتسم بروح الفروسيَّة والشهامة العالية.

وكذلك يروي الرحَّالة العربي ابن جبير عام 1183م أنَّ القرويين المسلمين كانوا يعيشون في حالة من الرِّضا والسَّعة تحت الحكم الفرنجي، وربَّما كان يصل هذا التَّسامح إلى حدٍّ اقتسام بعض المباني المشيَّدة بين الديانتين، فترى نصفه الواحد كنيسة ونصفه الآخر مسجداً.

أمَّا بخصوص تجارة المشرق فلم يكن الفرنجة بقادرين على بسط سيطرتهم على الموانئ السورية الفلسطينية إلاَّ بمعونة الجمهوريَّات الساحلية الإيطاليَّة؛ فقد ساعد الجنويُّون في انتزاع عكا من المسلمين عام 1104م، وكذلك جبيل (1104م)

وطرابلس (1109م)، وأسهم الجنويُّون والبيزيُّون في الاستيلاء على بيروت (1110م)، أمَّا البنادقة ففي الاستيلاء على صيدا (1110م)، وصور (1124م).

وكمكافأة لهم على ذلك، حصل هؤلاء في المدن المذكورة على امتيازات تجارية كبيرة، وفيما بعد أضحى لكل واحدة من هؤلاء الجمهوريَّات الساحلية في جميع المرافئ الكبرى حيُّها التجاري الخاص، مع فندق Fondaco (أي: عنبر للبضائع مع دكاكين للبيع) كما تمتَّعت بسلطة قضائية قنصليَّة وحصانات إداريَّة وضرائبية، مما أدَّى إلى جعل هذه الأحياء بلديَّات حقيقية ذات حكم ذاتي وكان الحي على هذا الشكل مُدَاراً بيد قائم بالأعمال قادم من الوطن الأم، يحمل لقب فيكونت Vicomte (نائب الكونت)، أو لقب بايل Baïle أو قنصل وحملت المستوطنات الإيطاليَّة معها إلى سورية جميع المماحكات المعهودة المستعرة ما بين البيزيين والجنويين من جهة، وما بين الجنويين والبنادقة من جهة أخرى.

قامت هذه المنافسات على أسس تجاريَّة، وكانت موانئ بلاد الشام قد نالت لدى نجاح الحملة الصليبية الأولى أهميَّة اقتصاديَّة بالغة، ومن هذه الموانئ باتت أوربا تتزوَّد بالمنتجات الآسيوية، وفي البداءة اقتصر الأمر على المنتجات المحليَّة: ففي الساحل اللبناني والصوري زراعة قصب السكَّر، وأمَّا صور وطرابلس وأنطاكية فكانت تصنع الحرير المقصَّب (البروكار) والأقمشة الحريرية المشهورة المعروفة باسم الديباج Cendals، والبروكار سبع ملوك Samits.

وأمَّا المرافئ السورية، بوجه خاص، فقد أضحت الأسواق التي زخرت بكل المنتجات المستوردة: الأنسجة القطنية، والموصلين من بلاد الرافدين (العراق) أو إيران، والسجَّاد من آسيا الوسطى، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند، والحرائر من الشرق الأقصى، وشتَّى البضائع القادمة عن طريق تبريز أو البصرة أو عدن، والواصلة إلى طرابلس أو صور أو عكَّا.

أخيراً، حول الفنون والآداب في دول الفرنجة في الشام، يلاحظ الدارس أنَّ فنَّ العمارة الرُّومانيَّة في بلاد الشام في القرن الثاني عشر، يرتبط إلى حدٍّ كبير منه

بعمارة المدارس في جنوبي فرنسا (أي: منطقة الميدي Le midi) وذلك وفق الطراز اللانغدوقي والبروفنسالي بالإضافة غالباً إلى مؤثِّرات بورغينيَّة، أمَّا فيما يتعلَّق بكنيسة القبر المقدَّس فهي تمثِّل طابعاً مركَّباً؛ ذلك لأنَّ الصرح البيزنطي القديم قد تمَّ تحويله إلى كنيسة رومانية «وفق ترتيب ريناني، إنَّما بطراز فرنسي»، وتمَّ تدشين البازيليكا الجديدة في عام 1149م، ويذكِّرنا مدخل الواجهة الجنوبية نوعاً ما بنمط المدارس الشائع في بواتو Poitou.

ظهر الطراز القوطي بعد سقوط القدس (1187م) في فترة عكا، فكنيسة السيِّدة في طرطوس مثلاً هي كنيسة رومانية من القرن الثاني عشر، ولكن تيجان الأعمدة وأقفال الأقباء فيها والتي تعود إلى الترميم الجاري في القرن الثالث عشر فهي قوطيّة، وفيها بعض التفاصيل التي تذكِّرنا بعمارة رانس Reims.

أمَّا الأدب الفرنجي السوري فقد وصلنا خاصَّة من مؤرخي الحوادث، ومن بين المؤرخين المقيمين في سوريّة والذين كانوا يكتبون باللاتينية نذكر فوشيه دي شارتر Foucher de Chartres الذي ترك لنا تاريخاً حيّاً هامّاً للأحداث الواقعة بين عامي 1100 و1127م، وغوتييه دي شانسُلييه Gautier de Chancelier الذي روى لنا مآثر روجيه Roger أمير أنطاكية وموته (1115 ـ 1122م).

وأخيراً نذكر غيوم (وليس وليم كما يقال) الصوري Guillaume de Tyr العالم الحجَّة في اللغة اللاتينية، والمستشرق البارع، والسياسي المحنَّك الذي ترك لنا تاريخاً هو غاية في التقصِّي، ويتسم بطابع علمي حول بلاد الشام تحت الاحتلال الفرنجي منذ الحملة الصليبية الأولى حتى عام 1183م.

ومن بين المؤرخين الذين كتبوا نصوصهم باللغة الفرنسيةن نذكر المذيِّلين على تاريخ غيوم الصوري (أي: التاريخ الحولي المنسوب لإرنو Ernoul، ولبرنار الخازن Bernard le Trésorier الذي يتضمَّن تاريخ سورية الفرنجية حتى عام 1231م) وبشكل خاص نذكر فيليب دي نوفار Philippe de Novare الذي ترك لنا سرداً

مفعماً بالحميَّة عن الحروب القائمة بين الإمبراطوريِّين وبين محاربي آل إيبلان Ibelin خلال الأعوام 1228 ـ 1243م.

ومن بيْنِ القضائد المؤلَّفة عن الحملة الأولى، يتساءل المرء إن كانت «أنشودة أنطاكية La Chanson d'Antioche» قد وضعت في سورية نفسها أم بنواحي منطقة الموز Meuse؟ وأمَّا الأنشودة المعروفة باسم «أنشودة الأعجاف La chansom des Chétifs» التي يرتبط موضوعها كذلك بحصار أنطاكية في عام 1098م فقد أُلِّفت قطعاً في سوريَّة، حوالي عام 1140م، وأخيراً، فهناك مقاطع شعريَّة جميلة لدى المؤرخ فيليب دي نوفار.

كتب رنيه غروسيه: إنَّ المجتمع الفرنجي الذي وصفه لنا هؤلاء المؤرخون والشعراء يبدو لنا في القرن الثالث عشر مزدهراً ومتحضِّراً لأبعد حدٍّ، ويتجسَّد مثال الفروسية بهذا المجتمع في شخصيَّة جان ديبلان Jean d'Ibelin «سيِّد بيروت العجوز» المتوفَّى في سنة 1236م وبالشرف والحق وبحكْمتِهِ الفطرية الرفيعة، وعندما يقتضي الأمر سخريته المرهفة التي تلقى استحسان الفرنسيين، من بين هذه النخبة المتأدِّبة التي تغنَّى بها لديه فيليب دي نوفار، يمثِّل «سيِّد بيروت العجوز» طراز الفارس الكامل، كذلك الطراز الذي تمثَّلته فرنسا في شخصيَّة القديس لويس حسب مفاهيمها.

بموجب ما تقدَّم شهدت بلاد الشام خلال المئة والثلاثة وتسعين عاماً التي امتدَّت فيها (1098 ـ 1291م) مدنيَّة لاتينية ذات صبغة فرنسية بوجه أخصّ، لقد أدَّى تقدمُّ أنظمة الحكم والفنون والآداب إلى إقامة حياة نشطة تخصُّنا مظاهرها بشكل مضاعف، سواء كجزء متمِّم للعالم الغربي القروسطي أو كحياة مقتبسة في الوسط الشرقي.

بموجب ما تقدَّم شهدت بلاد الشام خلال المئة والثلاثة وتسعين عاماً التي امتدَّت فيها (1098 ـ 1291م) مدنيَّة لاتينية ذات صبغة فرنسية بوجه أخصّ، لقد أدَّى تقدُّم أنظمة الحكم والفنون والآداب إلى إقامة حياة نشطة تخصُّنا مظاهرها

بشكل مضاعف، سواء كجزء متمِّم للعالم الغربي القروسطي أو كحياة مقتبسة في الوسط الشرقي.

لقد كانت بلاد الشام في الواقع «مستوطنة» نمت فيها دولة ذات طابع خاص بالرغم من السيل غير المنقطع للوافدين الجدد من الصليبيين ومن الحجَّاج، هي دولة ذات طابع «كريولي» هجين، والتنافر الذي ظهر واضحاً بدءاً من الحملة الصليبية الثانية بين الصليبيين و«الأمهار» يؤكِّد هذه المفارقة السريعة، لقد توقَّف نمو هذه الدولة على الفور بهزيمة عام 1291م، ولكننا نرى في تاريخ مملكة آل لوزينيان في جزيرة قبرص ـ في بعض النواحي ـ حتَّى أواخر القرن الخامس عشر التَّتمَّة النهائيَّة لهذا النمو.

في رسالتها حول «الاستيطان الفرنجي، وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي 491 ـ 690هـ/ 1098 ـ 1291م» تقدِّم الباحثة السيِّدة نعمية عبد السلام الساحلي بُعداً جديداً، وبارعاً، مُحكماً في الإسهامات العربية بكتابة تاريخ هذه الحروب الصليبية، ضمن محور التاريخ الحضري لهذه الحروب.

لقد تمكَّنت الباحثة الدكتورة نعيمة من كسر طوق الجمود الذي خيَّم طويلاً جدَّاً حول فقر الدراسات العربية لدينا بمعالجة هذا المحور الهام والشائق من تاريخ الحروب الصليبية، لا، بل ونرى أنَّها بدراستها الرَّائدة هذه قد فتحت الباب مُشرعاً أمام نوع جديد من الأبحاث العلمية الجامعيَّة، يمتاز بالمستوى والمضمون، وينبغي ألاَّ يقلَّ أبداً عن مثل هذا المعدَّل الفكري والاحترافي الرَّفيع الذي قدَّمته اليوم، لقد كانت قراءة هذه الرسالة متعة فكريَّة ما بعدها متعة، جعلتنا نشعر بالفخر أنَّنا اليوم بتنا نمتلك باحثين كباراً من أمثالها.

وطالما أنَّ الرسالة عالجت مضمار الحركة الصليبية بأكملها، طوال قرنين من الزمان (1098 ـ 1291م) فهذا يفترض جهداً خاصَّاً لتغطيته، والعمل في هذا الإطار الواسع يحتاج إلى مصادر كثيرة جدَّاً، وإلى مقدِّمات طويلة، تتعلَّق بتاريخ

أوربا في العصور الوسطى، وبالفعل جمعت السيِّدة نعيمة الساحلي مادَّة مصدريَّة كبيرة جدّاً، وشاملة لأبعد حدٍّ، وفيها توسُّعٌ ممتاز بالمصادر الأجنبية التي لابُدَّ منها على اعتبار أنَّنا نتعامل مع تاريخ غزو أجنبي، علينا أن نفهمه من خلال نصوص مؤرخيه ومؤرخينا معاً.

ولقد بلغ حجم الرسالة 624 صفحة، سُبِكت أبوابها وفصولها بإحكام تام، وتسلسل أنيق، وبارع، وبرغم سعة الموضوع وتشعُباته، وهذا يدُلُّ على مقدرة انتقائيَّة وإجادة لفن الكتابة التاريخية والتحرير العلمي، بجميع أدواته التوثيقية والتحليلية والاستنتاجية، لقد كان عملاً رائداً وموفّقاً بجميع المقاييس، وهو أشبه ما يكون بموسوعة مفيدة وغنيَّة بالمعلومات، لقد قرأنا رسالتها الجامعيَّة السابقة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ من جامعة الفاتح أيضاً، بعنوان «التوجُّهات السياسيَّة للدولة الأيُّوبيَّة الداخليَّة والخارجيَّة، من سنة 589 ـ 615هـ/ 1193 ـ 1218م» وكتبنا رأينا فيها، ولكننا اليوم نقول: إنَّ الباحثة الكريمة قد ارتقت برسالتها الجديدة إلى مصاف أعلى، وتمكَّنت من تحقيق نجاح أكبر.

أكثر ما أعجبنا في أسلوبها العلمي: الدقَّة والموضوعيَّة، وتطرُّقها إلى حوارات علميَّة ثمينة، كنقاشها لتصنيف اللغات السَّاميَّة (ص 182 ـ 183)، ثمَّ تطرُّقها الواسع للبنيان الديموغرافي السائد في بلاد الشام، عشيَّة قيام الحروب الصليبية، وفي أثنائها.

وتندرج فصول الدراسة حول المحاور الآتية: أحوال بلاد الشام وتقسيماته السياسية وأحوال دولِهِ وعلاقاتها وشؤونها العسكريَّة، بما في ذلك قيام دولة سلاجقة الروم الكبرى في الأناضول والشام، وعلاقاتها بالدولة الفاطميِّة ـ بحث جذور قيام الحكرة الصليبية ودوافعها ومبادئها، والعلاقات الفكرية والديماغوجية التي حكمت نظرة الصليبيين نحو الشعوب القاطنة في المشرق، على اختلاف أعراقها وإثنيَّاتها وأديانها.

ثُمَّ تناولتْ الباحثة بحث آليَّاتِ تحوُّل الحركة الصليبية من حيِّز الفكر إلى التطبيق على أرض الواقع، وشرعت في تقديم مسألة الاستيطان الفرنجي في المشرق بشكل عام

ـ لكنَّها عادت في الفصل التالي للتوسُّع في بحث هذه المسألة المحوريَّة بالذات؛ فعالجت أسس التنظيم المدني والحربي الاستيطاني في مملكة القدس الفرنجية، وكونتيَّة طرابلس الفرنجية مع بحث لمكانة مملكة القدس بين الدول الصليبية الأربع في بلاد الشام: إمارة أنطاكيةن كونتية الرُّها، مملكة القدس، كونتيَّة طرابلس.

أيضاً عقدت فصلاً كاملاً لمعالجة شؤون الاستيطان في إمارة أنطاكية ـ وبعده عالجت محاور تأثير الاستيطان في البنية السياسية للدويلات الصليبية؛ فقدَّمت معطيات جديدة باهرة حول أسس الحكم السياسي في هذه الدويلات، وأنظمتها القضائية، ومحاكمها المختلفة كمدنيّة وتجارية، وشؤون العمارة العسكرية للحصون والقلاع، مع بحث هام حول أسباب انهيار الاستيطان الصليبي في الشرق الإسلامي، بعد ذلك عالجت تأثير الاستيطان في البنية الاقتصاديَّة لهذه الدويلات، وفي بنيتها الاجتماعية، وختمت بحثها بمجموعة قيِّمة من الملاحق الوثائقية والصور، والخرائط، والفهارس التفصيلية التامة.

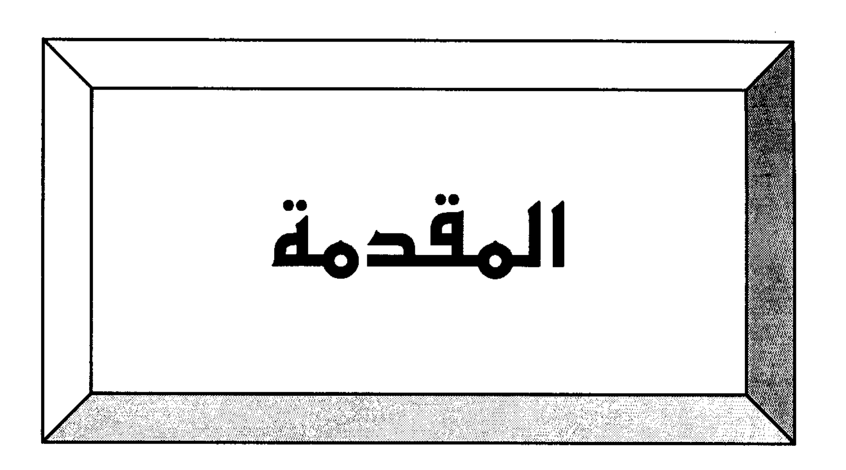
قصارى القول: هذه الدراسة العلمية الموسَّعة والعميقة بطروحها وتحليلها الرَّفيع ومعالجتها العلمية الدقيقة والموضوعيَّة، واستنادها إلى آليَّات نقاش واستنتاج وتلخيص واستنطاق منهجي للأحداث والعوامل الموضوعيَّة المتشعِّبة، جديرة بأنَّ تُعَدَّ مثالاً يحتذى في فنِّ كتابة الأبحاث العملية الجامعية ضمن مجال التاريخ الحضاري.

نقدِّم إلى السيِّدة نعيمة تهنئتنا الصادقة، ونتمنَّى لها مزيد النجاح والتقدُّم، وننتظر بفارغ الصبر إعادة قراءة رسالتيها القيمتين بشكلهما المنشور النهائي؛ لكي تعمَّ الفائدة منهما على جميع الباحثين والمهتمِّين.

لابُدَّ، ونعيد عليها الطلب، وبكُلِّ إلحاح على المتابعة قُدُماً في أبحاثها الرَّائدة الثمينة.

دمشق الشام 7/ نوفمبر/ 2007م

د. أحمد إيبش



المقدمة

المقدمة

تكاد تجمع الدراسات الحديثة التي تناولت تاريخ الحروب الصليبية بالدراسة، والتحليل، والنقد على أنَّ نجاح الحملة الصليبية الأولى لم يكن راجعاً كلّه إلى بطولة خارقة تحلّى بها حملة الصليب، ولا إلى دافع ديني قوي يجعَل المقاتل منهم يستميت في سبيله، ولا إلى وفرة في العدد تفوق قدرة السكّان المحليين على التصدِّي له، ومقاومته، وإنْ كان بعض هذه الأسباب صحيحاً فإنَّ هذا النجاح بالدرجة الأولى يرجع إلى سببين رئيسين:

الأول: تفرُّق كلمة المسلمين، واختلاف أهوائهم.

والآخر: عدم فهمهم لحقيقة الصليبيين، وأهدافهم التوسعية.

وقد اختلفت رؤية المؤرخين العرب، وتضاربت آراؤهم في نقطة البدْء في الدراسة، وكان سؤالهم: من أين نبدأ؟

* فريق منهم يرى أنْ نبدأ بدراسة الأحوال في أوربا، باعتبارها المصدر الذي أتى منه الغزو؛ فالغرب هو المدخل الطبيعي للموضوع؛ ومن هذا المنطلق بدأ حسن حبشي دراسته عن الحرب الصليبية الأولى، فتناول مسألة الحج المسيحي منذ نشأته إلى أنْ أصبح غزواً مسلحاً، وفصَّل القول عن أحوال أوربا في القرن 5هـ/ 11م وهو عصر التوسع النورماندي الَّذي زحف من الشمال الغربي لأوربا إلى الجنوب، والجنوب الشرقي فأكثروا التنقل، في البر والبحر، وأشعلوا نار الحرب، وأصبحوا مصدر إزعاج للبابوية التي فكَّرت في توجيههم إلى الشرق[1].

* وفريق منهم يرى أنْ نبدأ بدراسة الأحوال في بلاد الشام وأرض الجزيرة، ويعبِّر سهيل زكار عن وجهة نظر هذا الفريق بقوله: «طالما أنَّ مسرح الحروب

---

(1) انظر: حبشي، حسن: الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م، ص 22 وما بعدها.

الصليبية كان في بلاد الشام والجزيرة فلننظر بإمعان إلى حال هذين البلدين قبيل مجيء الصليبيين»[1].

وهذا الخلاف خلاف شكليّ ليس بذي خطر؛ فالفريقان متفِّقان على ضرورة أنْ تتناول الدراسة كلاً من: أحوال أوربا وبلاد الشام، فالذين يَبْـدَءون[2] بدراسة أحوال أوربا في الفصل الأول، ينتقلون إلى دراسة أحوال الشام والجزيرة في الفصل الذي يليه، والفريق الذي يبدأ بدراسة الأحوال في بلاد الشام والجزيرة، يعرِّج على دراسة الأحوال في أوربا بعد ذلك، وهذا أمر لا بد منه، لكي تتضح صورة تلك الحرب التي شنتَّها تلك العصابات الصليبية على أرضنا العربية.

فالخلاف إذن على نقطة البدْء ليس بذي بال، والمهم في هذا الأمر هو أنَّ الفريقين ظَلاَّ واقعين في أسر الدراسات الأوربية، وقيودها، ولم يستطيعا الفكاك عنها، أو التخلُّص منها، وإنِ ادَّعيا ادِّعاء عريضاً بغير ذلك؛ والدليل على ما تقول الباحثة:

* أنَّهما يُسَمِّيَانها مرَّة «الحرب الدينية»، ومرّة أخرى «الحرب المسيحية»، ومرَّة ثالثة «الحرب الصليبية».

وكل هذه الأسماء هي من وجهة النظر الغربية؛ فإنَّ البابوية استغلّت هذه الأسماء «في أغراض، ونواح شتَّى، متباينة، إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يدل على أنَّها اتّخذتها سيفاً مسلّطاً ضد معارضيها من حكام وأباطرة، وهراطقة، وأنَّها تسترّت وراءها تحقيقاً لأغراض ليست من الدين في شيء»[3].

(1) انظر: زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة دار الفكر، دمشق، 1981م، ص 8.

(2) القاعدة التي استقر عليها العلماء في كتابة الهمزة المضمومة، وبعدها مدٌّ مصوَّر بصورتها:

أ ـ إنْ كان ما قبلها يتصل بها بعدها رسمت على نبرة مثل: مسئول، شئون، فئوس...

ب ـ إنْ كان ما قبلها لا يتصل بها بعدها كتبت مفردة مثل: رؤوف، يقرءون، رءوس...

انظر: عنبر، محمد عبد اللطيف، وعيسى، محمود حزين: المختار في قواعد الإملاء وعلامات الترقيم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1969م.

(3) انظر: يوسف، جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 50.

* إنّهما يصوِّرانها حرباً ضد الإسلام والمسلمين؛ وهذا تصوُّر مضلِّل، وغير صحيح؛ فإنَّ الغزاة الأوربيين:

- قتلوا اليهود، ودمَّروا معابدهم.
- وقتلوا المسيحيّين، وشَوَوْا أطفالهم، وأكلوا لحومهم، ونهبوا كنائسهم، وشرَّدوا قُسُسَهم ورهبانهم.
- وتعرَّض جميع الأتقياء إلى أذاهم بدون تفريق بين رسالة سماوية، وأخرى، يتساوى في ذلك اليهود، والمسيحيون، والمسلمون.

وقد حان الوقت لأنْ تسمَّى الأشياء بأسمائها، وأنْ توضع الأمور في نصابها؛ فلم تكن تلك الحرب الأوربيَّة إلاَّ حرباً استعمارية استيطانية، هدفها الأرض، وغرضها المال، ولا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد وكثير من الغربيين أنفسهم رأوا فيها امتداداً طبيعياً لحروب التوسُّع الإقطاعي الأوربي، وإنْ اتصفت بصفات النظام، ومباركة البابوية[1].

ومن هذا المنطلق كان اختيار الباحثة لهذا الموضوع «الاستيطان الفرنجي وتأثيره في البيئة السياسية[2]، والاقتصادية، والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين

---

(1) انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1975م، جـ1/ ص40، وانظر: يوسف، جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 50، وانظر:
Halphen L.: L'Essor de l'Europe (XIe-XIIIe siècle), hachette, Paris, 1941. p 46-63.
عن الإقطاع الأوربي، وحروب توسعه، ونظامه، والفرق بينه وبين الاستيطان انظر: في الفصل الثاني من هذه الدراسة ص 128 ـ 151.

(2) البيئة: هي عند العلماء قسمان:

البيئة الطبيعية: وهي من صنع الله ﷻ وتشمل كلَّ ما يقع على السطح الجغرافي، ويُكوِّن المنظر الطبيعي من جبال وأودية وسهول وأنهار وبحار وصحراء... وما على السطح من نبات وحيوان وإنسان، كما تشمل الجو المحيط بها من الكون الكبير بنجومه وأبراجه الفلكية ودرجة حرارته، والرطوبة النسبية والرياح والأمطار وغيرها من العوامل التي أثَّرت في حياة الإنسان منذ القدم فجعلته يراعيها في عمارته وبناء دور عبادته، كما أثّرت في سلوكه وأخلاقه وأنشطته البشرية كالصناعة ووسائل النقل وتخطيط المدن... =

والساحل الشامي في الفترة 491 ــ 690 هـ/ 1098 ـ 1291م»، وقد قصدت الباحثة ـ من خلال الدراسة ـ استجلاء الغموض الذي يكتنف هذه الفترة التاريخية، محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

* ما الأسباب التي مكَّنت الصليبيين من السيطرة على الشام وفلسطين، ومن هزيمة الأمراء السلاجقة على كثرتهم، كما مكَّنتهم من التغلُّب على جيش واحدة من أكبر الدول في ذلك الوقت، وهي الدولة الفاطميَّة؟
* ما حقيقة هؤلاء الذين حملوا الصليب متوجهين إلى الأراضي المقدسة؟ وما سلوك فرسانهم في السلم والحرب؟ وما أخلاقهم؟
* ما سبب الحقد المدمِّر الذي يملأ نفوس الأوربيين على الإسلام والمسلمين؛ فَلَمْ يكفهم تشويه مبادىء دينهم القويم بل أكلوا لحومهم، واستحَلُّوا أموالهم وأرضهم، واعتدوا على أعراضهم؟
* ما سر الاستجابة الجماهيرية الكبيرة التي قوبلت بها دعوة البابا أوربان الثاني (Urbain II) في مؤتمر كليرمونت؟
* ما طبيعة الاستيطان الفرنجي؟ وما نظمه؟
* كيف طبَّق الفرنجة نظام الاستيطان في الإمارات الصليبية التي أقاموها في القدس، وطرابلس، وأنطاكية؟
* ما تأثير الاستيطان الفرنجي في البيئة: السياسية، والاجتماعية والاقتصادية في الدويلات الصليبية؟

وقد وزِّعت الدراسة على مقدمة، وتسعة فصول، وخاتمة وهي كما يلي:

= البيئة الحضرية: وهي من صنع الإنسان، وتشمل كل ما أقامه من منشآت في البيئة الطبيعية من مبان، وطرق، وحدائق وأشجار... وتؤثّر فيها عدَّة عوامل، أهمها: العامل الديني، والعامل الاجتماعي، والعامل الثقافي، والعوامل السياسية والاقتصادية...

انظر: وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد يونيو 2004م،ص 8-10.

الفصل التمهيدي : أحوال بلاد الشام، والجزيرة في القرنين (5 هـ/ 11م) الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وبيان أوضاعهما السياسية، والاجتماعية.

الفصل الأول : ماهيّة الصليبيين، وسلوك فرسانهم، وأخلاقهم.

الفصل الثاني : الاستيطان الفرنجي فكرة وتطبيقاً.

الفصل الثالث : الاستيطان الفرنجي في مملكة القدس الصليبية.

الفصل الرابع : الاستيطان الفرنجي في كونتية طرابلس.

الفصل الخامس : الاستيطان الفرنجي في إمارة أنطاكية.

الفصل السادس : تأثير الاستيطان في البيئة السياسية للدويلات الصليبية.

الفصل السابع : تأثير الاستيطان في البيئة الاقتصادية للدويلات الصليبية.

الفصل الثامن : تأثير الاستيطان في البيئة الاجتماعية للدويلات الصليبية.

الخاتمة : وفيها تلخيص لنتائج البحث.

ولم أخصص فصلاً لإمارة الرُّها[1] في هذه الدراسة بالرغم من أنَّها أولى الإمارات الصليبية تأسيساً؛ وذلك للأسباب الآتية:

---

(1) الرُّهَا **Edesse**: مدينة كبيرة بالجزيرة، بين الموصل والشام، بها كنيسة عظيمة، وأكثر من ثلاثمائة دير للنصارى، وهي عاصمة الآداب السريانية، اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين سنة 363م.

ومعنى الاسم عند السلوقيين «الينبوع الحسن»، ثم أطلق عليها في العصور الوسطى أورفا Ourfa، وهو اسمها الحالي في تركيا قرب الحدود السورية، وهي عاصمة ولاية، عدد سكانها 206.000 ن. انظر: ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1958م، ص 5، وانظر: الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979م جـ 3 ص 106، وانظر: أبو الفداء، إسماعيل بن محمد: تقويم البلدان، تحقيق رنو ودو سلان، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة باريس 1840م، ص 276، وانظر: معلوف، لويس: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق بيروت، 2002م، ص83.

* قصر المدة، فقد تأسست في 14 من ربيع الثاني سنة 492 هـ/ 10 من مارس سنة 1098م، وقضى عليها في يوم 6 من جمادى الثاني سنة 539 هـ/ 4 من ديسمبر سنة 1144م، فعمرها أقل من 47 عاماً فقط، وأشير هنا بإيجاز إلى نشأة الإمارة ونهايتها:

كان الزعيم الأرمني ثوروس (Thoros) يحكم الرُّها منذ سنة 488 هـ/ 1095م، وقد حافظ على ملكه بمهادنة السلاجقة وتَجَنُّب الدخول معهم في صراع مباشر، وإرضائهم بالمال، وفي الوقت نفسه كان يعلن ولاءه للإمبراطورية البيزنطية[1].

ظلَّت الرُّها مهددة من السلاجقة المحيطين بها من كل جانب لذلك رحَّب ثورس (Thoros) بالصليبيين، ولم يكن له وريث، وخشي أنْ يموت، ويستولي السلاجقة على مملكته، فبعث إلى القائد الصليبي بدوين البولوني (Baudouin de Boulogne) يطلب إليه المجيء إليه؛ ليكون وريثاً لعرشه، وأسرع بودوين بتلبية الطلب، واسْتُقْبِل في الرها - هو ومن معه من الفرسان الصليبيين - بترحيب كبير عند وصوله إليها في سنة 492 هـ/ 1098م من قِبَل ملكها وسكانها[2] فقد كان أكثرهم من الأرمن المسيحيين، وليس بها من المسلمين إلاَّ القليل[3]، وربَّما فُسِّر هذا الترحيب بوجود نوع ما من التقارب في العقيدة بين الكنيسة الأرمينية من ناحية والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى[4].

---

(1) انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 173 وانظر: الصوري، وليم: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1997م، م 7 ص 118.

(2) انظر: متَّى الرهاوي: روايات المؤرخ الرهاوي المجهول، ترجمة سهيل زكار: الموسوعة الشامية م 5 ص 46.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، 1980، جـ 8 ص 204.

(4) انظر: الصوري، وليم: المصدر السابق، مج7 ص 118.

طلب ثوروس (Thoros) من بودوين البولوني أنْ يبدأ أعماله بالقضاء على العدو الأكبر للرُّها المتمثِّل في سُمَيْسَاط[1] وحاميتها القوية من الأتراك السلاجقة، فهاجمها في ربيع الآخر من سنة 492 هـ فبراير 1098م، واستولى على مزارعها بمساعدة الجيش الأرمني، وقُتِلَ في هذه المعركة نحو من ألف أرمني في هجمة مباغتة من الأتراك[2].

بعد شهر واحد من دخول بدوين (Baudouin) الرُّها وتنصيبه ابناً مُتَبَنَّى لثوروس (Thoros)، ووريثاً لعرشه قامت ثورة في المدينة راح ضحيتها ثوروس نفسه، وأشارت أصابع الاتهام إلى بدوين (Baudouin) وتقاعسه عن حماية الملك، بل نصحه بتسليم نفسه لقاتليه، وأصبح بدوين ملكاً على الرُّها، وأرضى طموحه في إنشاء إمارة صليبية[3].

انتهج بدوين سياسة الصليبيين الاستيطانية؛ في الداخل وفي الخارج:

* **ففي الداخل**: ربط بين العناصر المختلفة في الإمارة عن طريق الزواج بين الصليبيين الغربيين من ناحية والأرمن من ناحية أخرى وبدأ بنفسه فتزوج من الأميرة الأرمنية أردا «Arda»[4].

* **وفي الخارج**: جدَّ في التوسع في الأرض الإسلامية، والإغارة على الحصون والقلاع القريبة من الرُّها، وفي الوقت نفسه استولى على مزارع الفلاحين الأرمن خارج أسوار الرُّها، وأرغمهم على العمل فيها أجراء بعد أنْ أصبحت

---

(1) سُمَيْسَاط: مدينة غربي الفرات، في طرف بلاد الروم، ولها قلعة حصينة، وبها مزارع وثمار.
انظر: الحموي: المصدر السابق، جـ 3 ص 106 وانظر: أبو الفداء: المصدر السابق، ص 266.

(2) انظر:
Grousset R.; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 vols, Paris, 1943-46, VI, p 55.

(3) انظر: ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، 1993م، بدون ذكر للناشر جـ 1 ص 309.

(4) انظر: ستيفن رنسيمان: المرجع نفسه، جـ 1 ص 312، وانظر: عاشور سعيد عبد الفتاح: المرجع السابق جـ1 ص 180.

ممتلكاتهم إقطاعاً لملك صليبي؛ لذلك استاء الأرمن من حكم الصليبيين، وأخذوا يتآمرون عليهم مع أعدائهم، ويوقعون الفتنة بين بعضهم وبعض، وبخاصَّة بعد أنْ «أدركوا أنَّ الفرنج القادمين لتخليصهم إنَّما تُحَرِّكهم أغراض أخرى وإنْ كانوا في الظاهر يزعمون أنَّهم يعطفون عليهم»[1].

* لم تستقر لهذه الإمارة سياسة، ولم ينتظم لها أمر في هذه الفترة القصيرة؛ بسبب كثرة الحروب بينها وبين الأتراك، وفي أكثر الأحيان لم يكن في أيدي الصليبيين، في شرقي الفرات غير الرّها وسَرُوج اللتين هما قلعتان في «وسط أرض خَرِبَة، مقفرة، ليس فيها زرع، ولا ضرع، ولا سُكَّان»[2]، وظلَّت تعاني دائماً من نقطتي ضعف، وهما:

الأولى: عدم وجود حدود طبيعية توفِّر لها الحماية والأمن.

والأخرى: عدم تجانس سكانها بالرغم من زواج بعض الصليبيين من الأرمنيات؛ فقد كان السكان خليطاً من السريان والأرمن والصليبيين.

وهذا لم يكن في استطاعة أمراء الرُّها أنْ يقيموا حكماً يضمن لهم إشرافاً دقيقاً على شؤون إمارتهم؛ فاكتفوا بتحصين المدن والقلاع التابعة لهم، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن[3].

* لم تكن الإمارة في حقيقة الأمر إلاَّ إقطاعاً تابعاً لمملكة بيت المقدس الصليبية؛ فعندما وقع الاختيار على بودوين البولوني (Baudouin de Boulogne) أمير الرُّها ليتولَّى إمارة بيت المقدس بعد أنْ هلك ملكها بدوين الأول (Baudouin 1er) في 8 من ذي الحجة 511هـ/ 2 من إبريل سنة 1118م أقطع الرُّها بودوين البورجي (Baudouin de Bourges)، ورحل إلى القدس، ليعتلي عرشها باسم بدوين الثاني (Baudouin II).

---

(1) انظر: ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، جـ1 ص 312، وانظر: عاشور سعيد عبد الفتاح: المرجع السابق جـ1 ص 180.

(2) انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح: المرجع نفسه جـ1/ ص 446.

(3) انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح: المرجع نفسه جـ1/ ص 424.

لكلِّ هذه الأسباب لم أفرد فصلاً لإمارة الرُّها؛ لأنَّ نظام الاستيطان لم يوجد فيها، على صورته المعروفة.

وإلى جانب تلك الفصول التي تضمّنتها الدراسة:

* مهّدت لها بدراسة نقدية تحليلية لبعض المصادر الرئيسة.

* وأضفت إليها عدداً من الملاحق، والخرائط.

* وأمّا المنهج الذي اتبعته في معالجة الدراسة فهو المنهج التاريخي التحليلي الذي يعتمد على إيجاد تفسير منطقي للأحداث التاريخية بإيجاد علاقة جدلية ما بين الأسباب والنتائج وصولاً إلى رسم صورة واضحة لتلك الحقبة التاريخية الهامة من تاريخ أمتنا؛ ومن أجل الوصول إلى هذه الأهداف العلمية الهامة اعتمدت العديد من المصادر الأولية التي اهتمَّت بالحقبة التاريخية موضوع الدراسة، إضافة إلى العديد من المراجع القيِّمة في الموضوع نفسه.

ونظراً لكثرة المصادر الأصلية فسأكتفي بدراسة عشرة منها فقط، خمسة من المصادر العربية، ومثلها من المصادر الأخرى، وسأبيِّن سبب اختيارها، وأهميتها للدراسة.

فمن المصادر العربية اخترت خمسة راعيت فيها أنْ يكون مؤرخوها ممن عاشوها، وأسهموا في أحداثها، ممن أتاحت لهم مناصبهم ـ أو مكانتهم العلمية، والاجتماعية ـ الاطلاع على وثائقها، أو التقاء حكامها، وكبار رجالاتها من ذوي الأمر، والرأي، والمشورة فيهم، وهذه المصادر هي:

1 ـ ذيل تاريخ دمشق:

مؤلف الكتاب هو: أبو يعلى، حمزة بن أسد، التميمي، ابن القلانسي[1] (464 ـ 555هـ/ 1072 ـ 1160م) وهو أديب، وكاتب، وشاعر، ومؤرخ، تولى

---

(1) انظر ترجمته في: الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث العربي نسخة مصورة عن طبعة مصر جـ10/ ص 278، وانظر: الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1995م، [551 ـ 560 هـ] ص 158، وانظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام بيروت، دار العلم للملايين، 1984 م، جـ 2/ ص276، وانظر: كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين، بيروت دار إحياء التراث العربي، د تُ، جـ4/ ص77.

رئاسة ديوان الإنشاء في دمشق، مرتين، وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب «الخراج»، وقد أتيح له، بحكم عمله في الديوان الاطلاع على الوثائق الرسمية، على مختلف أنواعها، ويذكر الذين ترجموه أنَّه من أعيان دمشق الأفاضل، ومؤرخيها الثقات، وقد حُمِدَتْ ولايته؛ لأمانته، وحسن أخلاقه، وسعة علمه، وصنَّف كتاباً كبيراً في التاريخ، سمّاه [المذيَّل]، طبع تحت عنوان «ذيل تاريخ دمشق»، ونشره آمدروز (Amedroz H. F.)، وطبعته مطبعة الآباء اليسوعيين، في بيروت، سنة 1908م[1] لحساب مؤسسة برل في ليدن «Leyden» وألحق به نخباً من تواريخ: ابن الأزرق الفارقي وسبط ابن الجوزي، والإمام الذهبي، وصنع له فهارِسَ وحواشي باللغة الإنجليزية، وجاء في 397 صفحة، وأعادت مكتبة المثنى، في بغداد طبعه بالأوفست، بدون إضافات كما نشر جب (Gibb H. A. R.) مقتطفات منه تتعلَّق بالحروب الصليبية مع ترجمة إنجليزية[2]، وقد ذيَّل به مؤلفه على كتابي ثابت بن سنان[3] وهلال بن المحسن[4]، فبدأ تأريخه من سنة

(1) طبع بعنوان: History of Damascus by I. Al-Q, with Extracts from other Historians and summary of contents, Leyden, 1908.

(2) طبع بعنوان: The Damascus Chronicle of The Crusades, Extracts ed. and transl. From the Chronicle of I. al- Q , London , 1932.

(3) أبو الحسن، ثابت بن سنان، الصابئ (ت 365 هـ/ 976م) طبيب، مؤرخ، ابتدأ تاريخه بسنة 295هـ/ 907 م، واختتمه بسنة 360 هـ/ 970م.

انظر: الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، نشر جمعية المستشرقين فسبادن، ألمانيا جـ10/ ص463، وانظر: الزركلي: المرجع السابق، جـ 2/ ص 98، وانظر: كحالة: المرجع السابق، جـ3/ ص 100.

(4) أبو الحسين، هلال بن المحسن، الصابئ (359 ـ 448 هـ/ 970 ـ 1056م) أسلم في أواخر عمره، وهو مؤرخ، كاتب، أديب من أهل بغداد، له مؤلفات كثيرة، منها ذيل تاريخ ثابت بن سنان، وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وكتاب بغداد، وغرر البلاغة. انظر: الصفدي: المصدر السابق جـ 27/ ص373، وانظر: الزركلي: المرجع نفسه، جـ 8/ ص 92، وانظر: كحالة: المرجع نفسه، جـ 13/ ص151.

448هـ/ 1056م إلى سنة وفاته في عـام 555 هــ/ 1160م، وهـي الطبعـة التـي اعتمدتها الباحثة في دراستها.

ضم سهيل زكار أصل الكتابين، والمذيل، وحققهما، وطبعهما جميعاً، تحـت عنـوان «تاريخ دمشق» ونشرته دار حسان، في دمشق، وظهرت طبعته الأولى في سنة 1983م.

وترجع أهمية الكتاب إلى أنَّ المؤلف عاصر الحملـة الـصليبية الأولى وسـجَّل بدقة أحداث نزول الصليبيين ثغور الشام، ومدنه ومـساعدة المـدن الإيطاليـة لهـم، وامتاز، في كتابته بالأمانة، والنظرة الواعية، الثاقبـة، وهـو المـصدر العـربي الوحيـد الذي وصل إلينا، الآن، في تاريخ هذه الفترة يروي الأخبار مـن وجهـة نظـر عربيـة منصفة، وعادلة.

وقد أفادت الباحثة من الكتاب في بيان دور الشعب العربي، في مكافحة الغزو الصليبي، وذلك لأنَّ ابن القلانسي تفرَّد برواياته عـن المقاومـة الـشعبية، بتنظيماتهـا المتعددة، ونزول الصليبيين أرض الشام، وصوَّر بشاعة وسائله الاسـتيطانية، وبـيَّن فئات الشعب العربي الاجتماعية وقبائله، ورسم صورة لعمران دمـشق، وخططهـا، ولم يهمل، في الوقت نفسه، أخبار بقية أجزاء الشام ودول الوطن العربي كله.

2 ـ كتاب الاعتبار:

مؤلف الكتاب هو: أبو المظفَّر، أسامة بن مرشد بن عـلي الكنـاني، الكلبـي، الشيزري، مؤيد الدولة، مجد الدين (488 ـ 584 هـ/ 1095 ـ 1188م) وهو من العلماء الأدباء الفرسان، ومن الشعراء الكتاب، وهو أمـير مـن أمـراء بنـي منقـذ، أصحاب قلعة شيزر ـ قرب مدينة حماة ـ ولد فيها، ثم سكن دمشق، ومنهـا انتقـل إلى مصر سنة 540 هـ/ 1145م، وقاد عدة حملات ضد الصليبيين، وكان ذا مكانة رفيعة، مقرَّباً من الملوك، والسلاطين[1].

---

(1) انظر: ابن الصابوني، محمد بن علي: تكملة إكمال الإكمال، تحقيـق مـصطفى جـواد، بغـداد، منـشورات المجمع العلمي العراقي، 1957م، ص 292، وانظر: القمي، عباس بن محمد: الكنى والألقاب، بيروت، مؤسسة الوفاء، 1983 م، جـ 1/ ص 428 وانظر: الزركلي: المرجـع الـسابق، جــ 1/ ص 291، وانظـر: كحالة: المرجع السابق، جـ2/ ص 225.

ولمَّا تهدَّمت قلعة شيزر، في سنة552 هـ/ 1157م، إثر زلزال عنيف دمَّر قلعتها الحصينة، وأزال مساكنها، تفرَّق أمراؤها، وشعبها، سكن أسامة حصن «كيفا»، وأقام به، إلى أنْ ملك صلاح الدين دمشق، فاستدعاه ـ وهو شيخ كبير، جاوز عمره الثمانين عاماً ـ ليستأنس برأيه ويستشيره في أموره، وتوفي في دمشق ودفن بجبل قاسيون.

كتب أسامة بن منقذ سيرته الخاصة، وعلاقاته، وسفاراته وحروبه، في هذا الكتاب الذي سمَّاه «الاعتبار»، وقد حققه، ونشره فيليب حتي، وطبع في برنستون في 1930م، وحققه قاسم السامرائي، وطبعته دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، في الرياض، سنة 1987م، كما نشره أيضاً سهيل زكار في المجلد الثاني عشر من موسوعته الشامية، كما أنَّ للكتاب ترجمات إلى: الفرنسية، والألمانية.

يمثِّل الكتاب أهميَّة كبيرة في تصوير الغزوة الصليبية الأوربية، وأخلاق فرسانها، وعلاقات العرب بهم، فهم من وجهة نظره «بهائم، امتازوا بصفة الشجاعة، والقتال، لا غير كما في البهائم فضيلة القُوَّة، والحمْل»[1]، وبيَّن ابن منقذ مدى تأثُّر الصليبيين بالمسلمين، وكيف تغيَّرت أخلاقهم، وعاداتهم بمعاشرة العرب، وأخذوا يقلِّدون المسلمين في مأكلهم ومشربهم إلى حد أنْ امتنع بعضهم عن أكل «لحم الخنْزِير»[2].

وصوَّر ما كان بينهم وبين المسلمين من علاقات تجارية، وما ربط بينهم وبين بعض المسلمين من صداقة، ومودَّة، وأفادت الباحثة من الكتاب فائدة كبيرة، في تصوير الحياة الاجتماعية، ونظرة الناس للتجار ومكانتهم، ودورهم في تنشيط الحياة الاقتصادية.

---

(1) ابن منقذ: الاعتبار (ت زكار) ص 240.

(2) ابن منقذ: المصدر نفسه ص 246.

3 ـ نصرة الفترة وعصرة الفطرة:

مؤلف الكتاب هو: أبو عبد الله، محمد بن محمد بن حامد بن أَلُهْ عماد الدين الكاتب، الأصبهاني، الملقّب بابن أخي العزيز (519 ـ 597 هـ/ 1125 ـ 1201 م)[1]، ولد بأصبهان، وقَدِمَ بغداد وهو ابن عشرين سنة، وسمع من السِّلَفِي بالإسكندرية، وبرع في: الفقه، والنحو، والأدب، والشعر، والحديث، والتاريخ، وكان يتقن الفارسية وينشئ بها، ترقت منْزلته عند نور الدين[2]، وبعث به رسولاً إلى الخليفة المستنجد ببغداد[3]، وفوَّض إليه تدريس المدرسة المعروفة باسمه «العمادية»[4] في

---

(1) انظر: المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981 م جـ 1/ ص 605، وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بإشراف شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982 م جـ 21/ ص 345. وانظر: المقريزي، أحمد بن علي: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1991م، جـ 7/ ص 204، وانظر: الزركلي: المرجع السابق، جـ 7/ ص 26، وانظر: كحالة: المرجع السابق، جـ 11/ ص 204.

(2) أبو القاسم، محمود بن زَنْكي، نور الدين، الملقَّب بالشهيد، الملك العادل (511 ـ 569هـ/ 1118 ـ 1174م) أعدل ملوك زمانه، وأعظمهم، وحامل لواء الجهاد ضد الصليبيين، ملك الشام، والجزيرة، ومصر. انظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992 م، جـ18/ ص 209، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 170.

(3) أبو المظفر، يوسف بن محمد «المقتفى» بن المستظهر بالله (510 ـ 566 هـ/ 1116 ـ 1170م) من خلفاء الدولة العباسية ببغداد، تولى الخلافة بعد أبيه في سنة 555 هـ/ 1160م، كان من أحسن الخلفاء سيرة في رعيته؛ فردَّ أموالاً اغتصبت من أصحابها وخفض الضرائب عن الناس، مات مقتولاً. انظر: ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد: الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1985م ص 210، وانظر: السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988، ص 513، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 8/ ص 247.

(4) المدرسة العمادية: بناها عماد الدين، إسماعيل بن نور الدين داخل بأبي الفرج والفراديس في دمشق، وأوقف عليها صلاح الدين الأيوبي، وكان العماد أول من درَّس بها، ومن بعده ابنه. انظر: النعيمي: عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، منشورات المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقي، بدمشق، سنة 1948م جـ 1/ ص 308.

دمشق، وكان يشرف على الديوان بها، ثم وَزَرَ للسلطان صلاح الدين، وكان يكتب عنه الرسائل، وله مؤلفات كثيرة، منها «نصرة الفترة وعصرة الفطرة في الوزراء السلجوقية» بدأ فيه بذكر أصل السلاجقة، وبدْء ظهورهم، ثم بسط القول في أخبار سلاطين الدولة السلجوقية، وأخبار وزرائها وكتابها.

عَرَف المؤرخون كتب العماد الأخرى كالبرق الشامي، والفتح القسي، وخريدة القصر[1]، وكان يُظَنُّ ـ حتى وقت قريب ـ أنَّ كتاب نصرة الفترة من الكتب المفقودة، وكان اعتمادهم على معرفة محتواه من خلال بعض ما نقله عنه أبو شامة في كتاب الروضتين، وإلى المختصر الذي اختصره منه الفتح البنداري «زبدة النصرة ونخبة العصرة»[2]، إلى أنْ عثرت الباحثة مصادفة على نسخة مصوَّرة من الكتاب في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم 2133 تاريخ؛ فحصلت على صورة منه اتخذتها أساساً للدراسة.

---

(1) البرق الشامي، الموجود منه جزءان: الجزء الثالث، تحقيق مصطفى الحباري، والجزء الخامس، تحقيق فالح صالح حسين، طبعتها مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 1987م.

ـ الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد علي صبيح، القاهرة، سنة 1965م، وأعادت نشره الهيئة العامة لقصور الثقافة، بمصر، 2003م.

ـ خريدة القصر وجريدة العصر، طبعت منه: **قسم شعراء العراق**، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، منشورات المجمع العلمي العراقي ببغداد، 1955م.

قسم شعراء الشام: تحقيق شكري فيصل، منشورات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م، قسم شعراء مصر: تحقيق أحمد أمين، وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م، قسم **شعراء صقلية والمغرب والأندلس**: تحقيق عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د ت، **قسم شعراء المغرب والأندلس**: تحقيق آذرتاش آذرنوش، وآخرين الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م.

(2) نشره هوتسما Houtsma، في ليدن سنة 1889م، ثمَّ طبع بمطبعة الموسوعات بمصر في 1318هـ/ 1900م باسم «تاريخ دولة آل سلجوق». انظر: سركيس، يوسف إليان: معجم المطبوعات العربية والمعربة، عالم الكتب بيروت، جـ 2/ ص 1375.

والكتاب وثيقة تاريخية هامة في تاريخ الدولة السلجوقية، يروى فيه العماد الكاتب الأحداث التي شهدتها بلاد الشام تحت سلطة الأمراء السلاجقة، وبخاصة أنّه شاهد عيان.

وأسلوب العماد الكاتب مثقل بكل أنواع الصنعة اللفظية المتكلفة من سجع، وجناس، وتورية، وترادف؛ بحيث تختفي الحقيقة التاريخية وراء ركام من الجمل التي يُكْثِر فيها من رد العجز على الصدر، كقوله في خطبة كتابه: «الحمد لله مصرِّف الأقدار ومقدِّر الصروف، ومعرِّف الشرائع، وشارع المعروف، وخالق البريَّة، وبارئ الخلائق، ومحقق الإنشاء، ومنشئ الحقائق، ومعز الحق، ومذل الباطل، ومعطِّل الحالي، ومحلِّي العاطل...»، ويأتي بعشرات الجمل، على هذا النسق الذي وصفه الصفدي[1]. قائلاً: «وقلَّما يخلو كلامه من هذا النوع الغَثِّ، والضرب الرَّثِّ»[2].

4 ـ الكامل في التاريخ:

مؤلف الكتاب[3] هو: أبو الحسن، علي بن محمد، عز الدين ابن الأثير الشيباني، الجَزَري (555 ـ 630 هـ/ 1160 ـ 1233م) ولد بجزيرة ابن عمر، وإليها نسبته، وانتقل مع والديه، وأخويه إلى الموصل، وطلب الحديث في بغداد، وحدَّث بدمشق وحلب، واستقرّ بالموصل منقطعاً إلى العلم، والتصنيف، وكان بيته مجمع

---

(1) أبو الصفاء، خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين، الصفدي (696 ـ 764 هـ) كاتب، شاعر، ناقد، له مؤلفات كثيرة، منها: الوافي بالوفيات، وأمراء دمشق في الإسلام. انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة 2/87، وانظر: الزركلي: المرجع السابق 2/315، وانظر: كحالة: المرجع السابق 4/114.

(2) انظر الصفدي: الوافي بالوفيات جـ1/ ص 135.

(3) انظر: اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد الدكن، 1954م جـ1/ ص64، وانظر: الصفدي: المصدر السابق جـ 22/ ص 136، وانظر السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية ص 304، وانظر: السيوطي: طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة وهبة، 1973م، ص 492، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 4/ ص 331، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ 7/ ص 228.

الفضل، لأهل الموصل، والوافدين عليها، وكان له، مع أخويه ـ مجد الدين، المبارك بن محمد، وضياء الدين، نصر الله بن محمد ـ دور بارز، مؤثر، في إضعاف الدولة الأيوبية، بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي.

ولا نعرف أنَّه تقلَّد منصباً رسمياً، في الدولة الأتابكية، أو غيرها، ولم يشر أحد من الذين ترجموه إلى وظيفة رسمية له، ومع ذلك يذكر تلميذه ابن خِلِّكان[1]: «أنَّه قدم بغداد، مراراً حاجّاً، ورسولاً، من صاحب الموصل»[2]، وعنه ينقل المؤرخون، من بعده، وإذا عرفنا أنَّ ابن الأثير منذ بلغ سن العشرين من عمره، إلى سنة وفاته عاصر خمسة من أتابكة الموصل فأيُّهم كان يبعث به رسولاً؟، وإلى مَنْ يبْعَثُ به؟ وما طبيعة ما كان يحمله من رسائل؟ أسئلة لم أجد لها إجابة، فيما بين يديّ من مصادر[3].

وكتاب الكامل في التاريخ من الكتب الجامعة الممتدة في الزمان، والمكان، بدأه من أول الزمان، وتكَوُّنِ الليل، والنهار، وابتداء الخلق، وانتهى به إلى قبيل وفاته بسنتين، أي: بنهاية أحداث 628 هـ/ 1231م وفي المكان تحدَّث عن ملوك الشرق، والغرب، وما بينهما ـ كما يقول هو نفسه في مقدمة كتابه[4] ـ وبيَّن مصادره، وأولها

(1) أبو العباس، أحمد بن محمد بن إبراهيم، شمس الدين ابن خِلِّكان، البرمكي، الإربلي، الشافعي (608 ـ 681 هـ/ 1211 ـ 1282م) فقيه، أديب مؤرخ شاعر، تولَّى قضاء دمشق، وبها توفى، أشهر كتبه وفيات الأعيان. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 7/ ص 308، وانظر: ابن طولون، محمد بن على: قضاة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق، منشورات المجمع العلمي العربي، 1956 م، ص 76، وانظر: الزركلي: المصدر السابق جـ1/ ص 220، وانظر: كحالة: المصدر السابق جـ2/ ص59.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1978م، جـ 3/ ص 348.

(3) عن الأتابكة الذين عاصرهم ابن الأثير، انظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، دار المعارف، 1972م، جـ 2/ ص 346.

(4) انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ 1/ ص 5.

كتاب التاريخ، للطبري، وأضاف إليه ما ليس فيه من الكتب المشهورة، للعلماء المتقنين الثقات، واهتم بتسجيل الأحداث التي عاصرها.

كان كتاب الكامل في التاريخ يتمتع بمنْزلة رفيعة، كمصدر موثوق به في تاريخ الدولة الأيوبية، وهو أساس من الأسس التي اعتمدها المؤرخون من بعده، ولكن المؤرخين المحدثين أخذوا يشكّكون في هذه الثقة، ويظهرون تحامل ابن الأثير على صلاح الدين؛ لأنَّ ميوله السياسية كانت مع أمراء البيت الزنكي، يتعصَّب لهم، ويبغض غيرهم وصلاح الدين - من وجهة نظره - ناكر لجميلهم مغتصب لسلطتهم[1].

وبالرغم من أنَّ ابن الأثير عاصر أهم حدثين، في تاريخ العصور الوسطى - هما: الحروب الصليبية، والغزو المغولي - وأرّخ لهما، ومع ذلك فإنَّ كتابه يكاد يكون خلواً من الوثائق الرسمية؛ ولعل مرجع ذلك إلى أنَّه لم يكن من أصحاب المناصب التي تؤهِّلُهُ للاطلاع على الوثائق، كالمؤرخين الذين سبق أنْ تحدثت عنهم، كما لم يتعرَّض إلى المراسلات التي تمت بين البابا والإمبراطورية البيزنطية من جهة، وبين حكام الشرق الإسلامي، من جهة أخرى[2].

وأفرد لتاريخ الدولة الأتابكية كتاباً مستقلاً، سمَّاه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيَّة»، سجَّل فيه جميع الأحداث في الدولة الأتابكية[3] وأخبارها، منذ نشأتها على يد آق سنقر سنة 477 هـ/ 1084م، إلى بدْء تملك الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني في سنة 607 هـ/ 1211م، ومعظم ما أورده، في كتابه هذا رواية عن أبيه[4]، ولم يتميَّز كتابه عن تاريخ الأتابكة عن الكامل بشيء ذي غناء؛ فهو

---

(1) انظر: أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق أحمد البيسومي دمشق وزارة الثقافة، 1991م، جـ 1/ ص 129، مقدمة المحقق.

(2) انظر: عادل عبد الحفيظ شحاتة: العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986م، ص 28.

(3) حقَّقه أحمد طليمات، وطبع في القاهرة، في دار الكتب الحديثة، 1963م.

(4) انظر: محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985، جـ 4/ ص 20.

يعيد هنا أغلب ما ذكره في تاريخه ذاك، أو أنَّ العكس هو الصحيح، فلا يُعْرف أي الكتابين أسبق تأليفاً.

5 ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب:

مؤلف الكتاب هو: أبو القاسم، عمر بن أحمد، الصاحب كمال الدين المعروف بابن العديم (588 ـ 660 هـ/ 1192 ـ 1261م)[1] عالم، أديب، مؤرخ، من أصل عربي عريق ومن أسرة ثريَّة ذات مكانة رفيعة اجتماعياً، وعلمياً، تولَّى خمسة من أجداده منصب القضاء، وتولَّى هو التدريس، في أعظم مدارس حلب، كما تولَّى بها القضاء.

زار مصر وبغداد والتقى العلماء، والأدباء، والشعراء، والوزراء والملوك، وأسفر بين الملوك، في أمور خطيرة، وأخيراً استقر به المقام في مصر، بعد تدمير حلب على أيدي التتار، في سنة 657 هـ/ 1258م، وبها توفي، ودفن بسفح المقطم.

وهذا الكتاب ثمرة قراءة ناقدة، بدأه بالحديث عن حلب، وبنائها وعلاقاتها بمصر، أيام الطولونيين، والإخشيديين، وتصدِّيها للجهاد، أيام سيف الدولة الحمداني، وتتبع جهاد الحلبيين، إلى أن حملوا راية الكفاح ضد الصليبيين، وتوقف تاريخه السياسي، في سنة 641هـ/ 1244م، وكتابه مرتَّب على السنين ـ كما هي عادة المؤرخين في عصره ـ ويمتاز في تاريخه بالموضوعية العلمية، والإنصاف، ونراه يعتمد كتب المؤرخين المسيحيين، ويتتبع ما كتبوه باللغة العربية، ويستعين بالمترجمين في قراءة ما كتبوه باللغات الأخرى، وفي رأي الباحثة أنَّ ابن العديم أول من طبق المنهج التاريخي العلمي، كما نفهمه نحن اليوم وذلك لأنَّه:

---

(1) انظر: الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985 م جـ 3/ ص 300، وانظر: ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، دار صادر، بيروت، 1973، جـ3/ ص 126، وانظر له أيضاً: عيون التواريخ، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1980م، جـ20/ ص 275.

1 ـ اطَّلع على كتابات المؤرخين الآخرين، بلغاتهم، وفهم مقصدهم، وحججهم، وعرف أهدافهم، وتصدّى للرد عليهم.

2 ـ عمد إلى الأوراق القديمة، والسجِلاَّت، والوثائق، وإلى قطع النقود الأثرية، والأبواب، والقناطر، والأسوار، والجدران فقرأ نقوشها وكتاباتها، ورسومها ونقلها نقلاً أميناً.

3 ـ كان ثاقب النظر عندما أدرك أنَّ هجمات الروم على حلب كانت غزواً صليبياً للشام، وأنَّ الحروب الصليبية ابتدأت ـ حقيقة ـ منذ عهد العباسيين، في القرن الثاني الهجري.

لقي الكتاب عناية واسعة، منذ وقت مبكِّر، فترجم إلى كثير من اللغات الأجنبية كاللاتينية، والفرنسية، وغيرهما، وقد حققه سامي الدهان، ونشره، بدمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية، في سنة 1951م، كما حققه سهيل زكار، ونشرته دار الكتاب العربي، في دمشق، سنة 1997م، وعلى هذه الطبعة اعتمدت.

والملاحظات العامة على المصادر العربية هي[1]:

1 ـ كانت المصادر في القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين قليلة العدد، تتميَّز بطابعها المحلِّي الضيق، بينما شهدت القرون التالية لهما نهضة واسعة في التأليف فبدأت تظهر الكتب الموسوعية إلى جانب كتب التاريخ المحلي، واشتغل المؤرخون بكتابة تواريخ الأقاليم، أو المدن، أو النظم الإسلامية والإدارية أو تراجم الأعلام السياسية والثقافية[2].

---

(1) انظر ـ أيضاً ـ الملاحظات التي أشار إليها جوزيف نسيم يوسف في كتابه: العرب والروم واللاتين، ص 31 ـ 32.

(2) انظر: النبراوي، فتحية عبد الفتاح: علم التاريخ دراسة في مناهج البحث، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1996م، ص 104.

2 ـ لم يسجل المؤرخون العرب أحداث الحروب الصليبية في كتب مستقلة؛ بل نجد أخبارها متفرقة من خلال الأحداث، وموزعة على السنوات، ونستطيع أنْ نميّز عندهم ثلاثة أنواع من التناول التاريخي:

* الحوليات، وهو الاتجاه الغالب في كتب التاريخ العام، حيث يتناول المؤرخ أحداث السنة، وتراجم الرجال الذين توفّوا فيها، وكثيراً ما نجد الحادثة الواحدة موزعة على عدة سنوات.
* التراجم، وعادة ما تحمل عنوان «الوفيات» وفيها يكون الحديث عن علم من أعلام السياسة، أو الأدب، أو الفقه، أو غيرها، وإذا كانت غالبية كتب الوفيات تجمع أعلام الأمة في كل الفنون فقد نجد من بينها من يخصص لترجمة فئة واحدة؛ من فئات المجتمع، كالساسة، أو الفقهاء أو النحاة... أو يخصص لترجمة شخص واحد، فمن النوع الأول ما فعله العماد الكاتب في تاريخ آل سلجوق، حيث اقتصر على تراجم الحكام والأمراء، ومن النوع الثاني ما فعله ابن شداد في النوادر السلطانية، حيث جعله تاريخاً لصلاح الدين الأيوبي وحده.
* الخطط، وفيها يتناول المؤرخ تراجم الرجال من خلال آثارهم الباقية كالمدارس، أو المساجد، أو القصور، أو المقابر...

3 ـ لا يهتم المؤرخون العرب كثيراً بتحديد أوقات الأحداث، ونادراً ما يذكرون أنها وقعت في شهر كذا من السنة التي يؤرخون لها، وهناك تقارب شديد بين المصادر، فهي تكاد تتشابه في طريقة سرد الأحداث، وفي الأسلوب.

4 ـ اعتمد المؤرخون العرب طريقة علمية في توثيق النصوص، وإنْ خلت من التمحيص والنقد، وعادة ما يستخدمون إحدى طريقتين:

الأولى: الرواية الشفهية، عن طريق السند، ونقل الخبر عن مصدره الأصلي اعتماداً على ما أخذه اللاحق عن السابق.

والأخرى: الرواية المسطورة عن طريق النقل من كتب السابقين وغالباً ما يُشار إلى اسم المؤلف السابق دون تحديد للكتاب الذي نقل عنه.

5 ـ لكتب المتأخرين من المؤرخين قيمة كبيرة؛ فإنها تشير إلى أحداث هامة قد لا نجدها في كتب المؤرخين المعاصرين للأحداث إمَّا لأنهم ينقلون عن كتب مفقودة، لم تصلنا، وإمَّا لأنَّ النسخ التي وصلتنا من الكتاب فيها نقص، أو سهو من الناسخ.

ومن المصادر الأجنبية اخترت خمسة مصادر، وهي:

1 ـ **المؤرخ المجهول (Anonymi)**[1] صاحب كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum)[2]، وهو مصدر رئيس من مصادر دراسة الحملة الصليبية الأولى؛ فقد كان مؤلف الكتاب شاهد عيان للكثير من المعارك الحربية، كما كان علياً بما يدور في مجالس الأمراء والنبلاء.

ويبدو أنَّ الكتاب اشترك فيه مؤلفان، فقد لاحظ العلماء أسلوبين:

الأول: أسلوب ضعيف ركيك، مكتوب باللاتينية الدارجة التي كانت سائدة في العصور الوسطى، مما يدل على أنَّ الكاتب لم ينل حظاً وافراً من التعليم، ويتضمن هذا الجزء من الكتاب دوافع اللاتين في قيامهم بالحرب، وطبيعة العلاقات بينهم وبين البيزنطيين وتكاد تجمع الآراء على أنَّ مؤلف هذا الجزء هو من الفرسان.

والآخر: أسلوب أكثر نقاء وبلاغة، ويبدو أنَّ مؤلفه من رجال الدين؛ فهو يكثر من الاستشهاد بآيات الكتاب المقدس، وفي أسلوبه ميل إلى الخطابة والأدب،

---

(1) هو مؤرخ حملة بوهيموند النورمندي Bohémond، وهو من طبقة الفرسان ظل في صحبة بوهيموند حتى عام 1098م، ثم صحب ريموند كونت صنجيل Raymond IV de Saint - Gilles إلى بيت المقدس. انظر: جوزيف نسيم: المرجع السابق ص 2، وانظر: حسين محمد عطية: مقدمة كتاب بطرس توديبود «تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس»، الإسكندرية، 1998م، ص 18.

(2) الكتاب مؤلف باللغة اللاتينية، وطبع بها طبعات كثيرة، منها طبعة هاجنمير Hagenmeye، في 1890م، وله ترجمات كثيرة إلى اللغات الأوربية الحديثة، منها الفرنسية، فقد ترجمه إليها برير Bréhier L.; Histoire Anonyme de la Première Croisade, Paris 1924، وهي التي نقلها إلى العربية حسن حبشي، في 1958م، وترجم إلى الإنجليزية، فقد نقلته روزالين هيل Rosalaind Hill; The Deeds of The Francs and The Other Pilgrims to erusalem, Londobn, 1962.

وبُعْدٌ عن الأسلوب التاريخي، كما أورد خطباً كثيرة، من نسج الخيال، نسبها إلى الأتراك المسلمين، ومن المحتمل أنْ تكون هناك بعض الفصول قد أضيفت إلى الكتاب، في وقت متأخر، وبخاصة الفصل السابع والعشرون الذي يدافع فيه المؤلف عن بوهيموند (Bohémond) وكذلك الفصل الأخير الذي يصف فيه أنطاكية[1].

وعند مقارنة مادة الكتاب بما جاء في كتب المعاصرين له يتبين أنَّ روايته تمتاز بصحتها، فقد نقل عنه أكثر المؤرخين، بالرغم مما فيها من تعصب مسيحي، وتحيُّز للإغريق، وحسد وكراهية للعرب.

ولعلَّ أهمية الكتاب الكبرى ترجع إلى تصويره النظام الإقطاعي في المجتمع الغربي، في العصر الوسيط، وفي العملة التي كانت سائدة في وقته وفي معرفة قواعد اللغة اللاتينية المستعملة.

2 ـ **فوشيه الشارتري (Foucher de Chartre)**[2] صاحب كتاب تاريخ الحملة إلى القدس (Gesta Francorum Iherosalem Peregrinantium)[3]، بدأ كتابه بالحديث عن مؤتمر كليرمون ودعوة البابا أوربان الثاني (Urbain II) إلى الحرب الصليبية الأولى

---

(1) انظر:

Cahen C.; La Syrie du Nord à l´époque des Croisades et la Principauté Franque d´Antioche, Paris, 1940, p 8.

(2) اسمه بالإنجليزية Fulcher of Chartres (1058 ـ 1127م) وهو راهب فرنسي، ومؤرخ الحملة الأولى، حضر مؤتمر كليرمونت في سنة 1095م، ورافق حملة روبير النورمندي Robert إلى الشرق، ثم انفصل عنه متّجهاً إلى الرها في صحبة بودوين Baudouin ليصبح كاهن كنيسته، وفي المصادر العربية يأتي اسمه: فولتشر أوف تشارترز، ومنهم من يسميه فوشيه الشارتري.انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1381، انظر: Cahen C.; op. cit. p.11، وانظر: أحمد، محمد مؤنس: فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، 1996م، ص 27.

(3) طبع الكتاب في الجزء الثالث من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية قسم المؤرخين الغربيين Recueil des Historiens des Croisades (Les Historiens Occidentaux) وله ترجمات إلى أكثر اللغات العالمية، ومنها العربية.

وتابع وقائع الحملة منذ خروجها من غرب أوربا، متجهة إلى بيت المقدس، وبيِّن ما قام به الفرنجة من أعمال في جنوب أوربا، وفي أراضي الدولة البيزنطية وآسيا الصغرى، ووضَّح العلائق بين الصليبيين وكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين.
ولهذا الكتاب أهميّة كبيرة للأسباب الآتية:

* يعدّ المصدر اللاتيني الوحيد الذي أرَّخ للأحداث التي تلت معركة عسقلان في 14 من رمضان سنة 492 هـ/ 12 من أغسطس سنة 1099م، إلى أنْ انتهى بالتأريخ لأحداث سنة 521 هـ/ 1127م،كما أرَّخ الكتاب نشأة الإمارة الصليبية في الشام وذلك في الوقت الذي انتهت فيه تواريخ معاصريه جميعاً بمعركة عسقلان، وهم المؤلف المجهول وريمون دو جيل (Raymond d´Agilers)، وتوديبود (Tudebode).
* لم يدوِّن فوشيه (Foucher) إلاَّ الأحداث التي شاهدها بنفسه، أو جمعها من مصدر موثوق به؛ فهو من أوثق المصادر في تاريخ تلك الفترة وعنه نقل أكثر المؤرخين من بعده.
* لم يهمل فوشيه (Foucher) تصوير البيئة الطبيعية التي شاهدها، فتحدَّث عن منابع الأنهار، وقدَّم وصفاً رائعاً للنبات والحيوان..
* يعتبر فوشيه (Foucher) المؤسس الحقيقي لعلم التاريخ الحديث؛ فقد درج المؤرخون القدماء على كتابة الحوليات، وتجزئة الحدث الواحد على سنوات متعددة، بينما اتخذ فوشيه «الحدث» موضوعاً للدرس التاريخي يتحدَّث عنه حديثاً متصلاً، كما فعل في تأريخه لمدينة صور في آخر كتابه وعنه أخذ المؤرخون الغربيون هذا المنهج، واعتمدوه في كتاباتهم[1].

قسَّم فوشيه (Foucher) كتابه ثلاثة أقسام، وهي:

- **القسم الأول:** من أول الكتاب إلى وفاة جودفري (Godfrey de Bouillon)، وكتبه في نحو سنة 499 هـ/ 1105م.
- **القسم الثاني:** وينتهي بموت بدوين الأول (Baudouin 1er) في سنة 512هـ/ 1118م.

(1) انظر: جوزيف نسيم: المرجع السابق ص 9.

- **القسم الثالث**: وهو آخر الكتاب، وينتهي بأحداث سنة 521 هـ/ 1127م.

3 ـ **جوانفيل (Jean de Joinville)**[1]، وهو صاحب كتاب تاريخ القديس لويس (Histoire de Saint Louis)[2] ويعتبر هذا الكتاب أهم المصادر الأوربية المعاصرة التي أرّخت لحملة القديس لويس؛ ذلك لأنَّ جوانفيل من النبلاء، وكان حاكماً لمقاطعة شمبانيا (Champagne) وأحد الفرسان المقاتلين الذين رافقوا الملك كما كان مستشاراً له، وموضع ثقته، ومعنى هذا أنَّه كان شاهد عيان في حالتي التخطيط والتنفيذ لجميع المعارك التي خاضها الصليبيون في هذه الحملة، ويمتاز الكتاب بما يأتي:

* دقة الوصف، وصدق القول، في جميع المعارك التي اشترك فيها بنفسه، وسجَّل وقائعها.
* إذا ذكر موقعة لم يكن حاضرها فإنَّه يذكر اسم الشخص الذي رواها عنه، ويحمّله مسؤولية صدقها أو كذبها.
* كان الكتاب «في جملته عبارة عن مرآة انعكست عليها صور رائعة صادقة من ضروب الفروسية الوسيطة، ومآسي الهزيمة التي فرضها القدر على الفرنج في مصر والشام»[3].

4 ـ **الأميرة أنَّا كومنين (Anne Comnène)**[4] صاحبة كتاب الألكسياد

---

(1) ولد جوانفيل Joinville في سنة 1224م، كان مستشاراً للملك لويس التاسع وانتهى من تدوين تاريخه في 1309م، وتوفي في 1318م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1466.

(2) للكتاب ترجمات إلى اللغات الأوربية الحديثة، وترجمه إلى العربية وعلق عليه الأستاذ حسن حبشي، ونشره في القاهرة في 1968م، باسم «القديس لويس: حياته، وحملاته على مصر والشام».

(3) انظر: يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص5.

(4) أنَّا كومنين ابنة الإمبراطور أليكسيس الأول Alexis 1er، ولدت في 1083م، وتوفيت في 1148م، وكانت على دراية بالأدب اليوناني، والشعر، والفلسفة. انظر: Cahen C. ; op. cit. p 95.

(The Alexiad)[1] ولعلّه المصدر الوحيد الهام الذي يؤرخ للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر البيزنطية، بدأت في تدوينه في عام 1137م، وانتهت منه في عام 1148م، وهو سجل كامل لأعمال أبيها الإمبراطور ألكسيس كومنين الأول (Alexis Comnène 1er) (1081 ـ 1118م)، وترجع أهميّة الكتاب إلى ما يأتي:

* الكتاب هو مصدر معلوماتنا الوحيد عن طبيعة العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وبين البيزنطيين والسلاجقة.
* فيه أصدق تصوير للكراهية التي يكنها البيزنطيون للفرنجة، وما بينهما من انعدام الثقة، وتوقع الغدر والخيانة.
* بيان الأعمال الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في الأراضي البيزنطية.
* الكتاب مشحون بكراهية المسلمين، والافتراء عليهم، وهو أمر متوقع من الأميرة، بسبب الإذلال الذي شعر به البيزنطيون نتيجة لهزائمهم المتكررة أمام المسلمين، وبسبب ضياع ممتلكاتهم في آسيا الصغرى التي استولى عليها السلاجقة.
* يبدو في الكتاب ـ وبصورة سافرة ـ إعجاب الفتاة بأبيها وتمجيده.

5 ـ **ناصر خُسْرو (Naser-e Khosrow)**[2]، صاحب كتاب «سَفَر نَامَهْ»[3]، وهو وصف لرحلته إلى مكّة المكرّمة، لأداء فريضة الحج التي بدأها في جمادى

---

(1) الكتاب في الأصل باليونانية القديمة، وله نشرات كثيرة بكل اللغات، منها الطبعة الإنجليزية التي ترجمتها إليزبيث داويس Elizabeth Dawes، ونشرت في لندن، في سنة 1922م، وترجم سهيل زكار مقتطفات من الكتاب في الموسوعة الشامية، المجلد السادس.

(2) أبو معين الدين، ناصر بن خُسْرو بن حارث، القباذياني، شاعر، كاتب، رحّالة، فارسي الأصل، إسماعيلي المذهب، ولد في 394 هـ/ 1004م، وعمل في بلاط الغزنويين، والسلاجقة، وتوفي بعد 465هـ/ 1072م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية: أشرف على الترجمة سمير سرحان، نشر مركز الشارقة للإبداع الفكري، وطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، جـ 31، ص 9854، وانظر أيضاً: موسوعة المورد CD من إصدار أونلاين Online، مادة «ناصر خسرو» شخصيات تاريخية.

(3) الكتاب باللغة الفارسية، ومترجم إلى أكثر اللغات الأوربية، وترجمه يحيى الخشاب إلى العربية، وطبع في القاهرة، وأعادت طبعه دار الكتاب الجديد، في بيروت، في 1970م.

الآخرة سنة 436هـ/ ديسمبر سنة 1045م، وزار في أثناء ذلك كلاً من: فلسطين، وسوريَّة، ومصر، وترجع أهميَّة الكتاب إلى ما يأتي:

* وصف الكاتب الأماكن التي زارها، وبيَّن ما فيها من حيوان ونبات، وبيئتها الطبيعية، ومناخها.

* صوَّر الأشخاص الذين لقيهم في صورة معبِّرة دقيقة، وصوَّر المجتمع المعاصر له؛ فتحدَّث عن المهن التي يزاولها الناس، واللغات التي يتحدّثون بها، والنقود التي يتعاملون بها، وأنواع المكاييل والموازين السائدة بينهم...

* في الكتاب تصوير للعادات، والعقائد الدينية السائدة، وطبيعة الصراع بين الدولتين العباسية السنية في بغداد، والفاطمية الشيعية في مصر.

* لعلَّ أهم ما في الكتاب وصف القلاع، والحصون، وأنواع التحصينات في المدن؛ ساعده في ذلك تجربته السابقة، ومعرفته الواعية باعتباره واحداً من الموظفين الإداريين السابقين في أكبر دولتين في بلاد الشرق هما الدولة الغزنوية، والدولة السلجوقية.

هذا عرض موجز لخمسة من المصادر الغربية الأوربية، أو المصادر الشرقية غير العربية المتوفِّرةِ لنا، راعت فيها الباحثة فيها أنْ يكون مؤرخوها ممن أتاحت لهم مناصبهم ـ أو مكانتهم العلمية، والاجتماعية ـ الاطلاع على وثائقها، أو التقاء حكامها، وكبار رجالاتها من ذوي الأمر، والرأي، والمشورة فيهم.

والملاحظات العامة على المصادر الأوربية هي:

1 ـ أكثر المؤرخين الأوربيين إمَّا فرسان يفكِّرون بسلاحهم لا بعقولهم، أو تجَّار أعماهم الطمع، أو قسس طمس الله على أعينهم، وأعمى قلوبهم؛ فاشتركوا جميعاً في تصوير العدوان على أنَّه حق مشروع لهم، وتنكَّروا لتعاليم الدين المسيحي الداعية إلى التراحم والتواصل، وأداروا ظهورهم لكل ما نادى به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من التسامح، ونبذ العنف؛ فنجد قساً مثل فوشيه الشارتري (Foucher de Chartre) يستشهد بأبيات لشاعر وثني هو أوفيد (Ovide) ليصوِّرَ وحشية جنودهم الصليبيين في قتل الأبرياء في بيت المقدس البلد الذي شهد عذاب

المسيح عليه السلام، وافتداءه الإنسان بنفسه، بحسب عقيدتهم، كما وظَّف آيات الكتاب المقدس الداعية إلى القتل لخدمة أهدافه[1].

2 ـ يظهر في كتاباتهم جهلهم التام بالدين الإسلامي وتعاليمه السامية؛ فكان «الكتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع بأنَّ المسلمين كانوا يعبدون الثالوث المكون من: أبولون، وماهون، وتيرفاجانا...»[2]، ولذلك لا يذكر في كتاباتهم لفظ المسلمين أبداً، وإنما تجري في أقوالهم ألفاظ مثل: «الوثنيين، والشرقيين، والكفَّار، والأتراك، والأحباش، والهراطقة...».

3 ـ أبرز ما في كتاباتهم أمران:

الأول: التعصب الأعمى لكل ما هو غربي، ففرسانهم شجعان، ورجالهم مثال الشهامة والمروءة، وأعمالهم مجيدة، وعقيدتهم صحيحة، مؤيّدون بتأييد الله وقوته.. وأمَّا الشرقيون فهم جبناء، فاسدون، خائنون...

والآخر: الكراهية الشديدة للمسلمين، والرغبة الجامحة في أكل لحومهم، وشرب دمائهم، ويعبِّرون عن هذه الرغبة بصراحة.

4 ـ يتخذون من الأساطير والخرافات وسائل لخداع العامة، والترويج لزيفهم، فكثيراً ما نجد في كتاباتهم الحديث عن النور الذي يتراءى لهم، أو صور المسيح والقديسين في السماء، وادعاء العثور على الحربة المقدسة في أنطاكية، بل إنَّ واحداً من جيوشهم الشعبية كانت تتبعه («بطَّة» في سيره صوب الأراضي المقدسة اعتقاداً في أنَّ هذه البطَّة تلهمها الروح القدسيّة)[3].

---

(1) انظر: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمَّان، الأردن، 1990م، ص 75.

(2) انظر: كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، القاهرة، 1995م، ص 69.

(3) انظر: Prawer Yoshua; The Latin Kingdom of Jerusalem European Colonialism in the Middle Ages, London, 1973, p 16.

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية عبد الحافظ البنا باسم «الاستيطان الصليبي في فلسطين ـ مملكة بيت المقدس» ونشرته مؤسسة عين، في القاهرة، 2001م، ص 22، وسأشير فيما بعد إلى توثيق المعلومة في صفحات هذه الترجمة.

والسيد الإقطاعي الصغير إميخ (Emich) ـ كونت لايزنجن، ومن سادة بلاد الراين ـ صاحب الشهرة الواسعة في اللصوصية، والخروج على القانون يحشد بدوره جيشاً كبيراً، ضمَّ عدداً من النبلاء الفرنسيين والألمان؛ للتوجه إلى بلاد الشرق، ويزعم هذا اللص أنَّ في بدنه صليباً، من صنع الكرامات والمعجزات، وانحاز إليه عدد كبير من الحجاج الذين غلبت عليهم الحماسة الساذجة؛ فاعتقد بعضهم أنَّهم يقتفون في سيرهم أثر الإوَزَّة التي تلقّت الوحي من الرب[1].

وأمَّا عن الباقي من المصادر العربية التي استعانت بها الباحثة في دراستها فهي مدرجة في الملحق الذي يحمل عنوان «فهرس المصادر والمراجع».

وأمَّا بالنسبة للمصادر الأجنبية فتنوِّه الباحثة عليها بما يأتي:

تعددت المصادر الأجنبية الخاصة بالحرب الصليبية وكثرت في تلك الفترة؛ فقد تناولتها أقلام الكتاب المسيحيين من مختلف القوميات فكان منها المصادر اللاتينية، والمصادر البيزنطية والمصادر الأرمينية، أو السريانية، إلى جانب المصادر التي كتبها مسلمون بالفارسية أو التركية.

المصادر اللاتينية:

ينقسم مؤرخو الحملة الأولى من اللاتين ثلاثة أقسام:

1 ـ **شهود العيان**: وهم من الفرسان، أو القسس الذين رافقوا الجيوش الغازية إلى الأرض العربية، وهم أربعة:

- **ريمون الجيلي (Raymond d'Agilers)** صاحب كتاب تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس (Historia Francorum qui Ceperunt Ierusalem)، ولهذا الكتاب ترجمات عربية كثيرة، منها: ترجمة حسين محمد عطية بعنوان «ريموندا جيل تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس»، وترجمة سهيل زكار المنشورة في المجلد السادس من كتابه «الموسوعة الشامية» بعنوان «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» وعلى هاتين الترجمتين اعتمدت.

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1، ص 211.

ـ توديبود، بطرس (Petrus Tudebodus-Pierre Tudebode) صاحب كتاب تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس (Historia de Hierosolymitano Itinere)، ولهذا الكتاب ترجمة عربية لحسيْن محمد عطية، وعليها اعتمدت.

ـ فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres – Fulcher of Chartres) صاحب كتاب تاريخ الحملة إلى القدس (Gesta Francorum Iherosalem Peregrinantium) ولهذا الكتاب ترجمات كثيرة إلى اللغة العربية، منها ترجمة سهيل زكار في المجلد السادس من «الموسوعة الشامية»، وترجمة زياد العسلي، وترجمة قاسم عبده قاسم، وقد اعتمدت الترجمات الثلاث؛ وذلك لأهمية الحواشي والتعليقات فيها.

ـ مجهول (Anonymi) صاحب كتاب أعمال الفرنجة وحجاج القدس (Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum).

وترجمه حسن حبشي بعنوان «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، ونشره في القاهرة في سنة 1958م، ثم ترجمه سهيل زكار، ونشره في المجلد السادس من «الموسوعة الشامية» بعنوان «يوميات صاحب أعمال الفرنجة»، وعلى هذه الترجمة الأخيرة اعتمدت في دراستي.

2 ـ **المؤرخون الزائرون للأراضي المقدسة بعد الحملة الأولى، ولم يشاركوا في الحرب، وهم ثلاثة:**

ـ **إيكهارت الأوري** (**Ekkehart d´Aura - Ekkehard of Aura**) صاحب كتاب بيت المقدس (Hierosolymita).

ـ **رادولف الكاني** (**Radulph of Caen - Raoul de Caen**) صاحب كتاب أعمال تنكريد في الحملة إلى بيت المقدس (Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana).

ـ **كفارو الجنوي** (**Caffaro**) له كتابان:

الأول: تحرير مدن الشرق (Liberatio Civitatum Orientis).

والآخر: حوليات جنوه (Fonti per la storia d´ Italia).

3 ـ **المؤرخون الذين لم يشاركوا في الحرب، ولم يروا الأراضي المقدسة وهم ثمانية:**

- **ألبرت دكس (Albert d'Aix)** وهو صاحب كتاب الحملة المسيحية لأخذ مدينة بيت المقدس، وتطهيرها، واستردادها (Liber Christianorum Emundatione et Restitutione Sancatae Hierosolymitanae Ecclesiae).
- **روبرت الراهب (Robert Monachus - Le Moine)** صاحب كتاب تاريخ بيت المقدس (Historia Iherosolimitana).
- **جيبر النوجني (Guibert de Nogent)** صاحب كتاب أعمال الرب التي تمت على أيدي الفرنجة (Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos).
- **بالدريك الدولي (Baldric of Dol - Baudri de Bourgueil)** صاحب كتاب تاريخ بيت المقدس (Historia Jerosolimitana).
- **أوردريك فيتاليس (Orderic Vital)** صاحب كتاب تاريخ الكنيسة (Ecclesiastical History).
- **فنسان البوفي (Gvincent de Beauvais)** صاحب كتاب (Selecta e speculo Historiali Vincentii Belocensis).
- **جوتوييه المستشار (Gauthier le Chancelier)** صاحب كتاب حرب أنطاكية (De bello Antiocheno).
- **جونتر الباريسي (gunther de Paris)** صاحب كتاب الشذرات (Solimarius).

وأهم المؤرخين بعد الحملة الأولى:

- **الصوري، وليم (A William of Tyre)** وله تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (The Sea A History of Deeds Done Beyond).
- **أمبرواز (Ambroise)** صاحب كتاب صليبية ريتشادر قلب الأسد (the Crusade of Richard Lion - Heart).
- **جان الجوانفيلي (Jean de Joinville)** صاحب كتاب تاريخ القديس لويس (Histoire de Saint Louis).

- روتلان (**Rothelin**) صاحب كتاب تتمة تاريخ وليم الصوري (Continuation de Guillaume de Tyre).

- متى الباريسي (**mathieu de paris**) صاحب كتاب تاريخ إنجلترا (Historia Anglorum).

المصادر البيزنطية:

ـ أنَّا كومنين (**Anne Comnèn**) صاحبة كتاب الألكسياد (The Alexiad)، وللكتاب ترجمة عربية لمقتطفات منه في الموسوعة الشامية، المجلد السادس، وعليها اعتمدت.

المصادر السريانية أو «الأرمينية»:

- متى الرهاوي (**Mathieu d'Êdesse**) روايات لمؤرخ رهاوي مجهول وللكتاب ترجمة قام بها سهيل زكار في المجلد الخامس من كتابه «الموسوعة الشامية»، وعلى هذه الترجمة اعتمدت.

- السوري، ميخائيل (**Michel le Syrien**) روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير، وللكتاب ترجمة قام بها الدكتور سهيل زكار في المجلد الخامس من كتابه «الموسوعة الشامية»، وعلى هذه الترجمة اعتمدت.

المصادر الشرقية:

- **رحلة ناصر خسرو**: الذي ابتدأ رحلتَهُ «سفر نامه» في جمادى الآخرة سنة 436هـ/ ديسمبر سنة 1045م، وقد ترجمها يحيى الخشاب إلى العربية، وعلى هذه الترجمة اعتمدت.

الرحَّالة الغربيّون:

زار كثير من الرحَّالة الأراضي المقدّسة في تلك الفترة، ودوَّنوا رحلاتهم في كتب على قدر كبير من الأهميَّة؛ لأنَّها تصوِّر أوضاع الصليبيين في إماراتهم، وأهم تلك الرحلات هي:

- رحلة حج ساوولف (The Pilgrimage of Sawwulf) ولها ترجمة إنجليزية قام بها برونلو (Brownloe)، وترجمة عربية قام بها سعيد البيشاوي، وعليها اعتمدت[1].

- رحلة حج دانيال الروسي (The Pilgrimage of The Russian Abbot Daniel in The Holy Land) ولها ترجمة إنجليزية قام بها ولسون (Wilson).

- رحلة إرنول (Ernoul: The Accaount of Palestine) ولها ترجمة إنجليزية قام بها كوندر (Conder).

- رحلة جاك الفتري (Jacques de Vitry: History of Palestine) «تاريخ فلسطين»، ونشرت لها ترجمة إنجليزية قام بها أوبري استيوارت (Aubrey Stewart) نشرها في لندن، في 1896م، باسم تاريخ القدس «The History of Jerusalem».

وفي خاتمة الدراسة وضعت الباحثة لها فهارس متنوعة تساعد الباحثين في مجال الدراسات الصليبية على الاستفادة منها.

وأخيراً:

من المأثور قول سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق ﷺ: «**إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِذَوِي الْفَضْلِ ذَوُو الْفَضْلِ**»؛ فعرفاناً من الباحثة بالجميل، وحسن الصنيع تتقدَّم بجزيل الشكر، ووافر التقدير للأستاذة الفاضلة الدكتورة نجاح صلاح الدين القابسي على ما قدَّمته لها من توجيه ونصح وإرشاد ومساعدة لا يوفِّيها الشكر حقَّها، ولا ينقص منها عجزها عن التعبير عنها؛ فكل ما في هذه الدراسة من خير فهي صاحبته، وإليها نسبته، وكل ما فيها من نقص وعيب فمن الباحثة.

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾

---

(1) طبعت باسم «رحلة حج سايولف لبيت المقدس»، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق عمَّان، الأردن، 1997م.

الفصل التمهيدي

أحوال بلاد الشام

في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

أحوال بلاد الشام
في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : توطئة جغرافية للشام والجزيرة: الاسم، والموقع.

المبحث الثاني : تاريخ الشام السكاني (الديموجرافي).

المبحث الثالث : الشام ساحة الصراع العقائدي:

* المسلمون: السنة والشيعة.
* المسيحيون: النساطرة، واليعاقبة، والأرثوذكس...
* اليهود: الربانيون، والقراؤون.

المبحث الرابع : الواقع السياسي في الجزيرة والعراق قبل السلاجقة

* الموصل: بنو عقيل.
* ديار بكر: آل مروان.
* الحِلَّة: آل مزيد.
* حلب: بنو مرداس، وبنو عقيل.
* شيزر: بنو منقذ.

المبحث الخامس: السلاجقة: النشأة، فتنة البساسيري، الاستيلاء على بغداد، وإماراتهم في الشام وما بينها من صراع.

المبحث السادس: الفاطميون: أطماعهم في الشام، صراعهم مع السلاجقة، صراعهم مع البيزنطيين في البر والبحر.

المبحث السابع: أثر الصراع بين القوى السياسية على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية.

المبحث الأول
توطئة جغرافية

الشام والجزيرة: الاسم، والموقع

أولاً: الشام[1]: بلاد واسعة تضم أجناداً، وثغوراً[2].

الاسم: تسمَّى «الشأم» بالهمز، ويجوز فيه «الشام» بلا همز، وهو بلاد يذكّر ويؤنث[3].

---

(1) انظر: في جغرافية الشام: ابن الفقيه، أبى بكر بن محمد: مختصر كتاب البلدان، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1885م ص 91، وانظر: الإصطخري، إبراهيم بن محمد: مسالك الممالك، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1927م، ص 55، وانظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد صورة الأرض، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1938م، جـ 1/ ص 165، وانظر: المقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1906م، ص 151، وانظر: البكري، عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مصر 1364هـ، جـ 3/ ص 773، وانظر الحموي: معجم البلدان جـ3/ ص 311، وانظر: أبو الفداء تقويم البلدان ص 225، وانظر: أطلس العالم، مكتبة الصغار، بيروت، 1996م، وأطلس العالم C.D. 2000.

(2) الأجناد أقسام إدارية، تضم عدداً من الكُوَر «القُرى السكنية»، تتجمع فيها الجند، ويقبضون أعطياتهم فيها، وهي في الشام خمسة أجناد: جند قنّسرين، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص، ويضم الشام من الثغور: المصيصة، وطرسوس، وأذَنَة، وأنطاكية، وجميع العواصم من مرعش، والحدث وبغْراس، والبلقاء، وغير ذلك.

انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان مادتي: «أجناد الشام» جـ 1/ ص 103 و «الشأم» جـ3/ ص 312.

(3) انظر: مادة «شأم» في: الجوهري، إسماعيل بن حمَّاد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م، جـ 4/ ص 218، وابن منظور، محمد بن مكرَّم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة الجوائب، 1300هـ، جـ12/ ص 315، والفيروزبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مكتبة النوري، دمشق، د. ت، جـ 4/ ص 134. وانظر: المنهاجي السيوطي المصري: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط مكتبة بلدية الإسكندرية رقم 6273/3217 ج تاريخ، ص 144/ أ.

قال الصفدي: هذا الحرف من العجائب؛ لأنَّ الناس يغلطون فيه كثيراً، حتَّى أهله... وغالب الناس - بل كلهم - يقولونه ممدوداً، فيقولون فيه «الشآم»... وأقبح من هذا أنَّهم يؤنثونه، ولفظه مذكر[1].

ويعلل الجغرافيون العرب لهذا الاسم - كعادتهم - بإرجاعه إلى اشتقاق من مادة لغوية، أو نسبة إلى اسم شخص، فهو إمَّا مأخوذ من اليد الشُؤْمى، وهي اليسرى، وإمَّا جمع شامة لكثرة قراها، وتداني بعضها من بعض فشُبِّهت بالشامات، أو سمِّيت باسم سام بن نوح عليه السلام لأنّه أول من نزلها، فجعلت السين شيناً لتغيُّر اللفظ الأعجمي[2].

ومن المعروف أنَّ هذا الاسم أطلقه العرب على ما كان يسميه اليونانيون «سورية»، وقد انحدر الاسم إلى اللغات الأوربية من كلمة (Syrus) الرومانية التي تعنى كل شخص يتكلّم اللغة السريانية أي: (الآرامية)[3].

الموقع: تقع الشام في غربي قارة آسيا، تحدّها «البادية» من جهة الشرق بدْءاً من أَيْلَة[4] إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم[5]، ومن الغرب بحر الروم، ومن

---

(1) انظر: ابن مكى، عمر بن خلف: تثقيف اللسان، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ص 114، وانظر: الحريري، القاسم بن علي: درة الغواص، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص 199، وانظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعرفة، القاهرة، 1966م، ص 124، وانظر: الصفدي: تصحيح التصحيف، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص 327، وانظر: القسطنطيني، علي بن بالي: خير الكلام، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ص37.

(2) انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 312.

(3) انظر: حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وآخرين دار الثقافة، بيروت، 1958م، 1/62.

(4) أيلة: مدينة صغيرة عامرة، على ساحل بحر القُلْزُم، وهي آخر الحجاز، وأول جنوبي الشام وأظنها مدينة «إيلات» الحالية. انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 1/ ص 292.

(5) حد الشام الذي يلي الروم ثغور الجزيرة، وهى: مَلَطْيَة، والحَدَث، ومَرْعَش، والهارونيّة، والكنيسة، وعين زربة، والمصيصة، وآذنه، وطَرَسوس. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق جـ 1/ ص 165، وانظر: المنهاجي: المصدر السابق، ص 145/ أ.

الشمال بلاد الروم، ومن الجنوب مصر، وتيه بني إسرائيل «سيناء»، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح[1].

ولا نكاد نجد اتفاقاً بين الجغرافيين القدماء في رسم حدود الشام؛ فقد تتسع رقعتها، وقد تضيق، فمنهم من جعلها من الكوفة[2] إلى الرملة[3]، ومن بالس[4] إلى أيلة[5]، ومنهم من أضاف إليها ثغور الجزيرة، وسماها ثغور الشام، و «ذلك أنَّ كلَّ ما كان وراء الفرات فمن الشأم، وإنَّما سُمِّي من مَلَطْيَة إلى مَرْعَش «ثغور الجزيرة» لأنَّ أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون، ويغزون، لا أنَّها من الجزيرة وأعمالها»[6] وارتفع بها بعضهم إلى طرف بحر طرابزون والخزر[7].

ثانياً: الجزيرة[8]: وتسمَّى «جزيرة أَقُور، أو أبور» تقع بين دجلة والفرات، وتشتمل على ديار ربيعة، ومضر، وبعض ديار بكر، وقد ضمُّوا إليها كثيراً من البلاد

---

(1) رفح: مدينة عامرة، على مرحلة من غزّة، بينها وبين عسقلان يومان. انظر: الحموي معجم البلدان جـ 3/ ص 54، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 109.

(2) الكوفة: مدينة في جنوبي الفرات، على شعبة منه.
انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 300.

(3) الرملة: مدينة عظيمة، وهي عاصمة فلسطين، بينها وبين القدس مسيرة يومين.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 69، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 240.

(4) بالس: مدينة صغيرة على شط الفرات الغربي، غربي الرَّقّة.
انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 368.

(5) انظر: ابن الفقيه: المصدر السابق ص 92.

(6) انظر: ابن حوقل: المصدر السابق جـ 1/ ص 168.

(7) انظر: ابن حوقل: المصدر نفسه جـ 1/ ص 165.

(8) انظر: في جغرافية الجزيرة: ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، تحقيق دوجويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1989م، ص 94، وانظر: ابن الفقيه: المصدر السابق، ص128، وانظر: الإصطخري: المصدر السابق، ص 71، وانظر: ابن حوقل: المصدر السابق، جـ1/ ص208، وانظر: المقدسي: المصدر السابق، ص 136، وانظر: البكري: المصدر السابق، جـ3/ ص 782، وانظر: الحموي: معجم البلدان، جـ2/ ص 134 وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً والمختلف صقعاً تحقيق فرديناند فستنفيلد، عالم الكتب، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة جوتنجن، 1846م ص 103، وانظر: أبو الفداء: المصدر السابق، ص 273، وانظر: أطلس العالم، وانظر: أطلس العالم 2000، C.D.

الفراتية، من برّ الشام، لقربها من البلاد الجزريّة مثل الرَّحبة، وغيرها، وهي صحيحة الهواء، واسعة الخيرات، وبها مدن جليلة، وحصون وقلاع كثيرة وبلاد عامرة، ومن أمّهات مدنها: حرَّان، والرُّها، والرَّقَّة.

وقد ادَّعى ابن العبري أنَّ أرض الجزيرة: الرُّها وحَرَّان... هي الشام الخارجة، وأمَّا دمشق ولبنان، وباقي البلاد فهي الشام الداخلة[1] وإنْ كانت الباحثة لا تعْرفُ غيره قسّم الشام هذين القسمين فإنَّما هو تقسيم دال على مدى ارتباط القطرين، وتداخلهما.

وهذا الموقع يجعل من بلاد الشام هدفاً إستراتيجياً للمد الصليبي، لا لأنَّها تتوسط قلب المشرق العربي فقط، بل تتوسط قلب العالم القديم، مركز الحضارات، مهبط الديانات.

تاريخ الشام السكاني (الديموجرافي)[2]:

كانت غالبية سكان الشام في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عرباً، ويتوزعون على المذاهب الآتية:

المسلمون في الشمال: وأكثرهم شيعة من أتباع المذهب الاثني عشري[3] وقلّة

---

(1) انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 11.

(2) كلمة الديموجرافي Démographie تعنى العلم الذي يدرس أصول التجمعات الإنسانية دراسة إحصائية. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 286.

(3) الشيعة الاثنا عشرية: واحدة من فرق الشيعة التي ترى الإمامة في اثني عشر إماماً تبدأ بالإمام علي ﷺ، وتنتهي بالإمام محمد المهدي، وقد انقسمت بعد إمامة الحسن العسكري إلى إحدى عشرة فرقة. انظر: عبدان، الداعي القرمطي: شجرة اليقين، تحقيق عارف تامر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م، ص66، وانظر: الإسفرائيني، عبد القاهر بن طاهر الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين، دار المعرفة، بيروت، د ت، ص 47، وانظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968م، جـ 1/ ص 169، وانظر: العربي، إسماعيل: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الآفاق الجديدة، المغرب، سنة 1993م ص 43.

من الإسماعيلية[1] في الشمال والجنوب، وأمّا في الشمال الغربي من حلب فكان هناك بعض الدروز[2]، وكان النصيرية[3] في جبل بهراء.

وكان السنَّة يقطنون في المدن الكبرى، وفي الجنوب.

كما كان هناك عدد كبير من المسيحيين منتشرون في ريف الشام ومدنه الكبرى، بعضهم من أصل أرمني، وفي أيديهم معظم الأعمال الإدارية.

وبالإضافة إلى المسلمين والمسيحيين وجدت جالية كبيرة من اليهود في المدن الكبرى، وبخاصة في دمشق وحلب[4].

الشام ساحة الصراع العقائدي:

كان المسيحيُّون واليهود منقسمين أيضاً فرقاً ومذاهب.

في مجمع خلقدونيا (Chalcedn)[5] في سنة 451 م انقسمت الكنائس المسيحية الأربع الكبرى إلى مجموعتين:

---

(1) الإسماعيلية: فرقة من فرق الشيعة، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وانتشرت دعوتهم انتشاراً واسعاً في جميع البلاد العربية. انظر: الجنَّابي: العيلم الزاخر، مخطوط مكتبة محمد راغب، استنبول، رقم 983 ص 400/ أ، انظر: العربي: المرجع السابق، ص 46.

(2) الدروز: طائفة دينية، تعيش في لبنان، ودمشق، وحوران، ويقال: إنَّ أصلهم يرجع إلى قطَّاع الطرق الآتراي Ituraci في آسيا الصغرى، ولا يعرف عقيدتهم إلاَّ «العقال» منهم. انظر: العربي: المرجع السابق ص 172.

(3) النصيرية: من مشبّهة الشيعة، تقول كتب الفرق: إنها تنسب إلى محمد بن نصير النميري، ذهب الصفدي إلى أنّهم ينسبون إلى نُصَيْر مولي علي بن أبى طالب الذي قال له: أنت إله، فأبعده وحرَّقه بالنار، فقال: لو لم تكن إلهاً ما عذَّبت بالنار... انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات 27/101، انظر: العربي: المرجع السابق ص 372.

وانظر: Dussaud R.; Histoire et Religion des Nosairis, Paris, 1900, p.120.

(4) انظر: زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص 79.

وانظر: Zakkar Suhayl; The Emirate of Aleppo, 1004 - 1094, Beirut, 1971. p.235.

(5) خلقدونيا Chalcedn: مدينة بحرية قديمة تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى، على البسفور تجاه استنبول، أسسها الميغاريون في القرن 7 ق. م. وعقد فيها عدة مجامع مسكونية. انظر: موسوعة المورد C D.

الأولى: اللاخلقدونيون، وهم رعايا الكنيسة السريانية الأنطاكية القبطية ويقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح بعد الاتحاد.

الأخرى: الخلقدونيون، وهم رعايا الكنيستين: الرومانية اللاتينية والرومانية البيزنطية ويقولون بالطبيعتين للمسيح بعد الاتحاد[1].

فمن الفرق المسيحية كان: النَّسَاطِرَة[2]، واليَعَاقِبَة[3]، والأرثوذكس[4]، والمُلْكيُّون[5]...

---

(1) انظر: عبده، سمير: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام، دار علاء الدين، دمشق، سنة 2000م، ص44، وانظر له أيضاً: المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً، دار علاء الدين دمشق، سنة 2000م، ص 61.

(2) النساطرة: نسبة إلى نسطوريوس Nestorius وهو قس سوري، تولّى بطريركية القسطنطينية في عام 428 م، وهو القائل: إنَّ للمسيح طبيعتين، أو شخصيتين: إلهية، وبشرية، واعتبره مجمع إفسوس Ephesus، في عام 431م هرطوقياً، ونفي إلى الصحراء الليبية، وفيها هلك نحو سنة 440 م. انظر: موسوعة المورد، وانظر: ألبير بابيه: تاريخ الفكر الحر، ترجمة عاطف علي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1996م، ص64.

(3) اليعاقبة Les Jacobins: هم السريان الغربيون القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، والتابعون لبطريركية أنطاكية، وقد ظهرت فرقة دينية ثورية تحمل الاسم نفسه في سنة 1789م في فرنسا. انظر: ألبير بابيه: المرجع السابق ص 126، وانظر: قاسم عبده: أهل الذمة، دار المعارف، القاهرة، 1977م ص 106، ودائرة المعارف الإسلامية جـ32/ ص 9920.

(4) الأرثوذكس Orthodox: هذه الكلمة تعني: الرجوع إلى الأصول، أو «الاعتقاد الصحيح»، وجاءت وصفاً لأكثر من طائفة: كالكنيسة السريانية الأرثوذكسية، والروم الأرثوذكس..
انظر: عبده: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ص 44.

(5) المُلْكيّون: هم جماعة من السريان الأنطاكيين، انفصلوا عن الكنيسة الأم، وانضموا إلى الروم الخلقيدونيين، فأُطْلق عليهم هذا الاسم في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي؛ لأنّهم تركوا إيمان الآباء والأجداد السريان وقالوا بمقالة «مرقيان» ملك الروم، وقد يقال لهم أيضاً: الروم واليونانيون، وهم اليوم الروم الأرثوذكس، وعنهم تفرع السريان الموارنة، في القرن السابع الميلادي، وبقيت الكنيسة المارونية مستقلة.
انظر: عبده: المرجع السابق، والصفحة نفسها.

ومن الفرق اليهودية كان: الربَّانِيُّون[1]، والقَرَّاؤون[2]...

هذه الطوائف المتعدِّدة، والعقائد المختلفة جعلت من سكان سوريّة مجتمعاً ممزق الأوصال، تقطّعت منهم الأرحام، وفسدت بينهم المودّة، فهم جميع وقلوبهم شَتَّى «وكان هذا النِّزاع من الأسباب التي زادت تجَزُّؤ بلاد الشام عمقاً، وقوته ضعفاً... ولم تكن العلائق بين النصارى واليهود والمسلمين دائماً على وفاق، بل غالباً ما توفَّرت أسباب الخلاف ووجد النِّزاع»[3].

الواقع السياسي في الجزيرة والشام قبل قدوم السلاجقة (سنة 450هـ/1059م).

كانت البلاد تحت حكم عدد من الإمارات المستقلّة، في كل من مدن: الموصل، وديار بكر، والحِلّة، وحلب، وشيزر...

وفيما يلي عرض موجز لهذه الإمارات.

---

(1) الربَّانيون: الكلمة العبرية «Rabbis» تعنى: الحاخامات، أو الفقهاء، وهي في معناها الأصلي تعنى الرجل العظيم، الحكيم العاقل، ويطلق عليهم أيضاً: الأحبار، والحاخامات وهم الذين فسّروا التوراة المكتوبة، وتأوّلوها، وابتدعوا الشريعة الشفوية «التلمود» وجعلوه فوق التوراة، وهم الذين يتولّون الأمور الدينية؛ فيقيمون الصلاة وينظرون في شكاوى الناس، ويعلّمون الأولاد.

انظر: مادة «ربانيون» في موسوعة اليهود واليهودية C D.

(2) القرَّاؤون: مصطلح «قرَّائيم» العبري يعنى: «أهل الكتاب»، وهم فرقة يهودية متأثرة بالتفكير الديني الإسلامي، ومقرها القدس، وتقوم تعاليمهم على رفض الشريعة الشفوية «التلمود» وعدم الإيمان به، في الوقت الذي طرحت فيه منهجاً لتفسير التوراة المكتوبة «المقرَّا» يعتمد على القياس والعقل، ويعتبر القرن العاشر الميلادي هو عصرهم الذهبي، سقطوا بعده في حرفيّة التفسير، الأمر الذي قلَّص نفوذهم، وحوّلهم إلى فرقة صغيرة آخذة في الاختفاء.

ولأنَّ هذه الفرقة أسسها عنان بن داود في العراق، في القرن الثامن الميلادي، لذلك كان العرب يسمّونها «العنانية» نسبة إلى مؤسسها، وبسبب انشقاقهم عن اليهود الحاخامية، واختلافهم معهم في الأصول فقد كان العداء بينهم شديداً مما جعل اليهود الحاخاميّون يعملون على طردهم من فلسطين، ومصر، وإسبانيا.

انظر: مادة «قرَّاؤون» في موسوعة اليهود واليهودية C D.

(3) انظر: زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص 79.

إمارة الموصل[1]:

أسسها أبو الذَّوَّاد[2] في سنة 380 هـ/ 990 م، وهو رجل من «كلاب» بطن من بطون قبيلة «عقيل» وعقيل عشيرة عربية كبيرة، ينتهي نسبها إلى قبائل مضر العربية، كانت تسكن العراق ويدينون بالولاء والتبعية لآل حمدان، في حلب، ويدفعون لهم الخراج، ولمَّا ضعفت الدولة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة الحمداني تملّك أبو الذَّوَّاد الموصل، وتولاَّها من بعده أخوه مقلَّد[3] في سنة 387 هـ/ 997م اتسعت مملكته، ونفَّذ إليه الخليفة القادر بالله[4] اللواء والخِلع؛ فاستخدم من الترك والدّيلم ثلاثة آلاف فارس، وأطاعته عرب خفاجة، وامتدّ نفوذ بني عقيل على

(1) الموصل: مدينة عظيمة، قديمة الأس، على طرف دجلة، في شمالي العراق وهي إحدى قواعد الإسلام. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 223.

(2) أبو الذَّوَّاد، محمد بن المسيِّب بن رافع العقيلي، إقبال الدولة، كان حاكم نصيبين، ثم استولى على الموصل، وأقرَّه عليها بهاء الدولة البويهي، ثم أبعده عنها بعد سنتين، وتوفي سنة 387هـ/ 997م، وقيل في السنة التي قبلها. انظر: أبو شجاع، محمد بن الحسين: ذيل تجارب الأمم، تحقيق آمدروز، مطبعة شركة التمدن، القاهرة، 1916م، ص 300، وتاريخ الإسلام للذهبي [381 ـ 400] ص129، و158، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 98.

(3) أبو حسَّان، مقلَّد بن المسيَّب بن رافع، حسام الدولة (ت 391 هـ/ 1000م) كان أعور، شاعراً، بارعاً في سياسته. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء 13/5، وانظر له أيضاً: تاريخ الإسلام «الطبقة الثلاثون» وفيات سنوات [381 ـ 400] ص 260، وانظر الصفدي: الشعور بالعور، تحقيق عبد الرزاق حسين، دار عمّار، عمّان، الأردن، 1994م ص 221، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص283.

(4) أبو العباس، أحمد بن إسحاق بن المقتدر، أمير المؤمنين = (336 ـ 422 هـ/ 947 ـ 1031م) كان حازماً، مطاعاً، حليماً، كريماً، دامت أيّامه 41 عاماً.

انظر: ابن دقماق: المصدر السابق جـ 1/ ص 189، وانظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، القاهرة، سنة 1988م، ص 478، وانظر: الزركلي: المرجع السابق 1/95.

كثير من الأنحاء على عهد أميرها السادس مسلم بن قريش[1] حتى وصل من بغداد إلى حلب.

بعد وفاة مسلم بدأ الضعف يدب في أوصال هذه الإمارة حتى قضى عليها كربوغا[2] القائد التركي في سنة 489 هـ/ 1096م ثمَّ مكّن السلجوقيين منها[3].

إمارة ديار بكر[4]:

في سنة 380 هـ/ 990م، تولَّى أبو علي الحسن بن مروان الكردي حكم حصن كَيْفَا[5]، بعد وفاة خاله «باد»[6] فشمل حكمه أهم مدن ديار بكر، وأعلن ولاءه لآل بويه في بغداد، وتولّى بعده أربعة أمراء، أطاعوا الخليفة الفاطمي في مصر.

---

(1) أبو المكارم، مسلم بن قُرَيْش بن بدران، شرف الدولة، العقيلي (ت 478 هـ/ 1085م) أمير مستقل، حكم الموصل وديار ربيعة ومضر، واستولى على قلعة حلب وحرَّان، وأخذ الإتاوة من بلاد الروم. انظر: العظيمي، محمد بن علي: تاريخ العظيمي، تحقيق كلود كاهن، المجلة الآسيوية، باريس، 1938م، ص 353، وانظر: ابن شدّاد، عز الدين محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ويحيى عبارة، المعهد الفرنسي، ووزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1978م، جـ 3/ ص 42، 88، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ25/ ص 575، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 7/ ص222.

(2) له أخبار متفرّقة في: الحسيني، صدر الدين علي بن ناصر: زبدة التواريخ «أخبار الأمراء والملوك السلجوقية»، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ، بيروت، 1986م، ص ص 155 ـ 156.

(3) انظر: استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت 1986م، ص114، وانظر: سليمان، أحمد السعيد: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ1/ ص248.

(4) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلى بكر بن وائل، وتقع غربي دجلة إلى نصيبين، ومنها حصن كيفا، وآمد، وميَّافارقين.. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 494.

(5) حصن كَيْفَا: ويقال له «كَيْبَا»، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 265.

(6) كان باد من الأكراد الحميدية، وقيل: باد لقب له، واسمه أبو عبد الله الحسين بن دوسك، وقيل: باد اسمه، وكنيته أبو شجاع، كان قاطع طريق، جمع ثروة، وكثر أتباعه، فاستولى على ديار بكر، وطمع في الموصل، وعليها قتل. انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1958م، جـ 4/ ص 323.

كان أعظم أمراء الدولة نصر الدولة[1] الذي حكم إحدى وخمسين سنة، وبلغت الدولة في عصره أقصى اتساع لها، وحكم من بعده ابنه نظام الدين[2] الذي مات عن سن عالية، وكان كثير الإحسان إلى الرعيَّة، وبلغت ميَّافارقين[3] في أيَّامه أقصى ازدهار لها، وعمّرت في أيَّامه أحسن عمارة، وحصَّن أسوارها، وبنى الجسر على دجلة شرقي آمد[4].

وقضى السلاجقة على دولتهم في 489 هـ/ 1096م[5].

---

(1) أبو نصر، أحمد بن مروان بن دُوسْتك (ت 453 هـ/ 1061 م) صاحب ميَّافارقين وديار بكر، كان عالي الهمة، حازماً، مقبلاً على اللذات، مدحه الشعراء، ووزر له أبو القاسم الحسين بن علي المغربي الشهير.
انظر: ابن الأزرق، أحمد بن يوسف: تاريخ الفارقي «الدولة المروانية» تاريخ ميَّافارقين وآمد، تحقيق بدوي عبد اللطيف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959م، ص 93، وانظر: تاريخ الإسلام، للذهبي [441 ـ 460 هـ] ص 337، وانظر: اليافعي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي، بيروت 1970م، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن 1339 هـ، جـ 3، ص 74.

(2) نصر بن أحمد بن مروان الكردي (ت 472 هـ/ 1079م) كان ملكاً عادلاً حسن السيرة، وبنى الجسر الذي على دجلة شرقي آمد. انظر: ابن الأزرق: المصدر السابق، ص 199، وراجع الفهرس، وانظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ 3/ ق 1/ ص 217، وجـ 3/ ق 2/ ص 552، وانظر: أبو الفداء، إسماعيل بن محمد: المختصر في أخبار البشر دار المعرفة، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بمصر، 1325 هـ، جـ2/ ص194، وانظر: ابن الوردي، عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي «تتمة المختصر»، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م، جـ 1/ ص 380، وانظر: تاريخ الإسلام، للذهبي [471 ـ 480 هـ] ص 79.

(3) ميَّافارقين: أشهر مدينة بديار بكر، وكان بها بيعة من عهد المسيح ، وهي مدينة حصينة، عليها سور، وفي شمالها جبل.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 235، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 278.

(4) آمد: بلد قديم حصين، تحيط دجلة بأكثره، مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار، وبساتين.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 56، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 286.

(5) انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 116. وانظر: سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ 1/ ص 251.

إمارة الحِلَّة[1]:

كان بنو مَزْيَد ـ وهم بطن من قبيلة بنى أسد العربية ـ منتشرين في صحارى القادسيّة[2]، على الساحل الأيسر لدجلة، وكان أبو الحسن، سند الدولة، على بن مَزْيَد (ت 408 هـ / 1017م)[3] والياً للبويهيين، ثم خرج على بهاء الدولة البويهي[4] في سنة 387 هـ / 997م، ثم رجع إلى طاعته، واستقل بالبلاد في سنة 403 هـ/ 1012م وهكذا قامت دولة بنى مزيد، حكم منهم ثمانية أمراء، كانوا يلقّبون بملوك العرب، شهر منهم اثنان، هما:

سيف الدولة صدقة[5]، ونور الدولة دُبَيْس[6] الذي أُخْرِج من بلاده أكثر من

---

(1) الحِلَّة: حلّة بني مزيد، وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمَّى «الجامعين» في غربي الفرات، أنشأها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبَيْس في سنة 495 هـ/ 1101م وكانت أجمة تأوي إليها السباع، فبنى بها المساكن الجليلة وقصدها التجار، وصارت أفخر بلاد العراق.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 294، وانظر له: المشترك وضعاً 143، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 299.

(2) القادسيَّة: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينها وبين العُذَيْب أربعة أميال.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 291، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 298.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 7/ ص 188، 299.

(4) أبو نصر، بهاء الدولة، أحمد بن عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه (360 ـ 403هـ/ 971 ـ 1012م) من ملوك الدولة البويهية، وكان ظلوماً، غشوماً، سفَّاكاً للدماء، ولم يكن في بنى بويه أظلم منه.

انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 7/ ص 268، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 7/ ص 291، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 1/ ص 196، وفيه خلط بينه وبين تاج الدولة.

(5) أبو الحسن، سيف الدولة، صدقة الأول بن منصور (442 ـ 501 هـ/ 1050 ـ 1108م) باني مدينة الحِلّة، كان من شجعان العرب المعروفين النابهين، وتاريخه حافل بآثاره ومآثره.

انظر: الصفدي: الوافي بالوافي جـ 16/ ص 296 وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 3/ ص 203.

(6) أبو الأعز، دُبَيْس الثاني بن صدقة، الأسدي، أمير العرب (463 ـ 529 هـ/ 1071 ـ 1135م) كان نبيلاً، جواداً ممدحّاً، بعيد الصيت، من الشجعان الأشداء، موصوفاً بالحزم والهيبة.

انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ19/ ص 612، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص336.

مرَّة، ثم قتله السلطان مسعود[1]، في سنة 529 هـ/ 1135م، وترك ثلاثة أبناء، تـولَّى أمر الحلَّة منهم ابنه صدقة الثاني الذي قتل في سنة 532 هــ/ 1137م، فتـولَّى الأمـر من بعده أخوه محمد، ولكن أخاه الثالـث علياً هاجمـه في سـنة 540 هــ/ 1145م، واستولى على الحلّة، وتوفي مسموماً في إحدى الروايـات وذلـك في سـنة 545 هــ/ 1150م، وبموته انقرضت دولتهم[2].

إمارة حلب[3]:

تمرَّد أبو علي صالح بن مرداس[4] على الفاطميين في حلب وأعلن استقلاله بها في سنة 417 هـ/ 1026م، وقُتِل في الحرب بينه وبين الفاطميين، فخلفـه ابنـه شـبل الدولة[5] في سنة 420هـ/ 1029م ولكنه قتل أيضاً، واحتلَّ القائد الفاطمي أنوشتكين

---

(1) أبو الفتح، مسعود بن محمد بن ملكشاه، السلطان غياث الدين، السـلجوقي (ت 547هــ/ 1152م) كـان ليِّن الجانب، كبير النفس، ما ناوأه أحد إلاَّ ظفر به، وقتل كثيراً من الأمراء والخلفاء.

انظر: الذهبي: سير أعـلام النـبلاء جــ 20/ ص 384، وانظـر: الـصفدي: الـوافي بـالوافي جــ25/ ص514.

(2) انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 117، وانظر: سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ 1/ ص 253.

(3) حلب: من قواعد الشام، في شماله الغربي، وهي مدينة عظيمة، قديمة، واسعة، كثيرة الخيرات، طيّبـة الهواء، وهي قصبة جند قِنَّسْرين.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 282، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 266.

(4) أبو علي، صالح بن مرداس بن إدريـس، الكـلابي، أسـد الدولـة (ت 420 هــ/ 1029م) أول أمـراء المرداسيين، ثار في الرَّحبة، واستولى عليها، ثم على حلب، وامتد ملكه إلى عانة.

انظر: الصفدي: الوافي بالوافي جـ 16/ ص 272، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ3/ ص 196.

(5) أبو كامل، شبل الدولة، نصر بن صالح (ت 429 هـ/ 1038م) استولى عـلى حلـب بعـد مقتـل أبيـه، تغلّب على الروم في أنطاكية، وسيَّر إليه المستنصر الفاطمي جيشاً كثيفاً، بقيـادة أنوشـتكين، وانتهـت المعركة بقتل شبل الدولة.

انظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سـهيل زكـار، دار الكتـاب العـربي دمـشق، 1997م، جـ 1/ ص 197، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 8/ ص 24.

حلب إلى أنْ تمكّن معز الدولة[1] من استردادها منه بعد خمس سنوات، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها، واضطر معز الدولة إلى تركها للفاطميين في سنة 449هـ/ 1057م.

حكم حلب ستة أمراء من المرداسيين، كان أعظمهم: رشيد الدولة[2] الذي استطاع بعزيمته القضاء على حكم الفاطميين في حلب، ولكن الخلافات بين أفراد الأسرة جعلت أمر الدولة إلى زوال على يد بني عقيل في سنة 472هـ/ 1079م[3].

وكان آخر أمرائها جلال الدولة[4].

---

(1) أبو علوان، معز الدولة، ثِمَال بن صالح، ابن الزَّوْقَلِيَّة (ت 454 هـ/ 1062م) رئيس بنى كلاب، كان كريماً، شجاعاً، له مواقع مع الفاطميين، والروم.

انظر: ابن العديم: المصدر السابق جـ 1/ ص 215، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 16/ ص11، وانظر: الزركلي: المصدر السابق جـ 2/ ص 100.

(2) أبو سلامة، محمود بن نصر بن صالح، الكلابي، اختلفت المصادر في لقبه، فقيل: شبل الدولة، ورشيد الدولة، وعزّ الدولة، ومعز الدولة (ت 467 هـ/ 1075م) كان شجاعاً حازماً، كان يداري المصريين والعباسيين لتوسط داره بينهما، مدحه الشعراء.

انظر: تاريخ العظيمي ص 360، وانظر: ابن العديم: المصدر السابق جـ 1/ ص 253، وانظر: الذهبي: تاريخ الإسلام [461 ـ 470] ص 244، وانظر له: سير أعلام النبلاء جـ 18/ ص 358، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 25/ ص 200، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص189.

(3) انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 111، وانظر: سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ 1/ ص246، وانظر: طرخان، إبراهيم علي: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة سنة 1978م ص 234.

(4) سابق بن محمود بن نصر (ت بعد 473 هـ/ 1080م) كان ضعيفاً في سياسته، صانع الترك، ثم نفى إلى أنطاكية.

انظر: تاريخ العظيمي ص 361، وانظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، جـ 8/ ص 305 ـ 307.

إمارة شِيزَر[1]:

كانـت شـيزر تابعـة للإمبراطـور ألكـسيس كـومنين (Alexis Comnène)، بمقتضى اتفاقية عقدت بينه وبين أسقف البارة[2] الذي اتخذ شيزر مقراً له[3]، وعندما فكَّر سديد الملك[4] في الاستيلاء عليها وتأسيس إمارة فيهـا اضـطر إلى بنـاء حـصن فوق تل قريب منها يعرف بتل الجسر، وجمع فيـه أهلـه وعـشيرته، وكـان بـين التـل وشيزر حصن آخر يعرف بالخراص، استولى عليه بالسيف ليتخذ منه موقعاً لقطع الماء والميرة عن شيزر[5].

---

(1) شيزر: قلعة حصينة، وقرية أرضها خصبة ذات أشجار وبساتين، قـرب المعـرَّة، بينهـا وبـين حمـاة يوم، يمر بها نهر العاصي من شمالها، أسست كمستوطنة عسكرية سـلوقية، ولعبـت دوراً هامـاً في تاريخ الشام، وبخاصة في أيـام الـصراع العـربي البيزنطـي في عهـد الإمبراطـور نيقفـور فوكـاس Nicephorus Phocas.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 383، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلـدان ص 262، وانظـر: فيز، فولفغانغ مولَّر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمـة محمـد وليـد الجـلاد دار الفكـر، دمـشق، 1984م، ص69.

(2) البارة: بليدة، وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين، وتتبع اليـوم منطقـة أريحـا، محافظة ادلب. انظر: الحموي: معجم البلـدان جــ 1/ ص 320، وانظـر لـه أيـضاً: المـشترك وضـعاً ص35.

(3) انظر: Honingmann: Encyc. Isl. 1934, V. IV, p 309 - 311, Art (Shaizar).

(4) أبو الحسن، علي بن مقلّد بن نصر، الكناني (ت 479 هـ/ 1086م) أمير شجاع، كريم، أديب، شـاعر، وهو مؤسِّس إمارة بني منقذ في شيزر.

انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 113، وانظر: العماد الكاتب: خريدة القصر (شعراء الـشام) جـ1/ ص 552، وانظر: الحموي: معجم الأدباء جـ 5/ ص 220، وانظر: ابن العديم: زبـدة الحلـب جـ1/ ص 306، وانظر:

Derenbourg H.; Ousama Iben Mounkidh: Extrait du Livre de Baton par Ousama, Paris, 1889-1895, p 516.

(5) انظر: تاريخ ابن الوردي جـ 2/ ص 82، واسم الحصن فيه «الجراص» وانظر: الـشيخ، محمـد محمـد مرسي: الإمارات العربية في بلاد الشام، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، فـرع الإسـكندرية، 1980م، ص296.

لم يشأ سديد الملك أنْ يلجأ إلى الحرب لاستخلاص الحصن من أيدي الروم، فلا قدرة له على مواجهتهم، وإنَّما لجأ إلى الحيلة والتودُّد إلى المسيحيين من السكان، فعندما استولى على حصن الخراص أحسن إلى أهله، وتسامح معهم في عقيدتهم، ولم يكلّفهم أموالاً، بل ضَمَّ خنازيرهم إلى شائه في المرعى، فأحبُّوه وسعوا إلى تمليكه أمرهم، فأظهر تمنُّعاً أولاً، ثم قبل دخول الحصن والاستيلاء عليه صلحاً، ويبدو أنَّه دفع مبلغاً من المال إلى الأسقف وإلى الوالي البيزنطي ديمتري (Démétrios) إرضاءً لهما[1].

وضع سديد الملك سياسة إمارته التي تعتمد على تجنب الدخول في حرب مع واحدة من القوى المتصارعة في شمالي الشام الثلاث، وهي قوة العرب في الموصل تحت حكم شرف الدولة مسلم العقيلي، وقوة سلاجقة الشام في دمشق، وقوة سلاجقة الروم في قُونِيَة[2]؛ وذلك بالدخول في طاعة القويّ منهم، وشراء الأمن والسلامة بالمال، ودفع الجزية له، وسار على نهجه كل أمراء بني منقذ من بعده.

حكم شيزر بعد سديد الدولة ثلاثة أمراء، هم:

- نصر بن علي[3]،

---

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 123، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ3/ ص31. وانظر: Honingmann: Encyc. Isl. 1934, V. IV, p 309 – 311, Art (Shaizar).

(2) قُونِيَة: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها سكنى ملوكهم.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 415، وانظر: ابن سعيد، علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري، بيروت، 1970م، ص 186، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 382.

(3) أبو المرهّف، نصر بن علي بن مقلّد، عز الدولة (ت 491 هـ/ 1097م) أمير عربي، شجاع، شاعر.

انظر: العماد الكاتب: خريدة القصر (شعراء الشام) جـ 1/ ص 568، وانظر: الذهبي: تاريخ الإسلام [491 ـ 500] ص 109، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 27/ ص 77، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 8/ ص 26.

- وسلطان بن علي[1]،
- ومحمد بن سلطان[2].

وترجع أهمية إمارة بنى منقذ إلى الدور الذي لعبه أمراؤهم في مقاومة البيزنطيين، والصليبيين الذين فشلوا جميعاً في الاستيلاء على حصنهم، بالرغم مما تعرّضوا له من حصار، وغزو داخلي، ولعلَّ أخطر تلك المحاولات تلك التي قام بها الباطنيّة الذين دخلوا الحصن بالخديعة في نحو سنة 507 هـ 1114م، معتمدين على أعوان لهم في داخل الحصن، ومنتهزين فرصة نزول بني منقذ من شيزر في يوم عيد الفصح لمشاركة النصارى أفراحهم، ولكن استطاع بنو منقذ القضاء على هذه المؤامرة، وخلص الحصن لأصحابه قوياً عزيزاً، إلى أنْ دمره الزلزال تماماً في سنة 552 هـ/ 1157م[3].

السلاجقة:

النشأة: اختلفت أقوال المؤرخين في أصل السلاجقة[4] ولعلَّ أقرب الأقوال

---

(1) أبو العساكر، سلطان بن على بن مقلَّد (ت 543 هـ / 1148م) أطول الأمراء عصراً وأكثرهم مشاركة في أحداث عصره.

انظر: بدران، الشيخ عبد القادر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م، جـ 6/ ص 189، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 15/ ص 297، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ3/ ص 110.

(2) تاج الدولة، محمد بن سلطان، ناصر الدولة (ت 552 هـ/ 1157م) آخر أمراء بنى منقذ، قتل تحت الردم في الزلزال الذي دمر الحصن وقتل معه جميع من بقي في شيزر من بني منقذ.

انظر: ابن الأثير: الباهر ص 110، وانظر: أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مطبعة وادي النيل، بمصر، سنة 1288 هـ، جـ 1 ص 111، وانظر: الشيخ: المرجع السابق ص 370.

(3) انظر: ابن الوردي: المصدر السابق جـ 2/ ص 28، وانظر: الشيخ: المرجع السابق ص 352.

(4) نسبهم الفردوسي إلى «آل أفراسياب» انظر: الفردوسي، أبو القاسم منصور: الشاهنامة، ترجمة الفتح البنداري، وتحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1993م، جـ 1/ ص82، ونسبهم الدوادري إلى الفرس، انظر: الدوادري أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق بيراند رانكه، ومحمد السعيد وآخرين، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1981م، جـ 7/ ص 21.

إلى الصواب أنّهم كانوا من الأتـراك «الغُـزّ»[1]، وتعـرف قبيلـتهم باسـم «قِنِـق»، أو «قِينِيق»[2]، وهي واحدة من قبائل الغز الأربع والعشرين التي انقسمت إليها القبائل التسع الرئيسة.

---

(1) الغُزّ، أو الأوغوز، أمة عظيمة من الترك، واسمها لفظ تركي مأخوذ مـن الأغـز أو طوقـوز (أي: الرقم تسعة بالتركية) إشارة إلى عدد قبائلهم، وتقع بلادهم في آسيا الوسطى تتاخم بـلاد جرجـان وطبرستان من أملاك المسلمين وهناك قبائل كثيرة مـن الغـز ـ مـنهم الـسلاجقة ـ أطلـق علـيهم «التركمان» وكان الغز أول الشعوب الجنوبية التي هـاجرت مـن أراضـيها، وكوّنـت فريـق الـترك الجنوبيين، وكوَّن القفجاق فريق الترك الغربيين، وقبـل القـرن العـاشر كـان الجغرافيـون العـرب يميِّزون بين الغز، والترك؛ فالمقدسي يعدد المدن، ومنها سوران ويقول: «هي ثغر من الغز» ويـذكر مدناً أخر، ويقول: «نحو الترك.... ثغران على التركمانيين.. » ثم أصبح اللفظان مترادفـين في بـدْء القرن العاشر؛ فابن فضلان لا يفرِّق بينهما بل يبدو من قوله: «أفضينا إلى قبيلة من الـترك يعرفـون بالغويّة». وقوله: «وملك الترك الغزيّة» يقال له: «يبغـو»، هـو اسـم الأمـير.. «أنَّ الغـز هـم مـن الترك». انظـر: رسـالة ابـن فـضلان، تحقيـق د.سـامي الـدهان، بـيروت، سـنة 1987م، ص 91، ص101.

ويرى سهيل زكار أنّ «التركمان» اسم سياسي شمل عدداً من القبائل التركية.

انظر: المقدسي: المصدر السابق ص 274، وانظر الكاشغري: ديـوان لغـات الـترك تـصحيح كليـسي معلم، دار الخلافة العلية، استنبول سنة 1332 ـ 1335 هـ جـ 1/ ص 27 وانظـر: زكـار: مـدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 34، وانظر: أبو النصر، محمد عبد العظيم: السلاجقة «تاريخهم السياسي والعسكري»، مؤسسة عين للدراسـات والبحـوث الإنـسانية والاجتماعيـة، القـاهرة، سـنة2001م، ص27، وانظر: Barthold W.; The Ghaznavids, Edinburgh, 1963, p. 214.

وانظر في أصل الاسم، ومعناه، واشتقاقه: سليمان، أحمد سعيد: تأصيل مـا ورد في تـاريخ الجـبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، سنة 1979م، ص 146، وأنكر الدوادري نـسبة الـسلاجقة إلى التركمان، وأنَّ جدهـم سلجوقاً كان في جملة عسكر بني بويه الديالمة، وزعـم أنّهـم مـن الـسامانية، ويُرْجِع أصلهم إلى الفرس من ملوك العجم، ولهم تاريخ مستقل. انظر: كنْز الدرر وجـامع الغـرر جـ 7/ ص 21.

(2) انظر: الكاشغري: المصدر السابق جـ 1/ ص 238.

كان الغز أهم القبائل التركية ويطلق عليهم «عرب الترك» و «رماة الحدق»[1] لمهارتهم في إصابة الهدف، وقد رأى ابن فضلان[2] أحَدَهم وقد مرَّت إوَزَّةٌ طائرة، فأوتر قوسه، وحرَّك دابّته تحتها، ثم رماها؛ فأصابها وأنزلها[3].

حتى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أصبح للغز نوع من الزعامة الخاصة باعتبارهم قبائل تابعة للإمبراطورية الخزرية[4]، وفي نهاية هذا القرن تحرّكوا غرباً عبر سهوب سيبريا متجهين نحو بحر الآرال[5]، وأغاروا على أشروسنة[6] ومنها إلى الأراضي الإسلامية، وقد كانوا مؤلفين من تسعة بطون، لكل منها أمير أو مقدّم يطلق عليه الجغرافيون العرب لقب «دِهْقان»[7].

---

(1) انظر: أبو النصر: المرجع السابق ص 30.

(2) أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد 310 هـ/ 922 م) جغرافي عربي، رحالة، من مؤلَّفاتِهِ «رسالة ابن فضلان». انظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 1/ ص 195.

(3) انظر: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، 1987م، ص 103.

(4) الخزر: شعب تركي، من البداة، تقع أراضيه بين مجرى الفولجا الأعلى وجبال القوقاز وامتدت حتى نهر جيحون، وكانت لهم حروب طويلة مع المسلمين.

انظر: دنلوب د. م.: تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1987م، ص 40.

(5) الأَرَال: هو بحيرة «خوارزم» عند العرب، وتجاوره بلاد التركمان، والغز وهو قليل العمق، لا يصلح للملاحة البحرية.

انظر: لسترنج، لي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرسيس، وكوركيس عوّاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1985م، ص 486.

(6) أشروسنة: مدينة بين سيحون وسمرقند، من قواعد ما وراء النهر، والغالب عليها الجبال. انظر: لسترنج: المرجع السابق، ص 517.

(7) انظر: ابن حوقل: المصدر السابق جـ 2/ ص 387، وانظر: البيهقي، أبو الفضل محمد بن حسين: «تاريخ البيهقي أو صحائف مسعودي»، ترجمة يحيى الخشّاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1956م، ص 628 و801.

ينسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق[1]، الذي كان يلقّب بسباشي - يعني: مقدّم الجيش - وهو أوّل من دخل ديار الإسلام، واختار نواحي جَنْد[2] لإقامته، ودخل الإسلام على المذهب الحنفي مما قرّب بينهم وبين السامانيين[3] الذين عهدوا إليهم الدفاع عن أراضيهم وحماية دولتهم من غارات الترك غير المسلمين في مقابل المراعى الخصيبة التي سمحوا لهم برعيها، كما شاركوهم في صد غارات

(1) سلجوق بن دُقَاق - أو تُقَاق - مات أبوه، وعمره 18 سنة، فوَّض إليه ملك الترك إمارة الجيش، ويذكر الحسيني - وغيره من المؤرخين - أنَّ امرأة الملك كانت تتآمر عليه، وتغرى زوجها بقتله، فهرب إلى ديار الإسلام، وأسلم هو ومن معه وذلك في حدود سنة 375 هـ/ 985م، ويشكك سهيل زكار في صحّة هذه الرواية، ويرى أنَّ هجرة سلجوق بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم. انظر: الراوندي، محمد بن علي بن سليمان: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نشر محمد إقبال، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، وآخرين، دار القلم، القاهرة، 1960م، ص 146، وانظر: الحسيني: المصدر السابق ص24، وانظر: زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 36، وانظر: دحلان، السيد أحمد بن زيني: تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية، راجعه وصححه محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة 2000م، ص 49.

وفي اسمه خلاف كبير، والنطق الصحيح له سالجوك (Salskuuk) ويكتب في التركية الحديثة (Salquklu). انظر: أبو النصر: المرجع السابق ص 35 ح 5.

(2) جَنْد: مدينة عظيمة في تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 168

(3) الدولة السامانية (261 - 389 هـ/ 874 - 998م) نسبة إلى نوح بن سامان الذي أسس لأسرته دولة قوية فيما وراء النهر، عاصمتها بخارى، وكان لها فضل عظيم في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في تركستان ووسط آسيا.

انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بمصر سنة 1967م. جـ 9/ ص 514، وانظر: النرشخي، أبو بكر، محمد بن جعفر: تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، 1965م، ص 105، وانظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير البعلبكي دار العلم للملايين، بيروت، 1965م ص113.

القراخانيين[1] وبذلك تمكّنوا من تثبيت أقدامهم، وأخذت قوتهم تزداد، وشوكتهم تقوى، مما أكسبهم احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم[2].

نال سلجوق مكانة عظيمة، وأخذ ملوك المنطقة يطلبون مساعدته؛ فعندما اعتدى هارون بن إيليك خان[3] على أرض المنتصر الساماني[4] استنجد هذا الأخير بسلجوق، فأرسل إليه ابنه أرسلان على رأس جيش قويّ مكّن المنتصر من استعادة أرضه واسترداد ما أخذ منه[5].

مات سلجوق عن عمر قدَّره ابن الأثير بسبع ومائة سنة، وترك من الأولاد أرسلان، وميكائيل، وموسى.

غزا ميكائيل بعض بلاد الكفّار الأتراك، وفاز بالشهادة في سبيل الله تاركاً ثلاثة من الأولاد، هم: بيغو، وطغرلبك محمد، وجغري بك داود، وكان لهؤلاء الأبناء الثلاثة سلطان عظيم على عشائرهم، فأطاعوهم، وائتمروا بأمرهم، ونزلوا بالقرب من بخارى[6] على عشرين فرسخاً منها؛ فخافهم أميرها؛ وأساء جوارهم،

---

(1) أولى الدويلات التركية (320 ـ 609 هـ/ 932 ـ 1212م) والمعلومات عنها قليلة جداً. انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 129، وانظر: سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ1/ ص279.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 22.

(3) شهاب الدولة، هارون بغراخان بن موسى هو أول فاتح لبلاد ما وراء النهر وحاكم «كشغر»، توفي في سنة 383هـ/ 993م.
انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 130، وانظر: سليمان: الرجع نفسه، جـ1/ ص279.

(4) إبراهيم المنتصر بن نوح الثاني الساماني، جاهد في سبيل الحفاظ على عرش أجداده، ولكن الإسماعيلية قتلته في سنة 395 هـ/ 1005م.
انظر: سليمان: المرجع نفسه، جـ 1/ ص 277.

(5) انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، والموضع نفسه.

(6) بخارى: مدينة عظيمة مشهورة، في بلاد ما وراء النهر، كانت قاعدة ملك السامانيين، بينها وبين سمرقند ثلاثون فرسخاً.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 353، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 489، وانظر: لسترنج: المصدر السابق ص 504.

وأراد إهلاكهم والإيقاع بهم، فالتجؤوا إلى بغراخان ملك تركستان[1]، وأقاموا في بلاده[2].

ويبدو أنَّ الإخوة لم يطمئنوا إلى جوار بغراخان، ولم يثقوا به، وخافوا على أنفسهم من مكره وكيده؛ فاتفق طغرلبك وأخوه داود على ألاَّ يجتمعا معاً عند الملك، فإذا حضر أحدهما بقي الآخر في أهله، ولمَّا لم يستطع الملك جمعهما في وقت واحد أسر طغرلبك وحبسه؛ فجمع داود عشائره، وقصد بغراخان لتخليص أخيه، ووجّه إليه جيشاً كبيراً، واستطاع داود هزيمة الجيش، وتخليص أخيه من الأسر، وعادوا إلى جَنْد مرة ثانية، وقدَّموا مساعداتهم الحربية التي أسهمت في تصفية الدولة السامانية[3].

ملك بخارى إيلك خان[4] بعد القضاء على السامانيين، وعرف للسلاجقة فضلهم، ونال أرسلان بن سلجوق مَنْزِلة رفيعة عنده، وكان لإيلك خان أخ من أمّه هو علي تكين[5] الذي استطاع الهرب من أسر أخيه، وأنْ يستولي على بخارى بمساعدة أرسلان بن سلجوق، وهزما إيلك خان، واستقلا بالحكم[6].

---

(1) هو شهاب الدولة هارون المذكور في الصفحة السابقة، ح 1.

(2) انظر: العماد الكاتب: نصرة الفترة وعصرة الفطرة، ص 2/ أ، وانظر: ابن الأثير: المصدر السابق، والموضع نفسه.

(3) انظر: المصدر السابق، والموضع نفسه.

(4) إيلك، أو إليك، أو إيليك، أو ألك، أو أليك ـ ومعناها: الأول ـ كان في الأصل لقباً لنصر بن علي ـ وهو المقصود هنا ـ وهو فاتح ما وراء النهر، والمتوفى في 403 هـ/ 1012م، ثم أصبح لقباً لحكام ما وراء النهر. انظر: سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ 1/ ص 279.

(5) علي تكين أمير خارج عن طاعة الأسرة القراخانية، وكان يطمع في الانفراد ببلاد ما وراء النهر؛ فحبسه أخوه إيليك، ولكنه تمكَّن من الهرب.

انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 22.

(6) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 145، وانظر: ابن الأثير: المصدر السابق، والموضع نفسه.

نشأ عن التحالف بين على تكين وأرسلان صدام السلاجقة بالغزنويين؛ ذلك لأنَّ عليّ تكين كان العدو المعارض للسلطان محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي(1) الذي عبر نهر جيحون لملاقاة المتحالفين ضده؛ فهرب على تكين من بخارى، والتجأ أرسلان وجماعته إلى الصحراء خوفاً من الغزنويين، وفي هذه الغزوة أدرك ابن سبكتكين ما عليه السلاجقة من قوة وكثرة وشجاعة، مع استعدادهم للقيام بغزو بلاده، والاستيلاء على بعض الولايات التابعة له، إذا ما كان مشغولاً بحرب في الهند(2)، وحاول استمالتهم إليه، أو القضاء عليهم بالحيلة والمكر؛ فكتب رسالة إليهم، ليختاروا واحداً من بينهم، يعاهده، ويوقع معه المواثيق، واستجاب السلاجقة لهذه الرسالة، ثقة منهم بوفاء المسلمين بالعهد، وبعثوا إليه إسرائيل(3)، بعد أنْ اقترعوا عليه؛ فسار إليه في عشرة آلاف فارس، ولمَّا علم السلطان محمود بمقدمهم

---

(1) أبو القاسم، محمود بن سُبُكْتِكِين يمين الدولة (361 ـ 421 هـ/ 971 ـ 1030م) فاتح الهند، وواحد من كبار القادة المسلمين، ومن أعيان الفقهاء، وتنسب إليه كتب كثيرة منها «التفريد» في فقه الحنفية.
انظر: العتبي، أبو النصر محمد بن عبد الجبار: تاريخ اليميني، مطبعة بولاق، القاهرة، 1290هـ، يراجع الفهرس، فالكتاب كله في سيرته، وانظر: الصريفيني، إبراهيم بن محمد: المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م، ص 446، انظر: الكرديزي أو سعيد عبد الحي: زين الأخبار ترجمة محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة محمد الخامس الجامعية الثقافية، فاس، المغرب، 1972م، جـ 2/ ص 69، وانظر: ابن الصلاح، تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن: طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محيى الدين على نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1992م، جـ 2/ ص 881، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 25/ ص 196، وانظر: المنيني، أحمد بن علي بن عمر: الفتح الوهبي على تاريخ أبى نصر العتبي، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1286هـ، جـ2/ ص131، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 7/ ص 171.

(2) انظر: الراوندي: المصدر السابق، ص 148، وانظر: اليزدي، محمد بن محمد بن عبد الله: العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق عبد النعيم محمد حسانين، وحسين أمين، منشورات جامعة بغداد، سنة 1979م، ص 22.

(3) إسرائيل، هو لقب أرسلان بن سلجوق.
انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 22.

أرسل إلى إسرائيل رسالة يقول له فيها: «مقصودنا أنْ ننعم برؤيتك، والاستظهار بك؛ فاترك الجيش في مكانه، وأت مع خواصّك، وأعيان رجالك»[1]، فقدم إليه في ثلاثمائة فارس، من خيرة فرسانه، ومعه ابنه قتلمش[2] فأحسن السلطان استقبالهم، وبالغ في إكرامهم، ثم غدر بهم، وألقى عليهم القبض، وأرسلهم إلى بلاد ما وراء النهر، وسجن إسرائيل في قلعة كالنجر، ومات بها بعد سبع سنوات من السجن، وفشلت محاولة تهريبه[3].

كان لغدر السلطان محمود بالسلاجقة أسوأ الأثر في نفوسهم، وقضى على الثقة بينهم، وأخذ السلاجقة حذرهم، وبدءوا ملحمة الثأر من الغزنويين، بقيادة ميكائيل بن سلجوق الذي عبر نهر جيحون، ونزل بقومه في إقليم خراسان، وأكثروا فيه الفساد، وضجَّ الناس بالشكوى، مما جعل السلطان محمود يرسل الجيوش لقتالهم، وتعددت الوقائع الحربية بين الطرفين، وفي رباط فَرَاوَة[4] سنة 416 هـ/ 1025م قتل ميكائيل وقتل معه أربعة آلاف فارس[5].

---

(1) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 148.

(2) شهاب الدولة، قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، جد ملوك الروم، كان له قلاع وحصون بالعراق، وخرج على ابن عمه ألب أرسلان، وتقاتلا، وقتل قتلمش في سنة 456 هـ/ 1063م.

انظر: سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي: مرآة الزمان، نشر على سويم، أنقرة، 1968م، ص110، وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان،جـ5/ ص 71، وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 18/ ص 112، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 24/ ص 193.

(3) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 149، واليزدي: المصدر السابق ص 29، والعماد الكاتب: نصرة الفترة ص 13/ ب، وانظر له أيضاً: تاريخ دولة آل سلجوق ص 5.

(4) فراوة: مدينة متحضرة، بينها وبين نسا أربع مراحل، وهي رباط لخراسان في نحر المفازة، تقع بين دهستان وخوارزم، بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المأمون.

انظر: الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989م، جـ 2/ ص 693، وانظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص 245.

(5) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 154، وانظر: العماد الكاتب: نصرة الفترة ص 18/ ب.

قيام دولة السلاجقة الكبرى:

تولَّى قيادة السلاجقة بعد معركة فراوة اثنان من أبناء ميكائيل وهما جُغْرِيبِك داود[1]، وطُغْرِلْبك محمد[2] وهو القائد الأعلى للجيش،بالرغم من صغر سنه، وذلك لما اتصف به من صفات الفروسية، والشجاعة، والذكاء، وكان إلى جانب ذلك محبوباً من قومه، مطاعاً من جنده[3]، فصمم على إنشاء دولة قوية، ويعتبر هو المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية؛ فقد استطاع بمساعدة أخيه جغريبك من السيطرة

---

(1) جغري: الأمير داود بن ميكائيل بن سلجوق، صاحب خراسان، والد ألب أرسلان، توفي بسرخس عن سبعين عاماً في سنة 451 هـ/ 1059م، وكان فيه عدل وخير، وكان ينكر على أخيه ظلمه.

انظر: العماد الكاتب: نصرة الفترة 20/ أ، وانظر: ابن الجوزي: المنتظم جـ 8/ ص 198، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ 2/ ص 180، وانظر للذهبي الكتب الآتية: تاريخ الإسلام [441 ـ 460] ص 303، وسير أعلام النبلاء جـ 18/ ص 106، ودول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م، جـ 1/266، والإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق مصطفى بن علي عوض، وربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1993م، 1/300، والعبر جـ 2/ ص 297، وانظر: تاريخ ابن الوردي جـ1/ ص549 وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 11/ ص 171، وانظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1983م، نسخة مصورة عن طبعة مصر الأولى، 1951م، جـ 12/ ص 79.

(2) أبو طالب، ركن الدين، طغرلبك، محمد بن ميكائيل، أول ملوك السلاجقة، ملك العراق، وأرغم الخليفة القائم بأمر الله على تزويجه ابنته، وتوفي بالري، عن سبعين سنة في سنة 454 هـ/ 1062م.

انظر: العماد الكاتب: نصرة الفترة ص 22/ أ، وانظر: للذهبي الكتب الآتية: تاريخ الإسلام [441 ـ 460] ص 387، وسير أعلام النبلاء جـ 18/ ص 107، ودول الإسلام جـ 1/ ص 267، والعبر جـ2/ ص 304، والإعلام بوفيات الأعلام جـ 1/ ص 302، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 5/ ص 102، وانظر: ابن كثير: المصدر السابق جـ12/ ص 196، وانظر: ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة الأولى، د. ت.، جـ 3/ ص 294.

(3) انظر: الحسيني: المصدر السابق ص 30، وانظر: اليزدي: المصدر السابق ص 32.

على إقليم خراسان[1]، بعد نصرهما الحاسم على الغزنويين قرب مدينة نسا[2]، في سنة 426 هـ/ 1035م[3]، وانفتح بعدها الطريق واسعاً أمامهما لامتلاك خراسان كلها، واضطر السلطان مسعود ـ الذي تولَّى حكم الدولة الغزنويَّة بعد وفاة أبيه في سنة 421 هـ/ 1030م ـ إلى تقسيمها بين الإخوة الثلاثة فمنح بيغو إقليم «فراوة»، ومنح طغرلبك إقليم «نسا»، ومنح داود إقليم «دِهِسْتَان»[4]، وأعطى كلاً منهم منشوراً ولواء، وخلع عليهم خِلعاً غزنوية، واشترط عليهم حفظ الأمن ومنع أعمال السلب والنهب[5]، وكان لهذا الصلح أثر كبير في مستقبل الدولة السلجوقية؛ فقد اشتد بأسهم، وازدادت قوتهم وظهرت عليهم أبّهة الملك، وعظمة السلطان[6].

يبدو أنَّ الصلح بين السلطان مسعود والسلاجقة كان مجرّد حل مؤقت، اضطر إليه السلطان، على أمل أنْ يقضي عليهم عندما ينتهي من حروبه في بلاد الهند، ويجمع كل قوّاته ليفرغ لهم وخاصة بعد أنْ استولى داود على مرو[7] ـ عاصمة البلاد ـ في سنة 428 هـ/ 1036م؛ فأرسل السلطان إلى «سوباشي» أمير خراسان، وقائد الجيوش الغزنوية بها يطلب إليه محاربة أمراء السلاجقة، وإخراجهم

---

(1) خراسان: بلاد واسعة، بين العراق، والهند، عاصمتها مرو. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص350.

(2) نَسَا: مدينة بخراسان، بينها وبين مرو خمسة أيام. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ5/ ص 281.

(3) انظر: البيهقي: المصدر السابق، ص 520، وانظر: الراوندي: المصدر السابق ص 155، وانظر: حسين، حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الدول الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص323، وانظر: Cam. Med. Hist. V. IV, p303.

(4) دِهِسْتان: بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 492.

(5) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 157، وانظر: البيهقي: المصدر السابق ص 528.

(6) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 156.

(7) مرو: أشهر مدن خراسان، وعاصمة الإقليم، وهي مدينتان:
مرو الروذ: وهي على نهر عظيم، وأصغر من المدينة الثانية، وبينهما خمسة أيام. ومرو الشاهجان: وهي العظمى. انظر: معجم البلدان جـ 5/ ص 112.

من البلاد، والتقاهم على أبواب مدينة سرخس[1]، ودارت المعركة الفاصلة بين القوتين، وانتهت بنصر ساحق للسلاجقة[2]، سار بعدها طغرلبك فاستولى على نَيْسَابُور[3]، وجلس على عرش السلطان مسعود في سنة 432 هـ/ 1040م، وتلقّب بلقب «السلطان المعظّم ركن الدنيا والدين»[4]، وأخذ يسعى إلى الحصول على تفويض شرعي من الخليفة العباسي لحكم البلاد، وذلك في الوقت الذي قاد فيه الملك مسعود جيشاً جراراً من خمسين ألف فارس، وثلاثمائة فيل للقضاء على دولة السلاجقة، واستعادة أملاكه، والتقى الجيشان قرب مرو في مكان يعرف بدَنْدَانْقَان[5] حيث دارت آخر المعارك التي أنهت الدولة الغزنويّة، ومكّنت السلاجقة من جمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، وجدَّدوا العهد لطغرلبك سلطاناً على دولتهم وضربت باسمه السكّة في كل خراسان، كما خطب باسمه في نيسابور منذ سنة 429هـ/ 1037م[6]، واتّخذ من مدينة الري عاصمة لدولته.

رغب طغرلبك في دعم ملكه بإخوته، وأبناء عمومته، فقسّم البلاد بينهم كالآتي[7]:

(1) سرخس: مدينة قديمة، من نواحي خراسان، كبيرة، واسعة، في وسط الطريق بين نيسابور ومرو. انظر: معجم البلدان جـ 3/ ص 208.

(2) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 158، وانظر: البيهقي: المصدر السابق ص 600.

(3) نيسابور: أعظم مدن إيران، وتسمى «إيران شهر» وهي عاصمة إقليم خراسان، وأجمع مدنه للخير، ويسميها الفرس «نشاور» وقد نسي نيسابور.
انظر: ابن سعيد: المصدر السابق ص 160، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 450، وانظر: لسترنج: المصدر السابق ص 424.

(4) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 158، وانظر: ابن الأثير: الكامل جـ 8/ ص 26.

(5) دَنْدَانْقَان: بلدة على بعد عشرة فراسخ من مرو الشاهجان، على طريق سرخس. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق ص 379، وانظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 477.

(6) انظر: ابن الأثير: المصدر السابق جـ 8/ ص 26.

(7) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 165.

* أعطى عمَّه موسى بن سلجوق ثلاث مدن كبيرة، هي: بُسْت[1]، وهَرَاة[2]، وسِجِسْتَان[3].
* وأعطى جغريبك ـ أكبر إخوته ـ أكثر خراسان، واتّخذ من مدينة مرو قاعدة لملكه.
* وكان نصيب إبراهيم ينال ـ أخوه لأمّه ـ قُوهِسْتَان[4]، وجُرْجَان[5].
* وأعطى قاورد ـ وهو أكبر أبناء أخيه جغريبك ـ الطَّبَسَيْن[6]، وكَرْمَان[7].
* وأعطى أبا علي الحسن ـ وهو ابن عمه موسى بن سلجوق ـ كلاً من: بُوشَنْج[8]، وبلاد الغور[9].

---

(1) بُسْت: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، بينها وبين غزنين أربع عشرة مرحلة، من أعمال كابل، على شط نهر هندمند. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 414، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 344.

(2) هَرَاة: من أمهات مدن خراسان، بينها وبين كل من: نيسابور، ومرو، وسجستان أحد عشر يوماً. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 396، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 454.

(3) سِجِسْتَان «أو زابلستان»: إقليم عظيم، متصل بالهند، ويجاور فارس وكرمان، عاصمته زرنج، بينها وبين هراة ثمانون فرسخاً. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 190، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص340، وانظر: لسنج: المصدر السابق ص 372.

(4) قُوهِسْتَان: معناها: موضع الجبال، ويطلق على عدة أماكن في إيران، أشهرها الجبل المتصل بنواحي هراة، ويمتد حتى يتصل بقرب نهاوند وهمدان وبروجرد. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 416، وانظر له: المشترك وضعاً ص 362، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 444.

(5) جُرْجَان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص119، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 438.

(6) طَبَسَان: مدينتان: طبس كيلكى، وطبس مسينان، وهما في موضع واحد في بريّة بين نيسابور وأصبهان وكرمان. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 20، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 448.

(7) كَرْمَان: ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص 454، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 334.

(8) بُوشَنْج: بليدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 508، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 454.

(9) الغور: أو غورستان: ولاية واسعة بين هراة وغزنة. انظر: الإصطخري: المصدر السابق ص 153، وانظر: لسنج: المصدر السابق ص 458.

سمح طُغْرِلبك لأمراء البيت السلجوقي أنْ يفتح ما يجاوره من بلاد، ويتوسّع فيها كما يشاء، ويضمَّ ما يفتحه إلى ولايته، بشرط ألاَّ يعتدي على أملاك أمير سلجوقي[1].

استقرّت أمور الدولة السلجوقية، واتسعت حدودها، وعظم قدرها، ولم يبق أمام ملوكها إلاَّ الحصول على اعتراف شرعي بدولتهم من الخليفة العباسي القائم بأمر الله[2]، وهو شرط ضروري لبقائهم حكَّاماً في أرض الإسلام، ويجيز لهم جمع خراجها، وسن قوانينها، وتنظيم إدارتها[3]؛ فكتبوا إلى الخليفة رسالة يعلنون فيها عن قيام دولتهم، ونشرهم العدل بين العباد، وأنّهم قضوا على الفساد، وحكموا وفقاً لتعاليم الإسلام[4].

السلاجقة في بغداد:

في الوقت الذي قويَ فيه أمر السلاجقة، كانت الخلافة العباسية في بغداد تمر بمحنة قاسية، تحت وصاية بني بويه[5]، واستبدادهم بالسلطة، وكانوا من الشيعة

(1) انظر: العماد الكاتب: تاريخ آل سلجوق ص 11، وانظر: أبو النصر: المرجع السابق ص 54.

(2) أبو جعفر، عبد الله بن أحمد القادر بالله (391 ـ 467هـ/ 1001 ـ 1075م) أمير المؤمنين، بويع له بعد وفاة أبيه القادر في 21 من ذي الحجة سنة 422 هـ، كان كريماً، حليماً، حسن السيرة، مجتهداً في إصلاح الدين. انظر: ابن ظافر، علي الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة، وآخرين، مؤسسة حمادة، ودار الكندي، إربد، الأردن، 1999م، جـ 2/ ص 423 وانظر: ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة، دمشق، 1962م، ق/ 4، جـ 3، ص 566، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ17/ ص 20، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ4/ ص 66.

(3) انظر: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1985م، ص 24.

(4) انظر: الراوندي: المصدر السابق ص 166.

(5) ينتسب البويهيون إلى بويه رئيس قبيلة في الديلم، معروفة بالفوضى، وعدم الاستقرار، والخروج على الطاعة، وكان له ثلاثة أبناء، وهم:

أبو الحسن، علي، عماد الدولة، الذي استولى على أصفهان، وأرّجان في سنة 320هـ/ 932م. =

المتعصبين، فأرغموا السنيين على مشاركتهم أعيادهم، مما أوقع الفتنة بين طوائف الشعب، وعظم الشر بينهم[1]، ومن بين تلك الفتن التي شقت عصا المسلمين، وأكثرت بينهم القتل «فتنة العامّة» في بغداد، والتي نُهِب فيها ما في مساجد الشيعة من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور، كما نهب ما في التُّرب والدور، ثم أشعلت فيها النيران؛ فأحرقت الأضرحة «وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجر في الدنيا مثله... وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيين؛ فنهبوه، وقتلوا مدرس الحنفيّة أبا سعد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، وتعدّت الفتنة إلى الجانب الشرقي؛ فاقتتل أهل باب الطاق، وسوق بج، والأساكفة، وغيرهم»[2].

ثم كانت فتنة البساسيري[3] الذي لم يتورَّع عن تدبير مؤامرة للقضاء على

= أبو الحسين، أحمد، معز الدولة الذي استولى على شيراز في العام نفسه.

أبو علي، حسن، ركن الدولة الذي استولى على كازرون، وفتح الطريق أمام أخويه لاحتلال المناطق الشرقية، ثم دخلوا بغداد في سنة 334هـ/ 945م.

اضطر الخليفة العباسي أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله إلى الاعتراف بدولتهم، وأنعم عليهم بالألقاب التي عرفوا بها، وبعد أسابيع من دخولهم بغداد سمل معز الدولة عيني الخليفة، وعزله، ووضع مكانه أبا القاسم، الفضل، المطيع لله، وأصبح الخلفاء العباسيون لعبة في أيديهم، وأكثروا الفساد في البلاد، إلى أنْ زالت دولتهم في سنة 447هـ/ 1055م على يد السلاجقة.

انظر: استانلي بول: المرجع السابق، ص 134، وانظر: سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ 1/ ص 287.

(1) انظر: ابن ظافر: المصدر السابق جـ 2/ ص 427، وانظر: ابن الأثير: الكامل جـ 8/ ص 59، وانظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 179.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل جـ 8/ ص 59.

(3) أبو الحارث، أرسلان بن عبد الله (ت 451 هـ/ 1060م) قائد، ثائر، شيعي، من مماليك بني بويْهِ تركي الأصل، قدَّمه القائم العباسي على جميع الأتراك؛ فعظم أمره، وتلقَّب بالمظفَّر، وخطب له على منابر بغداد وخوزستان، ثم خرج على الخليفة، وطرده من بغداد وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر في سنة 450هـ/ 1059م، قتله جنود طغرلبك.

انظر: للذهبي: دول الإسلام جـ 1/ ص 265، وسير أعلام النبلاء جـ 18/ ص 132، والإعلام بوفيات الأحكام جـ 1/ ص 300، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ8/ ص340، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 8/ ص 287.

الخلافة العباسية السنيّة في بغداد، والعمل على إدخال العراق تحت النفوذ الفاطمي في مصر، بعد أن كان مقرَّباً من الخليفة القائم بأمر الله الذي كان «لا يقطع أمراً دونه»[1].

سار البساسيري إلى الرَّحَبَة[2]، وكَاتَبَ المستنصر[3] يطلب منه الإذن له في الدخول إلى حضرته، فأُشير على المستنصر بألاَّ يسمح له بالحضور، وأنْ يمدَّه بالرجال والمال[4].

تعهَّد البساسيري للخليفة المستنصر بأمرين:

الأول: القضاء على الدولة العباسية السنيَّة، وأنْ يقيم الخطبة له في بغداد.

---

(1) انظر: المقريزي، أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971م، جـ 2/ ص 232.

(2) الرحبة: هي رحبة مالك بن طوق: مدينة بين الرّقة وبغداد، على شاطئ الفرات، إليها تنسب الثياب الرحبية، وتعرف برحبة الشام.
انظر: للحموي: معجم البلدان 3/34، والمشترك وضعاً 203، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان 280، وانظر: الشريشي، أحمد بن عبد المؤمن: شرح مقامات الحريري البصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976م، مقدمة شرح المقامة الرحبية 1/374.
ومالك بن طوق بن عتاب، التغلبي ـ من بنى ثعلبة، وكنيته أبو كلثوم ـ قائد شجاع، جواد كريم، وكان شاعراً فصيحاً، وكان أميراً على الجزيرة.
انظر: الزركلي: المرجع السابق 5/262.

(3) أبو تميم، معد بن علي (420 ـ 487 هـ/ 1029 ـ 1094م) من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، مولده ووفاته فيها، أقيمت له الدعوة في بغداد واليمن.
انظر: ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق جـ 1/ ص 216، وانظر: المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ 2/ ص184، وانظر: ابن الوكيل، يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م، ص 56، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص266.

(4) انظر: المقريزي: المصدر السابق، جـ 2/ ص 233، وانظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة 1993م، ص 232.

والآخر: أنْ يردَّ طغرلبك عن الشام.

«فجُهِّزت إليه خزائن الأموال العظيمة على يد المؤيّد في الدين أبى نصر هبة الله بن موسى[1] في سنة ثمان وأربعين[2]، حيث لم يُتْرَك في خزائن أموال القصر شيء البتّة»[3].

لم يكتف المستنصر الفاطمي بما قدَّمه من دعم للبساسيري؛ بل عمل على توحيد كلمة الأتراك تحت زعامته، وأيّده بالعرب تحت زعامة دُبيس بن علي ـ أمير عرب الفرات ـ، وأضفى عليه الكثير من الألقاب مثل: الأمير، وسلطان ملوك العرب، وسيف الخلافة، وصفي أمير المؤمنين... كما منحه ولاية ما يفتح من البلاد في شرقي الفرات[4].

وبفضل العون الذي قدَّمه المستنصر للبساسيري، تمكَّن هو وأنصاره من إحراز نصر كبير على قوات السلاجقة التي بعث بها طغرلبك في سنة 449 هـ/ 1057م، في سِنْجَار[5] حيث لم ينج من القتل من قوات السلاجقة إلاَّ أقلَّ من مائتي فارس[6].

في الوقت الذي قويت فيه شوكة البساسيرى كان داعي الدعاة هبة الله الشيرازي قد أغرى إبراهيم ينال ـ أخا طغرلبك ـ بالانضمام للفاطميين، وأنْ تكون الخطبة لهم بالخلافة والإمامة مقدَّمة على خطبته، وخلع طاعة أخيه مما أشعل لهيب الحرب بين الأخوين، وانتهز البساسيري هذه الفرصة؛ فاستولى على بغداد في سنة

---

(1) أبو نصر، هبة الله بن موسى بن داود، المؤيّد في الدين، الشيرازي (ت 470 هـ/ 1078م) داعي الدعاة، من زعماء الإسماعيلية وكتّابها.

انظر: الزركلي: المرجع السابق جـ8/ ص 75، وانظر: كحّالة: المرجع السابق جـ13/ ص 144.

(2) يقصد سنة 448 هـ/ 1056م.

(3) انظر: المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ2/ ص 233.

(4) انظر: حسن إبراهيم: المرجع السابق ص 232.

(5) سنجار: مدينة مشهورة، من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيّام.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ3/ ص 262.

(6) انظر: ابن الصيرفي، علي بن منجب بن سليمان: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد السيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1990م، ص 44.

450 هـ/ 1058م، ودخلها بالرايات المستنصرية، وخطب يوم الجمعة ببغداد للمستنصر بجامع المنصور[1].

لم يكتب النجاح لثورة البساسيري، فبعد عام واحد فقط من إقامة الخطبة للفاطميين في بغداد، تمكَّن طغرلبك من إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى عرشه، بعد أنْ تم الصلح بينه وبين أخيه إبراهيم، واستطاع القضاء على فتنة البساسيري، وقتله في سنة 451 هـ/ 1059م، ولعلَّ أهم الأسباب التي أدَّت إلى التعجيل بالقضاء على هذه الفتنه هي: سوء الحالة الاقتصادية في مصر بعد أنْ أخلاها المستنصر من الأموال، وضعف عزيمة الشيعة بعد عودة داعي الدعاة إلى مصر، إلى جانب الأحقاد التي خلقتها المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري[2].

قويَ نفوذ السلاجقة، وعظم أمرهم بعد أنْ أعادوا الخليفة العباسي إلى مقرَّه، ولكنَّهم لم يمكّنوه من التصرف في أملاكه، بل سلكوا الطريق ذاتها التي سار عليها البويهيون من قبل؛ فقد استأثر طغرلبك بالسلطة من دونه، وسار على هذه السياسة كل من جاء بعده من سلاطين السلاجقة[3].

الفاطميون: أطماعهم في الشام

إنَّ خط الدفاع الأول عن استقلال مصر وأمنها هو فلسطين والشام، وقد ارتبط تاريخهما ارتباطاً وثيقاً منذ فجر التاريخ؛ لذلك وجَّه الفاطميّون كل جهودهم للسيطرة على الشام ليس من أجل أمن مصر فقط، بل لحصار أعدائهم العباسيين في بغداد، ولمد نفوذهم إلى الحجاز وشرقي الفرات، ولمَّا كانت مدن الشام بعضها خاضع للعباسيين، وبعضها واقع تحت سيطرة البيزنطيين لذلك اشتد الصراع بين العباسيين

(1) انظر: ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، د ت جـ5/ ص 6 ـ 12.

(2) انظر: حسن إبراهيم: المرجع السابق ص 234.

(3) انظر: محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، جـ2/ ص 152.

وحماتهم من السلاجقة، كما أدَّى إلى المواجهة بينهم وبين البيزنطيين في البر والبحر، وسأشير إلى أهمَّ تلك الأحداث التي كان لها أكبر الأثر في إضعاف الشام، وتمكين الصليبيين من الاستيلاء عليه، فمن ذلك:

* **ثورة بني الجراح في فلسطين:** كان مُفْرِج بن دَغْفَل[1] أمير بادية الشام، ثار على الفاطميين في الرّملة، في سنة 388 هـ/ 998م فأرسل بَرْجَوَان ـ الوصي على عرش الفاطميين ـ حملة كبيرة بقيادة جيش بن الصمصامة، تغلّب على ابن الجراح، حتَّى طلب الأمان فعفا عنه، وبقى في إمارته إلى وفاته[2].

عادت الفتنة إلى فلسطين عندما زيَّن الوزير المغربي[3] إلى حسَّان بن مفرج خلع طاعة الفاطميين، واستدعاء أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسيني ـ أمير مكة ـ ليبايعه بالخلافة[4].

---

(1) مفرج بن دغفل بن الجراح، من طيِّء (ت 404 هـ/ 1013م) كان إقطاعه الرملة بفلسطين، أكرمه المعز الفاطمي، وعفا عنه بعد عصيانه.

انظر: ابن الأثير: الكامل جـ7/ ص 145، و180، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 278.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ7/ ص 202.

(3) أبو القاسم، الحسين بن على بن الحسين، الوزير المغربي (370 ـ 418 هـ/ 980 ـ 1027م) وزير، من الدهاة، العلماء، الأدباء، الشعراء، ولد بمصر، وتوفي بميافارقين، ودفن بالكوفة، طبع من كتبه «السياسة».

انظر: الباخرزي، علي بن الحسن: دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، جـ 1/ ص 94، وانظر: الداودي، محمد بن علي: طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1972م، جـ 1/ ص 654، وانظر: العاملي، السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، 1986م، جـ27/ ص 6، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص 245، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ 4/ ص 30.

(4) انظر: المقريزي: الخطط المسماة «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، بيروت، 1959م، جـ 2/ ص157 و287.

رحَّب الأمير بهذه الدعوة، فادَّعى الخلافة، وأقام الخطبة لنفسه، وتلقَّب بالراشد بالله، واتّجه إلى الرملة، ونادى في الناس بالأمان، وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام[1].

استفحل أمر بني الجراح، وبسطوا سلطانهم على جنوبي بلاد الشام، بعد أنْ تمكّنوا من هزيمة الجيش الفاطمي الذي أرسله إليهم الحاكم بأمر الله في سنة 403هـ/ 1012م، مما جعل الحاكم يلجأ إلى الحيلة، ويعمل على استمالة بنى الجراح، وبذل لهم الأموال؛ فتخلّوا عن أمير مكّة الذي اضطر إلى الرجوع إلى بلده، وطلب الصفح من الخليفة الفاطمي[2].

ظلّت الحرب سجالاً بين بنى الجراح والفاطميين، فلم يوقف الصلح الحرب بينهما، واستعان حسَّان بن مفرج بن الجراح بصالح بن مرداس ـ أمير الكلابيين، وسنان بن عليان ـ أمير الكلبيين ـ وجدَّدوا حلفاً بينهم لإخراج الفاطميين، «ويتوزَّعون البلاد، فتكون فلسطين وما برسمها لحسَّان بن الجراح، ودمشق وما ينسب إليها لسنان بن عليّان وعشيرته، وحلب وما معها لصالح بن مرداس وبنى كلاب، ثمَّ إنَّهم طالعوا باسيل الملك بما تمَّ رأيهم عليه، وتوسَّلوا إليه أنْ ينجدهم بعساكر»[3].

أرسل الخليفة الظاهر الفاطمي[4] جيشاً بقيادة أنوشتكين الدِّزْبَرِيِّ، في سنة 420هـ/ 1029م تمكَّن من هزيمة المتحالفين، وقتل صالح بن مرداس، وهرب

---

(1) انظر: محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق جـ 2/ ص 140.

(2) انظر: المقريزي: الخطط، جـ 2/ ص 228.

(3) انظر: المسبحي، محمد بن عبيد الله: أخبار مصر، تحقيق وليم ميلود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ص 242، وانظر: الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1990م، ص 390.
وانظر: Wiet, G.; Histoire de la Nation Egyptienne, Paris, 1939,V. 4, p 216.

(4) أبو الحسن، على بن منصور (395 ـ 427 هـ/ 1005 ـ 1036م) من ملوك الدولة الفاطمية، اضطربت البلاد في أيامه. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 22/ ص 237.
وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص245.

حسّان بـن الجـراح إلى بيزنطـة، واسـتعاد الفـاطميّون سـيطرتهم عـلى فلـسطين، وجنوب سورية[1].

* **الحمدانيون[2] والقرامطة[3]**: واجـه الفـاطميُّون صـعوبات جمَّـة في سـبيل بسط نفوذهم على شمالي الشام فقد كان الحمدانيون في حلـب يخـشون ازديـاد نفـوذ الفـاطميين، ولم يكونـوا مـن القـوة بحيـث يمكـنهم الوقـوف في وجههـم، وصـد هجماتهم، في الوقت الذي ثار فيه أتباعهم عليهم، وأصبح شمالي الشام ساحة للقتال والمؤامرات، بين الأمراء الحمدانيين وحلفائهم الروم من جهـة، وأتبـاع الحمـدانيين وحلفائهم الفاطميين من جهة أخرى إلى أنْ انتزع المرداسيّون حلب من الحمدانيين، ثم سقطت حلب في أيدى السلاجقة في نهاية القرن 5 هـ/ 11م[4].

* **الفاطميون والسلاجقة**: بعد أنْ اسـتأثر الـسلاجقة بالـسلطة والنفـوذ في العراق وجّهوا جهودهم لاستعادة البلاد التي خرجـت عـن سـيطرة العباسـيين في الشام؛ فأرسل ألب أرسلان[5] في سنة 462هـ/ 1069م إلى محمـود بـن صـالح بـن

---

(1) انظر: الأنطاكي: المصدر السابق ص 411، وانظر: ابن الوردي: المصدر السابق جـ 1/ ص 470.

(2) الحمدانيون: مؤسس دولتهم حمدان بن حمدون التغلبي بالموصل في سنة 260 هـ/ 873م، وأعظم ملوكهم سيف الدولة علي بن عبد الله الذي نال شهرة واسعة في حربه مـع الـروم. انظـر: اسـتانلي بـول: المرجـع السابق، ص 108، وانظر: سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ1/ ص242.

(3) القرامطة: إحدى فرق الإسماعيلية، تنسب إلى حمدان قرمط الذي فرض على أتباعه نظاماً اشتراكياً؛ فقـد جعل المال والنساء مشاعاً بينهم.. وكان يقول: بتأليه بعض العلويين، وإنَّ جميع أولاد الحسين أبنـاء الله وأحباؤه. انظر: الإسفرائيني: المصدر السابق، ص 173، وانظر: ابن حـزم، عـلي بـن أحمـد بـن سـعيد: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة بولاق، القاهرة، 1317 ـ 1321 هـ، جــ4/ ص 187، وانظـر: العربي: المرجع السابق ص 303.

(4) انظر: محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ص 142 ـ 150.

(5) أبو شجاع، ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، سـلطان الـسلاجقة العظـيم بـين سـنتي 455 ـ 465 هـ/ 1063 ـ 1072م.

بسط سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى، وشمالي الشام، وهزم البيزنطيين. انظر: الحسيني: المـصدر السابق ص 99، وانظر: الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص 33.

وانظر: Lane-poole Stanley; The Muhammadan Dynasties, chronological and genealogical tables with historical introductions, Paris 1925, p 156.

مرداس ـ أمير حلب ـ يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي، فأجابه إلى طلبه، ثم وقعت عدة معارك بين القائد السلجوقي أتسز والجيوش الفاطمية في الشام، وقصد أتسز مصر ووصل إلى دلتا النيل في سنة 469هـ/ 1076م، ولكن الجيش المصري هزمه، وفرَّ أتسز عائداً إلى دمشق، وكان من نتيجة هزيمته أنْ أعلنت بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام ولاءها من جديد للخلافة الفاطمية.

لم يستطع الفاطميون الاحتفاظ بسيطرتهم على المدن في شمالي الشام ففي سنة 485 هـ/ 1092م أمر السلطان ملكشاه[1] نوابه في حلب والرُّها بمساعدة أخيه تُتُش[2] في الاستيلاء على أملاك الفاطميين في الشام، وبتلك المساعدة تمكَّن تتش من بسط سلطان السلاجقة على معظم بلاد الشام[3].

---

(1) أبو الفتح، ملكشاه الأول بن ألب أرسلان، جلال الدين، ورث عن أبيه دولة قوية، واسعة الأرجاء، وتولى السلطة بوصية من أبيه في سنة 465 هـ/ 1072م وعمره 17 عاماً، نقل عاصمة ملكه إلى نيسابور، وحصل عل اللواء من الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وأتم ما بدأه أبوه، في التوسع، وقضى على فتنة عمه قاورد بن داود، وتوفي في سنة 485 هـ/ 1092م. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ8/ ص 113، وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق، جـ 4/ ص 64.

(2) أبو سعيد، تُتُش بن ألب أرسلان تاج الدولة (458 ـ 488هـ/ 1065 ـ 1095م) قتل أتسز، واستولى على دمشق سنة 471 هـ/ 1078م، ثم استولى على حلب سنة 478 هـ/ 1085م، وخلَّف ولدين:
أحدهما: فخر الملك رضوان، واستقل بحلب.
والآخر: أبو نصر، شمس الملوك دقاق واستقل بدمشق. وقد عاصر ولداه الحملة الصليبية الأولى، وكان لهما دور في مقاومتها.
انظر: الأصفهاني: تاريخ الدولة السلجوقية ص 75، وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق جـ1/ ص295، وانظر: للذهبي: سير أعلام النبلاء جـ 19/ ص 83، ودول الإسلام جـ 2/ ص 17، والعبر جـ 2/ ص357.

(3) انظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة المصرية الأولى، سنة 1325هـ، جـ 2/ ص 67.

حاول الفاطميُّون في عهد المستعلي[1] استعادة نفوذهم في الشام فسار الأفضل[2] على رأس حملة إلى بيت المقدس فاستولى عليها في سنة 491 هـ/ 1097م، ولم يحسن الدفاع عنها ضد الصليبيين، ويبدو أنّه كان قد «أحب نزولهم الساحل ليكونوا مانعين من نفوذ الترك إلى ديار مصر»[3]، وبعد سقوط المدينة في أيديهم، ندم، وحاول استردادها، ولكنه هزم هزيمة منكرة في سنة 492 هـ/ 1098م[4].

* **الفاطميون والبيزنطيون:** كان الصراع بين هاتين الدولتين على أشدّه لأنَّ كلاً منهما كان يعتبر الشام جزءاً من ممتلكاته التي يجب حمايتها، والدفاع عنها؛ فعندما استولى البيزنطيون على أنطاكية في سنة 358 هـ/ 969 م، ثم دخلوا حلب بعد مدّة وجيزة، وأرغموا حاكمها على الصلح معهم[5].

---

(1) أبو القاسم، أحمد بن معد المستنصر بالله بن علي، المستعلي بالله (467 ـ 495 هـ/ 1075ـ 1101م) من ملوك الدولة الفاطمية، وفي عهده استولى الصليبيون على بيت المقدس انظر: للذهبي: سير أعلام النبلاء جـ15/ ص196، والإعلام بوفيات الأعلام جـ 1/ ص 328، ودول الإسلام جـ 2/ ص 24، والعبر جـ 2/ ص370، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 8/ ص 183، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ1/ ص 259.

(2) أبو القاسم، أحمد بن بدر الجمالي، شاهنشاه، الملك الأفضل (458 ـ 515 هـ/ 1066ـ 1121م) من وزراء الدولة الفاطمية، أرمني الأصل، داهية جيد السياسة.

انظر: ابن الصيرفي: المصدر السابق ص 57، وانظر: ابن ظافر: المصدر السابق جـ 1/ ص225، وراجع الفهرس، وانظر: الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام جـ 1/ ص 342، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 16/ ص 92، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ1/ ص 103.

(3) انظر: ابن ظافر: المصدر السابق جـ 1/ ص 230 .

وانظر: النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عدد من العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، جـ 28/ ص 250.

(4) انظر: ابن ظافر: المصدر السابق جـ 1/ ص 230، وانظر: المقريزي: إتعاظ الحنفا جـ 3/ ص 23.

(5) هو قرعويه ـ غلام سيف الدولة ـ وقد هادن البيزنطيين، ودفع إليهم الجزية.

انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 152.

وفي سنة 365هـ/ 975 م استولى إمبراطور الروم حنا زيمكسيس John Tzimisces على حمص، وبعلبك، وحاصر دمشق وفرض عليها الجزية[1].

كانت سياسة الخلفاء الفاطميين تتجه إلى الوقوف في وجه الغزو البيزنطي، واستعادة ما استولوا عليه، من مدن، فعملوا على بناء أسطول قوي، انتصر في كثير من المعارك البحرية، وفي أكثر المعارك البرّية التي دارت بين الدولتين كان يخرج الخليفة بنفسه، على رأس الجيش أو يخرج الإمبراطور البيزنطي، ليقود جنوده، وهذا يدل على ما كان للشام من أهميّة في السياسة الخارجية للدولتين[2].

نتائج الصراع بين القوى السياسية في الشام:

أدّى النِّزاع بين الفاطميين والسلاجقة، وبينهم والبيزنطيين إلى عدم استقرار الأمور، مما كان له أسوأ الآثار على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، فقد أدّى إلى:

* ضعف الجبهة الإسلامية في مواجهة الغزو الصليبي.
* استغل الصليبيون الفرقة بين أمراء المدن؛ فهدّدوهم،وعملوا على إثارة النِّزاع بينهم؛ ليتمكّنوا من تحقيق أغراضهم.
* ضعف التنظيمات الشعبية، ومنها التنظيم المعروف باسم «الفتوة» الذي ولد في بلاد الشام المسلمة، ونما في إطارها، ونبع من مشاكلها الخاصة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكان له دور بارز في الدفاع عن دمشق، وحلب[3].
* كان حكم الفاطميين قلقاً مضطرباً؛ فلم يكن القرامطة والسلاجقة والترك والروم وحدهم قد تنازعوا عليها، بل لأنَّ المواطنين أحياناً، وأهل البادية قد اشتركوا في ذلك[4].

الخلاصة: كان من نتيجة تلك العوامل أنْ تمكّن الصليبيون من السيطرة على بعض البلاد، (كما سنتبيّنه في الفصول التالية).

---

(1) انظر: Cambridge Medieval History V.4, p148.

(2) انظر: محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ص 229.

(3) انظر: سهيل زكار: المدخل ص 80، ونجده عنده، وفي بعض المصادر الأخرى يطلق عليه لفظ «الأحداث».

(4) انظر: فيليب حتى: تاريخ سورية جـ2/ ص 212.

الفصل الأول
ماهية الصليبيين
وسلوك فرسانهم وأخلاقهم

ماهية الصليبيين
وسلوك فرسانهم وأخلاقهم

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : خلفية تاريخية عن مسيرة الغزو الصليبي: فريضة الحج، والحج الجماعي.

المبحث الثاني : دوافع الغزو الصليبي وأهدافه.

المبحث الثالث : الظواهر السلوكية والأخلاقية للصليبيين:

* الوحشية والإجرام، ويتمثلان في:

الإسراف في القتل ـ أكل لحوم البشر ـ نبش القبور

استخدام الرؤوس كقذائف ـ تعذيب الأحياء

* الانحطاط الخلقي.
* التفرقة العنصرية.
* التعصب: الديني، والمذهبي.
* الاستهزاء بجميع الأديان السماوية ومقدساتها:

الصليبيون والمسلمون.

الصليبيون واليهود.

الصليبيون والمسيحيون.

المبحث الرابع : نتائج الحركة الصليبية.

خلفية تاريخية عن مسيرة الغزو الصليبي: فريضة الحج

لا تعرف المسيحية فريضة «الحج» كشعيرة من شعائر العبادة فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام رَفَعَه الله إليه وليس للمسيحيين دار للعبادة يتّخذونها مقرّاً للدعوة، بل إنَّ هناك خلافاً كبيراً بين الأثريين في تحديد الموضع الذي دفنه فيه يوسف الرامي (Joseph of Arimathea) بعد أنْ أذِنَ له الوالي الروماني بلاطس (Pilate) وهو قبر محفور في الصخر، في بستان بالقرب من جبل الجلجلة (Golgotha' Le Calvaire) حيث صُلِب، خارج أسوار المدينة ولمّا وجد الإمبراطور الروماني هادريان (Hadrian) أنَّ المسيحيين يتبرّكون بهذا الموقع أخفى معالمه، في سنة 135م، وبنى على أرضه سطحية أصبحت أساساً لساحة عامة، كما بنى عليها معبداً لإلهه جوبيتر (Jupiter)[1]؛ ليبعد المسيحيين عن المدينة المقدسة.

ولمّا تولّى الإمبراطور قسطنطين الأكبر (Constantin 1er) العرش، واعترف بالمسيحية ديناً من بين الأديان التي يعتنقها شعبه اهتمَّ بتشييد الكنائس في كل البلاد، وبخاصة في بيت لحم، وجبل الزيتون حيث اكتشف الصليب المقدس (The Holy Cross)[2].

ولم تُبْنَ الكنيسة المقدّسة (Saint-Sépulcre) في بيت المقدس - والتي كان العرب يسمّونها «القمامة»[3] إلاّ بعد وفاة المسيح بمئات

---

(1) انظر المراجع الآتية:

Daniel-Rops; L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade, Paris, 1952, p. 162.
Baldwin M. W.; The Medieval Church, New York, 1960, P. 321.
Encyclopædia Britannica, William Benton, publisher, Chicago: London: Toronto: Geneva, U.S.A., 1963, "The Holy Sepulchre", V.20 p.337.

(2) انظر: Lot F.; The End of The Ancient World and The Beginning of The Middle Ages, London, 1966, p. 34.

(3) يطلق المسيحيون عليها «كنيسة القيامة»؛ لأنَّ المسيح عليه السلام في عقيدتهم صُلِب، ومَات، وقام منها بعد ثلاثة أيام من دفنه، وكره المسلمون هذا اللفظ لأنَّ المسيح عليه السلام في عقيدتهم حيٌّ، رفعه الله إليه، وسيعود إلى الأرض ليملأها عدلاً، بعد أنْ مُلِئَت جوراً، ويبدو لي أنّهم أطلقوا عليها لفظ «القمامة»: =

السنين[1]، والحجُّ إليها بدعة لا علاقة لها بالدين المسيحي؛ بل يرى بعض المسيحيين أنَّها مصدر خطر عليه[2].

وأرادها الحكام أنْ تكون سياسة دينية؛ لتحقيق أغراضهم ومصالحهم[3]، ومعروف أنَّ النورمان قد جعلوا من نورمانديا في فرنسا إمبراطورية عظيمة، ضمّت بعد ذلك كلاً من: إنجلترا، وجنوب إيطاليا وصقلية[4]، وطمعوا في أراضي الدولة البيزنطية، وفي سنة 1081م ألحق روبرت جيسكارد (Robert Guiscard) هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي براً، وبحراً، واجتاح المنطقة الواقعة على الساحل الأدرياتيكي.

وبعد وفاة روبرت، سار على نهجه ابنه بوهيمند (Bohémond) في طمعه في أملاك البيزنطيين[5] تقول الأميرة أنَّا كومنين (Anne Comnène)[6]: «كان بعض

= أ ـ إمَّا لأنَّ المسيحيين يجتمعون فيها للعبادة، فلفظ «القمة، أو القمامة» يعني: في اللغة: جماعة القوم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، «قمم» 12/494.

ب ـ وإمَّا باسم المكان الذي بنيت فيه، والذي كان يتخذ لوضع القمامة، تحقيراً من الرومان للديانة المسيحية، في مقابل قصر الحاكم الروماني المسمى «الدَّرْكَاه» وهو لفظ فارسي يعني «القصر». انظر: الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمَّان، الأردن، ودار الجيل، بيروت، 1973م، 1/170. وانظر: السيد أدّي شير: معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت، 1980م، ص 62.

(1) ابنتها القديسة هيلانة Hélène Sainte والدة قسطنطين الأكبر ـ باني مدينة القسطنطينية ـ في سنة 335م. انظر: الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير معن زيادة، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988م، م2/ ق 2/1240، وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1668.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق، 1/75.

(3) انظر: جوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988م، مقال «الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية» ص ص 4ـ34.

(4) انظر: Haskines C. H.; The Normans in European History, New York, 1959, p. 52.

(5) انظر:

Ostrogorsky G.; A History of The Buzantine State, trans by Hussey, Oxford, 1956, p. 317.

(6) انظر: أنَّا كومنين: المصدر السابق، ص 16.

الفرنجة على شاكلة بوهيموند ورجاله قد وجدوا في دعوة بطرس فرصة مناسبة؛ فأحدثوا فوضى عظيمة عن طريق خداع الأناس السّذج، ذلك أنَّ الشهوة إلى تملك الأراضي البيزنطية، والرغبة في الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم، منذ زمن بعيد؛ ولهذا أقدم هؤلاء القوم على بيع أراضيهم، بدعوى أنَّهم مغادرون البلاد، لحرب التركمان، ولتحرير القبر المقدس»، وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون يرون في الصليبيين غزاة برابرة، همجاً[1].

الحج الجماعي:

عرف المسيحيون الحج إلى الأماكن المقدسة منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وكان حجاج غرب أوربا أفراداً قلائل، فلا يتجاوز عدد أفراد الجماعة أصابع اليد الواحدة[2].

شاع في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أنَّ العالم على وَشْك الفناء، وفي عام 489 هـ/ 1096م تكهّن المنجمون بأنَّ طوفاناً كطوفان نوح سيحدث حينما تجمّعت في عهده سبعة الكواكب السيّارة في برج الحوت[3]؛ وأحدثت تلك الشائعة أثراً بالغاً في نفوس الناس حيث قصد الآلاف من المسيحيين بيت المقدس للتكفير عن ذنوبهم، والتطهر من آثامهم، وكثر حديثهم عن الأخطار التي يتعرّضون لها، والأموال التي يجب عليهم سدادها، وبخاصة بعد أنْ استولى

(1) انظر: Eyre E.; European Civilization (V.III the Middle Ages) London, 1935, p. 197.

(2) انظر: Iorga N.; Histoire des Croisades, Paris, 1924, p. 10.

(3) انظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ، 8/181، وانظر: ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية، المجلد الخامس، ص314، وانظر له أيضاً: تاريخ مختصر الدول، ص 191، وانظر: مختار باشا: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م، جـ1/ ص 521.

السلاجقة على بيت المقدس في سنة 1071م، وهم مشهورون بالشدة والقسوة، والتعصب[1]؛ مما هيَّأ العامة لتقبُّل فكرة الغزو المسلح.

كان بطرس الناسك (Pierre l'Ermite)[2] الذي قدم إلى بيت المقدس في سنة 486هـ/ 1093 م واحداً من أولئك الحجاج الذين أشرنا إليهم، ورأى ما عليه الأرض العربية من الضعف السياسي والتمزّق وما فيها من الخير والنعيم، وأطمعته نفسه أنْ يكون داعية لاحتلال الأرض المقدّسة، وكان يعلم القرار الذي اتخذه المجمع الكنسي الأول المنعقد في مدينة بياتْشِنْزَا (Piacenza) في شمالي إيطاليا في مارس من سنة 488 هـ/ 1095م، والذي حاز على موافقة الجميع ألا وهو تخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، وحضر هذا المؤتمر مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي ألكسس كومنين الأول (Alexis Comnène 1er)[3] بعث بهم طالباً مساعدة البابا، وقد نجح هؤلاء المندوبون في إقناع المؤتمرين بأنَّ الخطر السلجوقي لا يهدد الإمبراطورية الرومانية، فحسب، بل هو خطر على المسيحية ذاتها[4].

لذلك أسرع بطرس عائداً إلى إيطاليا، فاتفّق مع البابا أوربان الثاني (Urbain II)[5] على الدّعوة إلى حرب مقدّسة، وأخذ يطوف بلدان أوربا راكباً بغلة، واضعاً الصليب

---

(1) انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م، ص 15.

(2) بطرس الناسك: واعظ، وخطيب، ولد في أمْيَن Amiens في نحو سنة 1050 م، وهلك في سنة 1115 م، ويبدو أنّه لم يكن وحده الداعية، وأنّ كثيراً من الدعاة في عصره كانوا يحملون الاسم نفسه، أو نسبوا إليه لشهرته. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1611، وانظر أيضاً:
Hagenmeyer, H, Le Vrai et le faux sur Pierre l'Ermite, trans. By Furcy Rayanaud, Paris, 1883.

(3) ألكسس كومنين الأول، إمبراطور بيزنطي، حكم من سنة 1081م إلى أنْ هلك سنة 1118م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1204.

(4) انظر: Chalandon F.; Essai sur la Règne d'Alexis Comnène, Paris, 1900, p. 156.

(5) أوربان الثاني: هو المحرّك الأساسي للحملة الصليبية الأولى، ولد في لاجري Lagery، وتولّى منصب البابويّة في سنوات 1088 ـ 1099م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1734.
وانظر: Krey A. C.; Urban's Crusade, Success or Failure ?, The American Historical Review,53, 1948, p. 132.

على صدره مهيّجاً أفكار البسطاء، مثيراً حماستهم، وكان شديد التأثير في العامة، ورعاع الناس، وقد يصحب معه بعض القسس زاعماً أنّهم من بيت المقدس، قد جاؤوا مستجيرين بهم، ويقصّون عليهم الأكاذيب، والقصص الملفّقة عن اضطهاد المسلمين للحجاج المسيحيين، وعن القتل والتعذيب والنهب وغيرها من الأعمال الوحشية التي يتعرضون لها.

دوافع الغزو الصليبي وأهدافه:

لعل دعوى اضطهاد المسلمين للحجاج المسيحيين كانت واحدة من أهم الأسباب التي تستر وراءها الصليبيون لإخفاء أطماعهم، وحرصهم على امتلاك أراضي المسلمين، وفي الوقت نفسه اتخذوها وسيلة للتأثير في العامة، وكسب تأييدهم، مع ما تحمله من تخويف للأمراء والحكام إذا هم تقاعسوا عن حماية رعاياهم، وتهاونوا في أمر دينهم.

تعرَّض كثير من المؤرخين الأوربيين المسيحيين المنصفين لنفى هذه التهمة عن الإسلام وعن المسلمين، وأظهروا ما فيها من مخالفة للحقيقة، وبُعْدٍ عن الواقع، فالمؤرخ الفرنسي كلود كاهن (Claude Cahen) يقول عن تنظيم الدولة الإسلامية في معاملة الذميين: «وإذا لم يكن هذا بالطبع هو التصور الحديث للدولة غير الطائفية الذي لم يكن يدور بخلد أحد من الناس آنذاك فقد كان ـ على الأقل ـ يمثل شكلاً من أرقى أشكال التسامح التي لم يمارسها مجتمع من قبل»[1].

وعن دعوى الاضطهاد فقد بيّن كلود (Claude) أسبابها، فذكر أنَّ أكثر الحجاج كانوا من الفقراء الذين لا يملكون دفع «رسوم المرور»، ولم يتحدَّث أي كاتب شرقي مسلماً كان أم مسيحياً عن سوء المعاملة التي لقيها الحجاج»[2]، ولم تظهر هذه الفِريَة إلاَّ فيما بعد.

---

(1) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق، ص 33.

(2) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق 51.

أثمرت جهـود الفرنـسيّان أوربـان (Urbain II) وبطـرس (Pierre L'Mrmite)، وعُقِد المجمع الكنسي الثاني في مدينـة كليرمونـت فيرانـد (Clermont Ferrand) في وسط فرنسا، في نوفمبر من سنة 1095م/ 488 هـ ـ وهي السنة نفسها التي عقد فيهـا المـؤتمر الأول ـ وحـضره كثـير مـن الأمـراء والفرسـان ورجـال الـدين، ومندوبون عن الملوك، إلى جانب جموع غفـيرة مـن العامـة، وبـالرغم مـن شـدّة البرد، وقسوة الطبيعة فقد كانت لكلـمات الأب المقـدّس فعـل الـسحر في تدفئـة القلـوب والأبـدان عنـدما أخـذ يـصوّر لهـم النعـيم الأرضي، وعظـيم الغفـران السـماوي إذا هـم اسـتجابوا لله وله، ولبَّوا دعوته، مغرياً لهم بالثراء قال: «يا أيُّها الشجعان اذهبوا متسلّحين بسيف مفـاتيحي البطرسـية واكتـسبوا بهـا لـذواتكم خزائن المكافآت الـسماوية الأبديـة، فـإذا أنـتم انتـصرتم عـلى أعـدائكم فالملـك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً، وأمَّا إذا قتلـتم فلكـم المجـد لأنّكـم تموتـون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح»[1].

وكان البابا قد بدأ خطبته بالحـديث عـن الأمـاكن المقدسـة، وكيـف أنّ قـبر المسيح عليه السلام، والجبل الذي عليه تألم، وعليه مات من أجلهم، والمغارة المختـصَّة بـه، كلُّها أصبحت ميراثاً لشعب غريب[2]، وغاب بهاؤها، وانطفأ نورها، ومُنِـعَ الأبـرار مـن أنْ يعبـدوا الله فيهـا، ولازالـت ذراع العـرب القويـة قـادرة عـلى أنْ تمتـد إلى القسطنطينية، وغيرها من معاقـل المـسيحية، وعـلى تهديـدهم في ديـارهم، بعـد أنْ أحرز السلطان ألب أرسلان شاه الملك السلجوقي نصراً عزيـزاً عـلى البيـزنطيين في

(1) انظر: الحريري، سيد علي: الحروب الصليبية، تحقيق عصام محمد شـبارو، دار التـضامن، ومؤسـسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1988م، ص 25، وانظر: ريمون دو جيل: الفرنجة الذين استولوا على القدس، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية، مجلد 6، ص 310.

(2) انظر: الحسيني: المصدر السابق، ص 107، وانظر: العماد الكاتب: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 40، وعن المعركة ونتائجها. راجـع: دكتـورة زبيـدة عطـا: الـشرق الإسـلامي والدولـة البيزنطيـة زمـن الأيوبيين، دار الأمين، القاهرة، 1994م، ص 35، وأيضاً:

Vasiliev A.A.; History of The Byzantine Empire, Madison, V.I p. 469.

موقعة ملاذكرت[1] الشهيرة في سنة 462 هـ/ 1069م، وأَسَرَ الإمبراطور الروماني رومانوس الرابع (Romain IV Diogène) (1067 ـ 1071م)[2].

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال بالغة السوء، في أوربا الغربية بخاصة اقتصادياً، واجتماعياً: فقد بلغت المجاعة بالناس حدّاً وصل بهم إلى أنْ أكلوا الأعشاب والحشائش[3]، وكانت الحروب بين الأمراء الإقطاعيين وأتباعهم لا تتوقف مما اضطر الكنيسة إلى فرض ما أسمته «هدنة الرب (La trève de Dieu)» وسلام الرب (La Paix de Dieu)»[4]، ودعت إلى منع كل صور العنف من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين من كل أسبوع إحياء لذكرى آلام المسيح ﷺ في مثل هذا الوقت، ثم امتدَّت، فشملت أيام الصوم وغيرها، وحرمت القتال في أماكن محايدة، وكل من يخالف هذه التعليمات تفرض عليه العقوبات المشدَّدة، ثم استغلَّت الكنيسة هذه النزعة العدوانية في نفوس الأمراء الإقطاعيين؛ فوجّهتها إلى وجهة تحقق مصالحها الخاصة. ومما زاد الأمر سوءاً في وسط أوربا وغربيها هو تعرُّضها للغزو من الشمال، ومن الجنوب على السواء.

---

(1) مانزكرت، أو ملاذكرت Manzikert أو Malazguerd مدينةصغيرة تقع في أرمينية تقع إلى الشمال من بحيرة خان.

انظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص 343، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 394، وانظر: العماد الكاتب: نصرة الفترة 32 / ب، وانظر: العسلي، بسام: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، 1983م، 15 ـ 34، وقد جمع سهيل زكار وصف المعركة لعشرين مؤرخاً من المؤرخين العرب، وجعله ملحقاً لموسوعته الشامية جـ 1/ ص ص 412 ـ 462.

(2) رومانوس الرابع قائد قبادوقي (Cappadocien) أُختير زوجاً للإمبراطورة Eudoxie أيدوكسي أرملة الإمبراطور الراحل قنسطنطين العاشر (Constantin X) ثم عيِّن إمبراطوراً لبيزنطة.

انظر:

Michel Mourre; Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, Bordas, Paris, p. 1978.

(3) انظر:

Thompson J. W.: Econnomic and Social History of Middle Ages, London 1959, I p.392.

(4) انظر:

Cambridge Medieval History, V.III, p. 86.

فمن الشمال: زحفت جموع الدانمركيين (Les Danois) والنورماند (Les Normands أو Les Northmen)، والهنغاريين (Les Hongrois) على المدن النهرية، منذ العقد الثاني من القرن التاسع الميلادي (820 ـ 850 م)، وفي نهايته وسّعوا قواعد انطلاقهم، والمهاجمة عن طريق البر أيضاً بواسطة الفرسان، مما جعل القادة الكبار في ممالك غرب أوربا يعقدون مؤتمرين في ميرسن (Meersen) لتنظيم الدفاع المشترك ضد الغزاة، وتحصين المدن، وقفل الأنهار بالجسور[1].

وفي الوقت نفسه غزا المسلمون الأقطار الجنوبية، وكانوا في أغلب الأحيان من أصل مغربي؛ فهاجموا صقلية في سنة 827 م واحتلَّت بكاملها في العقود التالية.

واجتاحت جيوش المسلمين مناطق متعددة في إيطاليا محاولين الاستيطان فيها بصفة دائمة، في الوقت الذي كانوا يوجِّهون فيه غاراتهم إلى أماكن أخرى للحصول على الأموال والسبايا.

وبدْءاً من سنة 830م/ 215هـ كثَّفوا غاراتهم، وأصبحوا أكثر خطراً، واستهدفوا وسط إيطاليا كمدينتي بارى (Bari)، وترانت (Tarent)، ووصلوا في بعض غاراتهم إلى شمالي إيطاليا، فهاجموا مدينة روما (Rome) في سنتي 846 و849 م، ثمَّ قاموا بحصار مدينة بينيفنت (Bénévent) في سنة 847م، وشاطئ سبيزيا (Spezia) في سنة 849م، وأرْل (Arles) في سنة 842 م، ولم تفلح جهود لويس الثاني (Louis II)[2] في صدهم.

وفي جنوب فرنسا كانت جيوش المسلمين تغزو أكثر مدنها وقراها[3] «ويتكوَّن لدينا من سرد هذه الأحداث انطباع بأنَّ الغرب كان وقتئذ محاصراً، وكان التهديد مستمراً، وكل أقطاره قد دُمِّرت، ودبَّت فيها الفوضى والفساد»[4].

---

(1) انظر: جورج ليفه، ورولان موسينيه: تاريخ أوربا، ترجمة أنطوان أ. الهاشم، بيروت ـ باريس، 1995م، جـ 1/ ص 340–344.

(2) لويس الثاني (825 ـ 875م) أكبر أبناء الإمبراطور لوثر الأول Lother I، ملك إيطاليا، استطاع استرداد باري من أيدي المسلمين. انظر: Encyclop, dia Britannica, V.14, p 411.

(3) انظر: أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت جـ1 ص305، وجـ 2/ ص 135.

(4) انظر: جورج ليفيه، ورولان موسينيه: المرجع السابق 1/344.

ولّما كان البابا أوربان الثاني (Urbain II) يدرك تماماً أنّ أوربا الممزقة المتحاربة لا يمكنها أنْ تحقق نصراً على المسلمين، ولأنّه يعلم ما في نفوسهم من جشع وطمع وحبّ للمال؛ لذلك دعا ملوك أوربا إلى نبذ الخلاف فيما بينهم، وأنْ يتركوا أخذ الثأر من بني جنسهم، وأنْ يوجهوا سيوفهم لأعدائهم المسلمين، حاثّاً لهم أنْ «اتّخذوا محجّة القبر المقدّس، وخلّصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين!! وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض ـ كما قالت التوراة ـ تفيض لبناً وعسلاً».

ولم ينس البابا أوربان الثاني (Urbain II) الفقراء من الناس، فقرر المجمع إعفاءهم من الضرائب، وتوفير المساعدات لهم، ثم أخرج ما سمّاه «صليب الخلاص» وقال:»احملوه على عواتقكم، أو على صدوركم، وليشرف فوق أسلحتكم» واجتهد القسس في صنع صلبان يقدّمونها إلى جماهير المسافرين للحرب.

وتتساءل الباحثة: ما سر الاستجابة الشعبية الهائلة للنداء الذي أطلقه البابا أوربان الثاني (Urbain II)؟

* ما الذي حرّك هذه المئات من ألوف الأوربيين للزحف نحو الشرق، متحملين مخاطر الحملة، ومشاق الرحلة؟
* ما سبب الحقد المرعب الذي حمله أفراد الحملة الأولى تجاه المسلمين في المشرق، إلى حدّ أنّهم لم يكتفوا بإبادتهم، بل أكلوا لحومهم بعد قتلهم؟[1].

وبالرغم من أنّ تلك التساؤلات كانت مجال دراسة يكتنفها الشعور بالعجب من استمرار هذا الحقد ضد الإسلام والمسلمين لدى الكتاب المسيحيين في الشرق وفي الغرب، وقد فُسِّرت تلك الظاهرة بأنَّ: «جُلّ الكتاب هم من رجال الكنيسة ورجال الدين لا يرغبون دوماً في تغيير قناعاتهم الموروثة، وتصوراتهم، وهم أبعد الناس عن استخدام الحكمة العقلية الصحيحة، وهم في أوربا مثّلوا الثقافة والعقيدة، ووجّهوا الجماهير، وقادوها»[2].

---

(1) انظر: زكّار: الموسوعة الشامية 9/3.

(2) المرجع نفسه 9/ 3.

ولكنّ هذا التعليل يزيد الأمر تعقيداً، ولا يفسّر الظاهرة الوحشية التي تعامل بها الصليبيون مع المسلمين، لأنَّ التساؤل يصبح: وما الذي ملأ نفوس رجال الدين بكل هذا الحقد؟

أليس رجال الدين أقرب الناس إلى تعاليم السماء؟ وأعرفهم بمبادئ الدين السماوي؟ أليس من المفروض أنْ يكونوا هم أكثر الناس رحمة وتسامحاً وعدلاً، وأبعدهم من مجانبة الصدق؟

وبعد استعراض الأسباب التي يرددها المؤرخون والتي أدّت إلى قيام الحروب الصليبية في رأيهم، ولا يخلو منها كتاب أرّخ تلك الفترة، وأحداثها، على وجه الخصوص وما كان يعانيه الحجّاج من مضايقات، والظروف الاقتصادية التي كان يعاني منها الغرب بنظامه الإقطاعي، والرغبة في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية[1] وصل إلى قناعة أنّها أسباب غير كافية لتفسير هذه الظاهرة، وأنَّ كتب التاريخ لا تخبر عنها بشيء، لذا من الأجدى البحث عن تفسير في التراث الشعبي، وأساطير البطولة التي كوّنت المزاج النفسي للشعوب الغربية، في تلك الحقبة من التاريخ.

إنَّ النص الرهيب الذي تحدّثت فيه الأميرة أناً كومنين (Anne Comnène) عن الجيوش الصليبية قد يفسر ذلك الشعور، قالت:

«إنَّ جيوش الفرنجة سَتَتَمَنَّع عن التدخل في شئون المسيحيين، لكنها ستحل سفك الدماء، وإنزال الأذى بكل شدة بأبناء إسماعيل البربريين الذين هم عبيد لمعاقرة الخمور، ولعبادة الشيطان وهم منغمسون في جميع أنواع الرذائل الجسدية، وهم وإنْ خُتِنُوا في أجسادهم فلم يُخْتنوا أبداً لا في طباعهم، ولا في أخلاقهم، وإذا ما أردْت معرفة الحقيقة فاعلم أنَّ أبناء إسماعيل هم عبيد ـ لا، بل عبيد ثلاث مرّات ـ لجميع

(1) انظر: جوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى 1 ـ 60، وانظر: عاشور: الحركة الصليبية، 1/28،

وانظر: Grousset,R.; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, Paris, 1948, I, P 12.

شرور أفروديت وآثامها، حيث إنَّهم يعبدون معها عشتار، وعشتروت[1] ويقدِّسون في بلادهم تمثال القمر ووثن نجم شوبار الذهبي الذي يحظى بمكانة سامية جدّاً»[2].

ويعجب سهيل زكار من أنّ يصدر هذا الرأي عن الأميرة وليدة الغرفة الأرجوانية، في القصر الإمبراطوري، في القسطنطينية، وصاحبة الثقافة العالية والمكانة الرفيعة، ويتّخذ منها شهادة تدلّ على مدى تعصُّب بيزنطة والعالم المسيحي ضد الإسلام آنذاك[3].

وهذا ليس موضع العجب عند الباحثة؛ فالبيزنطيّون قاسوا مرارة الهزيمة مرّات، على أيدي المسلمين، وأثخنتهم سيوف المجاهدين، وعرفوا طعم الموت تحت سنابك خيولهم، وذاقوا ذلَّ الأسر وهم يجرُّونهم في قيودهم، وطردوهم من أكثر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى؛ فليس عجيبا أنْ تمتلئ نفس الأميرة بكل هذا الحقد والبغض، ولكنّ الذي لفت نظر الباحثة في نصّ الأميرة أمور كثيرة، منها:

الأمر الأوَّل: أنّها تجنبت ذكر الأتراك والسلاجقة الذين هزموهم وتحدّثت عن أبناء إسماعيل - وليس الأتراك من أبناء إسماعيل - وأنّها وصفتهم بأنهم عبيد ثلاث مرات، فماذا تعنى بهذه العبودية الثلاثية؟.

* ذكرت هي واحدة منها، وهي عبوديّة الشهوة، والانسياق لها بارتكاب الرذائل والموبقات.

---

(1) عشتار (Ishtar): إلهة الحب والجمال السامية، ملكة السماء، ونور العالم، والبغيُّ المقدسة، ولها أسماء كثيرة، منها: عشتروت، وأتار غاتيس، وأستارت، وأستير، وعشتر وإشتار... وكانت عند السومريين إله الحب، والجنس، والخصب، والحرب أحياناً، وعبدت باسم أنانا، وهي إيزيس عند المصريين، وأفروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان.

انظر: حرب، طلال: معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ص 227، وانظر: هنري س عبودي: معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1991م، ص 83، وانظر: كريمر، صموئيل نوح: إينانا ودموزي «طقوس الجنس المقدس عند السومريين» ترجمة نهاد خياطة، دار علاء الدين، دمشق، 200م، ص 9.

(2) انظر: أنَّا كومنين: المصدر السابق 11.

(3) انظر: زكار: الموسوعة الشامية 6/546.

* وكأنّها تشير بالثانية إلى ما ورد في قصص الأنبياء، من أنّ سيدنا إسماعيل عليه السلام أمّه هاجر المصرية جارية سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وأمّا غيره من الأنبياء فهم من نسل سارة الحرّة ويكون العرب أبناء إسماعيل قد لحقتهم عبودية موروثة من أمهم"[1].
* ولعلّها تريد بالثالثة تسلّط الأجانب على بلادهم وأرضهم؛ فلم يكن الحكام في ذلك الوقت من العرب، والسلطة الوحيدة للعرب كانت الخلافة الإسلامية في بغداد، وهي سلطة شرفية، ولم يكن الخليفة يملك من الأمر شيئاً، بل كان السلاجقة يستعبدونه، ويحكمون باسمه.

والأمر الثاني: هو حديثها عن الوثنية الإسلامية، وعبادة الآلهة والقمر، والنجوم، ومن المؤكّد أنّ البيزنطيين أكثر الأوربيين اتصالاً بالإسلام وبالمسلمين، ومن المعروف أنّ السلاجقة سنيّون متشدِّدون في التمسّك بتعاليم الإسلام، وهي تعلم أنّ الدين الإسلامي أبعد الديانات السماوية عن الوثنية، وربّما كانت المسيحية أكثرها وثنية، فهم الذين يصوّرون المسيح، وأمّه، والقديسين، ويصنعون لهم التماثيل، ويجسّمون الأقانيم الثلاثة يتّجهون إليها في صلاتهم، والله عندهم ثالث ثلاثة، وكلّها وثنية صريحة غير مقنّعة، فلماذا ألصَقَتْ وثنيتهم بعقيدة الإسلام؟

لعلّه دفاع منها عن دينهم، ومحاولة تبرئته من الخلاف بين المذاهب في أصول العقيدة وطبيعة السيّد المسيح عليه السلام، وفي الوقت نفسه هو تعبئة روحية لردّ الهزيمة، والاستماتة في قتال المسلمين البرابرة الكفار"[2].

---

(1) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح 16، الآية 1، وانظر: عبودي: المرجع السابق، ص879.

(2) لعلّها أرادت ما عبّر عنه جابريل غارسيا ماركيز Gabriel Garcia Marquez في خطابه في استكهولم، حين تسلمه جائزة نوبل للآداب، في عام 1982م، قال:
«من الطبيعي أنْ يُمْعِنُوا في قياسنا بالمعايير ذاتها التي يقيسون بها أنفسهم.. ولكن عندما نُصَوِّر وَفْقَ نماذج لا تمتُّ إلينا بصلة فإنَّ ذلك لن يخدم إلاّ غاية واحدة: هي أنْ نغدو مجهولين أكثر، وأقلَّ حريَّة، وأشدَّ عُزْلة».

والأمر الثالث: لا يقل غرابة عن سابقيْه، فالمعروف أنّ الخمر محرّمة في الإسلام، ولا يعرف عن المسلمين معاقرة الخمور، والخمر ليست كذلك عند المسيحيين، بل إنّها هي والقمح رمزان لها؛ فهي التي تقول: «فقد اعتبر ـ تُرِيد: القمح ـ رمزاً يدلُّ على المسيحية، وفي ضوء هذا، فسّر العلماء الأتقياء الإشارة إلى الخمر والقمح»[1].

وتفسير الأمر الثالث ـ هو كسابقه ـ محاولة منها لإلصاق عيوبهم ورذائلهم بغيرهم.

والأمر الرابع: وصفها للعرب بالبرابرة، والغريب في قول الأميرة أنّها تصف الصليبيين[2] ـ القادمين من الغرب، أيضاً ـ بالبرابرة، فماذا يعنى هذا الوصف عندها؟.

يبدو أنّها تعنى به «غير البيزنطيين» الذين هم متحضّرون، أتقياء، على خلق كريم، وغير البيزنطيين متوحشون، مارقون مخادعون، وهي تكثر من إلصاق تلك الصفات بملوك أوربا[3].

على أنَّ محاولة تبرير الحقد على أساس عنصري قد لا يكون مقنعاً وفي الواقع «لم تكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين قائمة على أساس تفرقة عنصرية؛ فإنَّ الكره والنفور الناجمين عن اختلاف مستويات الحضارة، والعقائد الدينية أدنى أنْ يكون ذلك صفة من الصفات البشرية من أنْ يكون أحقاداً قائمة على أسس الوراثة»[4].

والأمر الخامس: وهو أخطر تلك الأمور جميعها، وأقساها وهو التفرقة في المعاملة، فقد تعهّد الصليبيُّون بالامتناع عن التدخُّل ـ مجرّد التدخل ـ في شؤون المسيحيين، ولكنَّهم يستحلُّون سفك دماء المسلمين، وإنزال الأذى بهم بكلِّ شدَّة.

---

(1) انظر: أنا كومنين: المصدر السابق 12.

(2) انظر: أنا كومنين: المصدر السابق 12.

(3) انظر مثلاً: أنّا كومنين: المصدر السابق 31، وغيرها.

(4) انظر: جوان كوماس: خرافات عن الأجناس، ترجمة محمد رياض، ومراجعة محمد عوض محمد، مكتبة نهضة مصر، سلسلة الألف كتاب، وزارة التربية والتعليم بمصر، د ت، 5 ـ 6.

«إنَّ المسيحيين الذين كانوا يصحبون بطرسهم الناسك (Pierre l'Ermite) القديس التقي النقي حينما عبروا بحر مرمرة إلى الأناضول، في الحملة الصليبية الأولى في سنة 491هـ/ 1097م شرعوا بنهب المنطقة المحيطة بنيقية (Nicaea)»[1]، وأنزلوا بالأهالي جميعاً صنوفاً من الفظائع المرعبة؛ فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال إلى قطع، ووضعوا بعضهم الآخر على قضبان خشبية، وقاموا بشيِّهم فوق النار، وجرى إخضاع الشيوخ لجميع أنواع العذاب»[2]،

هؤلاء المسيحيّون الصليبيُّون هم أجداد المسيحيين الذين منهم فِرْد هانكي (Ferd Hankey) الذي أبدى رغبته لواحد من مجلِّدي الكتب في لندن في أنْ تُجلَّد كتبه بجلد بَشَرِيٍّ، ويفضِّل أنْ يكون مسلوخاً من جسم أنثى، وقد وعده صديقه الرحَّالة الشهير ريتشارد بورتون (Richard Burton)[3] بأن يكلّف الدكتور بارتش (Bartsh) الذي يسافر إلى أفريقية بأنْ يزوِّدهم بما يرغب فيه «بجلد فتاة سوداء مسلوخ عن جسدها، وهي حيَّة»[4].

لا تعني كلمة «سوداء» هنا أنَّها زنجية، بل قد تكون مسلمة؛ فقد جرت عادة الرحّالة الأوربيين أنْ يصفوا المسلمين بأنَّهم «سود البشرة، ذوو هيئات بشعة»[5].

---

(1) نيقية: مدينة من أعمال إستانبول، على البر الشرقي، وهي الآن قرية متواضعة اسمها إزنيق وكانت أثناء الحملة الأولى للصليبيين حاضرة دولة سلاجقة الروم.
انظر: الحموي: معجم البلدان، 5/333.

(2) أنَّا كومنين: المصدر السابق 14.

(3) ريتشارد بورتون (1821 ـ 1890م) رحّالة بريطاني، اكتشف بحيرة تنجانيقا.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1250.

(4) انظر: رنا قباني، أساطير أوربا عن الشرق، ترجمة صباح قباني، دار طلاس، دمشق، 1988م، 92 ـ 93.

(5) يقول فوشيه الشارتري: «إنَّ بعض الأتراك والعرب والأثيوبيين السود عددهم حوالي خمسمائة» المرجع السابق (ت د/ قاسم) ص 139، وانظر:
Friedman J. B.; The Monstrous Races in Medieval Art and Thought, Cambridge Mass., 1981, p 67.

ولعلّ أهمَّ الأسباب التي زرعت الحقد في نفوس الأوربيين هو نظرتهم إلى الدولة الإسلامية باعتبارها «الخصم اللدود» الذي يقف عائقاً أمام أطماعهم، ومخططاتهم في سيادة دولتهم «فانبرت تمارس أسلوب الهجوم العنيف القائم على التعصّب والعداء من أجل الحدّ من أي نفوذ قد تكتسبه هذه القوّة المنافسة، ومن هنا أصبح ينظر إلى الإسلام على أنّه «إلغاء للمسيحية»، وأنَّ رسوله محمد ﷺ هو «عدو للمسيح»عليه السلام، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالماً مضاداً لأوربا»[1].

وإذا عرفنا أنّ «المسيحية تعتبر ديانة مانعة، لا تقبل أنْ تعيش معها ديانة أخرى»[2] ـ بحسب تفكيرهم الذي توجهه الأطماع والشهوات، وحاشا للدين السماوي المنزل من عند الله تعالى أنْ يفرِّق بين عباد الله ـ إذا عرفنا تفكيرهم هذا أدركنا حرص الصليبيين على إبادة المسلمين، وإخلاء الأرض من سكّانها الأصليين، حتى لا يعيش معهم من لا يدين بدينهم، وأصبح عليهم مواجهة المسلمين ثقافياً ودينياً وسياسياً وعسكرياً.

الظواهر السلوكية والأخلاقية للصليبيين:

جرت عادة المؤرخين في الشرق والغرب على السواء أنْ يتحدثوا عن الحروب الصليبية باعتبارها حركة عسكرية قائمة على دوافع دينية، ولتحقيق أغراض دينية أيضاً[3].

---

(1) انظر: Kiernan V.G.; The Lords of Human Kind: European Attitudes towards the Outside World in the Imperial Age, London 1969, p 6.

(2) انظر: ستيفن رنسيمان: المرجع السابق 1/21، وانظر: جورج وورولان: المرجع السابق 1/225.

(3) عن أسباب الحروب الصليبية راجع: سعيد عاشور: الحركة الصليبية 1/19، وانظر له أيضاً: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م، ص 7، وانظر: جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص 4.

وانظر: المطوي، محمد العروسي: الحروب الصليبية، دار الغرب، بيروت، 1982م، ص 27.

وانظر: Grousset, R.; op. Cit, I, p 12.

والحقيقة التي تظهر للدارسين بوضوح هي أنَّ الحروب الصليبية في وسـائلها وأهـدافها كانـت حركـة همجيـة لا تختلـف في شيء عـن غـزوة القبائـل الجرمانيـة (Les Germains) التي أطاحت بالإمبراطورية الرومانيـة في غـرب أوربـا، في عـام 476 م، والتي سبّبت الدمار، والتخلف اللذين وَسَمَا أوربا بعصر الظلام الذي امتد حتى القرن الحادي عشر الميلادي، عندما بـدأت تـرى النـور الـذي غمرهـا بتـأثير الحضارة الإسلامية.

ولا تختلف الحركة الصليبية عن غزوة الفيكنج (Les Vikings) الذين هبطوا من إسكندنافية في القرنين الحادي عشر والثـاني عـشر الميلاديـين، فعـاثوا في الـبلاد فساداً، وهدموا ما كان فيها من معالم التقدم، والحضارة وطلائع العمران التي أرسى دعائمها شارلمان (Charlemagne).

ولا تختلف عن غـزوة الهنغـاريين (les Hongrois) الـذين أوغلـوا في وسـط القارة الأوربية تخريباً حتى وصلوا إلى شرق ألمانيا.

بل إنَّها تماثل في طبيعتها حركة المغول (Les Mongols) الذين اجتاحوا أرض الإسلام، وقضوا على الخلافة العباسية في بغداد، في سنة 656 هـ/ 1258م.

وإذا كانت الحركة الصليبية لا تختلف في نوعهـا عـن تلـك الغـزوات فقـد أربت عليها جميعاً في الوحشية، ويكفي أنَّها ألصقت جرائمها بدين المسيح عيسى بن مريم ﷺ، وهو أكثر الأديان السماوية مثاليـة، ودعـوة إلى المحبـة، والـتراحم، والرفق.

إنَّ المتأمل في تاريخ الحروب الصليبية يلاحظ أنّ هذه الحروب لازمتها بعض الظواهر السلوكية التي ميّزتها من غيرها من أنواع الصراع الـدموي بـين أبنـاء بنـي البشر، وستحاول الباحثة استقراء تلك الظواهر، والكشف عن دوافعها من خـلال أقوال المسيحيين أنفسهم، وأعمالهم، وكثير منهم كان شاهد عِيَان، ومشاركاً في تلـك الوقائع محارباً أو واعظاً ولن تـذكر شـيئاً ـ في هـذا المجـال ـ مـن أقـوال المـؤرخين المسلمين حتى لا تُؤَوَّل أقوالهم بغير معناها، أو تفسر على غير حقيقتها.

الظاهرة الأولى: نتعرَّف عليها من استقراء الأحداث الآتية:

في فتح طَرَسُوس[1]، قال صاحب أعمال الفرنجة: «جاء أعيان المدينة إلى معسكر الفرنجة وسلموا المدينة عن طواعية، وخاطبوا المتنازعين حول تملكها بقولهم: اقصروا أيها السادة فنحن نرغب إليكم ومع هذا كله فقد تابع الجيش العظيم تقدمه، وفيه ريموند الصنجيلي، وبوهمند البارع، والأمير غودفري، وسواهم كثير، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دماء التركمان، وعطش إلى الارتواء منها»[2].

وفي حصار سَرُوج[3] قال الرهاوي[4]: «حل الرعب في قلوب التركمان، وتملكهم الخوف، فهُزِمُوا، وذُبِحَ الكثير منهم بحد السيف، وتقدم الفرنجة إلى معسكر التركمان، وأعملوا النهب فيه دونما توقف، وغنموا الأموال والسلع... وبعدها هجموا كالأسود، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين، فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف، لا بل عشرات الألوف التي لا تعد ولا تحصى».

وفي فتح معرة النعمان[5] قال شاهد عِيان[6]: «وبعد ما أشرقت شمس الصباح شرعوا يقتلون كل من صادفوه أو عثروا عليه من أعدائهم رجلاً كان أم امرأة،

---

(1) طَرَسُوس: مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، وهي مدينة حصينة عليها سوران، وخندق واسع، ولها ستة أبواب، ويشقها نهر البردان. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 28، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 248.

(2) انظر: مجهول: المصدر السابق، ص 103.

(3) سَرُوج: مدينة بنواحي حرَّان، من بلاد الجزيرة. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 26، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 276.

(4) انظر: الرهاوي: المصدر السابق، ص 29.

(5) معرّة النعمان: مدينة كبيرة مشهورة، من أعمال حمص، بين حلب وحماة. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 156، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص264.

(6) المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 160.

وامتلأت جنبات المدينة بجثث المسلمين، وندر أن يجوب المرء طرق المدينة دون أن يدوس تلك الجثث».

وفي حصار طرابلس[1] قال صاحب أعمال الفرنجة[2]:

«زحف رجالنا على طرابلس، وصادفوا خارجها جماعة من التركمان والعرب المسلمين، فانقض عليهم رجالنا، وأجبروهم على الهرب، وقتلوا فئة كبيرة من أعيان المدينة، واستمر القتل بالكفرة، وسالت الدماء حتى صبغت المياه التي تغذى المدينة والآبار باللون الأحمر القاني».

وفي فتح بيت المقدس كانت المذبحة الكبرى التي أفاضت كتبهم في الحديث عنها[3]، ومن ذلك: «وقد أعملوا السيف في العسكر والأهالي، وأوغلوا في سفك الدماء أسبوعاً كاملاً، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً، وقتلوا في المسجد الأقصى نيفاً وسبعين ألفاً، وامتلأت شوارع المدينة من جثث القتلى، فكوّموها، وأحرقوها»[4].

وقد يظنُّ البعض أنَّ الدافع إلى هذه الوحشية هو الانتقام من المسلمين؛ ولكنَّ الحقيقة غير ذلك، فهو سلوك ذئاب على هيئة بشرية، ومتسترة بمسوح القديسين والرهبان، تجد في القتل ـ مجرد القتل، وإنْ أوجدوا له أسباباً ـ لذة، ومتعة، وغذاء، والدليل على ذلك أنّهم لم يتورَّعوا عن قتل أبناء دينهم، في سبيل شهوتهم، فمن أمثلة عدوانهم على المسيحيين:

---

(1) طرابلس: مدينة حصينة، على ساحل بحر الشام بين عكا وأنطاكية. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 25، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً ص 25، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 252.

(2) المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 164.

(3) انظر مثلاً: ابن العبري: تاريخ الزمان ص 318، وانظر: آنّا كومنين: المصدر السابق ص 58، وانظر: مجهول: المصدر السابق ص 170.

(4) انظر: ميخائيل السوري: نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية م 5 ص 93.

* عندما وصل الصليبيون إلى مدينتي روسا ورودوستو ـ قرب القسطنطينية ـ وأهلها مسيحيون، فاستولوا عليها، بعد أنْ استسلم سكَّانها لهم، فخرّبوهما، وهدموا أسوارهما، وقتلوا أهلها، وغنموا منها غنائم كثيرة[1].

* عندما وصل بطرس الناسك (Pierre l'Ermite) وجماعته إلى المجر وقع خلاف بينهم وبين الهنغاريين، عند قرية سملن (Semlin) بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم، فأحدثوا فيها مذبحة عظيمة، راح ضحيتها أربعة آلاف من الأبرياء، ونهبوا أموالهم[2].

* وفي حصار نِيقِية (Nicaea) قتلوا السكان المسيحيين في وحشية بشعة ونهبوا أموالهم[3].

لم يكن الإسراف في القتل إلاَّ واحداً من تلك الظواهر التي صحبت الحرب الاستيطانية الأوربية، بل كان معها ظواهر أخرى فمثلاً:

في معرة النعمان قام الصليبيون بقَطْعِ قِطَعٍ من لحوم القتلى؛ حيث قاموا بطهوها، واقتاتوا بها[4].

ومن الغريب أنْ يعبّر ريمون الجيلي (Raymond d´Agilers) عن إعجاب المسلمين بهذا العنصر الراقي من البشر !!!، فيصور له خياله المريض أنَّ رد فعل المسلمين والأتراك، وتعليقاتهم على ما شاهدوه هو «قولهم: إنَّ هذا العرق العنيد الذي لا يعرف الرحمة، ولم يزحزحه الجوع أو السيف، أو شتى المخاطر، لمدة عام عن أسوار أنطاكية[5]، ويتلذذ بأكل اللحم البشرى لا يمكن أنْ يقاوم، أو يُقْهَر، من الذي يستطيع أنْ يفعل ذلك؟»[6].

(1) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 181 ـ 182.

(2) انظر: رنسمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 193، وانظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص134.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق ص 199.

(4) انظر: المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 160.

(5) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي بلد عظيم حصين، من أعيان البلاد وأمهاتها. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 1/ ص 266، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 256.

(6) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 246.

ويجب أنْ نعلم أنَّ نهم الصليبيين لأكل لحوم البشر لم يكن ثأراً من المسلمين، فحسب، بل هو ـ فيما يبدو من أقوال المؤرخين المسيحيين أنفسهم ـ سلوك أصيل فيهم، وخُلُقٌ متجذِّر في طبيعتهم؛ فقد بدؤوا بأكل لحوم المسيحيين من أبناء عقيدتهم؛ واستمرؤوا أكل اللحوم البشرية ففي حصار نيقية قاموا بقتل السكان المسيحيين، وبشَيِّ الأطفال على السفافيد[1].

ويحاول هانس أبرهارد ماير (Hans Eberhard Mayer) أنْ يحصر هذه الظاهرة في جماعة بعينها، فقال: «لم يتوان عامة الشعب عن أكل لحوم البشر، وقد برز في ذلك بخاصة من يُدْعَوْن «تافور Tafurs» وهم من الفَلَمَنْك المتوحشين، الذين أتوا مع بطرس الناسك، وكانوا يقاتلون دائماً في الخطوط الأولى، ويستمتعون بالقتلى المسلمين»[2].

في حصار أنطاكية، وارى المسلمون جثث قتلاهم قريباً من أحد المرتفعات، فقام الصليبيون بانتهاك حرمة المقابر، ونبشوا القبور، وأخرجوا الجثث، وألقوا بها في النهر[3].

ولما علم الصليبيون أنَّ التركمان المسلمين قد دفنوا موتاهم في «المحمرة» خلف الجسر قرب باب مدينة أنطاكية حملوا معداتهم وأقبلوا مسرعين نحو تلك المقبرة الشيطانية ـ كما يقول صاحب أعمال الفرنجة ـ؛ فدمروا جميع الأضرحة، ونبشوها، وطرحوا ما كان فيها من جثث بعيداً، ثم جمعوها، وألقوها في خندق حفروه لها كما قطعوا رؤوس القتلى وحملوها إلى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى، هذا عدا عن كمية من الرؤوس حملوها على أربعة من الخيول العائدة إلى رسل صاحب مصر، وبعثوا بها ناحية البحر[4].

---

(1) انظر: آنّا كومنين: المصدر السابق ص 14، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ1/ ص ص 199 ـ 200.

(2) انظر: هانس أبرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد غانم، وتقديم نجاح القابسي، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1990، ص 86.

(3) المؤلف المجهول: يوميات أعمال صاحب الفرنجة ص 203.

(4) انظر: المصدر نفسه ص 123.

وقد جرت عادة الصليبيين بالتمثيل بجثث المسلمين: فيفقؤون عيونهم، ويقطعون آذانهم، ويجدعون أنوفهم[1] وكانوا يخرجون من الرُّهَا باستمرار، ويهاجمون العرب، وفي إحدى الغارات ساقوا إلى مدينتهم أحد عشر عربياً؛ فبتروا أرجلهم، وأيديهم، وعلقوا جثثهم أمام الأتراك المسلمين على سور المدينة تخويفاً لهم، وبثاً للرعب في نفوسهم[2].

وهذا الإجرام أصيل في نفوسهم، راسخ في أخلاقهم؛ فريمون دو صنجيل (Raymond IV)[3] ـ وكان مضرب المثل عندهم في أخلاق الفرسان ـ عندما أحاط به السلاف المسيحيّون محاولين الدفاع عن أرضهم وممتلكاتهم من اغتصاب الصليبيين أمر بسمل أعين بعض أسراه وبتر أقدام بعضهم الآخر أو أيديهم، وجدع أنوف الباقين ثم أخلى سبيلهم وفي ذلك يقول شاهد عيان منهم: «فتملك الأعداء رعب شديد بسبب المشهد المريع الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين»[4].

في حصار نيقية (Nicaea) حدث قتال عنيف حول المدينة، سقط فيه العديد من القتلى من الطرفين، وأصيب معظم المقاتلين بجراح وحمل الفرنجة عدداً كبيراً من رؤوس التركمان على أسنة رماحهم وعادوا بها، وكأنها رايات محمولة فوق رؤوسهم؛ حتى يراها المسلمون عن بعد؛ فتمتلئ قلوبهم خوفاً ورعباً، ثمَّ أخذ الصليبيون يضعون رؤوس القتلى في العَرَّادَات[5]، ويقذفون بها إلى داخل المدينة[6].

---

(1) انظر: ابن العبري: تاريخ الزمان ص 316.

(2) انظر: ابن العبري: المصدر السابق ص 331.

(3) أمير تولوز conte de Toulouse من 1088 إلى 1105م، وأحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وكانت سانجيل Saint - Gilles أحب الممتلكات إليه، فكان ينسب إليها، وأخيراً ضمت إليه مركيزية بروفانس.
انظر: رنسيمان: المرجع السابق 1/243، و Nouveau Petit LAROUSSE, p 1638.

(4) انظر: ريمون دو صنجيل: المصدر السابق 178.

(5) العرَّادة: المنجنيق الصغير، وهي من آلات الحرب التي تستخدم في قذف النار، والحجارة، وغيرها.
انظر: الخفاجي: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني التجارية الكبرى، بالقاهرة، 1952م، ص91 وانظر: السامرائي، إبراهيم: المجموع اللفيف معجم في المواد اللغوية التاريخية الحضارية، دار عمّار، عمّان، 1994م، ص 127.

(6) انظر: أنّا كومنين: المصدر السابق ص 37.

سبق الحديث كيف أنَّ الكونت صنجيل (Raymond IV de Saint - Gilles) لم يتورّع عن تعذيب المسيحيين السلاف ـ وهم أبناء دينه ـ فماذا يُتَوَقّع منه ومن قادة الصليبيين الآخرين؟

كان جودفروا (Godefroy)[1] متوجها إلى أنطاكية، فوجد جماعة من المسلمين، ونشب قتال عنيف بين الفريقين قتل فيه نحو ثلاثين من المسلمين، وأسر مثلهم ـ كما يزعم ريموند الجيلي (Raymond d'Agilers) ـ فأمر جودفروا الأسرى المسلمين أنْ يحملوا رءوس رفاقهم القتلى، ليكونوا في موكبه الظافر، وهو يدخل المدينة[2]؛ فهل هناك تعذيب أكثر وحشية من هذا؟.

أمّا تعذيب المسلمين من أجل استخلاص الأموال منهم فكان أمراً معتاداً، ففي معرّة النعمان أطلق الصليبيون الدخان، والأبخرة الكبريتية، وأشعلوا النيران؛ لإرغام المسلمين على الخروج من مخابئهم، وأخذوا يعذّبون حتّى الموت كل من وصلت أيديهم إليه، وجرَّب بعض الصليبيين «اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الثروات والذخائر الدفينة، وكان المعرِّيُّون يقودون آسريهم إلى الآبار، ثم يلقون أنفسهم فجأة، ليلقوا منيتهم، مؤثرين بذلك الموت على كشف النقاب عن أماكن الأمتعة... وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعاً»[3].

استقراء الأحداث التاريخية السابقة يكشف عن ظاهرة «الوحشية والإجرام» في الحرب الاستيطانية الأوربية التي عبّرت عن نفسها في:

---

(1) Godefroy de Bouillon هو دوق اللوران الأسفل Duc de Basse - Lorraine، ولد في بيزي Baisy في سنة 1061 م، وكان واحداً من قادة الحملة الصليبية الأولى، وأول من تولى مملكة بيت المقدس، وبها هلك في سنة 1100م.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1409.

(2) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 236.

(3) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 242 ـ 243.

1 ـ الإسراف في القتل.
2 ـ أكل لحوم البشر.
3 ـ نبش القبور والتمثيل بالجثث.
4 ـ استخدام الرؤوس كقذائف.
5 ـ تعذيب الأحياء.

الظاهرة الثانية: نتعرَّف عليها من استقراء الأحداث الآتية:

هذه شهادة شاهد منهم يصف أخلاقهم، ويصوّر نفسيّاتهم وعاداتهم، تقول أنّا كومنين (Anne Comnène): «الخيانة طبع لهم، وتتقاذفهم هنا وهناك مثل تيار يوربيوس[1] من غاية إلى غاية أخرى ولحبهم للمال وجشعهم كانوا دائماً على استعداد لبيع زوجاتهم وأطفالهم حتى آخرهم»[2].

في تاريخ الحملة الصليبية الأولى نرى صورة سيِّئة للأخلاق المنبوذة كالنفاق، ونقض العهد؛ فأكثر المدن التي فتحوها كان اعتمادهم الأول على الخيانة، والعمالة.

ففي معرة النعمان أمر بوهيموند (Bohémond) زعماء المسلمين ـ على لسان مترجمه ـ بالالتجاء هم ونساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم إلى قصر في جنوب باب الجسر، وقطع على نفسه عهداً أنْ يحفظ عليهم حياتهم، وأموالهم، ويؤمِّنهم به على أنفسهم، ولكنه ما إنْ تمكَّن من المدينة حتى قبض على الذين طلب منهم الالتجاء إلى القصر الذي عيَّنَه لهم، وغدر بهم؛ فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة والمجوهرات والحلى، ثم قتل بعضاً منهم وساق بعضهم الآخر إلى أنطاكية ليباعوا فيها رقيقاً[3].

(1) يقول عنها سهيل زكار: «القنال الضيق بين جزيرة يوربيا والبر الإغريقي مشهورة بتياراتها».
انظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية م 6/ ص 548.
(2) انظر: أنّا كومنين: المصدر السابق ص 39.
(3) انظر: المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 160.

وأكثر المدن الإسلامية الحصينة استولوا عليها بالخديعة والخيانة، وكثيراً ما كانت الخديعة مزدوجة، وأعني بها خديعة السكان من جهة، وخديعة المحاصرين من جهة ثانية؛ كما حدث في الاستيلاء على نيقية (Nicaea) فقد بعث الإمبراطور أليكسيوس (Alexis Comnène 1[er]) نائبه، وموضع ثقته، وكلّفه بأنْ يعمل على استمالة المسلمين إليه، بمختلف الوعود والمواثيق، وبتأمينهم على أنفسهم وبإعلامهم بأنه ليس أمامهم سوى الاحتماء به، وتسليم المدينة إليه، أو التعرض للتشتت أو الهلاك والقتل إذا ما تسلم الفرنجة المدينة، وفي الوقت نفسه كانت جنوده تحاصر المدينة مع المحاصرين لها من الصليبيين الذين فوجئوا بأعلام الإمبراطور ترفرف على أسوار المدينة، وتم الاستيلاء عليها بالخديعة[1].

بل إنَّنا نجد أنَّ بوهمند (Bohémond) قد دبّر ثلاث مؤامرات في وقت واحد، للحصول على أنطاكية، وهي:

1 - شراء واحد من الأرمن كان مسؤولاً عن حفظ واحد من أبراج المدينة، وحراسته؛ فأقنعه بتسليم البلد إليه.

2 - خدع تاتيكوس (Taticius) - مندوب ألكسيوس (Alexis) في تسلم المدينة بعد فتحها بناء على الأيمان المعطاة للإمبراطور - موهماً له أنَّ الإمبراطور خان الصليبيين، وراسل سلطان المسلمين، وتآمر معه وقد أرسل السلطان جنوداً لفك الحصار عن أنطاكية، وأنّ الأمراء الصليبيين يتآمرون لقتله، وحذّره البقاء؛ فركب هو ورجاله الروم السفن وأبحروا إلى قبرص.

3 - خدع الأمراء الصليبيين معه في الحملة، وأخذ منهم وعداً بأنّ أوّل مَنْ يدخل المدينة ينصبونه ملكاً عليها، وكان قد اتّفق مع الأرمني على فتح الأبواب إليه، وهكذا تم له الأمر[2].

---

(1) انظر: آنّا كومنين: المصدر السابق ص 35.

(2) انظر: انّا كومنين: المصدر السابق ص 46.

زحـف الأمير طُغْتْكِين أتابك دمشق[1]، في جيش عظيم نحـو أَنْطَرَطُوس[2] محاولاً فكَّ الحصار عنها، ولم يكن بإمكان صنجيل (de Saint-Gilles) التـصدي لقوات دمشق القوية الكبيرة العدد، فقام بوضع خطة تدل على الخسة، والجبن؛ فقد أقنع أهالي أَنْطَرَطُوس، وأخـبرهم أنّـه سـيختبئ في زاويـة مـن زوايـا أحـد الأبراج الكبيرة، وطلب منهم أنْ يستروا أمره، ويخبروا أتابك أنَّه فرّ خوفـاً منـه، وكان أتابـك متعبـاً بعـد زحفـه الطويـل، فقـام بنـصب خيمـة قـرب الأسـوار؛ ليستريح، وقام التركمان الذين لم يرتابوا بالأمر بترك خيولهم، وتـسريحها، لترعـى في السهل، وفي منتصف النهار، هاجمهم صنجيل (de Saint-Gilles) وهو بكامل سلاحه، ومعه رجاله، فكانوا جميعاً طعمة للسيف، فيما عدا القليل مـنهم وقعـوا في الأسر[3].

وفي سـنة 488 هـ/ 1095م، عنـدما حـاصر قلـج أرسـلان[4]

---

(1) أبو منصور، طُغْتْكِين Doldequine، أو Tugtokin (ت 522 هـ/ 1128 هـ) من أمراء تاج الدولـة، كان شهماً شجاعاً، له مواقع مع الصليبيين.

انظر: بدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبـير جـ7/ ص 61، وانظـر: سـبط ابـن الجـوزي: مـرآة الزمـان جـ8/ ص 127، وانظر: للصفدي الكتب الآتية: الوافي بالوفيـات جـ16/ ص 451، وأمـراء دمـشق في الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، منشورات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م، ص 45، وتحفة ذوى الألباب فيمن حكم في دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق إحسان بنـت سـعيد خلـوصى، وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م، جـ2/ ص 61، وانظـر: ابـن العـماد: المـصدر السابق، جـ4/ ص65.

(2) أَنْطَرَطُوس: بلد من سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق مـن الـبلاد الـساحلية. انظـر: يـاقوت: معجم البلدان جـ 1/ ص 270.

(3) انظر: انَّا كومنين: المصدر السابق ص 60.

(4) قِلِج أرسلان: قِلِج ـ بكسر القاف، واللام، وأحياناً يزاد بعد اللام ياء فيقال «قِلِيج» وهـو قلـج أرسـلان الأول بن سليمان بن قتلمش، صاحب قونية، (ت 500 هـ/ 1106م) لـه دور في مقاومـة الـصليبيين.

انظر: سليمان، أحمد السعيد: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة جـ 1/ ص 315، وانظر: استانلي بول: المرجع السابق ص 145.

مَلَطْيَة[1] بعث رسولاً إلى المطران سعيد بن صابوني ليتفاوض معه على تسليم المدينة، وكان صاحب المدينة جبرائيل اليوناني حاقداً على المطران، وظنَّ أنّه يتآمر عليه مع الأعداء، وأراد أنْ يدبِّر جريمة، ويحمِّل المطران جرائرها؛ فأوعز إلى رجاله بقتل أحد الضباط في اليوم التالي، وعندما علم المطران بذلك، تضرع إلى جبرائيل؛ ليكف عما بيَّته لذلك الضابط، فغضب، وأهوى بسيفه على رقبة المطران فأرداه قتيلاً، ولم يمكِّن أهله من أنْ يشيعوه، أو أنْ يواروا جثمانه في الكنيسة إلا بعد يومين[2].

استقراء الأحداث التاريخية السابقة يكشف عن الظاهرة الثانية في الحرب الاستيطانية الأوربية وهي ظاهرة «الانحطاط الخلقي والبعد عن القيم الإنسانية النبيلة».

الظاهرة الثالثة: نتعرَّف عليها من استقراء الأحداث الآتية:

يبدو أنَّ الصليبيين الزاحفين إلى بيت المقدس قد اعتبروا أنفسهم صنفاً أرقى من غيرهم من البشر، بصرف النظر عن الجنس الذي ينتسب إليه الآخرون، أو الدين الذي يدينون به، وقد أعطوا أنفسهم حق سلب الجميع، ونهبهم، والاستيلاء على كل ما تقع عليه أعينهم؛ وكأنَّ الله استخلفهم في الأرض، وأباح لهم كل ما عليها من مخلوقات، فانطلقوا في البلاد يعيثون فيها فساداً، ويرتكبون من الموبقات ما يندى له جبين الكريم، وهذه بعض الأمثلة:

* جرت عادتهم التعالي والتفاخر إذا تحدّثوا عن أنفسهم، وإذا جرى ذكر غيرهم ألصقوا بهم كل صفات السوء؛ فيصفونهم بالبرابرة[3] والكفرة، والوثنيين[4].

---

(1) مَلَطْيَة: ـ بفتح أوله وثانيه ـ بلدة من بلاد الروم مشهورة، تتاخم الشام وهي للمسلمين منذ بنائها، في سنة 140 هـ/ 757م بأمر أبي جعفر المنصور.

انظر: ياقوت: معجم البلدان 5/192، وزعم البغدادي أنَّها من بناء الإسكندر، وجامعها من بناء الصحابة انظر: البغدادى، عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992م، جـ 3/ ص 1308.

(2) انظر: ابن العبري، تاريخ الزمان ص 314.

(3) انظر: آنّا كومنين: المصدر السابق ص 37.

(4) انظر: المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 164.

* يروي ميخائيل السوري صورة لحياة المسلمين والمسيحيين، فقد عاشوا متحابّين، متسامحين، متعاونين في ظل دولة الإسلام، وعندما ملك اليونانيون الرها أخذ العرب الذين بها أولادهم، وهربوا، وأخذ المسيحيون أولادهم، وخرجوا معهم؛ لأنهم كانوا معتادين على العيش معهم، فهم يتكلمون لغتهم العربية، ويكتبون بخطهم العربي، وكانوا ينفرون من اليونانيين، بل يخافونهم، ويخشون شرهم[1]، وبالرغم من ذلك لا يتورّع عن الكذب، ورفع صوته بالبكاء والحزن؛ فيرسم لوحة دامية لما حلّ بالمدينة عندما استعادها المسلمون من أيدي الصليبيين، ويقول: «يا للخطب المروع، لقد استولى الخنْزِير الأثوري على الرُّهَا وداس العنب الحلو، يا للفاجعة الكبرى، ويا للهول المؤلم، لقد كانت فاجعة مروعة ألمت بمدينة أبجر خليل المسيح عليه السلام، داسها العدو... أما الكهنة فكانوا يتراكضون مرددين قول ميخا النبي: «إنِّي أحتمل غضب الرب لأنّي أخطأت إليه»[2]، ولم يوقفوا صلواتهم وابتهالاتهم حتى أسكتهم السيف، ومن ثم وجدوا وقد ضرج الدم ثيابهم وصناديق عظام القديسين بين أيديهم[3].

ومن المؤكّد أنَّ المسلمين لم يفعلوا شيئاً من هذا؛ فليس في دينهم هدم دور العبادة، أو قتل الأبرياء، وليس أدلّ على كذبه من أنّه هو نفسه يروى كيف أنّ المسلمين عندما دخلوا الرُّها جعلوا المطران مستشارهم لإعادة بناء المدينة[4].

استقراء الأحداث التاريخية السابقة يكشف عن ظاهرة «التفرقة العنصرية البغيضة» في الحرب الاستيطانية الأوربية.

الظاهرة الرابعة: نتعرَّف عليها من استقراء الأحداث الآتية:

بالرغم من أنَّ الصليبيين عقدوا مجمعاً، وعاهدوا الله فيه أنَّهم سوف يعاملون جميع النصارى بالحسنى، من أي مذهب كانوا، وأنهم سوف يهبون لكل طائفة تؤمن

---

(1) انظر: روايات ميخائيل السوري الكبير ص 184.

(2) انظر: الكتاب المقدس، إصحاح ميخا 7: 9.

(3) انظر: روايات ميخائيل السوري الكبير ص 170.

(4) انظر: المصدر السابق ص 171.

بالمسيح كنائس وديَّارات[1]، ومع ذلك فإنَّهم لم يحفظوا هذا العهد ودفعهم التعصب إلى الغدر ونقض المواثيق فمن ذلك:

* بعد استيلائهم على صور[2] وبيت المقدس *أخرجوا الروم من الكنائس الكبرى، وأبعدوا أساقفتهم، وأقاموا من شعبهم بطريركين: أحدهما لأورشليم، والثاني* لأنطاكية.... ثم نصب هذان البطريركان عشرين أسقفاً بصور والمدن الكبرى[3].

* ولما ملك الإفرنج أنطاكية أخرجوا اليونانيين من الكنائس الكبيرة، وطردوا رؤساء كهنتهم، وأقاموا بطريركاً من شعبهم، ووضعوا مطارنة في كل المدن التابعة لهم مثل طَرَسُوس، والمَصِّيصَة[4]، والرُّهَا، ومَنْبِج[5]، وأَفَامِيَة[6]... وأقاموا لهم بطريركاً في القدس، ورسموا أساقفة لبيت لحم[7]، وحَبْرُون[8].

استقراء الأحداث التاريخية السابقة يكشف عن ظاهرة «التعصب الديني والمذهبي» في الحرب الاستيطانية الأوربية.

---

(1) انظر: المصدر السابق ص 89.

(2) صُور: مدينة مشهورة من ثغور المسلمين، على ساحل البحر الأبيض المتوسط.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 433، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً ص 286 وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 242، وانظر: البغدادي: المصدر السابق جـ 2/ ص 856.

(3) انظر: روايات ميخائيل السوري ص 93.

(4) المَصِّيصَة: مدينة على شاطئ جيحون، من ثغور الشام. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 5/ ص144، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 250.

(5) مَنْبِج: مدينة قديمة، بينها وبين حلب عشرة فراسخ. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 5/ ص 205، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 270.

(6) أَفَامِيَة: مدينة حصينة، من سواحل الشام، من أعمال حمص. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ1/ ص277، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 262.

(7) بَيْت لَحم: بليدة، قرب بيت المقدس، وهي مهد عيسى بن مريم عليه السلام.
انظر: ياقوت: معجم البلدان 1/521.

(8) حبرون: قرية قريبة من بيت المقدس، فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام، وغلب عليها اسم الخليل. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 2/ ص 212، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 240. وانظر: روايات ميخائيل السوري ص 113.

الظاهرة الخامسة: نتعرَّف عليها من صورة العلائق بينهم وبين المؤمنين بالرسالات السماوية الثلاث؛ فلم يفرّق الصليبيّون بين رسالة سماوية وأخرى في سبيل منفعتهم المادية وكسبهم الحرام، ولم ينج من شرهم إنسان أمسلماً كان، أم يهودياً، أم مسيحياً، ولم تسلم من نهبهم دار من دور العبادة يتساوى في ذلك المسجد، والكنيسة، والبِيْعَة، مما يشير إلى الظاهرة التي صحبت تلك الحرب الاستيطانية الأوربية وهي «الاستهانة بالأديان السماوية ومقدساتها».

الصليبيّون والمسلمون:

إنّ عداء الصليبيين للإسلام، والمسلمين لا يحتاج إلى دليل، ويكفي أنْ نشير هنا إلى ما فعلوه في المسجد الأقصى، ومعبد سليمان، عندما دخلوا بيت المقدس، وستذكر الباحثة هنا رواية صاحب أعمال الفرنجة بنصّها؛ لتكون شاهداً منهم على أفعالهم، قال: «لما دخل حجاجنا المدينة جَدُّوا في قتل المسلمين، وطاردوهم حتى قبة المسجد العُمَرِيِّ حيث تجمعوا هناك، واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أبشع القتل، وأفظعه طوال اليوم بأكمله، حتى فاض المعبد كله بدمائهم، وبعد ما تم لرجالنا النصرة على الكفار عثروا في المعبد على جماعة كبيرة من الرجال والنساء، ففتكوا ببعضهم، وأبقوا على بعضهم ممن أحسنوا الظن بهم، وكان قد التجأ إلى الجانب العلوي من هيكل سليمان فريق كثيف من الكفار من الرجال والنساء رافعين أعلام تنكريد وكاستون بيرن... وتسلق رجالنا في صباح اليوم التالي سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالاً ونساء، وامتشقوا سيوفهم، وراحوا يعملون فيهم الذبح، حتى رمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد»[1].

ويذكرون أنّهم قتلوا في داخل المسجد الأقصى نيِّفاً وسبعين ألفاً من المسلمين[2].

---

(1) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 170.

(2) انظر: روايات ميخائيل السوري ص 93، وانظر: ابن العبري: تاريخ الزمان ص 318.

وفي الوقت نفسه سلبوا من المسجد، وقبة الصخرة القناديل المصنوعة من الذهب والفضة والكثير من الأواني والذخائر الفاخرة[1].

الصليبيّون واليهود:

ارتبطت الحركة الصليبية بالعداء الشديد لليهود، وذلك لثلاثة أسباب:

الأول: تمشّياً مع الشعور الديني العام الذي كان دافعهم إلى الحرب؛ فإذا كانوا يسعون إلى تطهير الأرض المقدّسة من الكفار ـ في زعمهم ـ فهم لا ينسون أبداً ـ ولا يجب أنْ ينسوا ـ أنّ اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام، وهم الذين عذّبوا أتباعه وحواريّيه، وفي رواياتهم «قال الربُّ: إنّني أحمل لهم عظيم الكراهية بصفتهم من الكفّار، وأُصَنِّفُهُم مع أحطّ الأجناس»[2].

والثاني: ما جُبِلَت عليه نفوسهم من كراهية الغير أيّاً كانت العقيدة التي يدين بها، فليس لهم من معبود إلاّ المال، ولا صاحب إلاّ الطمع.

والثالث: حاجتهم إلى المال؛ لتمويل الحركة، واليهود هم الذين يملكون المال، ويجب قتلهم؛ لاستخلاص الأموال منهم، فاليهود جمعوا ثروات طائلة من الربّا والفوائد الباهظة التي فرضوها على مَنْ يقترض منهم من المحتاجين المدنيين، والفرسان الذين كانوا يستعدّون لحمل الصليب[3].

لهذه الأسباب تعرّض اليهود إلى عملية اضطهاد كبيرة، وبالرغم من أنَّ إمبراطور ألمانيا هنري الرابع Henri IV[4] بسط عليهم حمايته، وفي الوقت نفسه قدّموا

---

(1) انظر: ابن العبري: المصدر السابق ص 318.

(2) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 261.

(3) انظر: Pirenne. H.: Econnomic and Social History of Medieval Europe, London 1947, p133.

وانظر: Thompson, J. W.: Econnomic and Social History of Middle Ages, London 1959, Tome I, p 394.

(4) هنري الرابع: ولد سنة 1050م، وتولّى الحكم في سنة 1056م إلى وفاته في سنة 1106م وخاض معركة رهيبة ضد البابا جريجوار. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1435.

أموالاً ضخمة إلى كونت اللورين الأسفل[1] الذي كان قد أقسم على أنْ يقتـل جميـع اليهود انتقاماً للمسيح؛ وذلك على سبيل الرشوة ليتخلّى عن قَسَمِه[2]، ولكـن لم تُجْـدِ كل تلك المحاولات في ردّ انتقام الصليبيين المتعطّشين للقتل؛ فقد انطلقوا في مجـرى الراين، ينهبون اليهود، ويقتلونهم، ويؤكد ماير (Mayer) أنَّ حجّة ملاحقـة اليهـود كانت أداة لتغطية دوافع الجشع الحقيقية، وأنَّ كثيراً من الـصليبيين قـد حـصّلوا ممـا غنموه من اليهود على الوسائل اللازمة للسفر، إلى بيـت المقـدس[3]، وكـان بطـرس الناسك أوّل من عقد صفقة مع اليهود، وحـصل مـنهم عـلى رسـائل إلى الجاليـات اليهودية، في أنحاء أوربا، لتوفير المؤن والغذاء للجيش الصليبي[4].

وكان من الطبيعي أنْ يتعرّض اليهود للإبادة في بيت المقدس وأنْ يعمل فيهم الصليبيون القتل، كما قتلوا المسلمين[5].

الصليبيون والمسيحيّون:

إذا كانت الحركة الصليبية شرّاً على المسلمين واليهود معاً فإنَّ أذاها قـد طـال المسيحيين أنفسهم، ونالهم منها مثل ما نال غيرهـم من القتل، والنهـب، والاعتـداء على المقدّسات، والاستهانة بمبادئ الدين، وأخلاقه، ومُثُلِه، فمن ذلك:

* عندما أخذ الفرنجة يزحفون نحو القسطنطينية، بدؤوا بـالهجوم عـلى القـصور القريبة من البحيرة الفضية، فدمروها تدميراً كاملاً، ثم هاجموا أسـوار المدينـة، وقـد أصر الإمبراطور على عدم قتال اللاتين مهما كانت الأسباب؛ وذلك لأنّ اليـوم كـان يوم الخميس من الأسبوع المقـدس، وهـو أعظـم الأسـابيع قداسـة في الـسنة، عنـد المسيحيين، إنّه اليوم الذي ذاق الرب فيه آلام الموت في سبيل خـلاص العـالم أجمـع،

---

(1) هو جودفروا دو بوايون Godefroy de Bouillon.

(2) انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 137، وانظر: هانس ماير: المرجع السابق، ص 71.

(3) هانس أبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 71.

(4) رنسيمان: المرجع السابق، جـ 1/ ص 207 ـ 217.

(5) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 268.

كما يزعمون، ولأنه كان يرغب في تجنب سفك الدماء بين المسيحيين، وقام عدة مرات بإرسال المبعوثين إلى اللاتين ناصحاً إياهم بالامتناع عن القتال، في مثل هذا اليوم المقدس، ولكنهم كانوا أبعد من أنْ يصغوا لكلماته، ولم يحترموا قداسة ذلك اليوم، وزادوا من تقوية صفوفهم، والهجوم على المدينة، فأمر الإمبراطور رماته بضربهم بالنشاب وقُتِلَ العديد منهم[1].

* يروى صاحب أعمال الفرنجة أنَّ الصليبيين سلكوا سلوكاً شائناً أثناء إقامتهم في أراضي الدولة الرومانية الشرقية؛ حيث هدموا القصور، وأشعلوا فيها النيران، واقتلعوا الرصاص من سُقُفِ الكنائس وباعوه للإغريق، مما أغضب الإمبراطور غضباً شديداً، فأمر بإبعادهم عن البلاد وعبورهم البسفور[2].

والغريب أنْ يشترك القساوسة والرهبان مع الجنود في انتهاك حرمات الكنائس، ونهب كنوزها؛ فعندما قرر جوسلين (Joscelin de Courtenay)[3] نهب دير مار برصوم[4] أرسل قساوسة الإفرنج فدخلوا إلى الهيكل، وأخرجوا كل ما وجدوه فيه من صوانٍ فضية، وقوارير نحاسية، وصلبان، ومباخر، وقناديل وأيقونات معدنية، وأناجيل، ثم أخذوا يفتشون بيوت الكهنة والرهبان، وجمعوا كل ما وجدوه من ذهب، وفضة، ونحاس، وحديد، وثياب، وستائر حتى إنهم أخذوا أثاث الهيكل، ودخلوا إلى أكواخ النساك، ونهبوا كل شيء وجدوه، ثم حملوا كل شيء على الجمال والبغال وبخاصة أثاث الهيكل، وأواني النحاس، ومتاعاً من كل جنس ونوع، وكان بينها صليب ذهبي طمع فيه جوسلين (Joscelin de Courtenay)،

---

(1) انظر: أنّا كومنين: المصدر السابق ص 22 ـ 23.

(2) انظر: المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 79.

(3) أسرة كرتناي من الأسر الفرنسية الإقطاعية النبيلة، والتي كان لها دور بارز، وحيوي في الحروب الصليبية، تولّى ثلاثة منها عرش القسطنطينية، وكان منها ملك لمملكة القدس، وجوسلين هذا كان ملك الرها.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1304.

(4) واحد من أديرة مدينة الرُّها.

فكسَّره، ووزعه على الذين كانوا معه، وأخيراً ساق بغال الدير، وكانت اثني عشر بغلاً، وأخذ معه الرهبان الذين حضروا وكانوا نحو خمسين راهباً[1].

* ويروى ابن العبري[2] أنَّ جبرائيل اليوناني حاكم ملطية قتل أبا سالم الرئيس الصادق الإيمان صهر آل عمران، وغيره من الصالحين، ونهب من بيت أبى منصور بن ملكا ذهباً وفضة وبضائع مختلفة، كما سلب من كنيسة المطران قنينة ميرون والكثير من الصلبان والمباخر وغير ذلك من الذخائر، وخرَّب البيوت؛ ليعمر السور والقلعة بأحجارها.

هذه هي أخلاق الصليبيين، وهذا هو مسلكهم، ولا بُدَّ لنا من عودة مرّة أخرى إلى مفجّر هذه الحركة وزعيمها الروحي، لا بدَّ لنا من العودة إلى البابا أوربان الثاني؛ لنتعرّف على شخصيته هو، وعلى أخلاقه، ومدى معرفته بالرجال الذين انتدبهم لهذه المهمة المقدّسة.

يعتقد المسيحيون أنَّ المسيح عليه السلام قد فوَّض بطرس الحواري أمور رئاسة الكنيسة، ويروون قول المسيح عليه السلام له: «**أَنْتَ صَخْرٌ، وَعَلَى هَذَا الصَّخْرِ سَأَبْنِي كَنِيسَتِي، فَلَنْ يَقْوَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ الْمَوْتِ، وَسَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ؛ فَمَا رَبَطْتَ فِي الأَرْضِ رُبِطَ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَا حَلَلْتَ فِي الأَرْضِ حُلَّ فِي السَّمَوَاتِ**»[3].

وتستند الكنيسة الكاثوليكية إلى هذا النص، وتبنى عليه تعاليمها القائلة **بأَنَّ خلفاء بطرس يَرِثُون رِئَاسَتَه**، ويحق لهم التحليل والتحريم، ويحق لهم الفصل من الجماعة الدينية أو القبول فيها ثانية، ويحق لهم تفسير الشريعة ومغفرة الخطايا[4]، ولمّا

---

(1) انظر: روايات ميخائيل السوري ص 194.

(2) انظر: ابن العبري: تاريخ الزمان ص 314.

(3) انظر: إنجيل متى، الإصحاح 16: 18 ـ 19.

(4) انظر: تفسير النص السابق في الكتاب المقدس، نشر جمعيات الكتاب المقدس في المشرق، بيروت، 1994م، ص 79.

كانت كنيسة روما تنسب إلى بطرس فالبابا مفوّض من المسيح بما فوَّض به إلى بطرس من سلطات، وأصبح في عقيدتهم مقدَّساً، وقد تصدَّت الكنيسة الأرثوذكسية لهذا الفهم الخاطئ للنص، واعتبرت ما جاء في الإنجيل خاصاً بشخص القديس بطرس وحده لا يورَّث إلى غيره"[1]، والتسليم بهذه السلطات الإلهية شرك صريح ووثنية ظاهرة[2]، قال الله ﷻ فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3].

والمسلمون غير ملزمين بوجهة نظرهم في تقديسهم البابا، وإنَّما يحتكمون إلى العقل، وإلى التاريخ؛ لقول الرأي الصحيح فيه، من كلامه هو[4]، فهو ـ من وجهة نظر الباحثة ـ رجل يخطئ، ويصيب، بل ويملأ الشر نفسه كغيره من أبناء دينه وجنسه.

نعود إلى البابا أوربان الثاني (Urbain II)، لعلّنا نتعرّف على نفسيّة هذا الداعية إلى القتل والنهب ـ بعلمه، وأمره ـ باسم الدين المسيحي الذي يُفْتَرَض فيه أنّه راعيه، وأنّه حاميه.

من الراجح أنّ البابا أوربان الثاني (Urbain II) سيطرت عليه فكّرة معيّنة، استحوذت عليه، وانعكست على أفعاله؛ فعندما اعتلى عرش البابوية، وجد أنَّ

---

(1) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(2) تحبّ الباحثة أنْ تنبّه إلى أنّ لفظ الوثنية في العقيدة المسيحية لا يثير الغرابة، فهم أنفسهم يعترفون بأنّهم يعبدون الصُّوَرَ (انظر: رنسيمان: المرجع السابق 1/48) ومن لا يبجّل عبادة الصور عندهم فهو مهرطق، وهم يطلقون لفظ «الهرطقة» على المعارضين، وعلى بعض الحركات الانفصالية الخارجة عن تفسير الجماعة، وتعاليمها.

انظر: معهد الإنماء العربي: الموسوعة الفلسفية العربية، جـ 2/ جـ 1238.

(3) سورة المائدة 5: 73.

(4) النصوص التي ستذكرها الباحثة ـ هنا ـ هي من نص خطابه، في مجمع كليرمونت برواية فوشيه التشارتري في كتابه: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة سهيل زكار، ص ص 310 ـ 315.

البابا جريجوار السابع (Gregoire VII)[1] قد سبقه إلى محاولة تنظيم حملة صليبية إلى الشرق، تتكون من فرسان مسيحيين، يخضعون لأوامر الكنيسة، ويقودهم بنفسه؛ لنجدة إمبراطور بيزنطة أليكسس كومنين، في محاولة لتوحيد الكنيستين المنشقتين منذ سنة 1054م، ولرد السلاجقة عن القسطنطينية، ولكنه مات دون أنْ يتمكّن من تنفيذ خطته[2].

كان أوربان الثاني (Urbain II) أكثر مكراً من البابا جريجوار (Gregoire VII) وأوسع منه حيلة «وعلى الرغم من أنَّه كان بوسعه أنْ يكون متجهّماً شديد القسوة فإنّه آثر أنْ يكون لطيفاً، وأنْ يتحاشى من الجدل ما يثير المرارة والنضال»[3]؛ ولكي يكون له دور بارز، لا يقل عمّا كان لسلفه، فلابد أنْ يحرر القبر المقدّس وأنْ يطهّر القدس.

في خطبته نراه مرّة يزعم أنّه يتحدّث باسم الرب، فيقول: «إنّه ليس أنا الذي أتوجّه إليكم، ويحرّضكم، بل الربُّ على لساني أنا نائب المسيح، أتوجّه إلى الفقير منكم والغنى، وأسألكم أنْ تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء..»[4]، ومرّة أخرى يزعم أنّه هو الله نفسه وقد حلَّ فيه ـ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، ونعوذ بالله من الكفر ـ ويعطي لنفسه قدرة الله؛ فيغفر لِمَنْ يشاء، ويعذّب مَنْ يشاء، يقول:

«ولكن اعلموا أنَّ المسيح هو الذي يخاطبكم، ويصدر الأوامر: إنَّ جميع الذين يذهبون إلى هناك، ويفقدون حياتهم في البر، أو البحر أثناء الرحلة أو خلال

---

(1) جريجوار السابع: ولد في سُوَانا (Toscane) Soana ما بين عامي 1015 و1020م، وتولّى البابوية في سنة 1073م، إلى أنْ هلك في سنة 1087م، وخاض معركة قوية ضد هنري الرابع ملك ألمانيا، وكان من أكثر الدعاة حماساً لنجدة الكنيسة البيزنطية، وقتال المسلمين.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1418.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 159.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 162.

(4) انظر: فوشيه الشارتري «ترجمة سهيل زكار»: المصدر السابق ص 314.

المعركة ضد الكفّار سيتم غفران ذنوبهم بالحال، وإنّني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة عليّ من قبل الربّ»[1].

وأمّا عن معرفة البابا أوربان الثاني (Urbain II) بالرجال الذين انتدبهم لهذا العمل المقدس فهم اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة السفّاحون المأجورون الذين يحترفون القتل مقابل دريهمات، إنّه يقول لِمَنْ يستمعون إليه ويؤمنون به: «على الذين طال انشغالهم باللصوصية أنْ يتحوّلوا ليكونوا جُنْداً للمسيح، ولْيَقُمْ الذين حاربوا في الماضي ضد آلهم وإخوانهم بالحرب، الآن ضد البرابرة، دع الذين كانوا يُكْتَرُون لقاء دريهمات من الفضة يحصلون الآن على ثواب سرمدي، ودع الذين كانوا ينهكون أنفسهم، ويدمّرون أجسادهم، وأرواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب، وأجر فيه تعويض مضاعف»[2].

إنَّ المبدأ الذي أقرّه البابا أوربان الثاني (Urbain II) هو «الغاية تبرر الوسيلة» ولا شأن للدين وتعاليمه بهذه الحرب غير المقدسة.

نتائج الحركة الصليبية:

لقد كثر جدل المسيحيّين حول شرعية الحرب المقدّسة، والحرب باسم بالدين ما بين معارض، ومؤيِّد[3]، ولكنّ من المؤكد أنّها حرب ابتدعها القسس لصالح الكنيسة الدنيوية[4]، وإنْ هدمت الدين، وأتت على بنيانه من القواعد.

والحرب باسم الدين بدعة حاربها المخلصون من أنصار العقيدة المسيحية،

(1) انظر: المصدر نفسه 314.

(2) انظر: المصدر السابق 314.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص ص 135 ـ 149 وانظر: هانس ماير: المرجع السابق ص32.

(4) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 137.

ويَذْكُر المؤرخون أنَّ القديس هيبوليت Hippolyte[1] أصدر في مجموعة شرائعه الكنسية المشهورة قانوناً يحرّم على العسكريِّين دخول الكنائس[2].

ومما يؤكد أنَّ الحركة الصليبية قامت على اعتبارات دنيوية أنّ المؤرخ الفرنسي رينيه جروسية (R. Grousset) ـ وهو من أكثر المؤرخين تعصباً لقوميته الفرنسية ـ يعترف بأنَّ الحركة الصليبية لم تقم نتيجة لدوافع دينية[3].

إنَّ الممارسات الخاطئة للكنيسة الكاثوليكية نابعة من المصالح الدنيوية والسلطة السياسية لرجال الدين، في العصور الوسطى، بل إنّ لفظ كاثوليك (Catholique) في أصل اشتقاقها تعنى العالمية والشمول[4]، وأعطت كنيسة روما لنفسها الحق أنْ تكون المهيمنة على جميع الكنائس، ولو بالقوة العسكرية، وترتّب على هذا المبدأ وقوع الكنيسة في كثير من الأخطاء، والمخالفات جعلت بعض القدماء يصفونها بأنّها من الحماقات[5]، وطالبوا بتقديم اعتذار رسمي عنها[6].

---

(1) Saint Hippolyte أسقف أوستى Ostie، استشهد في القرن الثالث، ويجعل المسيحيّون ذكرى استشهاده عيداً سنوياً في يوم 22 من شهر أغسطس.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1440.

(2) انظر: Albert Bayet; Pacifisme et christianisme aux premiers siècles, Paris 1962, p 71.

(3) انظر: جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص 70.

(4) انظر: معهد الإنماء العربي: الموسوعة الفلسفية جـ 2/ ص 1241، وانظر:
Nouveau Petit LAROUSSE, p166.

(5) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 217.

(6) كان آخرهم البابا يوحنَّا الثاني ـ بابا الفاتيكان ـ في صلاة القدّاس في يوم الأحد 3/12/1999م دعا إلى الاعتراف بالخطايا التي وقعت فيها الكنيسة ضد الحب والسلام وحقوق الإنسان، وأبدى الندم على وقوع تلك الأخطاء وطلب المغفرة والصفح عنها، وفي الوقت نفسه أصدر البابا وثيقة عن الفاتيكان بعنوان «الذاكرة والمصالحة ـ الكنيسة وأخطاء الماضي» في مطلع الألفية الثالثة لميلاد المسيح عليه السلام ويعترف فيها بأنّ الحروب الصليبية كانت واحدة من تلك الأخطاء، علماً بأنَّ موقع الوثيقة على شبكة المعلومات الدولية «الإنترنيت» هو:
http://www.vatican.va/rom.../rc con cfaith doc 2000307 memory - reconc - itc en.htm 03/07/00
=

تأكّدت نظرة البابا أوربان الثاني (Urbain II) في الرجال الذين سارعوا لحمل الصليب، وتوجّهوا إلى الأرض المقدسة، لا لتطهيرها، بل لتدنيسها بأطماعهم، ومفاسدهم، فإذا حقّقوا نصراً على المسلمين هلّلوا وفرحوا، وزعموا أنَّ الله معهم، وإذا حلّت بهم الهزيمة فما ذلك إلاّ «لأنَّ الرّب جعل **الحجّاج الزُّناة الناهبين** يتوبون إليه»[1].

ويبقى السؤال: «أ ثمَّة مبرر لمحاولات تبرير الحروب الصليبية التاريخية وبالأحرى لتعظيمها، وتصويرها بصورة مأثرة جديرة بالتمجيد اجترحتها المسيحية الغربية، وقدَّمت للحضارة العالمية خدمة تفوق التقدير أم إنَّ هذا ضلال، ولربَّما حتى خداع، واع، مقصود، ملفَّق لأجل تمجيد الفاتحين الذين ستروا أنانيّتهم وجشعهم بعلامة الصليب؟»[2].

إنَّ البنيان الذي أقاموه على الأرض العربية يفرض على الباحثة أنْ تتساءل عن:

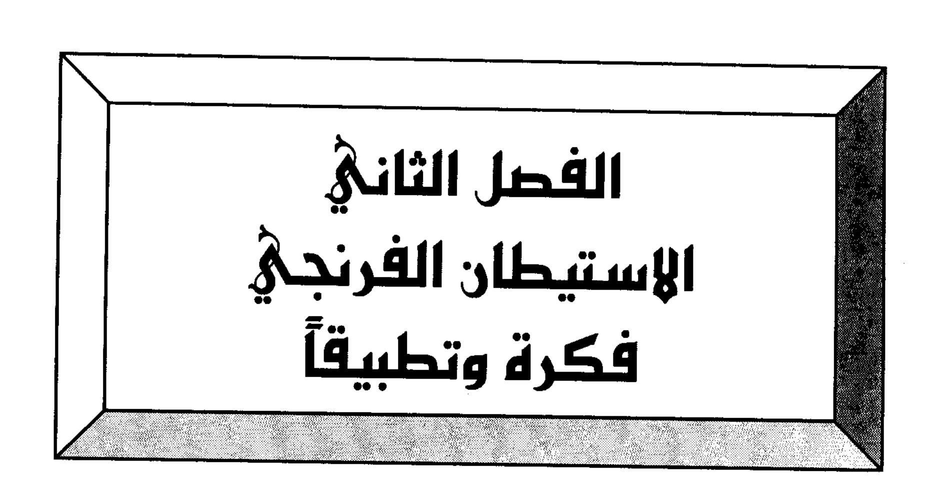
- ظاهرة الاستيطان في العصور القديمة والوسيطة كيف بدأت، وكيف تطوّرت في الدعاية الصليبية بعد مجمع كليرمون (Clermont Ferrand) في نوفمبر 1095م.
- الفرق بين الإقطاع والاستيطان.
- علاقة الكنيسة، والأديرة، والفرق الدينية بهذين النظامين.

والإجابة عن هذه التساؤلات هي موضوع الفصل الثاني.

= وعن اعتذار البابا، والخلفية التاريخية للوثيقة يراجع: مقال عبد العظيم حمّاد «اعتذر البابا فمتى يعتذر الرومان» المنشور في الأهرام العربي العدد 157 بتاريخ 25/ 3/ 2000م ص 30، وانظر: مقال الأستاذ فهمي هويدي المنشور في جريدة الأهرام اليومية في باب «قضايا وآراء» العدد 41378، بتاريخ يوم الثلاثاء 21/ 3/ 2000 م، وانظر: الملحق الثاني ص 557.

(1) انظر: تاريخ الفرنجة 193.

(2) انظر: زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفييتي، 1986م، ص 11.


الفصل الثاني
الاستيطان الفرنجي
فكرة وتطبيقاً

الاستيطان الفرنجي
فكرة وتطبيقاً

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول: الفرنجة والصليبيون.

المبحث الثاني: الفرنجة والحروب الصليبية.

المبحث الثالث: الاستيطان.

المبحث الرابع: الإقطاع.

المبحث الخامس: النظام الرعوي.

المبحث السادس: النظام الزراعي.

المبحث السابع: أخلاق الفروسية، ومظهرها.

المبحث الثامن: النظام الاقتصادي الإقطاعي.

المبحث التاسع: النظام في الكنيسة.

المبحث العاشر: النظام في الديارات.

الفرنجة والصليبيون

الاسم والمفهوم:

أطلق لفظ «الفرنجة» في العصور الوسطى على جميع الصليبيين بالرغم من اختلاف دولهم[1]، والفرنجة (Les Francs) وهم في الأصل من القبائل الجرمانية (Les Germains) البربرية[2] الكثيرة التي اجتاحت بلاد الغال (La Gaule)، في غربي أوربا، في مطلع القرن الرابع الميلادي، ودمّرت مدنها وقراها، ومن بين تلك القبائل: القوط الغربيون (Les Wisigoths)، والوندال (les Vandales)، والهون (Les Huns)[3]، وكانت الفرنجة أهم تلك الجماعات، وقد بدأت قبائلهم تتجمع، وتكوّن فيما بينها نوعاً من التحالف الهش، في القرن 3م، ثمَّ أصبحوا كتلة متحدة قوية منذ بدْء القرن 5م، تضم عدداً من العناصر، أهمها الفرنجة البحريون (Les Francs Ripuaires) الذين استقروا قرب الراين الأدنى (Le Bas-Rhin) والفرنجة البَرِّيُّون (Les Francs Saliens) الذين استوطنوا في منطقة الموزيل (La Moselle)[4].

---

(1) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 206، وانظر: ابن الأثير: الكامل جـ1/ ص188، وانظر: ابن الكازروني: مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، دار اقرأ نشر وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1990م، ص 246.

(2) البربر Les Barbares اسم يطلق على جماعات يحكمها تنظيم اجتماعي قبلي لم يرتق إلى مرحلة المواطنة، وليس مرادفاً للهمجية، أو الوحشية، وإنْ اتصفت غزواتهم بهاتين الصفتين. يراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، 1978م، 1/ 58، وانظر: نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة ترجمة قاسم عبده قاسم، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م، ص 167.

(3) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1387.

وانظر: Encyclopaedia Britannica, V.9, p 579.

(4) انظر: Fliche A.; La Chrestienté Mediévale, Paris,1929, p30.

والموزيل: منطقة قديمة في شمالي فرنسا، تتكوّن من جزء من اللورين La Lorraine وجزء من ألمانيا L´Allemagne ضُمّاً إلى منطقة ميرت Meurthe وأصبح الجميع تابعاً لفرنسا، ويجرى فيها نهر يحمل الاسم نفسه، ينبع من بوسان Bussang، ويصب في الراين Le Rhin.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1556.

من الفرنجة البحريين كانت دولتهم، وهي الدولة الوحيدة من بين دول الجرمان التي بقيت واستمرّت داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية، وكان لها دور بارز في تاريخ أوربا، وفي الصراع الإسلامي المسيحي، بل إنَّ كثيراً من المؤرخين يعتبرون قيامها أهمّ حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية كلها[1] ويعتبر كلوفيس (Clovis 1er)[2] (486 ـ 511م) هو المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة بعد انتصاره على سياجريوس (Syagrius)[3] ممثل الدولة الرومانية في حوض نهر السين وذلك في مدينة سواسون (Soissons)[4] في سنة 486م، ثم توالت انتصاراته بعد ذلك؛ فهزم الألامان (Les Alamans) في تولبياك (Tolbiac) في سنة 496م، وهزم البورجنديين (Les Burgondes) قرب ديجون (Dijon) في سنة 500م، والقوط الغربيين (Les Wisigoths) في فوابيه (Vouillé) في سنة 507م، وأصبح ملك الغال كلها بعد مقتل رؤساءِ الفرنجة المنافسين له في كولوني (Colgne) وكمبرال (Cambral) وتيروان (Thérouanne) ومن هنا يظهر لنا أنّ حركة الفرنجة كانت حركة توسعية استيطانية، وليست مجرّد هجرة لها صفة الغزو، ولذلك يرى بعض المؤرخين أنّ الحرب بين سياجريوس (Syagrius) وكلوفيس (Clovis 1er) كانت صداماً بين رجلين طموحين، يريد كل منهما أنْ يؤسس ملكاً ودولة، ولم تكن صراعاً بين قوميتين

---

(1) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 1/81، وانظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية 3/ 72.

(2) كلوفيس الأول Clovis 1er بن شيلدرك الأول Childéric 1er (465 ـ 511 م) أعظم ملوك الفرنجة، أسس دولة واسعة قوية.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1290.

وانظر: Gregory of Tours; The History of The Franks, pp 11-27.

وانظر: Encyclop, dia Britannica, V.5, p 952.

(3) هو آخر حاكم روماني في دولة الغال، مات في سنة 487 م.

انظر: Encyclop, dia Britannica, V.21, p 695.

(4) تقع على نهر السين Aisne في شمال فرنسا، على بعد 32 كم إلى الجنوب الغربي من لاون Laon.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1695.

متعاديتين، ونتيجة لحركة الفرنجة هذه أنْ استقروا عند الراين الأدنى، ولم تنقطع صلتهم بأصولهم، ولم يهجروا موطنهم الأصلي بل أخذوا يتوسّعون على حساب البلدان المجاورة، وضم أقاليم جديدة إلى موطنهم الأصلي[1]، وظلّوا محتفظين بحيويتهم وقوتهم، وفي الوقت نفسه كانوا يعاملون أهل البلاد معاملة طيّبة؛ فلم يصادروا ممتلكاتهم، ولم يؤذوا مشاعرهم، ولم يسلكوا سلوك البورجنديين أو القوط الذين اعتادوا مصادرة الأرض، وامتلاكها وتقسيمها على الغزاة، ومعاملة أصحابها بالعنف والقسوة؛ وكان من نتائج هذه السياسة المعتدلة أنْ توثّقت الروابط بينهم وبين أهل البلاد، وأوجد بينهم نوعاً من علاقات المودّة والتعاون[2].

ولمّا تزوج كلوفيس الأميرة البورجوندية كلوتيلد (Clotilde)[3] دفعته إلى اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي (Catholicisme) مخالفاً بذلك المذهب الآريسي (Arianisme)[4] الذي عليه جميع الممالك الجرمانية؛ مما قرّبه من الكنيسة في روما واعتبرته حامياً للمسيحية، وأوجد تحالفاً بينه وبين البابوية كان له أثر واضح في مستقبل أوربا في العصور الوسطى، وفي نشر الدين المسيحي؛ فقد شرع الرومان

---

(1) انظر: Thompson J.W.; The Middle Ages, London 1920, V.I, p 108

وانظر: Lot F.; The End of the Ancient World and the Beginning of The Middle Ages, London; 1931, p 248.

(2) انظر: Dill S.; Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, London, 1926, p 89.

(3) هي ابنة الملك شيلبيرك Chilpéric، ملك بروجندا Burgondes، ويطلق عليها المسيحيّون لقب «قديسة Sainte» ويحتفلون بعيدها في يوم 3 يونيو من كل عام اعترافاً بجميلها.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1290.

وانظر Encyclopaedia Britannica, V.5, p 944 (Clotilda).

(4) نسبة إلى الأسقف أريوس Arius (280-336)، وهو أحد قساوسة الإسكندرية ومذهبه قائم على إنكار ألوهية المسيح ، وإنْ كان يرى فيه الكمال، كما يرفض وحدة الأقانيم الثلاثة، وقد أدينت هذه العقيدة في مجمع نيقية Nicée سنة 325. انظر: ألبير باييه: المرجع السابق، ص63، وانظر: معلوف لويس: المنجد في اللغة والأعلام، ص 41، وانظر: Ostrogorsky;op. cit. p. 44.

الكاثوليك من سكان غاليا ينضوون تحت لواء كلوفيس (Clovis 1^er^) الذي يدين بمذهبهم[1]، وفي الوقت نفسه أنعم عليه الإمبراطور الروماني أناستاس (Anastase 1^er^ Le Silentiaire) (491 - 518) باللقب الديني «بطريق (Patrice)»[2].

بالرغم من أنَّ كلوفيس هو رابع ملوك دولة الفرنجة المعروفة باسم الدولة الميروفانجية (Mérovingiens) إلاّ أنَّ الدولة بلغت أقصى اتساع لها في عهده، ولكنّها سرعان ما انقسمت بين أبنائه الأربعة بعد وفاته، عملاً بالسنة المتبعة عند الفرنجة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مقدسين من سلالة الآلهة، وأنّهم يحكمون بتفويض إلهي، وأنَّ البلاد التي يحكمونها هي ملك شخصي لهم، ولم يكن الملك وراثياً، من الأب إلى الابن، بل هو ميراث العائلة المقدسة كلها[3]، وقد نشأ عن تقسيم الدولة ضعفها، بسبب الصراع والحرب بين الملوك، وظهر عدد من الملوك الذين يملكون ولا يحكمون؛ فقد أصبحت السلطة الفعلية في أيدي رجال البلاط من النبلاء، وزاد نفوذ الحجاب، وأصبحت الوظيفة وراثية في أبنائهم، إلى أنْ تمكن شارل مارتل (Charles - Martel)[4] ـ حفيد أحدهم ـ من توحيد مملكة الفرنجة تحت سيادته، ولَمَّا توفي تييري الرابع (Thierry IV) في سنة 737م ترك منصب الملك خالياً وأصبح الحاكم المطلق للبلاد، ولكنه لم يقدم على اعتلاء العرش؛ وذلك لما كان يتمتع به الميروفنجيون من قداسة في نفوس المواطنين باعتبارهم من نسل أحد الآلهة، ولأنَّ المملكة التي أنشأها

---

(1) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 1/85.

وانظر: Deanesly M.; A History of Early Medieval Europe, London, 1956, p60.

(2) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1290.

(3) سهيل زكار: الموسوعة الشامية 3/ 74.

(4) هو ابن بيبن الهيرستالي Pépin d'Héristal (689 ـ 741) كان أحد الحجاب Maire du palais، ويعتبره الفرنجة أنّه قد حمى الحضارة المسيحية، وحفظها من الانهيار، بعد انتصاره على المسلمين في بواتيه في سنة 732 م.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1274.

وانظر: Encyclopaedia Britannica, V.5, p 323.

كلوفيس بقوة السلاح هي حق وميراث لأحفاده، وبعد وفاته قسّم البلاد بين ولديه كارلومان (Carloman) وبيبن القصير (Pépin le Bref).

اعتلى بيبن القصير العرش، بالاتفاق مع بابا روما زخاري (Zacharie) (124 ـ 135 هـ/ 752 - 741م) الذي أفتى بأنَّ الملك لمن يملك السلطة الحقيقية لا لمن لا يلمس بيده منها شيئاً[1].

ومعنى هذه الفتوى أنَّ الذي يمارس السلطة الفعلية أحق بالملك من غيره، وكان ذلك في سنة 751 م، وفي هذا التاريخ بدأ حكم أسرة جديدة هي الدولة الكارولنجية (Carolingiens)[2] التي حكمت فرنسا، واستمرّت أكثر من قرنين، وكان من أشهر ملوكها شارلمان (Charlemagne)[3]، وبزوال الدولة الكارولنجية تولّى حكم فرنسا خمس أسر تنسب إلى آل كابيه (Capétiens) الذين استمّروا في الحكم من سنة 987م، إلى قيام الثورة الفرنسية في سنة 1792م.

الفرنجة والحروب الصليبية:

دعا البابا أوربان الثاني (Urbain II) في مؤتمر كليرمون Clermont Ferrand في سنة 488 هـ/ 1095م إلى الحروب الصليبية للخروج من الأزمة البابوية التي واجهته في إيطاليا؛ فمن المعروف أنَّه واجه معارضة على منصبه الكنسي منذ اختار أهل روما لهذا المنصب جيوبرت (Guibert)[4] في حياة البابا السابق جريجوار السابع (Grégoire VII)،

---

(1) سهيل زكار: الموسوعة الشامية 3/97.

(2) يرد اسمها، في المصادر الفرنسية أيضاً Carlovingiens، وقد حكمت فرنسا في الفترة ما بين 751 إلى 987م، وكان أول ملوكها بيبن القصير، وحكم بعده أربعة عشر ملكاً، آخرهم لويس الخامس Louis V. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1261.

(3) ويسمونه شارل الكبير، أو شارل الأول، وولد في نيستري Neustrie سنة 742 م، ثم تُوِّج إمبراطوراً للغرب في سنة 800 م، وهلك سنة 814م.

انظر: Encyclopaedia Britannica, V.5, p 288.

(4) هو Guibert De Ravenne أسقف رافين، وكان واسع الثراء، ولد في بارم Parme في سنة 1023م، واختاره أهالي روما بابا في سنة 1080م بتأييد من الإمبراطور هنري الرابع، وتولى البابوية باسم كليمنت الثالث Clément III، وهلك في سنة 1100م.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1423.

ومنع جيوبرت (Guibert) البابا جريجوري (Grégoire VII) مـن الاقـتراب مـن كنيـسة القديس بطـرس كما نجـح في إبعاد أوربان الثاني (Urbain II) أيضاً الذي أخذ يطوف في البلاد منددأً بجيوبيرت (Guibert)، وداعياً إلى نفسه، وهداه تفكيره إلى تجديد الـدعوة إلى الحروب الصليبيـة؛ لدعم موقفه والخروج من الأزمـة البابويـة[1]، وبالرغـم ممـا ذكـره فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres) من «أنَّ هذا المركز يجب إلاَّ ينتـزع بالقوة،بـل أنْ يُقْبَل بخشوع وتواضع»[2]؛ فإنَّ أوربـان الثـاني (Urbain II) لم يـستطع دخـول كنيـسة القديس بطرس في روما في سنة 1096م إلاَّ على أسـنة الرِّمـاح مـدعوماً بجنـود ماتيلـدا (Mathilde)[3] وأموالها، وذلك بعد مؤتمـر كليرمونت في سنة 488 هـ/ 1095م، وتأثيل الدعوة إلى الحرب المشبوهة التي أشعل نارهـا تحـت رايـة الـصليب واسـتهدفت محاربـة الإسلام أينما وجد[4] في الأندلس غرباً، وفي جنـوب إيطاليـا، والجـزر المنتـشرة في وسـط البحر الأبيض المتوسط، وشرقاً على الأرض العربيـة في سوريا والعـراق، وأخـيراً عـلى سواحل البحر جنوباً في مصر، وتونس.

بدأ الصـدام بين الفرنجـة والمسلمين في أعقاب حركة الإصلاح الكولونية[5]، في أوائل القرن 4 هـ/ 10م، وكان هدف الإصلاح أوّلاً الدعوة إلى الفضيلة، ونـشر العفة والتقوى في نظام الدير البندكتي الذي تسرَّب إليه الفساد، ثم أصبحت منهجاً

---

(1) انظر: عاشور: أوربا العصور الوسطى 1/362.

(2) انظر: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس 39.

(3) أميرة توسكانية Comtesse de Toscane (1046 ـ 1115) اشتهرتْ بمساعداتها الكريمة للبابوية.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1531.

(4) انظر: باركر: المصدر السابق 11، 21.

(5) نسبـة إلى دير Cluny الذي تأسس بمبادرة من الدوق جاليوم الأكبر الأكتياني Guillaume Le Grand duc d'Aquitaine في سـنة 910 م عـلى نهـر La Grosne في دائـرة Mâcon، الواقعـة في بروجنـدا Burgondes، في جهة الغرب، في وسط فرنسا وأصبح مركزاً لإقليـم Saône-et-Loire، ومنـه انبعثـت حركة الإصلاح.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1290.
وانظر: Encyclop, dia Britannica, V.5, p 957.

للإصلاح الكنسي العام، ومنـذ أنَّ تولّى البابا ليو التاسع (Léon IX) (1048-1054) الكرسي الرسولي في رومـا، سـعى إلى جعـل البابويـة هيئـة عالميـة مـستقلة، ذات سلطان مطلق، وتفويض إلهي بالرقابة الروحية على جميع المسيحيين ويبـدو أنَّ البابـا جريجوار السابع (Grégoire VII) (1073-1085) كان أكثر طموحاً مـن سـابقيه، فقد هداه تفكيره إلى أنَّ العالم بأسرة دولة مـسيحية واحـدة خاضـعة لـسيطرة البابـا الذي له العصمة، وله القدرة، ولا يخضع لقانون، فهو مصدر السلطات، وهو الذي يعيِّن الملوك، ويخلعهم إنْ أساؤوا التصرف، وله الحق أنْ يحرمهم من رحمة الكنيسـة، ويحل رعاياهم من طاعتهم[1]، ونادى بضرورة إنشاء قوة حربيـة خاضـعة لـسلطان الكنيسة الكاثوليكية، وهـو الـذي رأى ضرورة امتـداد الحـرب ضـد المسلمين في الشرق[2]، وهو الرأي الذي تبنَّاه فيما بعـد، ونـادى بـه خليفتـه البابـا أوربـان الثـاني (Urbain II).

دور فرنسا في الحروب الصليبية:

لا خلاف بـين المـؤرخين عـلى دور فرنـسا البـارز[3] في الـدعوة إلى الحـروب الصليبية، والإعداد لها، وقيادتهـا، آخـذين في الاعتبـار الجـذور التاريخيـة للـصراع الصليبي الفرنجي مع الإسلام القائم في الأندلس، تذكر الباحثـة منهـا عـلى سـبيل المثال ـ لا الحصر ـ ما يلي:

1 ـ شارل مارتل (Charles - Martel) خاض حرباً ضد المسلين وانتصر علـيهم في موقعة بواتية (Poitiers)، في سـنة 114 هــ/ 732م وهـي المعركـة التـي تعـرف

(1) انظر: Thompson J.W.; The Middle Ages, VI, p 439.
وانظر: Ullmann W.; The Growth of Papal Government, p 281.

(2) انظر: فيشر: المرجع السابق 1/143.

(3) انظر: باركر: المرجع السابق 24، وانظر: فيـشر: المرجـع الـسابق 1/179، وانظـر: جوزيـف نـسيم: العرب والروم واللاتين 57، وانظـر: Atiya A. S.; The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, P6.، وانظر Daneil - Rops; op. cit, p 547.

في المصادر العربية باسم «بلاط الشهداء»[1] والتي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي[2].

2 ـ بيبين القصير (Pépin le Bref)[3] حارب المسلمين، مرتين، في سنتي 135 هـ/ 752م، 142 هـ/ 759م، واستعاد من بين أيديهم إقليم سبتمانية (la Septimanie) في هذه السنة الأخيرة.

3 ـ شارلمان (Charlemagne) كانت بينه وبين المسلمين وقائع كثيرة ووصلت جيوشه إلى الثغر الأعلى في الأندلس، في إقليم سرقسطة (Saragosse) وأثناء انسحابه وقعت مؤخرة جيشه في وادي رونسفو، أو باب شزروا (Vallée de Roncevaux) في كمين من العرب الذين انقضّوا عليهم، وأبادوهم وذلك في سنة 162هـ/ 778م

---

(1) ويعطيها الغربيون أهمية كبيرة، ويعتبرونها من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ لأنها أنهت أطماع العرب في فتح أوربا.

انظر: العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978م، ص82، وانظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 1/197.

(2) أبو سعيد، عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر (ت 114 هـ/ 732م) سابع الولاة في الأندلس، من كبار القادة، الغزاة، الشجعان، وهو الذي بنى قنطرة قرطبة الشهيرة، انظر: ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي: الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1952م، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن جـ5/ ص 256، وانظر: الذهبي، محمد بن أحمد: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، القاهرة، 1963م جـ2/ ص576، وانظر له أيضاً: تاريخ الإسلام [101 ـ 120] 414 وانظر: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن، 1327 هـ، جـ 6/201، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ3/ ص 312.

(3) بيبن القصير، ولد سنة 714م في جوبي Jupille، وأصبح ملكاً على فرنسا في سنة 757م، وهلك سنة 768م.

انظر:

Grand LAROUSSE Encyclopédique, Paris, 1963. V 8, art (Pépin le Bref).

وكان من بين القتلى المدعو رولان، والذي أصبح من بين أبطال الفرنجة الأسطوريين، وخُلِّدَت ذكراه في ملحمة باسم نشيد رولان (Chanson de Roland)[1].

4 ـ لويس التقي (Louis Ier le Débonnaire)[2] قاد الحملات الأخيرة في الأندلس قبل تتويجه ملكاً[3].

5 ـ لويس الثاني (Louis II)[4] الذي حارب المسلمين في جنوب إيطاليا[5].

6 ـ شارل السمين (Charles le Gros)[6] الذي استنجد به البابا يوحنا الثامن (Jean VIII)، في سنة 879م لقتال المسلمين في جنوب إيطاليا، بعد حصوله على لقب «ملك إيطاليا»، ثمَّ توَّجه البابا إمبراطوراً على الغرب[7].

7 ـ الحملة الصليبية الأولى: كان أول دعاتها البابا أوربان الثاني (Urbain II) وهو فرنسي الأصل، وأكبر أعوانه بطرس الناسك (Pierre L'Érmite)، ووالتر المفلس (Walter)، وهما فرنسيان وأسندت قيادة الحملة إلى ريمون الرابع (Raymond IV) أمير

---

(1) انظر: أرسلان، شكيب: المرجع السابق، جـ 2/ ص 122، وانظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية، 3/106، وأيضاً 9/50 ـ 187، وانظر: جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص 243.

وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1650.

(2) هو لويس الأول، ويلقبونه أيضاً Le Pieux، وهو ابن شارلمان، ولد سنة 778، وأصبح إمبراطوراً للغرب وملكاً لفرنسا فيما بين سنتي 814 ـ 840.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1503.

(3) انظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية جـ3/ ص 114.

(4) المعروف بالشاب Le Jeune، وهو ابن لوثر الأول Lothaire Ier، ولد سنة 822 وأصبح إمبراطوراً على ألمانيا من سنة 855 إلى إنْ هلك في سنة 875م، وراجع الحاشية الأولى ص 68.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1503.

(5) انظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية جـ3/ ص 120.

(6) هو ابن لويس الجرماني (839 ـ 888م) وأصبح إمبراطوراً على ألمانيا في سنة 882م، ثم ملكاً على فرنسا في سنة 884م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1274.

(7) انظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية جـ 3/ ص 122.

تولوز (Toulouse) الذي خرج على رأس قواته من جنوب فرنسا، بينما خرجت قوات شمال فرنسا بقيادة روبرت كورت هوز (Robert Courte-Heuse)، وروبرت الثاني كونت فلاندر (Robert II Conte de Flandre)، وخرجت الفرقة الثالثة من أعالي فرنسا بقيادة جودفروا (Godfrey de Bouillon)، وأخيه بولدوين (Baudouin de Boulogne)، وإذا كانت الفرقة الرابعة انطلقت من جنوب إيطاليا بقيادة بوهيموند (Bohémond)، وابن أخيه تنكريد (Tancrède)، فلا ننس أنهما من فرنسا من النورمان الذين استوطنوا جنوب إيطاليا[1].

وعندما احتلَّ الصليبيون بيت المقدس عملوا على إنشاء فرقتي: الداوية (Les Templiers) والإسبتارية (Hospitaliers) اللتين كان لهما دور كبير في قتال المسلمين، وكانتا بمثابة جيشين دائمين للممالك الصليبية بالشام وكانت إقامتهما في القلاع والحصون ومناطق الثغور[2].

أمَّا الداوية - كما يرد اسمهم في المصادر العربية - أو فرسان المعبد (Les Templiers) فهم من الفرسان الفرنسيين الذين قدموا إلى بيت المقدس، أقاموا في عمارة منسوبة إلى هيكل سيّدنا سليمان بن داود ﷺ بالمسجد الأقصى، وقد أسس هذا المقر هوف البايْنزِي (Hugh de Payns) في سنة 512 هـ/ 1118م من أجل تقديم العون للحجاج[3].

وأمَّا الإسبتارية - كما يسميهم العرب - أو جماعة المستشفى (Les Hospitaliers) فقد كانت إقامتهم في (Hospice) وهو دير ومستشفى في القدس، أنشأهما بعض

---

(1) انظر: المطوي: المرجع السابق:، ص 48، وانظر: أرنست باركر: المرجع السابق ص 26.

(2) انظر: Delaville Le Roulx J.; Cartulaire Générale de L'Ordre Des Hospitaliers de St, Jean de Jérusalem (1100 - 1310) München, 1980, p. 97

(3) انظر: الأب لوموند: خلاصة تاريخ الكنيسة، ترجمة الخوري يوسف البستاني، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1881، جـ 2/ ص 63، وانظر: يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن، مؤسسة عين، القاهرة 1981 م، ص 190.

التجار من مدينة أمالفي (Amalfi) ـ وهي ميناء إيطالي ـ بموافقة الخليفة الفاطمي المستنصر[1] في سنة 440هـ/ 1048م؛ ليكون مأوى للحجاج النصارى، وكان يقيم فيه الرهبان، وبعد تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية سمح الملك جودفروا (Godefroi de Bouillon) للفارس بليسيد جرار (Blessed Gérard) بتأسيس جماعة من الفرسان الفرنسيين الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم فرسان القديس يوحنا (Saint - Jean)[2].

ومن هنا يتضح لنا أنَّ الحملة الصليبية الأولى (491/ 493 هـ ـ 1097/ 1099م) كانت فرنسية: الدعوة، والتخطيط، والإعداد، والقيادة، والجنود، والاستيطان.

8 ـ الحملة الصليبية الثانية (541/ 542 هـ ـ 1146/ 1147م) كان البابا ـ في زمنها ـ أوجين الثالث (Eugène III)[3]، وهو فرنسي وداعيته لها سان برنار (Saint Bernard de Clairvaux)[4] وهو فرنسي، وعقد المؤتمر الكنسي في فيزولاي (Vézelay)[5] ـ وهي مدينة فرنسية ـ في سنة 540هـ/ 1146م، وكان من أبرز قادة الحملة ملك فرنسا لويس السابع (Louis VII)[6].

---

(1) انظر: الدوادري: المصدر السابق جـ6/ ص 441، وانظر: تاريخ ابن الوردي جـ 2/ ص10، وانظر: ابن كثير: المصدر السابق جـ 10 / ص 148، وانظر: ابن دقماق: المصدر السابق، ص 254، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 266.

(2) انظر: King E. J.; The Knights Hospitallers in the Holy Land; London, 1931, pp 1-33.

(3) شغل منصب البابوية في الفترة من 1145 إلى 1153م. Nouveau Petit LAROUSSE, p 1261.

(4) ولد في قصر فونتين Château de Fontaine سنة 1091م، وهلك سنة 1153م، ويحتفلون بعيده في 20 أغسطس من كل عام. Nouveau Petit LAROUSSE, p 1228.

(5) مدينة فرنسية في مقاطعة أفالون Avallon الحالية. Nouveau Petit LAROUSSE, p 1745.

(6) الملقب بالشاب Le Jeune، ولد سنة 1119م، وتولى حكم فرنسا في الفترة من 1137م إلى 1180م، وفشلت قواته في حصار دمشق، ورجع خائباً.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1503.

9 ـ الحملة الصليبية الثالثة (585/ 588هـ ـ 1189/ 1192م) وكانت قيادتها لثلاثة من أعظم ملوك أوربا، منهم ملك فرنسا فيليب أوغسطس (Philippe Auguste)[1].

10 ـ الحملة الصليبية الرابعة (592/ 601هـ ـ 1202/ 1204م) وكانت في عهد البابا إينوسانت الثالث (Innocent III)[2]، وهو فرنسي، وكان داعيته فولك دو نويي (Foulques de Neuilly)[3]، وهو فرنسي، واستجاب لهما عدد كبير من الإقطاعيين في فرنسا تحت ضغط العوامل الاقتصادية السيئة، وانتشار المجاعات في فرنسا وطمع الأمراء في إيجاد إقطاعات لهم، وذلك بالإضافة إلى الحماس الديني"[4]، وهذه الحملة الرابعة كانت كالحملة الصليبية الأولى حملة فرنسية في تأليفها لا في توجيهها، فأعضاؤها البارزون من الأمراء الإقطاعيين أمثال تيوبو (Thibaut) أمير شامبانيا (Comte de Champagne)[5] الذي وقع عليه الاختيار ليكون قائداً للحملة الصليبية، وبودوين التاسع (Baudouin IX)[6]، أمير الفلاندر وأخوه هنري (Henri) وبونيفاس دو مونتفرا (Boniface de Montferrat) وكونت بلوا (Louis Comte de Blois)[7].

---

(1) هو فيليب الثاني Philippe II ابن لويس السابع، ولد في جونيس Gonesse سنة 1165م، وتولّى عرش فرنسا في سنة 1180م، وهلك في سنة 1223م.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1607.

(2) بابا روما في الفترة من 1198م إلى 1216م، كان من أكثر البابوات نشاطاً وبأساً، خاض معارك طاحنة ضد الملك فيليب أوغسطس (Philippe Auguste)، وجان سان تير (Jean sans Terre).
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1452.

(3) أسقف كنيسة دو نويي، تلقّى أوامر البابا في الدعوة إلى الحملة الرابعة في سنة 1198م، وكان أكبر المتحمسين لها، وهلك في سنة 1201م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1381 .

(4) انظر: هانس ماير: المرجع السابق 178 ـ 279.

(5) ولد فيترواس Troyes، في سنة 1201، وهلك في سنة 1253م.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1717.

(6) هو الإمبراطور المقبل للقسطنطينية، Comte de Flandre ولد في سنة 1171م وتولى عرش القسطنطينية في سنة 1204م، باسم بودوان الأول، إلى أن هلك بعد سنة واحدة من حكمه.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1217.

(7) انظر: باركر: المرجع السابق 96. وانظر: Setton: op. cit. V.II, p158.

11 ـ الحملـة الـصليبيـة الـسادسة (626/ 627هـ ـ 1228/ 1229م) وكانـت بقيادة فردريك الثاني (Frédéric II)[1]، وهو فرنسي الأصل من نورمانديا، ولحقه تيبو الرابع (Thibaut IV) أمير شامبانيا، وبطرس موكلير (Pierre Mauclere)[2] وهما فرنسيان[3].

12 ـ الحملتـان الـصليبيتان الـسابعة (646/ 647هـ ـ 1248/ 1249م) والثامنـة (668 هـ ـ 1270م): وهما آخـر حملتـين كبيرتـين فـيها يعـرف بـالحروب الصليبية، وقد قام بهما ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX)[4]، وكانت الأولى عـلى مصـر، والثانية على تونس، وهناك لقي حتفه.

من هذا العرض يتضح لنا الدور المتفرّد الذي قامت به دولة الفرنجـة في قتال المسلمين، على جميع الجبهات، وأصبحت عَلَماً عـلى الـصليبيين، فهـي «البلـد الـذي قَـدِمَ منه أكبر عدد من الصليبيين»[5]، ومع أنَّ الحركـة الصليبية كانت حربـاً عالميـة؛ اشتركت فيها أكثر دول العالم القديم في أوربا، وأفريقية، وآسيا ولكـن بـالرغم مـن ذلك ظلّت أطراف النـزاع فيها محصورة في طائفتين فقط: هما:

الطائفة الأولى: الفرنجـة، بكل ما يرمز إليه هذا الاسم من دول أوربية سواء أكانت فرنسا أم ألمانيا، أم انجلترا، أم إيطاليا، أم إسبانيا، أم المجر.

---

(1) ولد في إيزي Iesi، في سنة 1194م، وتولى العرش في سنة 1211م، ثم أصبح إمبراطوراً على قبرص في سنة 1220م، ومات في سنة 1250م. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1394.

(2) كان حاكم إقليم بريتانيا الفرنسي Duc de Bretagne، وهو مـن أمـراء بيـت آل كابيـه La maison Capétienne de Dreux، وهلك في سنة 1250م.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1611.

(3) انظر: Grousset, R.; L'Epopée des Croisades, Paris, 1947.

(4) ويطلقون عليه لقب القديس Saint Louis، وهو ابن لـويس الثـامن، ولـد في بـواسي Poissy سـنة 1215م، وتولّى عـرش فرنسا تحت وصايـة أمـه في سنة 1226م، وغزا مـصر في سـنة 1249م، ولكنـه هزم في المنصورة، وأسر، وافتدى نفسه، ثم غزا تونس في سنة 1270م، واعتبر قديساً في سنة 1297م. يراجع: جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر «هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسـكور» دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 87 ـ 285.

وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1504.

(5) رنسيمان: المرجع السابق 1 / 11.

والطائفة الأخرى: العـرب المسلمون، سواء أكانوا من العرب أم من المسلمين السلاجقة، أم من المماليك..

ومما ذكرتـه الباحثة آنفاً يتّضح أنَّ الحروب الصليبية كانت حرباً سـجالاً بـين الفرنجة بصفة خاصّـة والـدول الأوربيـة بـصفة عامـة وبـين المسلمين عـلى جميـع الجبهات، في الأندلس غربـاً، وفي الأرض العربيـة في سـوريّة والعـراق شرقـاً، وفي جنوب إيطاليا، وفي الجزر المنتشرة في وسط البحـر الأبـيض المتوسـط، وفي سـاحل البحر الجنوبي في مصر وتونس، ثمَّ تحوّلت إلى حركة استيطانية في بيت المقدس.

الاستيطان:

الاستيطان ـ أو الاستعمار ـ هما الترجمـة العربيـة للكلمـة اللاتينيـة «Colonus» وهي بمعنى: حرث الأرض، وزراعتها[1]، كما تعنى أيضاً الاستقرار، وإنتاج المحاصـيل، بل إنَّ الكلمات الدَّالة على الفلاحة والحرث والعمل مثل «Labour, Travail» تـدل في الوقت نفسه على المخاض، والولادة[2]، وفي اللغات الأوربية الحديثـة نجـد أنّ ألفـاظ الاستيطان ترجـع كلهـا إلى الأصـل اللاتينـي Colonus، فمـثلاً: هـي في الفرنـسيـة Colonie، وفي الإنجليزية Colonialism...

والمقصود من هذا المصطلح هو هجرة جماعـة بـشرية مـن منطقـة إلى منطقـة أخرى، بهدف الإقامة فيها، واتخاذها موطناً دائماً لها، وهي ظاهرة قديمة من ظـواهر الاجتماع البشري، فمنذ عرف الإنسان استئناس الحيوان، والعيش في ظـل القبيلـة؛ أصبح لكل قبيلة شيخ، يجمع أفرادها ويرعى مصالحها ويعمل جاهداً عـلى الحفـاظ على «الحمى» وهو موطنهـا، ومرعاهـا، ومـورد مائهـا، ولا يتحقـق لـه الأمـان إلاَّ بالقوة، والعِزَّة والمَنَعَة، وذلـك بالاسـتكثار مـن الرجـال، والـسلاح، والأحـلاف، ويشتمل الحمى عادة على مساحة كبيرة من الأرض تكفي لحاجة القبيلة.

---

(1) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 213.

(2) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 213.

وانظر: Encyclopaedia Britannica, V.6, p 85.

فإذا جفَّ الماء، أو نَفَدَ العُشْبُ اضطُّرت الجماعة إلى الانتقال إلى موطن آخر يكون أوفر ماء، وأخصب تربة، وقد تلجأ القبيلة إلى ضمٍّ مساحة من الأرض إلى حماها؛ بالإغارة على جيرانها، وتوسيع ممتلكاتها(1).

وارتبط الاستيطان بالوحشية، والعنف، والقتل؛ فلكي يتمكّن الغزاة من الأرض التي نزحوا إليها، لابدَّ لهم من إخلائها من سكّانها الأصليين، أو نفيهم بعيداً عنها.

والحركة الصليبية في جوهرها حركة استيطانية الهدف منها امتلاك الأرض، ونهب الثروات، والفرق الوحيد بينها وبين غيرها من الهجرات الاستيطانية هو تسترها وراء الدين واتخاذه وسيلة لتجنيد الرجال، وجمع الأموال؛ في الوقت الذي كانت فيه جميع الهجرات السابقة عليها، أو اللاحقة لها ترجع أسبابها إلى شدّة الفقر، أو إلى الطمع فيما في أيدي الغير، أو إلى قوة الجذب الحضاري، فكلها ترجع إلى أسباب دنيوية: اقتصادية أو اجتماعية وأمَّا الحركة الصليبية فهي دنيوية الجوهر، دينية المظهر «فالحقيقة أنَّ البابوية يمكن أنْ نعتبرها «مركزاً استيطانياً استعمارياً» فالبابوية هي التي تبنَّت صياغة الأيديولوجية الصليبية وتطويرها، وأصبح التأثير الروحي لهذه الأيديولوجية يمثل بؤرة النشاط والدعاية للصليبيين»(2).

من المعلوم أنَّ أكثر المجتمعات في العصور الوسطى قامت عن طريق الغزو، كما نشأت على أساس طبقي؛ فقد كانت العزلة تامة بين الغزاة الحاكمين، والشعب المقهور، ولا تسمى الغزوة أو الهجرة ظاهرة استيطانية إلاَّ إذا صحبها تكوين حكومة ودولة جديدة، فيقال عندئذ: «إنَّ هذه الهجرة استطاعت أنْ تخلق ظاهرة استيطانية، وأحياناً كان مصطلح الاستيطان يستخدم بشكل شخصي، وذلك بالنسبة للهجرات الجرمانية في العصور الوسطى الباكرة، وهي الهجرة التي أطلق عليها المؤرخون

(1) انظر: السيد الباز العريني: الإقطاع في الشرق الأوسط ص 115، وانظر: الماوردي: المصدر السابق، ص233.

(2) انظر: يوشع براور: الاستيطان الصليبي، ص 574.

الألمان اسم هجرة الشعوب (Volkerwanderung) بَيْدَ أنَ هجرة هذه الشعوب الجرمانية قد عُرِفت باسم غزوات البرابرة»[1].

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ الاستيطان ليس نظاماً للحكم، ولا قانوناً إدارياً، وإنَّما هو احتلال أرض بالقوة، والإقامة عليها ويمكن أنْ نميِّز في هذه الظاهرة الأمور الآتية:

أولاً: قدوم غزاة من مكان ما هو الوطن الأم بالنسبة لهم إلى أرض غير أرضهم، ويكوِّنون طبقة أرستقراطية حاكمة، ولا تنقطع الصلة بين هؤلاء الغزاة وبين وطنهم الأم؛ فهم يستمدون منه دائماً المعونة المادية، والبشرية، وفي الوقت الذي تنقطع فيه هذه الصلة يكون نهاية المستوطنة، وزوالها.

ثانياً: التأثير المتبادل بين الغالب والمغلوب، وأي الفريقين كان صاحب عقيدة دينية، أو ثقافة حضارية، فهو الذي يفرض عقيدته، أو ينشر ثقافته، ويبدو هذا التأثير واضحاً في هجرة الجرمان الوثنيين البرابرة إلى غالية، فقد اعتنقوا المسيحية، وأخذوا بأسباب الحضارة الرومانية، وفي الشرق حدث صراع حضاري وديني بين القادمين من الغرب، وبين أهل البلاد ـ وهم أصحاب عقيدة وحضارة عريقة ترك أثره في كلا الفريقين[2].

ثالثاً: إخلاء البلاد من سكانها الأصليين، بالقتل، أو الإبعاد، وربما كان الاستيطان الصليبي في الوطن العربي مخالفاً لغيره من أنواع الاستيطان في هذا المبدأ؛ وذلك لقلة عدد الصليبيين في وسط بحر غامر من العرب، فقد اضطروا إلى الإبقاء على العرب في القيام بالأعمال المدنية، وبقيت الأرض الزراعية في أيدي أصحابها[3]، واكتفوا بخلق مناطق عازلة بينهم، وبين المسلمين في

---

(1) انظر: يوشع براور: الاستيطان الصليبي، ص 559.

(2) انظر: أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص 240، وانظر: سميل رسي: الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982 م، ص 23.

(3) يوشع براور: الاستيطان الصليبي 35.

الجنوب وفي الشرق بحيث تصبح البادية الممتدة من المناطق الزراعية والصحراء بمثابة منطقة عازلة، ومثل هذه السياسة كانت تقتضي احتلال حلب ودمشق، ولما فشلوا في الاستيلاء عليهما سعوا إلى توقيع سلسلة من الاتفاقيات في السنوات 1108 ـ 1110م، بهدف إيجاد منطقة محايدة في الشمال[1].

وإذا كان الاستيطان الصليبي في بلاد الشرق قد خالف الاستيطان الغربي في بعض الجوانب التي فرضتها خصوصية الموقع، وظروف البيئة فهو لا يختلف عنه من حيث النوع، والغايات؛ وهذا ما عبر عنه فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres) بقوله: «إنَّ أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين، ومن كان رومياً أو فرنجياً قد تحوَّل في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن أتى من الرايم أو شارتر أصبح الآن مواطناً في صور أو أنطاكية، وقد نسينا الآن أمكنة ولادتنا... ويمتلك البعض البيوت والمنزل بالميراث الآن، واتخذ البعض زوجات لهم، لا من بنات جلدتهم، بل من السوريات، أو الأرمنيات، بل وحتَّى من الشرقيات اللواتي حظين ببركة العماد، فقد يسكن مع المرء حماه، أو زوجة ابنه، أو ابنه إنْ لم يكن ابن زوجته، أو زوج أمه، فلدينا أحفاد، وأولاد أحفاد، ويعتني البعض بزراعة الكرمة، ويحرث الآخرون الحقول»[2].

الإقطاع:

الإقطاع هو مصطلح، يرجع معناه في اللغات الأوربية إلى الأصل اللاتيني «Feodum، أو Fief»[3]، ومعناه: قطعة من الأرض، وعن اللاتينية أخذت اللغات الأوربية الحديثة كالفرنسية Féodalité، أو الإنجليزية Feudalism ويقصد به مجموعة

---

(1) انظر: هانس أبرهارد ماير: المرجع السابق ص 101.

(2) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 218.

(3) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1372. وانظر: Encyclopaedia Britannica, V.9, p 202. وانظر: الباز العريني: الإقطاع في الشرق الأوسط ص 114، وانظر: نور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوربة «معرب»، دار الفكر، دمشق، 1967م، ص 348.

القوانين والعادات التي كانت تحكم الحياة السياسية والاجتماعية في فرنسا وبعض المناطق الأوربية منذ القرن التاسع الميلادي إلى نهاية العصور الوسطى، وإذن فالإقطاع أسلوب من أساليب الحكم التي تنظّم العلاقة بين السيّد المالك Le Seigneur، وأتباعه الأحرار Les Vassals Nobles.

ومن هذا النص يتضح الفرق بين الاستيطان والإقطاع:

* فالاستيطان يتعلَّق بالأرض، والسلطة.

* والإقطاع يتعلَّق بالتنظيم الاجتماعي وبالقانون الذي يحكم العلائق بين الحاكمين والمحكومين.

والنظام الإقطاعي ـ كتنظيم اجتماعي ـ قديم، وجدت بعض صوره في أواخر الدولة الرومانية، بل كان بدْء ظهوره في العصور الأولى إذ كان الإنسان الأول يعتمد في حياته على الصيّد، والتنقّل من مكان إلى آخر، ولمَّا عرف الزراعة، واستئناس الحيوان بدأت مرحلة هامّة من مراحل التاريخ، وهي مرحلة الاستقرار في القرى، ثم في المدن.

ونشأ عن هذا التطوّر ظهور نظامين متمايزين، لكل منهما خصائصه وصفاته:

النظام الرعوي: ويمتاز بالحركة والتنقل، وقوّة الرجال، والسعي وراء الكلأ، ومنابع الماء، والرعاة لا يملكون إلاَّ ماشيتهم، وخيامهم، وما يخفّ حمله من المتاع، وغالباً ما يفرض عليهم الجفاف الإغارة على جيرانهم «وكانت قبائلهم بمثابة فرقة عسكرية دائمة، تدين بالولاء لزعمائهم، وعلى أهبة الاستعداد للمسير في أيّة لحظة»[1].

والنظام الزراعي: وقد نشأ حول الأنهار، ومجارى المياه، واحتاج إلى تعاون الجماعة لمدّ الجسور، وحفر القنوات، وحرث الأرض والحصاد، والإقامة الدائمة بجانب مزارعهم؛ لرعايتها، وريّها، ومن هنا نشأت القرية، وعرف

---

(1) انظر: كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري، وهدى حجازي، عالم المعرفة، الكويت، 1985 م، جـ1، ص 125.

الإنسان الأول الاستقرار وبناء المساكن الدائمة، وصناعة الأواني التي يحفظ فيها محاصيله والآلات التي تساعده في أعماله الزراعية.

بطبيعة الحال، الفلاحون أناس مسالمون متحضّرون، قويت فيهم عوامل الاستقرار، والتعاون، وضعفت فيهم غرائز العدوان والتعدّي، ويصرفون وقتهم كلّه في إتقان العمل، واستعمال الآلات التي تعينهم على حرث الأرض، وحفظ الثمار في الوقت الذي كان فيه الرعاة يتدرّبون على فنون القتال، واستعمال السلاح.

وأحداث التاريخ في جانب منها تمثّل صور النِّزَاع والحرب بين هذين النظامين المختلفين؛ فالفلاحون كان لا بدّ لهم من ادّخار جزء من محاصيلهم لإعادة زراعته في الموسم القادم، وفي الوقت نفسه عليهم أنْ ينظّموا استهلاكهم للثمار لتسد حاجتهم من الغذاء حتى يحين موعد الحصاد الجديد، وهو في الغالب حَوْل كامل؛ وعندما كثرت المدخرات في بيوتهم أصبحوا هدفاً لغارات الرعاة، وفريسة سهلة لعدوانهم، وتكاد الدراسات الحديثة تجمع على أنَّ «بواعث التملّك والقوة والغزو أقرب إلى طابع الرعاة منها إلى طابع القرويين»[1]، فإنّ التفاعل بين الفلاحين المستقرين، أصحاب الأرض وبين الرعاة الرحل كان سلمياً في قليل من الأوقات، وعنيفاً في أغلب الأحيان ولذلك أُطْلِق على هؤلاء الغزاة لفظ: «البرابرة» والذين كانوا خطراً حقيقياً على الحضارات، وكانوا ينتمون جميعاً تقريباً إلى نوع واحد من البشر، وهم «البدو الرحل» الذين كانوا يتنقّلون في جنبات الصحارى ومناطق الإستبس في قلب العالم القديم[2].

ارتبط النظام الزراعي ببناء المستوطنات الدائمة والتي كبرت، وتحوّلت فيما بعد إلى مدن أصبحت مراكز للنشاط الزراعي والتجاري والصناعي، ولكثير من المهن اللازمة لحياة الإنسان في مجتمع متحضّر «ولم تصبح القرى مدناً إلاَّ بعد أنْ

---

(1) انظر: كافين رايلي: المرجع السابق، جـ 1/ ص 73.

(2) انظر: فرنان برودل: الحضارة المادية والاقتصادية والرأسمالية، ترجمة مصطفى ماهر، ط/ 1، دار الفكر، القاهرة، 1993م جـ 1/ ص 109.

بلغت الزراعة درجة من الكفاية تفي بسد حاجة أعداد كثيفة من السكان، لا يضطر معظمهم إلى قضاء حياتهم في الحقول»[1].

وإذا كان قيام المدن سبباً لظهور الملكية، فإنّ القرية كانت مسئولة مسئوليَّة كاملة عن دعم النظام الطبقي، وتثبيت أركانه، وما ارتبط به من ظهور الإقطاع، وتوضيح ذلك:

إنَّ القرى التي تحوّلت إلى مدن كانت كلّها على ضفاف الأنهار؛ وذلك لخصوبة الأرض، ووفرة الإنتاج، ولمّا كانت هذه الأرض تحتاج إلى إقامة أنظمة للري، تشرف على شق الترع والمصارف، وبناء الجسور لزم وجود حاكم مطاع، يسوس الجماعة، ويوجهها، ويساعده في عمله جهاز إداري منظم «فلا غرو إذن، أنَّ المدن الأولى قد منحتنا ملوكنا الأوائل، ومجتمعاتنا الطبقية الأولى، وأينما انتشرت هذه المدن (أو تمَّ إيجادها) بعد عام 3000 ق.م. ـ في وادي نهر النيل، ونهر السند والباكستان، وفي تركيا، والصين، ثم بعد ذلك في أمريكا الوسطى ـ جرت العادة على وصف الملك بأنّه «مؤسس المدن»، وتمكّن هؤلاء الملوك ـ في كل مكان تقريباً ـ من إسباغ قداسة دينية على سلطانهم»[2].

ولمَّا كانت المدن والقرى معرّضة لغزو البرابرة، ولا تستطيع القرية تعبئة الجيوش، وحشد الجنود للدفاع عن حياتها، وحماية ممتلكاتها فقد تكفّلت بتوفير الغذاء، والمال اللازمين للإنفاق على الملك، وكهنته، وحاشيته، وجنوده، والانضواء تحت لوائه، وذلك في الوقت الذي ابتكرت فيه المدينة النقود والأسواق، ونشطت حركة البيع والشراء، وكثرت المصنوعات المعدنية، ونتج عن هذه النهضة ازدياد الفوارق بين الطبقات، فأصبح للملك قصر فاخر، وفُرُشٌ باذخة، وحياة

---

(1) انظر: كافين رايلي: المرجع نفسه ج 1/ ص 59، وانظر: لويس ممفود: المدينة على مر العصور، أشرف على الترجمة إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1964م، ج1/ ص 132.

(2) انظر: كافن رايلي: المرجع السابق 1/76.

مترفة، وحرس مسلح ومعبدٌ مشيَّدٌ، يُعْبَد هو فيه باعتباره ابناً للإلـه، أو ممـثلاً لـه أو الكاهن الأعظم، ويُقَدِّم فيه القرابين لإلهه، كما أصبح للكهنة وحاشية الملـك منـازل عالية، ورياش ناعمة[1].

وإذا ما أحسّ الملك بخطر خارجي يتهـدد ممتلكاتــه، ويقـترب مـن مدينتـه وجب عليه اتخـاذ كافـة الوسـائل لحمايتهـا مـن غـارات الأعـداء ولّمـا كـان الغـزاة يستخدمون الخيول السريعة المدربة، والأسلحـة المنوّعة كان إعداد الفارس مكلّفـاً، فهو يحتاج إلى جوادٍ أصيل، وإلى درع سابغـة، وبيـضة، وتـرس، ورمـح، وسـيف.. وتحمّل الفلاحون عبئاً باهظاً في هذه السبيل، فكان عليهم مضاعفة الإنتاج للإنفاق على هؤلاء المدافعين.

تعرّضت أوربا في القـرن التاسع الميلادي إلى سلسلة مـن الغـزوات قـام بهـا المجريون «الهنغار» (Les Hongrois) من منـاطق الإسـتبس، وقراصنــة الفـايكنج (Les Vikings) من الشمال، وجنود الإسلام من الجنـوب؛ فكـان لا بُـدَّ مـن إيجـاد تنظيم حربي للحفاظ على الدولـة، ضـد الغـزاة، وفي الوقـت نفسه يـوفّر الأمـوال اللازمة لتسليح المقاتلين، وإنتاج الغذاء وكان هذا التنظيم هو الإقطـاع، أو التبعيـة، وهو نظام له جذوره التاريخية في الدولتين الرومانية والبيزنطية، ولم يكـن فيـه إلـزام عسكري بين التابع والمتبوع، وإنّما دخله الالتزام العسكري نتيجـة لامتزاجـه بنظـام التبعية الجرمانية[2].

فقـد اعترف المجتمع الروماني، منذ أقدم العـصور بوجـود روابـط اختياريـة تحت اسم «الحماية Patrocinium» وهي عادة متأصلة من قبل الغـزو الجرماني، وهي مستمدّة مما عرف عند المجتمـع التيتوني Teutons من وجود علاقـة أقوى من العلائـق

---

(1) انظر: جورج ليفه وورولان موسينيه: المرجع السابق جـ 1/ ص 76.

(2) انظـر: محمـد الـشيخ: الـنظم والحـضارة الأوربيـة في العـصور الوسـطى، دار المعرفـة الجامعيـة الإسكندرية، 1996م، ص 11، وانظر: السيد الباز العريني: الحضارة والنظـم الأوربية، دار النهـضة العربية، بيروت، 1963، ص 11-16.

وانظر: Ganshof F L.; Feudalism, London, 1952, p 4.

الأسرية؛ فكان على الشبان أنْ يلتحقوا بخدمة محارب عظيم، يشاركونه المعارك، ويأكلون على مائدته[1]، وكان العبد إذا حصل على حريته، ظل تابعاً لسيده السابق، يرافقه في الحفلات والمناسبات، ويكون من بين بطانته في حِلّه وترحاله، وليس عليه أية التزامات عسكرية، وفي الوقت نفسه اتخذ كبار الأمراء وأعيان الدولة حرساً خاصاً، من الجنود المأجورين، يكون أفراده مسلّحين، وتقتصر أعمالهم على حماية السيد، ومرافقته، كما وجد من بين الطبقات الفقيرة في المجتمع من يلجأ إلى واحد من السادة الكبار يطلب منه الحماية، والعيش في كنفه، ويكون تابعاً له في مقابل المأوى ونفقات المعيشة التي يوفرها له السيد، وقد يمنحه قطعة من الأرض يستغلّها في توفير احتياجاته[2].

وأمَّا في الدولة البيزنطية فمن المعروف أنَّ الإمبراطور الروماني جوستنيان (Justinien I^er^)[3] (527 ـ 565م) أنشأ قوّة من الخيّالة الثقيلة المسلحة بالدروع، والرماح الطويلة، وهي نمط من الفروسية أخذه عن الفرس[4]، وبها استطاع الحفاظ على إمبراطوريته، والانتصار على أعدائه، وفي نظمه الإدارية خالف سنة السابقين عليه؛ فقد لجأ كل من دقلديانوس (Dioclétien) (284 ـ 305م)، وقنسطنطين (Constantin I^er^ LE Grand) (306 ـ 337م) إلى تقسيم الأقاليم الشرقية من الدولة إلى أقسام صغيرة وجعلا عليها طبقة كبيرة من الموظفين مع الفصل بين السلطتين المدنية والحربية، ورأى جوستنيان أنْ يجمع الأقاليم الصغيرة في وحدات كبيرة،

---

(1) انظر: كولتون: عالم العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص41.

(2) انظر: Ganshof, op. cit. p 4.

(3) أعاد جوستنيان إلى الدولة هيبتها، فانتصر على الوندال في شمال إفريقية، واستعاد أملاك الدولة المغتصبة في أوربا، وفي عهده جمعت موسوعة القوانين الرومانية، ووضعت لها الشروح وأصبحت بعد ذلك أساساً لكل المبادئ، والنظم القانونية، والكنسية في القارة الأوربية كلها.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1470.

(4) انظر: كافن رايلي: المرجع السابق 1/184.

يحكمها موظف واحد، له كل الصلاحيات المدنية والحربية، وأوجد نظاماً إدارياً مركزياً يلزم الموظفين بالطاعة والخضوع لسلطة الدولة[1].

ولمّا تولى هرقل (Héraculius)[2] العرش (610 ـ 641 م) طوّر النظام الذي ارتضاه جوستنيان (Justinien) فولّى قائداً عسكرياً على الأقاليم العسكرية الكبيرة التي عرفت بالأجناد، أو ألوية الثغور Themes وكان قائد اللواء يُمْنَح سلطات مدنية على سكان الناحية التي يتولّى شئونها واستمر هذا النظام معمولاً به حتى نهاية الدولة البيزنطية[3].

تطوَّر النظام الروماني والبيزنطي في العصور الوسطى إلى ما عرف باسم «الإقطاع» وكان أقدم ما عرف منه هو أوَّل دفاع عن مملكة الفرنجة ضد الغزو الإسلامي؛ فكان على الفرنجة أنْ يواجهوا الخيّالة بالخيَّالة لضمان بقائهم، فتحوَّلوا إلى الفروسية المدرعة الثقيلة، ولمَّا كان الفرنجة قد ورثوا إمبراطورية مفلسة كل ثروتها الأرض الزراعية، ومعظم الصالح منها كانت تملكه الأسر الرومانية الغنية ورؤوساء البربر، وانتقلت ملكيتها في نهاية الأمر إلى الكنيسة، لذلك لم يجد شارل مارتل (Charles Martel) ثروة يمكنه أنْ يحوِّلها إلى جياد كبيرة، ودروع، وفرسان محترفة إلاَّ الأرض، وكان أول الحلول وأسهلها هو الاستيلاء على أملاك الكنيسة، وأقطعها إلى المحاربين مقابل أنْ يزودوه بما يلزمه من الفرسان المدرّعين؛ وقام المحاربون بدورهم؛ فأقطعوا مواليهم وأتباعهم حصّة من الأرض نظير أداء الخدمة العسكرية[4].

---

(1) وانظر: محمد الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية 61.

وانظر: Ostrogorsky G.; A History of the Buzantine State. trans. By Hussey, Oxford, 1956, p 31. وانظر: Hussey T.M.; The Byzantine Worled, London, 1967, p 342.

(2) ولد هرقل في نحو سنة 575م، ويعتبر المسيحيّون حروبه مع الفرس لاستعادة صليب الصلبوت أول حرب صليبية. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1437.

(3) انظر: Baynes N. H.; Byzantine Studies and Other Essays, London, 1960, p 62.

(4) انظر: كافين رايلي: المرجع نفسه 1/185. وانظر: محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية 17.

لم يطلق على هذا النظام اسم خاص في أول ظهوره، فقد عرف بأسماء أخرى كثيرة منها: المنحة أو الهبة Bénéfice، والتبعية الإقطاعية Vassalage, Vassal، والسيادة Lordship، أو نظام السيادة System Seignorial، ومنها نظام الضيعة التي يطلق الفرنسيون على أنواعها المختلفة الأسماء الآتية:

* Domaine «ومعناها: حيازة».
* Villa «أي: مزرعة إيواء، وأصل معناها: البيت الريفي الظريف».
* Manse «الضيعة، وأصل معناها: المسكن الريفي المرتبط بقطعة أرض تمتد من حوله».
* وفي الإنجليزية Manorial Regime[1] وهي بمعنى «الضيعة، أو المزرعة» وجرى هذا النظام في معظم القرى على نهج واحد مألوف؛ فيحتفظ السيد بثلث الأرض الصالحة للزراعة وبجزء من المراعي، ويؤجر الباقي للفلاحين، وعليهم زراعة أرض السيد وريِّها، وحصد محاصيلها، كما يرعون مواشيه وحيواناته، ويساعدونه في حفر القنوات.... وعليهم أيضاً دفع مقدار من محاصيلهم التي يزرعونها بأرضهم الخاصة، ويلتزمون ـ أيضاً ـ بدفع رسوم متنوعة في مقابل ما يستخدمونه من موارد أراضي القرية، ومقابل توفير السكن والحماية لهم، كما يقدِّمون له جزءاً معلوماً من حيواناتهم التي ترعى في مراعيه، وجزءاً من أفضل صيدهم الذي يصطادونه من صيد البر أو البحر.

وعادة ما يحتكر السيد أهم المرافق، ويتقاضى عنها أجراً، فهو وحده صاحب الطاحون، وعلى الفلاحين أنْ يطحنوا فيها، ويعطوه نصيباً من الدقيق، ومن الجرائم الكبرى امتلاكهم طاحوناً غيره، أو طحن حبوبهم في طاحون غيره، وله حق الإشراف على المخابز، ويتقاضى عن ذلك أجراً.

---

(1) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/284، والباز العريني: المرجع السابق ص 60، وانظر Encyclopaedia Britannica, V.14, p 820.

وللسيد وحده أنْ يربي الحمام الذي يتغذى على محاصيل الفلاحـين ولا يأكلـه إلاَّ السيد؛ فهو محرَّم على العامة[1].

لم يطلق المؤرخـون على هذا النظام لفظ الإقطاع إلاَّ في أواخـر القـرن الثـامن عشر[2]، ومن المعروف أنَّ النظام الإقطـاعي لم يتحـدّد شـكله، ويـتم تكوينـه إلاَّ في القرنين التاسع والعاشر، وأصبح له خصائص تميِّزه، وتوضِّح معالمه، منها:

1 ـ النظام الطبقي في الإقطاع: كانت العلاقـة بـين الـسيد والتـابع تقـوم في أساسها على الأرض، وما تغلّه، فالملكيّـة للـسيد، والعـاملون فيهـا هـم العبيـد، أو الفلاحون الفقراء والحاصلات تقسّم بأنصبة متفاوتة، فالقليـل الـذي يَحْفَـظُ الْأَوَد للكادحين، والأكثر للتابع، ينفقه على معاشه وسلاحه، وفي الوقت نفـسه عليـه أداء ما التزم به للمالك من طاعـة، وخدمـة حربية، والتزامات اقتصادية يدفعها له نقـداً، أو عيناً[3]، ويمكن القـول بـأنَّ التقـسيم الرومـاني القـديم بـين طبقتـي المحاربـين والكادحين قد عاد، مرَّة أخرى، إلى الظهور في العصور الوسطى[4].

2 ـ طقوس التقليد: تمثِّل أشـعار الملاحــم Les Héroïques، وأغـاني المـآثر Les Chansons de Gestes صورة واضحة عن حياة النبلاء الإقطاعيين وأحـوالهم، ولعلَّ أشهرها جميعـاً أغنيــة رولان La Chanson de Roland التـي كتبهـا قـسيس نورماني، في أواخر القرن الحادي عشر، مستوحياً فيها بطولـة واحـد مـن قـتلاهم في الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين، في غـزوة شـارلمان، وهـي تمـدُّنا

---

(1) انظر: العريني: المرجع السابق 61 ـ 62.

(2) انظر: Ganshof; op., cit.; p 4.

وانظر: Stephenson C.; Medieval Feudalism, New York, 1942, p 1 – 2.

وانظر: Coulborn R.; Feudalism in Hustory, Princeton, 1956, p 5.

(3) انظـر أنواعها في: عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/291.

(4) انظر: هارتمان: الدولـة والإمبراطوريـة في العـصور الوسـطى ترجمـة جوزيـف نـسيم، دار النهـضة العربية، بيروت، 1981 م، ص 77.

بتفاصيل كثيرة عن المثل الإقطاعية، والطقوس المتبعة فيها، ومدى إخلاص التابع لسيّده[1].

وتأكّيد هذا الإخلاص بقسم الولاء، ووضع يديه بين يدي سيده كما لو كانا يصلّيان معاً، وأنْ يكون تابعه طوال حياتها، وأن يخدمه بمختلف الطرق والوسائل بما في ذلك «واجب اللحاق به في الحرب» مع أكبر عدد ممكن من رجاله المسلحين، يجرى اختيارهم من بين أتباعه، وفق ما تمكّنه ثروته، ومرتبته، وبعد ذلك يُقَبِّل كل منهما الآخر على الفم[2].

ويترتّب على هذه المواثيق واجبات يتعهّد بها السيد منها: حماية تابعه في حياته، والانتقام له إنْ قُتِل، وتحقيق العدل في معاملته، ومكافأته على خدماته، والاحتفاظ به.

وكان الاحتفاظ على نوعين:

الأول «الأتباع والحاشية»: وفيه يقيم التابع مع سيّده في قصره متمتعاً بالمأوى، والملبس، والطعام، والتجهيزات الحربية، وعادة ما يرتبط بالسيد بعلاقات شخصية خاصة معه، ومع أهل بيته.

الثاني «السكنية»: حيث يعطى التابع مسكناً مستقلاً، وأرضاً ينفق على نفسه من دخلها، وعليه التزامات يؤديها، مالية، وحربية، وعادة يمنح هذا الإقطاع أمام شهود، ومعه أعطية، قد تكون صكاً مكتوباً، أو بعض الأعشاب مع جذورها، أو حزمة حصاد، أو حفنة من التراب، أو عصا صولجاناً، أو علماً، أو قفّازاً.. وكلّها ترمز إلى التمكين من السيّد والخضوع من التابع.

---

(1) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/271، وجوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والعرب 243، وقد ترجمها كاملة ونشرها سهيل زكّار في الموسوعة الشامية مجلد 9/ ص ص 50 ـ 187، والنصوص الواردة هنا نقلاً عن هذه الترجمة.

وانظر: Pirenne H., Cohen G., et Focillon H.; La civilisation Occidentale au Moyen Âge du XIème au milieu du XVème siècle, Paris, 1941, p 212.

(2) انظر: سهيل زكار: الموسوعة الشامية جـ 9/ ص 38 وما بعدها.

لم يكن الإقطاع وراثياً في أول الأمـر، ثم أصبح مع مرور الوقت وراثياً.

والنظام الإقطاعي هرمي التركيب، على رأسه الملك، ثم كبـار الإقطـاعيين، ثم من دونهم؛ وعندما يخـرج إقطاعي كبير لخوض معركة مـا يخـرج خلفـه فرسـان قصره أولاً، ثم الأتباع الرئيسون في إقطاعه، ومن بعـد هـؤلاء أتبـاعهم الـذين قـد يكون بعضهم في مرتبة الفروسية، ويحاط الجميع بأتباع من مراتب أدنى وفي أسـفل الهرم يوجد الأقنان والفلاحون الذين يفرض عليهم تأدية الخدمـة العـسكرية أيامـاً معدودة من السنة، مع الدفاع عن أرض الوطن.

ولتعويـض النفقات الباهظة كان الجميع ينظـرون إلى حصصهم من الغنائم، والتي هي: أسلحة القتلى، وفداء الأسرى والدية المفروضة على المغلوبين، والثروات المنهوبة من المدن...

3 ـ تبادل الرأي: لا يوجد قانون عام في النظـام الإقطـاعي، وكـل سـيّد هـو ملك في إقطاعه، يتولّى فيه جميع الوظـائف الحربيـة والمدنيـة وهـو الـذي يفـصل في القضايا، ويسمح بإبرام عقود الزواج.

فالاتجاه العام في هذا النظام هو المحليّة الضيِّقة، ونبذ كـل أشـكال المركزيّــة؛ وبالرغم من ذلك فقد جرت العادة أنْ يستشير السيّد أتباعه في كلِّ أمــر مـن أمـور حياتهم، وفي الأبيات الآتية من نشيد رولان نتبيّن كيف كانت الـشورى بـين الـسيّد والأتباع[1]:

وبدأ الإمبراطور شارلمان بقوله: أيّها البارونات، سادتي
من عند الملك مارسيل جاء رُسُلٌ ينشدون السم
وعَرَض عَلَيَّ مَنْحِي عطايا عظيمة
من الأُسُود والدِّبَبَـة وكلاب الصيد المقودة
وسبعمائة جمل، وصقور مدربة شجاعة
وأربعمائة بغل محملة بالذهب العربي

(1) انظر: سهيل زكار «نشيد رولان» 65.

وخمسين عربة محملة بشكل جيد مقطورة إلى بعضها
لكنه يستعجل الآن ذهابي إلى قصري في إكس
وهناك سيغيّر إيمانه إلى إيمان أكثر فائدة
سيصبح مسيحياً، وسيعتبرني قائده
لكن ما مقاصده الحقيقية؟ هذا ما لا أستطيع الإجابة عنه
وقال الفرنسيون جميعاً: الأحسن أن نكون حذرين

وعندما يكلِّف السيِّد تابعه بمهمّة حربية، يقبل بها طائعاً، ويتعهَّد بأدائها على الوجه الأكمل[1].

أرجوك يا سيدي، أعطني ـ بناء عليه ـ الصولجان والقفاز
سأقصد مسلم الأندلس وأراه
وفي نظراته سأقرأ مقاصده

وإنْ ظفر بالعدو أخضعه لسيّده، وألزمه يمين الولاء والطاعة[2]:

وهناك سيضع يديه بيديك، ويؤدي يمين الولاء
ومنك سيتسلّم مملكة إسبانيا إقطاعاً له

4 ـ أخلاق الفروسية ومظهرها: كان أبناء النبلاء في العصور الوسطى يسلكون واحداً من طريقين: إمَّا الالتحاق بالدير، والتفرُّغ للحياة الدينية بما يفترض فيها من زهد وتقشُّف، وإمَّا أنْ يتدرَّبوا تدريباً عسكريّاً منَظّماً؛ ليصبحوا فرساناً، فمن اختار منهم الطريق الثاني عليه أنْ يتعلَّم منذ حداثته ركوب الخيل، واستعمال السلاح، وإصابة الهدف، وممارسة الصّيد حتَّى إذا قوي عوده، وشبَّ عن الطوق التحق ببلاط واحد من الأمراء الكبار الإقطاعيين كتابع صغير Valet، أو سيِّد صغير Damoiseau ليتعلَّم آداب السلوك في المجتمع الراقي، ويرتقي إلى رتبة مساعد فارس، ويسمح له بمشاركة الفرسان الكبار في خوض المعارك؛ ليتعلَّم منهم فنون

(1) انظر: سهيل زكار «نشيد رولان» 59.
(2) المرجع السابق 73.

القتال، فإذا بلغ سنَّ الرشد وأثبت قدرة وكفاية يتمُّ تدشينه فارساً، في حفل كبير، وبعده يحتل مكانه في المجتمع الإقطاعي[1].

وأمَّا المظهر فكان بسيطاً في حالتي السلم والحرب:

ففي السلم يرتدى الفارس قميصاً يربطه بحزام من الوسط، وجوارب طويلة مشدودة على الساقين والفخذين بإحكام، وفي المناسبات يرتدي معطفاً يربط من أعلاه حول الرقبة، أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف، وكان على الفارس أنْ يحلق ذقنه، ويقصِّر شعر رأسه[2].

وفي الحرب كان اللباس من قسمين: أحدهما دفاعي، والآخر هجومي؛ فيرتدى الفارس على صدره درعا مُزَرَّدة تتألف من حلقات معدنية متداخلة، مفتوحة من أسفلها حتى لا تعوق حركة الفارس عند امتطاء جواده، أو نزوله عنه، ويكسو ركبتيه وساقيه بأربطة من القماش أو الجلد، ويضع على رأسه خوذه من الحديد، مخروطية الشكل، يتدلَّى من مقدمتها بروز لحماية أنف المقاتل، ويحمل الفارس على ذراعه الأيسر تُرْساً مستطيل الشكل، طوله أربعة أقدام، يتلقَّى عليه ضربات الخصم[3].

وأمَّا الأسلحة الهجومية التي كان يتسلَّح بها الفارس فهي:

سيف صليبي المقبض مربوط على جانبه الأيسر بحزام، وحربة طولها ثمانية أقدام، وبَلْطَة.

---

(1) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/275.

وانظر: Stephenson; op. Cit. p 45.

وانظر: Cambridge Medieval History, Cambridge, 1957, V.6, p 802.

(2) انظر: Stephenson; op. cit. p 61.

(3) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/277، وانظر: يوشع براور: الاستيطان الصليبي 339-418.

وانظر: Cam. Med. His. V.6, p 808.

وانظر: Stephenson; op. cit. p 64.

وكان الجواد أهمَّ أسلحة الفارس، وبدونه لا يستحق أنْ يحمل هـذا اللقـب، وكان الجواد مطهَّماً، ومزوَّداً بسرج ولجام، وقـد أحـرز الفرسـان نجاحـاً بـاهراً في معاركهم بفضل عنصر جديد أضافوه إلى عـدّة الفارس، وهو الرِّكاب البسيط الذي ظهر في أوربا أيضاً في عهد شارل مارتل (Charles - Martel) وأصبح ركناً أساسـيّاً في عدّة الخيَّالة المدرعة فلم يكن في استطاعته استخدام الرماح الطويلـة، والـسيوف الثقيلة بدون هذا الركاب الذي يثبِّت المحـارب عـلى ظهـر جـواده المنطلـق بأقـصى سرعة، وفي الوقت نفسه يمكِّنه من الهجوم والحركة بسهولة[1].

أمَّا عن أخلاق الفرسان فقد اتّصفـت بصفات خاصة، مـستمدّة مـن الثقافـة الإسلامية؛ حيث يرى المستشرق بلوشيـه (Blochet)[2] أنَّ نظام الفتوة الـذي أحيـاه الخليفة الناصر لدين الله[3] كان هـو الأصـل الـذي بُنِيَـت عليـه جمعيـات الفروسـية الأوربية، وهيئاتها، في القرون الوسطى، والفتـوة هي نظام اجتماعي إسـلامي قـديم لـه أخلاقياته، وسلوكياته[4]؛ فعلى المنتسب للفتوة أن يتحلى بأخلاق الفارس من:

شهامة، ونجدة، ومروءة، وأنْ يُعِين الـضعيف، ويـساعـد المحتـاج، ويبجِّـل المرأة، ويطعم الضيف، ويفي بالعهد ويكون ملتزماً بالصدق، والأمانـة، والنجـدة، والمروءة، والوفاء، وفي الوقت نفسه، عليـه أنْ يكـون شـاباً، قويـاً، متمرسـاً بفنـون

---

(1) انظر: كافين رايلي: المرجع السابق 1/186.

(2) انظر: المقريزي: السلوك ق 1 جـ 1 ص 172 الحاشية.

(3) أبو العباس، أحمد بن أبي محمد الحسن، الإمام النـاصر لـدين الله (553 ـ 622 هـ/ 1158 ـ 1225 م) تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، ودامت خلافته نحوا من ثمان وأربعين سنة. انظر: القلقشندي، أحمـد بـن علي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، بيروت، عالم الكتـب، 1980م جــ 2 ص 56، وانظـر: الـسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 521.

(4) عن الفتوة، انظر: ابن الساعي، علي بن أنجب: الجامع المختصر، مخطـوط دار الكتـب المـصرية رقـم 597/ تاريخ، ص 258، وانظر: ابن واصل: مفرج الكروب جــ 2/ ص 206، وانظـر: أحمـد أمـين: الصعلكة والفتوة في الإسلام، القـاهرة، دار المعـارف، 1952م، ص 62، وانظـر: جـورجي زيـدان: تاريخ التمدن الإسلامي: القـاهرة، دار الهـلال 1931 م، جــ 5 ص 159، وانظـر: نعيمـة الـساحلي: السياسة الخارجية للدولة الأيوبية، ص 90، وص 232.

الحرب، شجاعاً، مقداماً، لا يخادع ولا يخاتل، ولا يطعن من الخلف؛ ولذلك جرى العرف على أنَّه لا يجوز مهاجمة الفارس إلاَّ بعد إعطائه فرصة للاستعداد، وارتداء زيّه الحربي كاملاً[1].

لعلَّ الشيء الهام الذي لم يتعلَّمه فارس الغرب من فارس الإسلام هو الالتزام بهذه الأخلاق الكريمة في معاملة الناس جميعاً، دون تمييز بينهم فلم يكن الفارس الغربي يلتزم بها إلاَّ في معاملاته مع نظرائه من طبقة الأشراف والنبلاء، ولكنه كان يعامل غيرهم من أبناء الطبقات الدنيا معاملة خالية من الذوق والتهذيب[2].

5 ـ النظام الاقتصادي الإقطاعي: لعلَّ أهم ما يميِّز النظام الاقتصادي، في المجتمع الإقطاعي أمران:

الأمر الأول: اختفاء نظام الجندي المرتزق الذي تدفع له الدولة راتباً منتظماً، وأجراً ثابتاً، في مقابل الدفاع عنها، والخضوع لقيادة جيشها في محاربة أعدائها، وهو النظام الذي كان معمولاً به في الدولتين الرومانية والبيزنطية، فمن المعروف أنَّ أكثر القبائل المتبربرة كالقوط الغربيين، والوندال، والفرنجة، وغيرهم قد عملوا جميعاً كجنود مرتزقة في الجيوش الرومانية[3]، ليحلَّ محلَّه الجندي المقْطَع الذي أصبح مسؤولاً عن توفير قوته، وسلاحه من نتاج الأرض التي أقطعتْ له.

من المؤكد أنَّ الولاء الحربي للجندي المقاتل قد اختلف؛ فبعد أنْ كان يقاتل دفاعاً عن غيره لقاء أجر معيّن، أصبح يقاتل دفاعاً عن سيِّده الذي أقطعه الأرض، وهو بالتالي ما يعدّ دفاعاً عن نفسه، وعن ممتلكاته الخاصة، وكان لهذا التطور أثر كبير في أخلاق الفرسان حيث اتسمت حروبهم بالوحشية والقسوة، وهي الروح التي ظهرت جليّة في حروبهم التي أطلقوا عليها «الحروب المسيحية المقدسة» فقد أصبحت مغامرات وحشية، مجرّدة من كل صفات الإنسانية[4].

---

(1) انظر: Painter S.; Medieval Society, New York, 1955, p 32.

(2) انظر: Stephenson C.; Medieval History, New York, 1943, p 239.

(3) انظر: هارتمان، وباراكلاف: المرجع السابق ص 107.

(4) انظر: كافين رايلي: المرجع السابق 1/202.

والأمـر الثـاني: تحـوّل النظـام الاقتـصادي مـن النظـام النقـدي أو المـالي Money Economy الذي ميّز الإمبراطوريـة الرومانية في عصورها المتأخرة إلى نظام الاقتصاد الطبيعي Natural Economy القائم على الاكتفاء الذاتي، والمقايضة في هذا النظام هي وسيلة التعامل الرئيسة؛ بـل إنَّ المكافـآت عـلى الخـدمات التـي تـؤدَّى، والالتزامات الضريبية، والغرامات لم تكن تدفع نقداً أيضاً بل عيناً، وهو نظام يتفـق تماماً مع المطالب البدائية لهذه الممالك الناشئة بعد أنْ انهارت الإمبراطورية الرومانيـة في الغرب، وتسبب انهيارها في انعدام وجود حكومـة مركزيـة منظمـة تكفـل أمـن التجارة وازدهارها[1].

كانت هذه صورة الغرب بصفة عامـة، والتـي ظلـت عـلى مـا هـي عليـه في الوقت الذي تغيّر فيه شكل الدولة في المدن الإيطالية التي اعتمدت النظـام النقـدي في بنائها الاقتصادي والتجاري، وزادت ثرواتها، وظهرت طبقة مـن سـكان المـدن الأثرياء، وبذلك أخـذت الأحـوال في أوربـا تتغـيَّر تغـيُّراً تـدريجياً نحـو حـضارة جديدة، هي حضارة المدينة، فإذا أضفنا إلى ذلك ما أحدثته الحـروب الـصليبية مـن تأثير ثقافي ونهضة علمية، كان من أهم نتائجها اختراع الطباعة، وإنشاء الجامعـات، وقيام حركة الكشوف الجغرافيـة، واكتشاف البـارود، أدّت كـل تلـك العوامـل إلى انهيار النظام الإقطاعي بعد أنْ فقد الفارس مكانته التي كان يتمتّع بها من قبل[2].

النظام في الكنيسة:

تكاد تجمع المـصادر الأوربيـة عـلى أنَّ الكنيـسة كانـت هـي الوريـث الـشرعي للإمبراطورية الرومانيـة، بل إنَّها حلَّت محلَّها بعد أنْ تمَّ القضاء عليها في غرب أوربا[3]،

(1) انظر: Moss H. St.L.B.; The Birth of the Middle Ages, 395 – 814, London. 1937, p 270.
وانظر أيضاً: Pirenne, Cohen, et Focillon; op. cit. pp 27.

(2) انظر: سعيد عاشـور: أوربـا العـصور الوسـطى جـ 2/ ص 297، وهارتمـان وبـاراكلاف: المرجـع السابق، مقدمة المترجم ص 27.

(3) انظر: محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية ص 152.

ومن قبل كانت الكنيسة قد اتَّبعت في أنظمتها الإدارية نظام الإمبراطورية الذي اتّخذت منه نموذجاً تحتذيه في كل شؤونها، حتى قيل: «هي الإمبراطورية في قالب كنسي»[1]، واضطلع القسس والأساقفة بعبْء الأعمال الإدارية في المناطق التي توجد فيها كنائسهم[2]، وأصبحوا يتولّون القضاء، ويشرفون على الشؤون العامة، ويراقبون سلوك الأفراد، ويسهمون في صنع الأعراف الاجتماعية العامة[3].

ولّما كانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب، وكان لها الحق في تلقّي الهبات والصدقات فقد زادت ثرواتها، وزاد نفوذها وامتلكت الضياع الواسعة[4]، وتشبّه الأساقفة بالأمراء في نظام معيشتهم، وترف حياتهم؛ فأصبح لهم الأتباع والأنصار، ويقوم بأمورهم الخاصة الخدم والحشم[5].

كان البابا على رأس البناء الهرمي، يحيا حياة الملوك، وفي بلاطه إدارة مالية تشرف على الإيرادات الكثيرة من الممتلكات الواسعة التي منحها الحكّامُ للكنيسة، كما كانت تمتلك إقطاعات كبيرة، تدرُّ عليها دخلاً منتظماً، عند نهاية القرن الثاني عشر، وأصبح عدد كبير من الأفراد والهيئات يدفعون ضرائب معيّنة نظير انتفاعهم بتلك الإقطاعات التي تمتلكها الكنيسة[6]، كما أنَّ بعض الهيئات، والديارات دخلت في حماية الكنيسة مباشرة، في مقابل دفع إتاوة سنوية تماماً كما هو متّبع في الضرائب

---

(1) انظر: فشر: المرجع السابق، جـ 1/ ص 104، وانظر: محمد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1996م، ص 47.

(2) انظر: هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988م، ص 31.

(3) كرامب، وجاكوب: تراث العصور الوسطى، ترجمة عدد من أساتذة الجامعة بإشراف محمد بدران، ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة 1965م ، و1967م، جـ 1/ ص 46.

(4) انظر: Camb. Med. Hist., VI, p 561.

(5) انظر: Thompson; The Middle ages, VI, P 49.

(6) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 2/ ص 222.

وانظر: Cam. Med. Hiat V6, P 554.

الإقطاعية التي كان يدفعها أقنان الأرض للسيد الإقطاعي، في مقابل تقديم الحماية لهم، والذَّوْدِ عنهم[1]، كما امتدّ سلطان البابويّة ليشمل حماية بعض الحكام العلمانيين الذين وهبوا ممتلكاتهم للكنيسة، ثم تسلّموها إقطاعاً يديرونه باسمها، ويلتزم بتقديم ما تفرضه هذه التبعية من حقوق وواجبات[2]، وإذا أضفنا إلى كل ذلك ما كانت تحصله البابوية من ضرائب عن المؤسسات الدينية التابعة لها فإنَّنا نجد أنَّ البابوية أصبحت منصباً للثراء يتنافس عليها الطامعون، أكثر من كونها رعاية دينيَّة، وقد صرّح فوشيه (Foucher de Chartres) في حديثه عن الخلاف بين البابا أوربان الثاني (Urbain II) وجيبرت (Guibert)، قال: «كان جيبرت بصفته أسقف مدينة رافينا واسع الثراء، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف، ومن العجيب أنَّ هذه الثروات لم تشف غليله»[3].

ويبدو من هذا النص أنَّ الخلاف بين الرجلين كان على المنصب الذي يدرّ أموالاً طائلة، تستحق الصراع من أجلها، وأمّا شؤون الدين والعبادة فهي أمور ثانوية، ليست لها تلك الأهميّة التي للمال وأصبح البابا زعيماً دينياً ملكياً، تحيط به جميع مظاهر العظمة، والفخامة، وأصبح له موظّفون، وأمناء، ويمنح الألقاب كما أصبح البلاط البابوي مركزاً لجهاز إداريّ ضخم يتولّى تنفيذ أطماع البابوية، ورعاية مصالحها، وتنفيذ سياستها[4]، ويجب أنْ لا ننسى أيضاً أنَّ منصب البابوية منصب مبتدع لا أصل له في الدين المسيحي[5].

---

(1) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ2/ ص 222، وانظر:
Painter S.; A History of The Middle Ages, New York, 1954. P.268.
(2) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ2/ ص 222، وانظر:
Ullmann W.; The Growth of Papal Government p332.
(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 39.
(4) انظر: سعيد عاشور: أوربا المرجع السابق جـ2/ ص 119، وانظر:
Ullmann W.; The Growth of Papal Government p325.
(5) انظر: هارتمان وباراكلاف: المرجع السابق ص 62ـ 63.

ويمكن أنْ نجد صورة التطابق بين نظامي الإمبراطورية الرومانية والكنيسة في أمرين: القوانين، والتنظيم الإداري.

فمن حيث **القوانين**: كان لمجموعة قوانين جوستنيان تأثير كبير في تقدّم الدراسات القانونية في غرب أوربا بعامة، وفي تنظيم القانون الكنسي بصفة خاصة[1]، وقد وجد القانونيّون الأوائل عدداً كبيراً من المواد التي ضم بعضها إلى بعض بدون تنظيم معين أو مبدأ نقدي محدّد، بل ربّما كان بعضها يعارض بعضاً، وكان تنظيم هذه المواد وترتيبها أمراً بالغ الصعوبة، وقد شهد القرن الحادي عشر أولى المحاولات الجادة في هذه السبيل على يد بعض الأساقفة، من أبناء الشمال، من أمثال بيرشر الورمزي (Burcher of Worms)وإيفو الشارتري (Ivo of Chartres) وأنسلم أسقف لوكا (Anselm of Lucca)[2]ولكنَّ كانت أهم تلك المحاولات وأكثرها جدّية هي تلك التي قام بها جراسيان (Gratien)[3] الذي نجح في فصل اللاهوت عن القانون الكنسي وقام بتنظيم هذا القانون وترتيبه[4] ولهذا اعتبره بعض المؤرخين مؤسس القانون الكنسي الجديد[5] فقد صنَّف المراسيم البابوية تنظيماً علمياً، ورتبها بحسب الموضوعات على نسق القانون المدني الروماني، ودوَّن بعض التعليقات التي حاول من خلالها التوفيق بين المواد المتناقضة ولذلك أطلق على كتابه اسم «التوفيق

---

(1) انظر: كانتور، نورمان: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، مؤسسة عين، القاهرة، 1981م، جـ 2/ ص 512.

(2) انظر: كانتور: المرجع نفسه 2/512 ـ 513.

(3) راهب إيطالي، عاش في القرن الثاني عشر، وهو مؤلف الكتاب المشهور الذي عنوانه «المرسوم» وهو أوّل مجموع يضم القوانين البابوية.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1414.

(4) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 2/ ص 407 ومحمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية ص 255.

(5) انظر: Heer F.; The Medieval World, Europe fromm 1100 to 1350, trans. by J. Sondheimer, London, 1962, p 111.

بين القوانين الكنسية المتعارضة «A Concordance of Discordant Canons»، ولكنه عُرِف اختصاراً باسم «مرسوم جراسيان Gratian's Decretum» وعلى الرغم من أنَّ البابوات لم ينشروا هذا الكتاب رسمياً إلاَّ أنَّهم استفادوا منه، وأضافوا إليه بعض المراسيم في سنة 1234م، بأمر من البابا جريجوار التاسع (Grégoire IX)، وزادوا فيها مراسيم أخرى بأمر من البابا يوحنا الثاني والعشرين (Jean XXII)، في سنة 1317م، ثم ضمُّوا إليها ملحقاً شبه رسمي بعنوان «ما لا يقبله العقل Extravagantes» وتكوّن منها جميعاً المجموعة المعروفة باسم «مجموعة القوانين الكنسية Corpus Juris Canonici»[1].

ومن حيث **التنظيم الإداري**: فقد اتّبعت الكنيسة الأنظمة الهرمية التي ورثتها عن الدولة الرومانية، ففي أعلى الهرم يوجد البابا الذي كان يعتبر نفسه رأس العالم المسيحي بأجمعه، والذي امتدَّ نفوذه إلى جميع أركان البناء الاجتماعي والسياسي، المدني والديني[2]، وكان يعيش عيشة ناعمة مترفة، في بلاط أشبه ببلاط الملوك والأباطرة، وتحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة والقداسة أيضاً؛ فكان زعيماً دينياً ملكياً Sacerdos Regalis له جهاز إداري ضخم من الموظفين، والأمناء ذوي الألقاب والمناصب مهمته تنفيذ أطماع البابا وسياسته[3].

وفي الحواضر الكبرى من الدولة كانت توجد البطريركية، وعلى رأسها زعيم ديني يلقّبونه بالبطريرك Patriarch، وكان هذا المنصب يأتي بعد البابوية مباشرة، والبطاركة هم الصفوة المختارة من كبار الأساقفة، وفي البدْء كانت مهمتهم استشارية، وأخذ نفوذهم يزداد يوما بعد يوم حتى أصبحوا كالأمراء الذين يحيطون بزعيمهم، ولهم الدرجة الثانية بعده في المكانة والنفوذ[4].

---

(1) انظر: كولتون: المرجع السابق ص 250.

(2) انظر: Cam. Med. Hist. V6, p.p 4, 34.

(3) انظر: Ullmann W.; The Growth of Papal Government in the Middle Ages, London, 1955, p 325.

(4) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى 2/ ص 232.

وانظر: Cam. Med. Hiat V6, P. 4 & p.43.

ويشرف البطريرك على عدد من الولايات Provinces التي يكـون عـلى رأس كل ولاية منها رئيس الأساقفة Archbishop، ويكون تحت رئاسـته في ولايتـه عـدد من الألوية Dioceses يرأس كـلاً منهـا أسـقف Bishop، ويـشرف الأسـقف عـلى القساوسة في القرى الصغيرة الذين كانوا يمارسون سلطاتهم الدينية فيما يعرف باسم الأبرشية Parish[1]، وهي الكنيسة الصغيرة في القريـة، يـشرف عليهـا قـسّ Prêtre، ويعتبر هذا القس في الدرجـة الدنيا من التنظيم الكنسي ويحيا كما يحيا أقنـان الأرض من الفلاحين المحيطين به، ويخضع ـ من الناحية العلمانية ـ للأمير الإقطـاعي الـذي تقع الأبرشيـة في أرضه، ومن الناحيـة الدينيـة يخضع للأسقف الذي تقع الأبرشـية في اختصاصه[2].

انقسمت الوظائف الكهنوتية قسمين:

أحدهما علماني Secular Clergy وهو الذي يتولّى أعمال الكنيسة اليوميـة مـن إدارية، ومالية، وغيرها.

والآخر روحاني Spiritual Clergy، وتقتصر مهمته عـلى القيـام بالواجبـات التبـشيرية في الـديَّارات، منعـزلين عـن العـالم، متفـرغين للتأمـل، والعبـادة، وطلب المغفرة للبشر، وهذا يقودنا إلى السؤال عـن تلـك الـديَّارات والنظـام المتّبـع فيها.

النظام في الديَّارات:

أجمعت المصادر التاريخيـة الدينيـة على أنَّ نظام الديرية مـن مبتكـرات مـصر المسيحيـة، وقد نشأ فيها نظام العزلـة نشأة ذاتية على الأرجح منذ القـرن المـسيحي الأول، وظهر فيها نظامان للعزلة الأول الرهبنة الانفرادية المطلقة، والثـاني الديريـة

(1) انظر: سعيد عاشور: المرجع نفسه جـ2/ ص 232، وانظـر: محمـد صـالح منـصور: المرجـع الـسابق، ص272.

(2) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ2/ ص 232.

وانظر: Thompson J.W.; The Middle Ages, VII, p. 654.

الاجتماعية ولم تعرف أوربا هذا النظام قبل القرن الخامس الميلادي[1]، وذاع وانتشر هناك في القرن السادس فيما عرف بالنظام البندكتي (Bénédictins)[2] أسسه راهب إيطالي، ووضع له نظاماً مخالفاً لنظام الديرية الشرقية؛ فجعله مؤسسة تعتمد على نفسها في سدّ حاجاتها، ورعاية شؤون نزلائها، وللدير رئيس مطلق السلطة، وعلى الجميع طاعته طاعة عمياء، وتمثّل العبادة المشتركة المظهر الأساسي لحياة الرهبان داخل الدير، وفي الوقت نفسه يتعاونون جميعاً في فلاحة الأرض وزراعتها، ونبذ التواكل والكسل؛ فكان المبدأ الذي ارتضاه بندكت هو أنَّ «العمل عبادة»[3]، ولذلك فقد أدّى هذا النظام دوراً بارزاً في التقدم الحضاري في أوربا.

كانت عزلة الدير البندكتي سبباً في الانحلال والتدهور، وربما تمكّن بعض الرهبان من قتل رئيسهم، وبناء أسرة من زوج وأولاد، وعاشوا عيشة الأمراء، مما كان سبباً في حركة الإصلاح الكولوني، والتي تهدف إلى فرض رقابة مشدّدة على أهل الديّارات ووضع حدّ للتهاون والفساد، من طريق إخضاع جميع الديّارات التابعة للمنظمة الجديدة لإشراف موحّد، وكان الغرض من هذا التنظيم إصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شؤونها.

والملاحظ أنَّ تنظيم الدير، في الدول الأوربية، في كل الحالات لم يكن له الطابع الحربي الذي عرفه الدير الباخومي في مصر، فإنَّ باخوم (Baccaumus)[4] -

---

(1) راجع عن الرهبنة ونشأة الديرية المصادر الآتية: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ1/ ص161، وجـ2/ ص 238، وانظر: محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية ص 185.

وانظر: Eyre E.; European Civilization, V 3 “the Middle Ages”, London, 1935, p227.

وانظر: Workman H. B.; The Evolution of Monasticideal, London, 1957, 1.

(2) وضع أساسه Sainet Benoît de Nursie في عام 529م في مدينة مون كاسان Mont - Cassin.

انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1226.

(3) انظر: Workman; op. cit., p 156.

(4) باخوم Baccaumus توفي نحو سنة 346م مؤسس الحياة النسكية المشتركة أسس عدة أديار في مصر العليا، ووضع لها القوانين الرهبانية الأولى.

انظر: معلوف، لويس، وآخرين: المنجد في اللغة والأعلام، ط/ 39، دار المشرق، بيروت، 2002م، ص101.

مؤسس هذا النظام ـ كان قد خدم في الجيش الروماني فترة؛ ولـذلك نقـل إلى ديـره كثيراً مما تأثر به من نظـم العـسكرية الرومانيـة[1] ولا نكـاد نعـرف للرهبـان دوراً في القتال، أو الدعوة إلى العنف؛ وإنّـما جـاءت هـذه المبـادئ مـن دعـوة البـابوات إلى الحروب الصليبية.

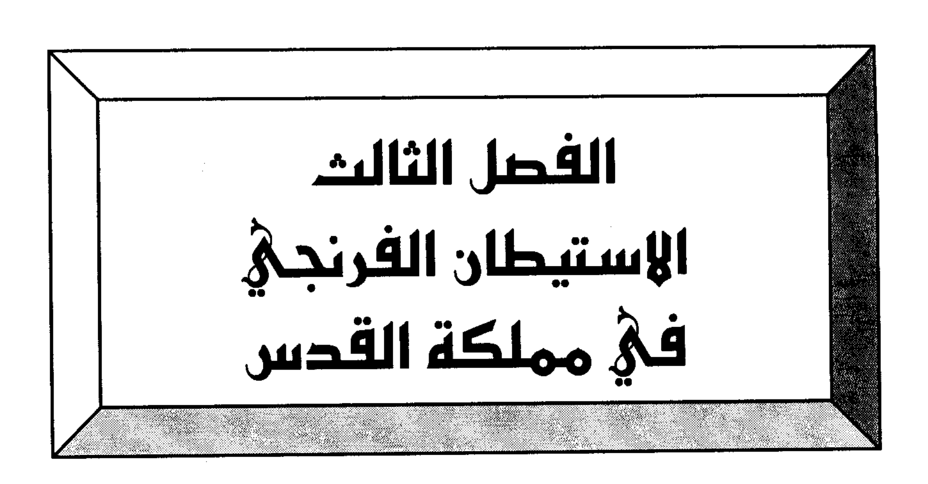
عندما استقـر الصليبيون في الشام أسسـوا فيها بعـضاً مـن الممالـك المسيحيـة، وطبّقوا فيها الأنظمـة التي اعتادوا عليها في بلادهم، وكانت مملكة بيت المقدس أكثرها أهميّة.

فكيف كانت أنظمتهم في هذه المملكة الجديـدة؟ ومـا القـوانين التـي كانـت تحكمها؟ وما طبيعة علاقتها بغيرها من الممالك؟

الإجابة عن هذه الأسئلة هي (موضوع الفصل الثالث).

---

(1) انظر: محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية ص 195.


الفصل الثالث
الاستيطان الفرنجي
في مملكة القدس

الاستيطان الفرنجي
في مملكة القدس

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : توطئة جغرافية لمدينة القدس: أسماؤها، موقعها.

المبحث الثاني : أهمية القدس، وماذا تعنى للناس كافّة.

المبحث الثالث : تاريخ القدس السكاني «الديموجرافي».

المبحث الرابع : الفلسطينيون.

المبحث الخامس: الظاهرة الاستيطانية في مملكة بيت المقدس.

المبحث السادس: التنظيم المدني الاستيطاني في مملكة القدس:

* الاستيطان والملكية العقارية والزراعية.
* الإقطاع الزراعي.
* الإقطاع الديني في مملكة بيت المقدس.
* التنظيم الكنسي، الديَّارات.
* الموارد المالية.
* الجهاز الإداري.
* الاستيطان في الثغور الساحلية.

المبحث السابع : التنظيم الحربي الاستيطاني لمملكة بيت المقدس.

المبحث الثامن : مكانة مملكة بيت المقدس بين الإمارات الصليبية.

توطئة جغرافية لمدينة القدس:

قبل التوطئة الجغرافية، لا بدَّ من ذكر الأسماء التي عرفت بها المدينة المقدسة أولاً، ثم التعرُّف على موقعها المتميِّز ثانياً، وبيان خصائصه الطبيعية والبشرية.

أسماء القدس، ومعانيها:

هاجر اليبوسيُّون (Jébusiens , Jébuséens , Jebusites) ــ وهم بطن من بطون القبائل الكنعانية ـ إلى منطقة فلسطين، واستوطنوها في نحو سنة 3000 ـ 2500 ق.م، وأنشئوا فيها حضارة تميَّزت بالتقدُّم الزراعي والصناعي، وعلى مرتفعات: الضهور، وعوفل، وصهيون، أسسوا المدينة المقدّسة، في نحو سنة 3000 ق.م وأطلقوا عليها اسم أورو سالم (Urusalim) أي مدينة السلام(1)، وكانت ـ كغيرها من مدن الكنعانيين «مملكة/ مدينة» حكمها عدد كبير من الأمراء، كان أشهرهم سالم اليبوسي، وآدوني، وملكي صادق.

حرَّف الأكاديون اسمها إلى أور سالم (Ursalim) كما حرَّفه اليهود إلى يوروشالايم (Yerushalayim) ويرى فيليب حتِّي أنَّ الاسم مشتق من «يارو شالم»

---

(1) الكلمة «أور» Our, Ur كلمة سومرية، تعني مدينة، أو محلَّة، ونسبت إلى سالم أو شاليم، وهو اسم إله من آلهتهم، ويرى أحمد شلبي أنّها منسوبة إلى ملك من ملوكهم وربَّما كان الرأي الأول هو الأصح، بدليل أنَّ الكتاب المقدّس كان يطلق عليها لفظ أرئيل أي مدينة العدل. انظر: المنهاجي، محمد بن أحمد: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط بلدية الإسكندرية رقم 6273/3217 ج/ تاريخ، ص 7/ ب، وطبع الجزء الأول منه بتحقيق أحمد رمضان أحمد، القاهرة، 1982م، جـ1/ ص 36، وانظر: مجلة منبر الإسلام، العدد 7، السنة 58 ص 70 وانظر: الدباغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، بيروت 1975م جـ9/ ق 2/23، وانظر: عبد العزيز محمود عبد الدائم: بيت المقدس في العصر الأيوبي، القاهرة، 1989م، ص 13، وانظر: هنري عبودي: المرجع السابق، ص 154، وانظر: دائرة المعارف الكتابية .C.D مادة «أورشليم».

بمعنى: دع شالم يؤسس، وكان شالم إلـه الـسلام عنـد الكنعـانيين[1]، وهـذا الاسـم مذكور في نقش لوح من ألواح أوغاريت[2] مما يؤكد أنَّ الاسم كنعاني آرامي أصيل.

ثم أُطلِق على المدينة اسم يبوس (Jebus) نسبة إلى اليبوسيين الذين أسـسوها، وهو الاسم الذي أطلقه عليها يشوع[3] عندما قاد اليهود، وأغار على أرض كنعان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد[4] وكان يحكمها مَلْكِي صادق الملقب بأبي الملوك[5]، وهو قديس صالح من الموحدين، نزل بأرض بيـت المقـدس، وأقـام في كهـف في جبالهـا يتعبَّد، وشهر بين ملوك الشام، فسمعوا كلامه، واعتقدوا فيه، وأمدّوه بالمال؛ فاختط مدينة القدس، واختير ملكاً عليها، وبنى فيها معبداً؛ فكان يُقَدِّم ذبائحـه على موضع الصخرة المشرفـة، ومَلْكِي صادق هـو الـذي لقـي الخليـل إبـراهيم عليه السلام، وقـال لـه: ﴿ مُبَارَكٌ إِبْرَامُ مِنَ اللهِ العَلِي مَلك السَّمَوَات وَالأَرْض ﴾[6]، ويبدو من رواية التوراة أنَّ ملكي صادق كان في الدرجة العليا من درجات النبيين والـصالحين، فقـد جـاء في التـوراة قـول داود عليه السلام ﴿ أَقْسَمَ الرَّبُّ، وَلَنْ يَنْدَمَ أَنْ أَنْتَ كَاهِنٌ للأَبَد عَلَى رُتْبَة

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين 1/173 ح/ 3.

(2) أوغاريت: مدينـة قديمة، تقع على بعد 12 كم شمالي اللاذقية، اكتشف موقعها صدفة عـام 1928م في رأس شمرا، وقد عثر في معبدها على لوحات فخارية مكتوبة بالخـط المسماري. انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 163.

وانظر: Burrows Millar; What Mean These Stones, New Haven, 1941. P 229.

(3) اسمه الأصلي يهوشع أو هوشع بن نون Josué ، Josiah، من سبط إفرايم، ولد في مصر، وكان قائـد الإسرائيليين أيام النبي موسى، وهو الذي احتل فلسطين بعد وفاة موسـى. انظـر: هنـري عبـودي: المرجع السابق ص 913.

(4) انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: فضائل القدس، تحقيق جبرائيـل جبـور، بـيروت، 1980م، ص112.

(5) يعرفه الأوربيون بأسماء متعددة، منها: Melchi Sédech, Melkisédeq, Melkizedek، وهو ملـك العدل، تراجع أخباره في: الحنبلي: المصدر الـسابق جــ 1/ ص 8، وانظـر: هنـري عبـودي: المرجـع السابق ص 809، وانظر: الباش: المرجع السابق ص 32، 48.

(6) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح 14، الآية 17.

مَلْكِيصَادَق﴾[1]، وقد جاء في قاموس الكتاب المقدس أنّه كان محافظاً على سـنَّة الله بـين شعب وثني؛ ولذلك كانت له الرِّيادة والأسبقية على الكهنة اليهود من سلالته[2].

ومن المعروف في علم اللغة، وقوانين تطورهـا أنَّ الكلمـة إذا كثـر اسـتعمالها أصابها كثير من التحريف، والتغيير الصوتي[3]؛ لذلك نرى الأمم القديمة قد حرّفت اسم المدينة المقدسة في كثير من اللهجات، فقد ذُكِرَ اسـمها في نقـش مـصري قـديم يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشـر قبل الميلاد باســم «أورشـاميم»، وقـد ذكرهـا اليونانيون والرومـان باسـم «هيروسـاليم»[4] ثـمَّ أطلـق عليهـا في اللغـات الحديثـة المتطـورة عـنهما اسـم جيروزالـيم (Jerusalem) كـما حـرَّف المـصريون في لغـتهم الهيروغليفية اسم يبوس إلى «يابيثي»[5].

وعندما استولى عليها الإمبراطور الروماني أدريان (Adrien)[6] وأخرج اليهود منها، وحوَّلها إلى مدينة رومانية سمَّاها باسم كولونيا آيليا كابيتولينا (Colonia Aelia Capitolina)، بمعنى بيت الله[7]، واخْتُصِرَ الاسم إلى «إيليـاء»، وهـو الاسـم الـذي عرفت به أيَّام الفتح العربي وظهر في العهدة العمرية التي كتبها عمر بن الخطاب ﷺ للسكان المسيحيين بُعَيْد الفتح[8].

---

(1) الكتاب المقدس، المزامير، المزمور رقم 110، الآية 4.

(2) انظر: الباش: المرجع السابق ص 32، وانظر: حسونة: المرجع السابق، ص 47.

(3) يراجع قوانين التغيير في كتاب «التطور اللغوي» لرمـضان عبـد التـواب، نـشر الخـانجي بالقـاهرة، 1997م، ص24، وما بعدها.

(4) أطلق عليها اليونان اسم أنطاكية فترة من الزمن. انظـر: تـارن، الـسير ولـيم وود ثـورب: الحـضارة الهللنيستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ومراجعة زكـي عـلي لجنـة التـأليف والترجمـة والنـشر، القاهرة، 1966م، ص162 ـ 164.

(5) انظر: حسونة: المرجع السابق ص 34.

(6) ويسمَّى ـ أيضاً ـ هدريان Hadrien ولد في روما سنة 76م، وهو ابن تراجان Trajan بالتبني وحكـم ما بين سنتي 117 ـ 138. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1152.3

(7) نسبة إلى المعبد الوثني الذي أقامه بها أدريانوس في سنة 135م، قبل أنْ تدين الدولة بالمسيحية. انظـر: أحمد شلبي: منبر الإسلام، مصدر سابق 70.

(8) انظر نص العهد في: الحنبلي: المصدر السابق جـ1/ ص 253.

ثم أطلق عليها العرب اسم «بيت المقدس» وهو اسم يفيد التنزيه لله، وطهارة الإنسان في العبادة، وقيل: يفيد أنَّ أرضها أرض مباركة[1].

موقع القدس:

تقع القدس في قلب العالم، على خط عرض 46 ـ 31 شمالاً، وعلى خط طول 14 ـ 35 شرقاً، وتحتلُّ المدينة موقعاً متوسطاً هاماً على الجبال الفلسطينية الوسطى حيث تتحكّم في الطرق الموصّلة بين منطقة الجليل وبين وسط فلسطين وجنوبها، وتربط بين أهم المدن الجبلية: صفد، والناصرة، وجنين، ونابلس، ورام الله، وبيت لحم، والخليل.

تقع القدس على ارتفاع ما بين 720 و780 متر فوق سطح البحر وتتكوّن أراضيها من تلال صخرية، تنخفض سطح جبالها حوالي مائة متر عن المناطق المجاورة؛ بسبب بعض الانكسارات الأرضية الممتدة شرقاً وغرباً؛ فأصبحت نقطة اتصال بين الساحل الفلسطيني من الغرب، وبين الغور[2] من الشرق، وفي الوقت نفسه هي نقطة التقاء الطرق الواصلة بين شمال البلاد وجنوبها، تحيط بها أودية قليلة العمق من الغرب والشرق والجنوب أمّا داخل أسوار المدينة التاريخية التي تبلغ مساحتها كيلومتراً مربعاً واحداً فإنَّ الأرض تميل بانحدار خفيف من الشمال والغرب نحو الجنوب والشرق، ويتوفّر بالقرب منها الصخر الكلسي الصالح للبناء، وإنشاء الآبار، والأنفاق، مما كان له شأن كبير في تاريخ المدينة[3].

---

(1) انظر: الحموي: معجم البلدان «مقدس» جـ 5/ ص 166.

(2) الغَوْر: يريد غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وفيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها، وأشهر بلاده بيسان، وهو وخم شديد الحر، غير طيّب الماء. انظر: الحموي: معجم البلدان «غور» جـ 4/ ص 217.

(3) انظر: رائف يوسف نجم، وآخرون، كنوز القدس، نشر منظمة المدن العربية، ومآب مؤسسة آل البيت، عمّان، 1983م، ص 142.

عن جغرافية القدس انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص 78، وانظر: الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ص 93، الإصطخري: مسالك الممالك ص 56، وانظر: المقدسي: أحسن التقاسيم ص 165، وانظر: ابن حوقل: صورة الأرض ص 171، وانظر: الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق جـ 1/ ص358، وانظر الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 166، وانظر: أطلس العالم ص 141.

ماذا تعني القدس؟

إنَّها مدينة المتناقضات التي لا تعرف القصد، أو الاعتدال:

إنَّها المدينة التي تضم مقدّسات جميع الأديان السماوية المعروفة، وتحمل اسم «مدينة السلام»، وما عرفت السلام في يوم من الأيام، ولم تجر الدماء أنهاراً، بل سيولاً وبحاراً في مدينة على وجه الأرض كما جرت في القدس الشريف أرض الرسالات، هذا ريموند الصنجيلي (Raymond IV de Saint-Gilles) عندما توجّه إلى ساحة المعبد، صبيحة يوم احتلال الصليبيين بيت المقدس «أخذ يتلمّس طريقه بين الجثث، والدِّماء التي بلغت ركبتيه»[1].

إنَّها المدينة التي خاطبها السيِّد المسيح عليه السلام قائلاً: «أُورَشَلِيمُ، أُورَشَلِيمُ، يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ، وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا»[2].

إنَّها المَدينة التي ترتفع فيها مآذن المساجد الإسلامية، وأبراج الكنائس المسيحية، وصوامع البيع اليهودية، ويتجاوب في سمائها آذان المؤذنين، وأجراس الكنائس، وأصوات نشيج الباكين من اليهود على حائطهم، ومع ذلك فلم تنتهك المقدّسات في معبد، وتمتهن دور العبادة كما انتهكت وامتهنت في القدس الشريف، فهذا تنكريد (Tancrède) ينهض في الصباح الباكر، من اليوم التالي لدخولهم بيت المقدس؛ ليقتحم أبواب المسجد الأقصى، ويُجْهِزَ على جميع المتحرّمين فيه بحرمة بيت الله، ثم ينطلق بمن معه من أراذل الصليبيين إلى معبد اليهود الكبير، فيشعلون فيه نيران حقدهم الأسود؛ ليصرع جميع من التجؤوا إليه طلباً للنجاة من المسالمين، الآمنين، العائذين بجوار الله[3].

---

(1) انظر: الحنبلي: المصدر السابق جـ 1/ ص 227، وانظر: زايد، عبد الحميد: القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م ص 16، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ1/ ص 426. وينظر: Bailley; The Arts and Religion, New York, 1944, p213

(2) إنجيل متى، إصحاح 23، آية 37، وإنجيل لوقا، إصحاح 13، آية 34.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 426، 427.

إنَّها المدينة التي كانت ـ وما زالت ـ مسرحاً للعديد من الحوادث الأليمة؛ فكانت سبباً لعشرات الحروب، في حياتها التي تمتدُّ أكثر من خمسة وأربعين قرناً من الزمان، حوصرت فيها أكثر من عشرين حصاراً وتبادلتها أيدي الغزاة أكثر من خمس وعشرين مرَّة، ودُمِّرَتْ سبع عشرة مرَّة، وأهلها تعرَّضوا للذبح في مناسبات عدّة، منها الجرائم الصهيونية البشعة اليوم[1].

إنَّها المدينة التي رافقت مسيرة التاريخ الإنساني، في جميع أطوار حياته، نُصِبَت فيها الأوثان، وعُبِدَت في ساحاتها الأصنام وقُرِّبَتْ عَلى مذابحها القرابين، وسِيقت إليها الأضاحي، ثمَّ وَطِئَتْ أرضها أقدام النبيين، والموحدِّين، وطُهِّرَت ربوعها من دنس الكفر والشرك، فكانت الأرض المباركة التي أسرى إليها الله بنبيه محمد بن عبد الله، رسول الإسلام، فقال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

ومنذ الإسراء ارتبطت مدينة القدس بالدين الإسلامي القويم؛ فكانت أولى القبلتين، ثمَّ أصبحت مزاراً تشدُّ إليه رحال المؤمنين.

وسُئل النَّبيَّ ﷺ عن الموضع الذي يُصَلَّى فيه في المسجد الأقصى فقال: «صَلُّوا حَيْثُ شِئْتُمْ؛ فإنهُ مَا مِنْ مَوْضِعِ قَدَمٍ فيه إلاّ وَصَلّى فيه نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، أَوْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ»[3].

إنَّها المَدينة التي تمتلئ بعبق التاريخ، والحضارة، والروحانية الطاهرة في أجواء القدس الشرقية، وبين أزقّتها الضيقة، وحاراتها الملتوية وطرقها المتعرّجة حيث وطئتها أقدام النبيين، والصديقين والصالحين من كل الأديان، ومن كل أقطار الأرض،

---

(1) انظر: هنري كتن: القدس، ترجمة إبراهيم الراهب ط/ 1، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، سنة 1997م.

(2) انظر: سورة الإسراء 17: 1.

(3) انظر: القونوي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن شيث: فضل المسجد الأقصى وبنايته، مخطوط دار الكتب المصرية رقم 514 مجاميع، وعنه مصورة معهد المخطوطات رقم 1867، ص 15.

ويسير الناس فيها متدّثرين بأردية الوقار والخشوع، وهم قاصدون ثالث الحرمين الذي «تشد إليه الرِّحال، وتُحطُّ عمن قصده للصلاة فيه الأثقال»(1).

تاريخ القدس السكاني (الديموجرافي):

تشير الوثائق العلمية(2) إلى أنَّ المنطقة العربية في شرق البحر الأبيض المتوسط كانت آهلة بالسكان في العصر الحجري القديم، والآثار الأولى التي تدلُّ على وجود بشري في الشرق الأدنى كانت في منطقة «عُبَيْدِيَّة» بالقرب من بحيرة طبريّة، وترجع إلى أربعمائة ألف سنة قبل الميلاد، وتعود أوائل السكنى القائمة على البناء والاستقرار إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، كما كانت شعوبها قد أخذت في طريق الرقيّ والحضارة، منذ العصر الحجري الحديث «عصر صناعة الخزف» ويقدّر تاريخه بنحو خمسمائة وأربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفيها نشأت الحضارة الغسوليَّة التي عرفت صناعة المعادن، وبخاصّة النحاس(3).

---

(1) انظر: القونوي: المصدر نفسه ص 3 ـ 24. وانظر: المقدسي، المشرف بن المرجى بن إبراهيم: الأسنى في محل الإسرا، مخطوط المكتبة الأزهرية رقم 3232، وعنه مصورة معهد المخطوطات رقم 1365 ص 2، وانظر: ابن أبي شريف: محمد بن محمد بن أبي بكر، المقدسي: سؤال بن أبي شرف في دير صهيون والإفرنج، مخطوط دار الكتب، ص 4.

(2) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق «الجداول التاريخية» ص 817 ـ 826.

(3) الحضارة الغسولية: يتفق هذا العصر مع فترة تحسن المناخ بعد الدور المطير الثانوي في شمالي أفريقية وجنوب غربي آسيا، وفيه عرف الإنسان فن الزراعة، واخترع آلاتها كالمحراث والمنجل، وصناعة الفخار والخزف، وصهر المعادن. انظر: وهيبة، عبد الفتاح: الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص 119.

وفي الدراسات الحديثة وما كشفته الآثار يدور جدل كبير بين العلماء للتعرّف على الموطن الأول للإنسان، وباستخدام الوسائل العلمية الحديثة تأكّد أنَّ أرض فلسطين ربَّما كانت هي الموطن الأول للإنسان، بل إنَّ البحث باستخدام الكمبيوتر والمعلومات الجينية، توصل علماء أمريكيون وأوروبيون إلي أنَّ الأوروبيين المعاصرين نزحوا إلى القارة الأوروبية من الشرق الأوسط منذ 10آلاف عام، وتوصلت الدراسة إلي أنَّ 50٪ من الجينات الموجودة في الأوروبيين المعاصرين تعود إلي المزارعين الأوائل الذين نزحوا من مناطق في الشرق الأوسط. وأوضحت الدراسة أنَّ الأوروبيين يحملون جينات من منطقة الشرق الأدنى بنسب متفاوتة تصل إلى 70٪ في اليونان ومنطقة البلقان، وتنخفض إلى 10٪ في جنوب فرنسا وإنجلترا.

انظر: جريدة الأهرام المصرية، العدد 42247، بتاريخ 7/ 9/ 2003م الصفحة الأولى.

ولا يُعْرَف على وجه اليقين إلى أي جنس بشري ينتسب هؤلاء السكان الأوائل، ولكنَّ المؤكّد أنَّ الكنعانيين العرب كانوا أوَّل مَنْ بنى المدن في تلك البقاع، وعمَّر تلك الربوع، وذلك في الحقبة التاريخية المعروفة باسم «عصر البرنز القديم» (2900 ـ 2200 ق.م)[1] وفي الوقت نفسه اشتغل السكان بالزراعة، وتربية الماشية، والتجارة واكتشفت في هذه الأرض أسلحة من البرونز والنحاس المجلوب من بلاد الأناضول، وعندما زار الأمير المصري الفرعوني سنوحي تلك البلاد وصف أرضها بقوله: «فيها العنب والتين، وفيها الخمرة الغزيرة كالماء، وفيها العسل المتدفق والزيتون الكثيف، وعلى أشجارها تنبت كل أنواع الثمار»[2].

ومن المعلوم أنَّ الكنعانيِّين[3] هجرة عربيَّة واسعة انتقلت إلى هذه المنطقة من قلب الجزيرة العربية، واستوطنت تلك البلاد وأصبحوا السكَّان الأصليين[4].

---

(1) عن أقدم السكان يراجع: فيليب حتي: تاريخ لبنان ص 73، وقد وردت أسماء كثيرة للمدن الكنعانية في مخطوطات تل العمارنة، يراجع بعضها في كتاب الباش: «القدس بين رؤيتين» ص 24 ـ 29.

(2) انظر: الباش: المرجع نفسه ص 25، وانظر: الإمام، رشاد: مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979م، ص 24.

(3) الكنعانيون (Chananéens نسبة إلى Canaan) جماعات عربية سامية كثيرة انتشرت في لبنان، وفلسطين، وسورية وعرفت هذه البلاد باسم «أرض كنعان» كما ذهب بعضهم إلى العراق، ومصر، ومن بطونهم: العموريون، واليبوسيون والفينيقيون، والآراميون، والفرزيون، والعمونيون، والعماليق، والفلسطينيون.. وغيرهم، وعادة ما يخلط المؤرخون بين تلك البطون؛ فيطلقون أسماء بعضها على البعض الآخر. يراجع: خليل إبراهيم حسونة: لكي لا ننسى فلسطين ط/ 1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998م ص 20 ـ 28.

وانظر Nouveau Petit LAROUSSE, p1272.

(4) انظر: طعيمة: التاريخ اليهودي العام، بيروت 1975م، ص 35.

وانظر: Noth Martin: The History of Israel, Adam and Charles Black, Charles Black, London, 1960, p 24.

وبالرغم من أنَّ المصادر التاريخية[1] تكاد تجمع على أنَّ الكنعانيين هجرة عربية، يطالعنا اليهود برواية شائهة[2] - كعادتهم عن الأنبياء - فيزعمون أنَّهم من نسل حام، وأنَّ نوحاً ﷺ ﴿شَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ، فَتَكَشَّفَ فِي دَاخِلِ خَيْمَتِهِ فَرَأَى حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، فَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ﴾[3].

---

(1) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص 98، وانظر:
Keller W.; The Bible as History Archæology Confirms The Book of Books, London, 1957, p. 120.

(2) روى اليهود في عهدهم القديم أنَّ سيدنا نوحاً ﷺ ترك ثلاثة أبناء، هم: سام، وهو أكبرهم، ثم يافَث، وكنعان أصغرهم.
وزعموا أنَّهم ينتسبون - هم وأنصارهم - إلى «سام» أكبرهم، بينما ينتسب أعداؤهم جميعاً إلى «حام» أصغرهم، الذي ستنصبّ عليه لعناتهم، وبحسب روايتهم تنحدر السلالات البشرية كالآتي:
بنو يافَث: جومَر، وماجوج، وماداي وياوان، وتوبل، وماشك، وتيراس، ومن هؤلاء تفرّق الناس في آسيا الصغرى، وجزر البحر الأبيض المتوسط، بحسب بلدانهم، ولغاتهم، وعشائرهم، وأممهم.
بنو حام: كوش، ومصرائيم، وفوط، وكنعان، ومن كوش: سبأ، وحويلة.. وغيرهما من قبائل العرب، ومنه أيضاً نُمْرُود - أوّل جبّار في الأرض - وهو الذي حاجَّ سيدنا إبراهيم ﷺ في ربه، ويسكن الحاميون مصر، والحبشة، وجزيرة العرب.
وبنو سام:عيلام، وأشور، وأرفكشاد، ولود، وأرام، ويسكنون بين المجموعتين الأوليين، وهذا التقسيم كهنوتي، وفيه عناصر يهودية انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح 10، الآيات 1 - 32، والشروح المفسرة لها في الصفحتين 82 - 83.
وواضح «أنَّ التسمية التوراتية لا تنطبق على واقع الحال بالنسبة للشعوب المعروفة اليوم بالسامية؛ فالساميُّون هم الشعوب التي يجمع بينها العامل اللغوي، وتتكلم لغة ساميّة، وأهم هؤلاء الشعوب هم: العرب في جنوبي الجزيرة العربة وشماليها والعموريون في شمالي سورية، وبابل، وواحة تدمر، وجنوبي سوريّة، وبلاد كنعان، والأشوريُون في شمالي بلاد ما بين النهرين، والآراميون في سورية، والكنعانيون في فينيقية، وبلاد كنعان (فلسطين) والعبرانيون في بلاد كنعان» انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 458.

(3) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح 9، الآيات 20 - 29.

وتستمر الرواية في حديث كاذب ملفّق، ومشاهد تمثيلية ساذجة فتبيِّن كيف ستر سام ويافث عورة أبيهما، ولمَّا انتبه نوح من سكرته، وعلم ما صنع ابنه الصغير دعا عليه، فقال: ﴿مَلْعُونٌ كَنْعَانُ عَبْداً يَكُونُ لعَبيد إخْوَته﴾، ودعا لأخويه، قال:

﴿مبَارَكٌ الرَّبُّ إلَهُ سَام وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ، لِيوَسِّعَ اللهُ لِيَافَثَ، وَلْيَسْكُنْ فِي خِيَامِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ﴾.

وهدف اليهود من هذه الرواية لا يخفى على أحد؛ فهم يَدَّعُون لأنفسهم أخلاقاً كريمة، وقيماً نبيلة،لم تكن لهم في يوم من الأيَّام، وفي الوقت نفسه هي تعبير عن الكراهية الشديدة للفلسطينيين والمصريين على حدٍّ سواء؛ فقد كان الفلسطينيون أقوى الأعداء الذين قاوموا وجود اليهود في فلسطين[1]، كما كان المصريون أعدى أعداء اليهود؛ لأنهم استعبدوهم، وأذلّوهم.

لم يدخل اليهود بيت المقدس إلاَّ في عهد داود ﷺ نحو عام 1000 قبل الميلاد، وأسس فيها ابنه سليمان ﷺ هيكلاً للعبادة في القرن العاشر قبل الميلاد، وبقي سالماً مدة 300 سنة، ودمَّره البابليون عام 587 ق.م، بعد اجتياحهم لمملكة يهوذا، وتخريبها، وأخرجوا اليهود من بيت المقدس، وسبوا نساءهم، وشَرَّدوهم في البلاد، وهو ما عرف باسم «السبي الكبير»، ولم يسمح لليهود بالرجوع إلى بيت المقدس طوال حكم البابليين[2].

لَمَّا تمكَّن الفرس من القضاء على مملكة بابل تابعت جيوشهم زحفها إلى فلسطين ومصر وسمح الملك الفارسي قورش الأكبر (Cyrus le Grand)[3] لليهود بالرجوع إلى

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ1/ ص196 وانظر حسونة: المرجع السابق ص 28.

(2) انظر: السوَّاح، فراس: آرام دمشق وإسرائيل، دمشق، 1995م، ص 247، وانظر له أيضاً: تاريخ أورشليم، دمشق، 2001م، ص 221.

(3) ويعرف في المصادر العربية باسم قورش Kourash II le Grand وهو ابن قمبيز الأول، ومؤسس دولة الفرس الأخمينية، وحكمها في الفترة (558 ـ 528 ق. م). انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 695، وانظر: كيت ماجواير: تهويد القدس، دار الآفاق بيروت، 1981م، ص 11. وانظر أيضاً: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1311.

بيت المقدس في سنة 538 ق. م، فأعادوا بناء معبدهم، في حوالي عام 515 ق. م. وكان معبداً متواضعاً، وعاش اليهود فيها تحت سيطرة الحكومات المتعاقبة من فارسية، ويونانية ورومانية.

دُمِّر المعبد اليهودي للمرة الثانية على يد الإمبراطور أنطيوخس الرابع (Antiochos IV Epiphane) في عام 170 ق.م.، وحَرَّم العبادة الإلهية وأعاد الوثنية، وجعل المعبد لزيوس الأولمبي[1].

أعاد هيرودس (Herode 1er le Grand)[2] بناءه للمرة الثالثة ووسَّعه، ودُمِّر من قبل الرومان عام 70 ق. م. بعد تمرُّد اليهود، وحاصرهم تيتوس (Titus) خمسة أشهر، ثم هدم المدينة وأحرق المعبد، ومنع من تبقّى من اليهود من الاقتراب من أورشليم.

قامت ثورة جديدة، استرجع فيها اليهود أورشليم عام 132م، ولكن الإمبراطور الروماني أدريان، قضى عليها، ودمَّر المدينة بالكامل، وأزال المعبد من الوجود، في سنة 135م وحرّم على اليهود دخول القدس أو الإقامة فيها، أو الاقتراب منها، وانتهت دولتهم[3].

سكان القدس في العصور الوسطى:

سبق القول بأنَّ سكان شرق البحر الأبيض المتوسط يتكوّنون من خليط بشري، من عناصر الهجرات العربية، من شبه جزيرة العرب أمثال الكنعانيين، والأموريين، وهجرات عربية أخرى، وبعض قبائل الخبيرو، وانضم إليهم كذلك

(1) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق «الجداول التاريخية» ص 817 ـ 826، وقارنها بالجدول التاريخي، في مقدمة الكتاب المقدس ص 23، وانظر: هنري كتن: المرجع السابق ص 10.

(2) ملك اليهود في المدة من ـ ق. م.، أتمَّ بناء الهيكل في عام ق. م.، وهو الذي أمر بقتل الأطفال الذكور في بيت لحم بعد ميلاد المسيح. انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 892.

(3) انظر: كيت ماجوير: المرجع السابق ص 12.
وانظر: Davis J. D.; Jerusalem, Dictionary of the Bible, London,1958, pp. 368-378.

عناصر: حيثية، وحوريَّة، وميتَّانية وكانت هذه الشعوب المختلفة تلتقى، وتمتزج، لتكون عنصراً تتجدّد ثقافته بحيوية واستمرار.

ويجب ألاَّ ننسى أنّه لا يوجد عنصر واحد من هذه العناصر يمكن أنْ يوصف بأنَّه عنصر نقيّ، فمثلاً: كثر الجدل بين المؤرخين حول قبائل الخبيرو (Habiri, Habiru) من يكونون؟، ومن أين جاؤوا؟ وما العلاقة بينهم وبين اليهود؟

الراجح أنَّ هذه الكلمة تعنى أخلاطاً من الطبقة الدنيا، وخُشَارَة الناس، فالكلمة سامية الأصل، ومعناها في العبرية والسريانية «الصديق» أو «الجماعة المتآلفة»، وجاء في رسائل تلِّ العمارنة إطلاقها على واحد من الشعوب السامية في شرق البحر الأبيض المتوسط، وانقسم العلماء فريقين في تفسير هذا اللفظ[1].

منهم من ذهب يؤكّد أنَّ هذا اللفظ يطلق على «اليهود» والمعروف أنّ اليهود يطلق عليهم العبرانيُّون (Hébreux) وتقارب اللفظين في النطق ليس من سبيل المصادفة المحضة، وبخاصَّة إذا عرفنا أنَّ الروايات التاريخية تكاد تجمع على أنَّ اليهود جنس مختلط تتمثّل فيه كل خصائص الأجناس المعروفة فـ«إنَّ نقاوة السلالة اليهودية ما هي إلاَّ أوهام؛ فإنَّ أكثر التغييرات، والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود، إذ تتفاوت الاختلافات فيما يختص بشكل الرأس بين الرأس العريض، والرأس الطويل جدّاً، وفي ألمانيا وروسيا على وجه الخصوص، يوجد من اليهود من لا تظهر عليهم إطلاقاً أية صفات، ومميزات جسدية آسيوية»[2].

ومما يرجِّح هذا الظنَّ هو تطابق تاريخهم الأول مع ما عرف عن هذه الجماعة من سفلة الناس، إذْ من المعروف أنَّ بيت المقدس كان من بين الأقاليم التابعة لمصر في

---

(1) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص 161.

(2) انظر: جون كوماس: المرجع السابق ص 54، وعن اختلاط أنسابهم راجع فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان جـ 1/ ص 165، و 173، و191.

أكثر فترات التاريخ الموثق، فقد كانت تحت حكم الفراعنة منذ عام 2300 ق.م. إلى أنْ استولى عليها داود عليه السلام[1].

وبعد الفتح العربي للشام في عام 17هـ/ 638 م خضعت سورية ومصر لحكم موحد أيام الخلفاء الراشدين (11 ـ 41 هـ/ 632 ـ 661 م)، والدولة العربية الأموية (41 ـ 132 هـ/ 661 ـ 749م) وفي بدْء الدولة العباسية، وعصرها الأول (132 ـ 334 هـ/ 749 ـ 944 م)، ولمَّا ضعفت الدولة العباسية، وانقسمت إلى ممالك صغيرة رجعت مدينة القدس مرّة أخرى إلى حكم مصر، فكانت تحت سيادتها في عهود: الطولونيين (254 ـ 292 هـ/ 868 ـ 905 م)، والإخشيديين (323 ـ 358هـ/ 935 ـ 968 م)، والفاطميين (358 ـ 567 هـ/ 968ـ 1171 م) والأيوبيين (564 ـ 650 هـ/ 1169 ـ 1252 م) والمماليك (650 ـ 922 هـ/ 1252 ـ 1517 م)، إلى أنْ جاء الغزو العثماني في سنة 923 هـ/ 1517م، فخَضَعَت البلدان العربية والإسلامية مرّة أخرى إلى حكم دولة واحدة إلى أنْ وقعت تحت الانتداب البريطاني في سنة 1336هـ/ 1917م[2].

تحدِّثنا رسائل تل العمارنة عن الخبيرو (Khabiru) هذه الجماعة المشرّدة التي تعاونت مع المتمردين ضد فراعنة مصر في سنة 1367 ق.م. فوجّه «عبد خِبا» تابع فرعون في أورشليم إلى إخناتون ست رسائل يعبّر فيها عن ولائه للفرعون، ويطلب المساعدة ضد الخبيرو الذين استولوا على شكيم «نابلس» ويهددونه في مملكته[3].

---

(1) انظر: صلاح عبد الرحيم محمد: القدس في عهدها الأول، مقال في مجلة منبر الإسلام، العدد 7، السنة 59، أكتوبر 2000م ص 64، وانظر: أحمد شلبي: القدس مدينة عربية الجذور، مقال في مجلة منبر الإسلام، العدد 7، السنة 58، نوفمبر 1999م، ص 72.

(2) انظر: استانلي بول: المرجع السابق ص 18، و 19، و 67 ويراجع الفهرس، وانظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة جـ 1/ ص 3 ـ 15، ويراجع الفهرس، وانظر: صلاح عبد الرحيم: المقال السابق ص 71.

(3) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/ ص 173، وانظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص103، وانظر: الخازن، الشيخ نسيب وهيبة: من الساميين إلى العرب، دار الطليعة، بيروت، 1962م، ص 14.

تجمع مصادر تاريخ الخبيرو على أربعة أمور، هي:

1 ـ تكوّنهم من أخلاط مختلفة، وأنّهم يمثّلون الطبقة الدنيا.

2 ـ منشؤهم بلاد الرافدين.

3 ـ كانوا يعيشون على خدمة الآخرين، والعمل كجنود مرتزقة أو في الزراعة، والصناعة، وغيرهما.

4 ـ لا وطن لهم، ولا خلاق لهم؛ فهم يرتحلون من مكان إلى آخر، وتدل وثائق نوزي (Nouzi)[1]، من القرن الخامس عشر ق.م. بأنّهم يرضون العبودية لأنفسهم باختيارهم[2].

وتتفق هذه الأمور الأربعة تماماً مع ما نعرفه من تاريخ اليهود فقد كان منشؤهم في بلاد الرافدين، ورحل بهم تَارَح ـ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام[3] ـ من أور (Ur)[4] إلى حاران، وسار بهم إبراهيم إلى بلاد كنعان «سورية»، ومصر، ثم رجع بهم إلى فلسطين، وفي كل بلد نزلوا به كانوا يقتلون الأنبياء، ويفسدون في الأرض، ويعيشون على تأجير أنفسهم لمن يدفع الثمن؛ ولهذه الأسباب ترجّح كون الخبيرو هم اليهود.

وذهب جماعة من العلماء إلى أنَّ الخبيرو ليسوا هم اليهود اعتماداً على علم اللغة؛ وحجتّهم أنَّ كلمة الخبيرو تظهر «في المدونات المصرية من حوالي 1300 ـ 1150 ق.م. بشكل عبيرو (Epiru) (بحرف P) مما يثير الشك في صحة المعادلة بين الخبيرو، والعبرانيين»[5].

---

(1) نوزي: مدينة قديمة، في أعالي دجلة، في جنوبي غربي كَرَكوك، في شمالي العراق، كان اسمها القديم «جاسور»، ازدهرت تحت الحكم الحوري في القرن الخامس عشر ق.م.
انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 765.

(2) انظر: حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/ ص 172.

(3) ذكر القرآن الكريم أنَّ أبا سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام اسمه آزر لا تارح. انظر: سورة الأنعام 6: 74.

(4) أور: مدينة في بلاد ما بين النهرين، تقع بالقرب من المصب القديم لنهر الفرات.
انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 147.

(5) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/ ص 173.

وهذه الحجَّة من التهافت بحيث لا تستحق الرد عليها؛ فهناك إجماع بين علماء اللغات على أنَّنا لا نعرف يقيناً كيف كان ينطق القدماء بلغاتهم تلك المندثرة، بل إنَّ حرف (الباء المهموسة "P" بوجه خاص تعرّض لكثير من التغييرات الصوتية التاريخية، فتحوّل من السامية الأم في الشمال (العبرية، والآرامية، والأكادية) إلى الفاء في اللغات السامية الجنوبية (العربية، والحبشية)[1] ومعروف أنَّ اللغة المصرية القديمة تتشابه إلى حد كبير مع اللغات السامية[2]؛ مما جعل بعض الباحثين في اللغات يعدّ اللغات السامية والحامية مجموعة واحدة، يطلقون عليها: «الحامية ـ السامية»[3]، وفي الوقت نفسه «تدلُّنا الملاحظة على أنَّه من المحتمل جدّاً أنْ يوجد نطقان مختلفان، أحدهما جديد والآخر تقليدي محافظ ـ أو أكثر ـ يتعايشان سويّاً لسنوات كثيرة، قد تصل أحياناً إلى عدّة قرون»[4]، فهل يمكن أنْ ننكر الأدلة التاريخية اليقينية التي تجعل اليهود هم الخبيرو جرياً وراء افتراضات لغوية، لا أساس لها؟.

ومن المؤكّد أنَّ تاريخ اليهود، ومقدّساتهم يجدان دائماً من المؤرخين المسيحيين من يتولَّى «تعديلها» وفق رؤية خاصة، إلى الحدَّ الذي يدّعي فيه أحد المسيحيين «أنَّ هنالك إجماعاً على استبعاد كون العبرانيين هم قبائل الخبيرو»[5].

ولا أعرف من أين أتى بهذا الإجماع المزعوم؟ في الوقت الذي أشار فيه ـ هو نفسه ـ إلى أنَّ من العلماء من يذهب إلى أنَّ العبرانيين هم الخبيرو[6].

ولا نكاد نجد اتفاقاً بين العلماء على كيفية النطق باسمهم؛ ولا يعرفون أصل الاسم من أين جاء، ولا معناه ماذا يكون، وتضافرت عوامل يهودية كثيرة لتشويه الحقائق، وبثّ البلبلة، والخلط بين المفاهيم والتواريخ؛ ليثبتوا لأنفسهم أصلاً وتاريخاً

---

(1) انظر: رمضان عبد التواب: المرجع السابق ص 24.

(2) انظر: جرجي زيدان: الفلسفة اللغوية، دار الهلال، القاهرة، 1969م، ص 20ح1.

(3) انظر: جورجي زيدان: المرجع السابق 21 ح 1.

(4) انظر: ماريو باي: لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، القاهرة، 1970م، ص 42.

(5) انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 583.

(6) انظر: هنري عبودي: نفسه ص 380.

لا حقيقة لهما، فمن المعروف أنَّ الآراميين جملة عشائر وقبائل كان من بينهم فرع عرف باسم «أخلامو» ـ ومعناها: الأحلاف ـ وكانت تطلق على جماعات البدو الرحل في شمالي الجزيرة العربية، ثم أصبح يطلق على جميع الآراميين، ومن تلك الجماعات أيضاً الخبيرو، أو الهبيرو، أو العبيرو، وهي من القبائل الرحل في شمالي الجزيرة العربية، ثم حُرِّفت الكلمة إلى عبري وعبراني، وصارت تطلق على أتباع موسى عليه السلام بعد ظهورهم باعتبارهم من القبائل الرحل؛ لأنّهم لم يكونوا قد وجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعنى البدو الرحل، أو المهاجرين، أو العابرين؛ فإطلاق الاسم على أتباع موسى عليه السلام إطلاق لغوي لا عرقي، كما كان يطلق على الرحل لفظ «السوتيو، أو السوتو»[1] ويرى بعض العلماء أنَّ الخابيرو هم أنفسهم الساغاز (Sa - Gaz) وكانوا من المرتزقة في الجيش الحيثّي، ورد اسمهم في رسائل تل العمارنة، فقد كانوا يتعاونون مع عبد عشرتا، عامل مصر على بيت المقدس، وقد جاء الاسم في إحدى رسائله إلى فرعون مصر إخناتون[2].

ومن خلال المكتشفات الأثرية الحديثة توصَّل باحث حديث إلى حقائق، أراها بالغة الخطورة؛ فهي في مجملها تناقض الأساطير اليهودية كما يرويها عهدهم القديم، وفي الوقت نفسه تصحِّح كثيراً من المعلومات التي درج المؤرخون على الأخذ بها دون تمحيص أو توثيق، ولعلَّ أهم ما توصَّل إليه هو التفرقة بين أربعة مصطلحات مختلفة، كان المؤرخون ـ إلى عهد قريب، بل وإلى الآن ـ يرونها تعبّر عن حقيقة واحدة، وهي: قوم إبراهيم، وبنو إسرائيل، وقوم موسى، واليهود، وأثبت بالأدلّة القاطعة العقلية والنقلية أنَّ إبراهيم الخليل ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولا يمت له اليهود بنسب، لا من قريب، ولا من بعيد، وأنَّ بني إسرائيل ذابوا تماماً في البيئتين الكنعانية والمصرية، وليسوا هم قوم موسى، وأنَّ «اليهود ظهروا إلى عالم الوجود في وقت متأخر، ويمثِّلون ديانة اعتنقتها أقوام

---

(1) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص 161 ـ 162.

(2) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/ ص 80.

كثيرة، من قوميات مختلفة، من جملتهم العرب الذين حافظوا على قوميتهم ولغتهم وعاداتهم»[1].

بالرغم من قيام المملكة اليهودية الموحدة في عام 1000 ق.م.، في أورشليم فإنَّها لم تستطع إخراج العرب منها، بل عاش اليهود والعرب في المدينة باعتراف كتابهم المقدس نفسه ﴿وَأَمَّا الْيَبُوسِيُّونَ - سُكَّانُ أُورُشَلِيمَ - فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو يَهُوذَا عَلَى طَرْدِهِمْ، فَأَقَامَ الْيَبُوسِيُّونَ مَعَ بَنِي يَهُوذَا فِي أُورُشَلِيمَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ﴾[2]، حكم سليمان عليه السلام المملكة الموحدة نحو سنة 972 ق.م. ولقي ربّه في عام 933 ق.م. فانقسمت المملكة من بعده إلى دولتين متحاربتين:

المملكة الأولى مملكة إسرائيل (Dynastie d'Israël) في الشمال وعاصمتها السامرة، وتولَّى مُلْكَها يَرُبْعام الأول (Yéroboam Ier) في سنة 930 ق.م. ثمَّ تولَّى من بعده ثمانية عشر ملكاً، كان آخرهم يوشع (Osée) الذي رفض دفع الجزية لآشور؛ فقتله الملك شلمنصر الخامس (Salmanasar V) في سنة 722 ق.م.، ودمّر السامرة، وقضى على دولة إسرائيل.

والمملكة الثانية «مملكة يهوذا (Dynastie de Juda)» في الجنوب وعاصمتها أورشليم وتولّى ملكها رحبعام (Roboam) في سنة 930 ق.م. وحكم من بعده ثمانية عشر ملكاً كان آخرهم صدقيا (Sédécias) آخر ملوك هذه المملكة، وقد وقع صدقيا في أسر الملك نبوخذ نصر الثاني (Nabuchodonosor II) في سنة 587 ق.م.؛ فَسُمِلَتْ عيناه، ومات في الحبس، وقُضِي على مملكة يهوذا، ودُمِّرت أورشليم، وهُجِّر السكان، وكان هذا التهجير هو بدْء التشتت اليهودي.

ويجب أنْ نلاحظ أنَّ دولتي إسرائيل ويهوذا لم تكونا مستقلّتين استقلالاً حقيقاً، فالأولى كانت تدفع الجزية لآشور، وتخضع لها، وكان ملك آشور هو الذي يعيّن ملكها، ويحميه، وعندما رفض هوشع دفع الجزية، دفع الثمن غالياً: حياته،

---

(1) انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص 691.

(2) الكتاب المقدس، سفر يوشع، الإصحاح 15، الآية 63.

وبقاء دولته، والثانية كانت تدفع الجزية لمصر، وتخضع لها، وكان القضاء عليها نتيجة للصراع الحضاري بين آشور ومصر[1].

منذ دمَّر الإمبراطور الروماني أدريان أورشليم، وهدم الهيكل، وشرّد اليهود، وحرَّم عليهم الاقتراب منها، في سنة 135م، خَلُصَت المدينة المقدّسة لأهلها من العرب الكنعانيين، ومن انضم إليهم من الفلسطينيين، والرومان.

الفلسطينيون:

اختلف المؤرخون في تحديد الجنس الفلسطيني، ولا يزال أصله مجهولاً، فذهب البعض إلى أنَّهم من بين القبائل التي أتت عبر البر والبحر من آسيا الصغرى، ومنطقة بحر إيجة، في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. فدمَّرت دولة أوجاريت، واحتلُّوا ساحل سورية الجنوبي، واتجهوا جنوباً نحو الساحل المصري، ولكنَّ فرعون مصر رعمسيس الثالث هزمهم في معركة برية وبحرية، في سنة 1191ق.م. وسمح لهم بالإقامة في ساحل سورية الجنوبي الذي صار يسمَّى فلسطيا (Philistia) وأسسوا فيه مدنهم الخمس، وهي: غزة (Gaza)[2]، وعسقلان (Ascalon , ou Migdal Ashquelon)[3]، وأشدود (Ashdoud)[4]، وعقرون (Ekron)[5]، وجت (Gat, ou Gath)[6].

---

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/ ص 211، و215.

(2) غزة: مدينة في أقصى الشام، من ناحية مصر. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 202، وانظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 634.

(3) عسقلان: مدينة بين غزة، وبيت جبرين، على بعد 19 كم شمالي غزة، انظر: هنري عبودي: المرجع نفسه ص 608، و ص 234.

(4) أشدود: وهي المدينة التي كان يسميها الآشوريون «أشدودو»، وتعرف اليوم باسم أسدود. انظر: هنري عبود: المرجع نفسه ص 85.

(5) عقرون: هي اليوم العقير على بعد ستة أميال غربي جزر. انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية جـ 1/ ص 217، و انظر: هنري عبودي: المرجع نفسه ص 613.

(6) جت: معنى اسمها «المعصرة» ذات موقع حصين، يرجح أنْ تكون «تل عراك المنشية» القريبة من بيت جبرين. انظر: هنري عبودي: المرجع نفسه 309.

ومما يدلّ على أصلهم الأوربي الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي أقامه رعمسيس الثالث، ونماذج الخزف الذي أدخلوه[1].

ويرى بعض الباحثين أنّ الفلسطينيين عرب من الكنعانيين، كانوا قد هاجروا إلى كريت، ومنها عادوا إلى وطنهم؛ فهي «هجرة مرتدّة» وجاء اسمهم في الكتاب المقدس «الكَفْتُوريُّون» نسبة إلى كفتور، وهي جزيرة كريت، أو آسيا الصغرى[2].

ونظراً لأنَّ الفلسطينيين شعب محارب، شديد المراس، فقد كانوا ألدَّ أعداء اليهود، وأكثرهم عليهم قسوة، ولم يمكّنوا من قهرهم إلاّ في عهد داود عليه السلام.

وعندما أصبحت المسيحيّة الدين الرسمي للدولة الرومانية اعتنق هذا الدين سكان بيت المقدس من العرب، وظلّوا مقيمين في مدينتهم، إلى أنْ كان الفتح العربي في عام 15 هـ/ 636 م وقد أصر المسيحيون على تسليم المدينة للخليفة عمر رضي الله عنه، وكان هدفهم من ذلك أنْ يأخذوا عليه العهد ببقاء مدينتهم خالية من المفسدين، ولهذا نصَّ عمر رضي الله عنه عهده لهم «ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهود»[3]، ولا يزال هذا العهد محفوظاً في كنيسة القيامة، إلى اليوم، ويعتبر أقدم ميثاق دولي رفيع يدعو إلى احترام الشعائر الدينية وصيانة الأماكن المقدسة[4].

منذ أنْ أصبحت القدس تحت راية الإسلام، بدأ العرب في النُّزوح إليها، والإقامة في فلسطين، وكانت أول القبائل هجرة هي القبائل اليمانية القحطانية،

---

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1/196، و انظر: العامري: المرجع السابق ص112.

(2) انظر: الكتاب المقدس،سفر تثنية الاشتراع، الإصحاح 2، الآية 22، وانظر: مكسي ميخائيل: القدس عبر التاريخ ص 19، وانظر: العامري: لكي لا ننسى فلسطين ص 26.

(3) انظر: الطبري: المصدر السابق جـ 3/ ص 609، وانظر: الحنبلي: المصدر السابق جـ1/ ص253، وانظر: عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، 1961م، ص 91.

(4) انظر: أحمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1958م ص 4، وانظر: صالح أبو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1968م ص 23.

مثل: لخم، وجذام، وهما من بطون بني عدي، وقبائل: عاملة، وكندة، وقيس، وكنانة، وطيئ، وقضاعة[1].

ومعروف أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان يمنع القرشيين من مغادرة الحجاز، خوف الفتنة؛ وما تكاد الأمور تستقر للدولة الأموية، حتى سمحت للقبائل الحجازية بالهجرة، وفي سنة واحدة هاجر 75 قبيلة من نجد والحجاز، فسكنوا مصر وسيناء وجنوب فلسطين[2]، ولا تزال كثير من القبائل العربية في فلسطين، إلى اليوم تحفظ أصولها وأنسابها العرب اليمانيين القحطانيين أو العرب الشماليين العدنانيين[3].

الظاهرة الاستيطانية في مملكة القدس:

ظلَّ العرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ يقيمون في فلسطين إلى أنْ سقطت في أيدي الصليبيين في سنة 491 هـ/ 1097م، فتعرَّض المسلمون للإبادة في أبشع مذبحة، بل إنَّ شاهد العيان المسيحي الذي رأى بعينيه تلك الفظائع فوشيه شارتري «Foucher de Chartres» كان يقصُّها ـ وهو رجل الدين التقي الورع ـ بكل رضا، وسعادة، ويرى في ذلك تقرُّباً لربّه وإلهه الذي لا يمكن أنْ يكون هو إله المسيح الرحمن الرحيم، ولا يتورّع عن الكذب، ووصف العرب بأنّهم «الأعداء الأشرار»، فالعرب أعداء أشرار وهم في ديارهم، لم يعتدوا عليهم في أوطانهم، ويأنف أنْ يسميهم المسلمين، فهم: «شرقيّون، أو كفّار، أو وثنيّون، أو أتراك، أو أحباش» يقول فوشيه: لم يدرك الكونت ريموند «Raymond IV de Saint - Gilles» ورجاله ـ الذين كانوا يضيِّقون الحصار والهجوم من ناحية أخرى، من المدينة ـ ما جرى؛ إلى أنْ رأوا الشرقيين يقفزون من أسوار المدينة، وعندما رأوا ذلك هبُّوا، وهم

(1) انظر: اليعقوبي: المصدر السابق ص 329، وانظر: الدباغ: بلادنا فلسطين جـ 1 / ق 2/ ص 385، وانظر: عارف العارف: تاريخ بئر السبع وقبائلها، مطبعة المعارف، القدس، 1934م، ص 232.

(2) انظر: نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، القاهرة، سنة 1916م، ص 108.

(3) انظر: خلة: المرجع السابق ص 18.

في قمّة الابتهاج داخلين المدينة بأسرع ما في قدرتهم وانضمُّوا إلى رفاقهم: يلاحقون، ويذبحون أعداءهم الأشرار بلا توقف[1].

وجميع السكان الذين احتموا ببرج داود، وهيكل سليمان وفي ساحة المسجد تعاورهم الصليبيون قتلاً بالسيوف، وأمَّا الشرقيون الذين صعدوا إلى قبّة هيكل سليمان، فقد أطلقت عليهم السهام، وخرُّوا صرعى، يتساقطون على رؤوسهم، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص، في هذا الهيكل ولو كنت هناك لتلطَّخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى.

ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة، ولا طفلاً[2].

ويستمرَّ فوشيه «Foucher de Chartres» في وصف أعمالهم الإجرامية، ويتحدّث عن جنودهم الذين أخذوا يبقرون بطون من ذبحوا ليستخرجوا من أمعائهم الدنانير الذهبية... جمع رجالنا كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها رماداً؛ لكي يسهل عليهم الحصول على الذهب[3]، والغريب أنْ القس المجاهد داعية الحب فوشيه يروى شعراً معبِّراً به عن بسالة جنوده للشاعر الوثني أوفيد (Ovide)[4] يقول فيه[5]:

وَبِسُيوفٍ مُشْرَعَةٍ رَكَضَ رِجَالُنَا فِي الْمَدِينَـةِ
لاَ يَسْتَبْقُونَ أَحَداً، حَتَّى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْتَعْطِفُونَ الرَّحْمَـةَ
وتَسَاقَطَ الجُمْعُ كَمَا يَتَسَاقَطُ التُّفَّاحُ المُتعفِّـنُ
مِنَ الأَغْصَانِ المَهْزُوزَةِ، أَوْ جُوزُ الْبَلُّوطِ مِنَ الشَّجَرِ المُتَمايِـلِ

بعد هذه المجزرة استقرَّ الصليبيون في بيت المقدس، يجدون الترحيب بهم من المسيحيين المحلِّيين، الذين قدَّموا لهم المساعدة، مما جعل المسلمين ينقمون منهم،

---

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 75

(2) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 75، وانظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص318.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 75.

(4) شاعر لاتيني (34 ق.م-16م) مؤلف المسوخ Métamorphoses، وفي فن الحب De l'Art d' aimer.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1586.

(5) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 75.

ويخرجونهم من البلاد التي يسيطرون عليهـا، وبالمقابـل كـان الـصليبيون يخرجـون المسلمين من البلاد التي يستولـون عليها، وترتّب على إخلاء القدس مـن المـسلمين أنْ نقص السكان بمقدار شـلّ الحيـاة الاجتماعيـة، فأصـبحت في حاجـة ملحّـة إلى الكثير من الأفراد الذين يؤمـــن جـانبهم للنهـوض بـالأعمال الـضرورية للعمـران البشرى من زراعة وتجارة، وصناعة، وغيرها[1].

وجد الصليبيون بغيتهم في المسيحيـين المحليين، وبخاصة المـشردين مـنهم في شرقي الأردن، وحوران، ففتح الملك بلدوين أبواب مملكته أمام الطوائـف المتعـدّدة إلى الانتقال إلى بيت المقدس، وأخذ يتصل بهم سرًّا، يحـثُّهم عـلى الهجـرة، ويغـريهم بالنُّزوح إليه؛ فامتلأ بيـت المقـدس بـالطوائف المـسيحية المختلفـة مـن أرثـوذكس، وأرمن، وسريان، ونساطرة..[2].

وبقدر التعصّب الأعمى الذي رأيناه في معاملة الصليبيين للمـسلمين، بـل الحقـد لدى بعضهم إلى حدٍّ أكل لحمهم؛ فإنَّ المجتمع المـسيحي في بيـت المقـدس كـان مجتمعـاً متماسكاً مترابطاً بالرغم من تعدد مذاهـب المـسيحيين، واخـتلاف عقائـدهم، واسـتطاع الملك بدوين (Baudouin) أنْ يؤلّف بينهم ويوجّههم للعمل متعاونين للنهوض بالدولـة الناشئة، وأنْ يربط بين الشرقيين والغـربيين بـأواصر النـسب ويـشجعهم عـلى التـزاوج بعضهم من بعض، وبدأ بنفسه، فتزوج بامرأة شرقيـة، وبمرور الوقـت ظهـر جيـل مـن المسيحيين المولودين في بلاد الشام كان عليهم أنْ يحملوا عـبْء تنميـة الدولـة، والـدفاع عنها، فيما بعد، عندما بدأ عدد الوافدين الصليبيين يقل توافدهم من أوربا[3].

أصيب رجال الدين بخيبة أمل في اختيار أرنولف (Arnulf) بطريركـاً لبيـت المقدس، بسبب سوء خلقـه الذي نظمت فيه الأشعار، وتغنَّى به الجنـود، وقـام بإبعـاد

(1) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص 322.
وانظر: Grousset, R.; L'Empire du Levant, Paris,1946, p 311.
(2) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ1/ ص 322.
وانظر: Richard, J; Le Royaume Latin de Jérusalem, Paris, 1953, p 124.
(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/322.

القسس الذين يؤدون الشعائر الشرقية، إذ كانت الكنيسة تحتوي على مذابح تنتمي إلى كل نحل العالم المسيحي، ليس المذهب الأرثوذكسي في اليونان، وجرجان فحسب، بل أيضاً مذاهب الأرمن، واليعاقبة، والقبط.

واستخدم أرنولف «Arnulf» وسائل التعذيب؛ ليكشفوا له عن مكان صليب الصلبوت وبالرغم من كل ذلك لم يحدث انشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، فالكنائس التي نعمت بالتسامح في ظل الحكم الإسلامي أدركت أنَّ الفتح اللاتيني يعني بدْء زوالها[1].

التنظيم المدني الاستيطاني في مملكة القدس:

الاستيطان والملكية العقارية والزراعية:

استولى الصليبيون بالقوَّة على مساكن العرب، ومزارعهم ويبيّن فوشيه كيف تملّكوا المدينة، قال إنَّهم: «دخلوا بيوت المواطنين يتملَّكون ما وجدوا فيها، وقد رتَّبوا ذلك بحيث إنَّ أوَّل مَنْ يدخل بيتاً ـ سواء أكان بيت غنيٍّ أم بيت فقير ـ فلن يعارضه بذلك أي إفرنجي، وله أنْ يسكن، ويمتلك ذلك البيت أو القصر، وكلّ ما فيه، كما لو كان بيته حقّاً، وهكذا تبادلوا القرار بحقّ الاستملاك، وبهذه الطريقة أصبح الكثير من الفقراء أغنياء[2]، وبهذه الطريقة استولوا على البيوت والمتاجر».

لم يكن في استطاعة الصليبيين إلقاء السلاح، والعمل في فلاحة الأرض، وزراعتها، وبخاصّة بعد أنْ رحل أكثر الأمراء المشاركين في الحرب، بعد إتمام الفتح، وقلَّ عدد الجنود؛ لذلك وضع الصليبيُّون حاميات في المدن الرئيسة، وأمَّا الأراضي والقرى والمزارع التي كانت تحيط بتلك المدن فقد ظلَّت في أيدي أصحابها العرب، يزرعونها، ويدفعون ثمارها للصليبيين[3].

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 436.

(2) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 76.

(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 253، وانظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 101.

الإقطاع الزراعي:

نقل الصليبيُّون إلى الشرق نظمهم الأوربيّة التي عرفوها في بلادهم وإنْ كانوا قد أدخلوا عليها شيئاً من التغيير، بحكم اختلاف البيئة وتباين الظروف، فمن ذلك:

* كان التنظيم الإداري في بيت المقدس يقوم على ما عرف بالنظام الإقطاعي الهرمي، ففي قمة الهرم يكون الملك، وتتكون أملاكه الخاصة ـ الدومين ـ من أربع مدن رئيسة هي: بيت المقدس، وعكا، ونابلس، والداروم[1]، وكان يلي الملك أربعة أمراء ـ أشبه بالدوقات في الغرب ـ وهم أمراء يافا، والجليل، وصيدا، وشرق الأردن، ولكل أمير منهم إدارته المستقلة، وعليه أنْ يفي بالتزاماته المالية والحربية للملك يأتي من بعد هؤلاء الأمراء الأربعة الأمراء الصغار، وهم أشبه بالأفصال في النظام الغربي، وعددهم نحو اثني عشر أميراً، يحكمون المدن الصغرى، وكان أهمها قيسرية، وتبنين[2].

وبحسب ما هو معروف في النظام الإقطاعي يلتزم كل أمير من الأمراء الكبار أو الصغار بالتبعية لسيِّده الإقطاعي، ويقدّم له الخدمة العسكريّة والفرسان المسلحين، والضريبة المالية بحسب ما يقتضيه النظام.

على أنَّ ظروف الحرب في الإمارة الصليبية الناشئة جعلت الخدمة العسكرية غير مشروطة بوقت معيّن ـ كما كان الحال في النظام الأوربي ـ وإنَّما أصبح الشرط هنا هو في عدد الفرسان، فمنهم من كان ملزماً بتقديم مائة فارس، كاملي العدة والعتاد، كأمراء يافا، وصيدا، والجليل.... ومنهم من كان ملزماً بتقديم ستين فارساً فقط، كأمير شرق الأردن[3].

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض؛ كأنْ يكون مدينة، وأعمالها، أو حصناً وما يحيط به، أو عدّة قرى متجاورة، يسهل الانتقال بينها، والإشراف عليها.

---

(1) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 466، وانظر: Richard, J; op. Cit, p 71.

(2) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ 1/ ص 466، وانظر: Cam. Med. Hist. V.5.

(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 466.

الإقطاع الديني في مملكة بيت المقدس:

نقل الصليبيّون هذا التنظيم الإقطاعي إلى مملكتهم في بيت المقدس ومرّت إدارة المملكة بالظروف نفسها التي مرّت بها البابوية في صراعها مع السلطة العلمانية في روما[1]، فبعد أنْ فتح الصليبيون بيت المقدس كان متوقَّعاً أنْ تقوم فيه حكومة ثيوقراطية في أفرادها وأهدافها، ولمّا كان أدمار (Adémar de Monteil)[2] مندوب البابا قد هلك قبل فتح القدس وليس من بين رجال الدين من يصلح لهذه الحكومة، وعند وصول دايمبرت (Daimbert) المندوب الجديد بدأ الصراع بين طموح المندوب البابوي الذي كان يحرص على إقامة حكومة ثيوقراطية وجودفروا (Godefroy) الذي رفض أنْ ينصّب ملكاً في القدس، مكتفياً بلقب «حامي القبر المقدس» (Advocatus Sancti Sepulchri)[3] وأنْ يُدْعَى أميراً[4] وعيّن دايمبرت بطريركاً على بيت المقدس، في أواخر ديسمبر سنة 1099م وركع له كل من: جودفروا (Godefroy)، وبوهيموند (Bohémond) كما يركع الأفصال الإقطاعيون أمام سيّدهم فقلّد الأول إمارة القدس، والثاني إمارة أنطاكية، وأصبح هو السيّد الأعلى في البلاد، وممثل المسيح[5].

تجدّد الصراع مرّة أخرى بتعيين بدوين الأول ملكاً على بيت المقدس، ومنذ اللحظة الأولى شرع يحارب إقامة حكومة ثيوقراطية، وانتهى الصراع بعزل دايمبرت سنة 1102م[6].

---

(1) عن صراع البابوات مع السلطة الزمنية في روما يراجع:
Ullmann W.; op. Cit. p.p. 36 - 40 & Cam. Med. Hist. V6 p.p. 5-34.

(2) أسقف دو بوي du Puy هلك على أسوار أنطاكية في سنة 1098م.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p.1151.

(3) انظر: فوشيه دو شارتر: المصدر السابق ص 77، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص244، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 434.

(4) انظر: المصادر السابقة، وانظر أيضاً: بطرس توديبود: المصدر السابق ص 319.

(5) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ 1/ ص 265.

(6) انظر: سعيد عاشور: نفسه جـ 1/ ص 324.

والسياسة التي اتّبعها الملك بدوين الأول (Baudouin 1er) هي أنْ يجعل بطريركية بيت المقدس ترأس جميع الأسقفيات في المملكة، وعمل على توسيع اختصاصاتها الدينية، وقد ظهرت هذه السياسة يوم أنْ استولى بلدوين على بيروت في سنة 1110م، وطالبت بطريركية بيت المقدس أنْ تتبعها كنيسة بيروت، ومن المعروف أنَّ التنظيم الكنسي في الدولة البيزنطية كان يقتضي أنْ يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور، وهذا الأخير بدوره يتبع بطريركية أنطاكية، ولمّا كانت صور ما تزال في أيدي المسلمين، واشتد الخلاف بين بطريركية أنطاكية وبيت المقدس؛ عرض الملك بدوين الأمر على البابا الذي أفتى بأنْ تكون جميع الكنائس في جميع البلاد التي يفتحها الملك بدوين (Baudouin 1er) تابعة لبطريركية[1] بيت المقدس، وباستثناء أسقفيات إمارة طرابلس التابعة لأنطاكية فقد أصبحت جميع الكنائس في بيروت، وصور، وصيدا، وعكا، وبانياس تابعة لبطريركية بيت المقدس.

* <u>التنظيم الكنسي</u>: يبدو أنَّ البابا في روما لم يكن ليحبِّذ قيام حكومة دينية في بيت المقدس؛ لأنَّ كنيسة روما اكتسبت أهميّتها من كون البابا خليفة القديس بطرس في كنيسته، فإذا ظهر رجل دين قويّ في بيت المقدس، وأصبح خليفة المسيح نفسه، وفي مدينته فإنَّ ذلك يفقد البابوية في روما مكانتها، ويحط من قدرها وقد عرفنا أنَّ المنصب الديني الكبير أصبح مطلوباً، ومرغوباً فيه لما يحققه من مكاسب ماديّة غير محدودة[2].

سارت الكنيسة في المملكة الصليبية سيرة بابا روما في جمع الثروات، وتثمير الأموال، فما إنْ وطئت أقدامهم أرض الشام حتَّى شرع الصليبيون في طرد رجال الدين الأرثوذكس، ومنح الكاثوليك الممتلكات الزراعية، والأموال، والهبات،

---

(1) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/325.

وانظر: Richard, J; Le Royaume Latin de Jérusalem, p. 97.

وانظر: Grousset, R.; Histoire des Croisades, VI, p.312.

(2) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 470.

وانظر: Setton K. M.; A History of The Crusades, Pensylvania, 1958, VI, p. 397- 383.

والهدايا، وبلغتْ ثروات بعض الأديار مقداراً يفوق التصوّر، وامتلك بعض الأديار أحياء بأكملها في بيت المقدس، وغيره من كبريات المدن في الشام(1).

جرى الوضع في سورية أنْ يكون بتلك البلاد بطريركيتان كبيرتان، الأولى في بيت المقدس، ويتبعها خمسة من رؤساء الأساقفة في صور، وقيسارية، والناصرة، والكرك، وبُصْرى ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة.

وأمَّا الثانية ففي أنطاكية، ويتبعها أساقفة طرابلس، وأنطرطوس، وجبلة، والبارة، وطرطوس، والمصيصة، والرُّها واستمر هذا التنظيم في العصر الصليبي(2)؛ فقد استبعد هذا التنظيم القسس الشرقيين؛ فقد كانت نظرتهم إلى المسيحيين المحليين أنّهم جميعا هراطقة، غير جديرين بالاحترام(3).

* **الديَّارات**(4): ومن هنا نلاحظ أنَّ جمع الدير على أديرة، وهو الجمع الكثير الاستعمال في هذا العصر لا أساس له، وقد كتب أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتي (ت 390 هـ/ 999م) كتاباً سمّاه «الديَّارات»، حققه كوركيس عوَّاد، وظهرت طبعته الثانية في بغداد، مطبعة المثنى، 1966م، وتناول فيه الأديار المعروفة

---

(1) يراجع: سعيد عاشور: الحركة الصليبية 1/471 ـ 472.

(2) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ 1/ ص 472.

(3) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق ص 215.

(4) يبدو أنَّ لفظ الدير كلمة عربية أصيلة، حاولت بعض المصادر نقلها بحروفها Dir، ويقابلها في اللغات الأوربية Monastère، Cloître، Couvent، وقد جاء في لسان العرب جـ 4/ ص 300: «الدير: خان النصارى، والجمع أديار، وصاحبه، والذي يسكنه ديَّار، وديرانيّ».

ومن هنا نلاحظ أنَّ جمع الدير على أديرة، وهو الجمع الكثير الاستعمال في هذا العصر لا أساس له، وقد كتب أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتي (ت 390 هـ/ 999م) كتاباً سمَّاه «الديَّارات»، حققه كوركيس عوَّاد، وظهرت طبعته الثانية في بغداد، مطبعة المثنى، 1966م، وتناول فيه الأديار المعروفة في عصره في العراق، والشام، فبيّن أماكنها، ووصف طبيعة الحياة فيها، وما قيل فيها من أشعار، ومَنْ ينتابها من طلاّب المتعة وأكثرهم مسلمون، وهذه الأديار بقيت على حالها في أيّام الحروب الصليبية بعد أنْ نقل إليها الصليبيون عاداتهم، وأنظمتهم.

في عصره في العراق، والشام، فبيّن أماكنها، ووصف طبيعة الحياة فيها، وما قيل فيها من أشعار، ومَنْ ينتابها من طلاّب المتعة وأكثرهم مسلمون، وهذه الأديار بقيت على حالها في أيّام الحروب الصليبية بعد أنْ نقل إليها الصليبيون عاداتهم، وأنظمتهم.

سبق القول بأنَّ الخليفة الفاطمي المستنصر[1] سمح لبعض التجار من أمالفي ببناء دير في بيت المقدس لرعاية الحجّاج المسيحيين، والذي أصبح مقرَّاً لفرسان الإسبتارية فيما بعد، وكان يتسع لألف حاج، تقدّم لهم فيه الرعاية الصحية والاجتماعية، وقد قامت هذه الفرقة من الفرسان مع فرقة الداويّة بأداء دور خطير في الحروب الصليبية من الناحيتين: الحربية والدينية:

فمن **الناحية الحربية**: بذلوا جهداً كبيراً في حماية الممالك الصليبية، وفي محاربة المسلمين، وغزو بلادهم، ونهب ثرواتهم، وسلب ممتلكاتهم، وردّ هجماتهم، ونحن نلاحظ أنَّ الصليبيين بعامة، وهؤلاء الفرسان بخاصة، استباحوا أموال المسلمين ودماءهم، وعاشوا على السلب والنهب، والإغارة على السكان الآمنين، فيقتلون، ويسبون، ويحرقون ويعيثون فساداً[2].

ومن **الناحية الدينية**: كان هناك كثير من المسيحيين ـ أطلق البعض عليهم صفة «الأتقياء»[3] والذين أرادوا أنْ يكون لهم نصيب في محاربة المسلمين، وفي الوقت نفسه يحيون حياتهم التعبدية في ظل الدير، أو الكنيسة، وقد أتاحت لهم هذه المنظمات ما يشبع رغبتهم في العبادة، ونزعة الشر فيهم بسفك دماء الأبرياء.

ازدادت أملاك هؤلاء الفرسان، وأموالهم، وانصرفوا بمرور الوقت عن الحرب، ليتفرّغوا للمضاربات التجارية، واستثمار الأموال، وتمتّع رئيسها بسلطة مطلقة ولقِّب بـ «الأمير» وبـ «السيّد الكبير»، وتشير أكثر المصادر التاريخية إلى أنَّ

(1) انظر: الفصل السابق ص 67 ـ 68.

(2) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص 473، وانظر: Cam. Med. Hist. V5 p.p. 305.

(3) انظر: سعيد عاشور: المرجع السابق، الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

فرسان المعبد أصبحوا صرَّافين للبابا في روما، وأكثر الملوك والأمراء في أوربا مما دفع الملك فيليب (Philippe le Bel) إلى مصادرة أموالهم، والقضاء عليهم[1].

ومما هو جدير بالذكر أنَّ كثيراً من المسيحيين هاجموا هذه المنظمات الرهبانية العسكرية، بالرغم من انبعاثها في سبيل الدين المسيحي واعتبروها بعيدة عن روح الإنجيل الذي يدعو إلى الجهاد الروحي لا الجهاد العسكري[2].

وقد وجد في بلاد الشام كثير من الأديار، بعضها عربي، وأكثرها يوناني، وبخاصّة في بادية «يهودا»، وقد أسهمت هذه الأديار في مساعدة المحتلّين الفرنج، من جهة، وفي طلب العون منهم ضد أهل البلاد من العرب والأتراك من جهة أخرى[3].

وفي بعض الحالات نشأ الإقطاع بسبب نقص الرجال، وعدم وجود من يتولَّى الأعمال، فقد نشأ إقطاع من ممتلكات دير يعقوب في القدس، لأنَّ 1100 من رهبانه قد هجروه، وقدَّمت الدولة تسهيلات قانونية لإغراء المقاتلين من الفرسان إلى البقاء في البلاد، أو الهجرة إليها من خارجها، ومنحوا حقَّ توريث الابنة والأقارب، على عكس ما كان متبعاً في أوربا[4].

* المواردالمالية: بلاد فلسطين فقيرة، لا توجد فيها ركائز اقتصادية، ولم تقم فيها صناعة راقية، ولا تجارة متقدّمة[5]؛ ولذلك فأكثر موارد المملكة من:

أ ـ السلب والنهب، فلا نكاد نجد شهراً يمر في تاريخ هذه المملكة دون ذكر لإغارة، أو سطو على إحدى القرى، أو بعض المزارع، أو القوافل العربية.

ب ـ ما فُرض على الحقول والمزارع المحيطة بالمدن الصليبية والتابعة لها.

---

(1) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1713.

(2) راجع: غالب غانم: القوانين والنظم عبر التاريخ، دار المنشورات الحقوقية، وتوزيع دار صادر، بيروت، 1991م، ص 287.

(3) انظر: رنسيمان؛ المرجع السابق جـ 2/ ص 159.

(4) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 226.

(5) انظر: هانس ماير: المرجع نفسه ص 227.

جـ ـ الضرائب المتعدّدة التي فرضتها المملكة على الصادرات، والواردات، والبيع، والشراء، والحجّاج، والموانئ والسفن وغيرها[1] إلاَّ ما كان منها لصالح الأطماع الشخصية؛ فقد ألغى بدوين الثاني ـ بناء على طلب البطريرك ـ جميع الرسوم على المواد الغذائية المستوردة، وبخاصة عن الحبوب، لأنَّه كان يمتلك جميع مخابز القدس[2].

* **الجهاز الإداري**: كان يشرف عليه عدد من كبار الموظفين:

أولهم: القهرمان (Seneschal): وهو المسؤول عن الاحتفالات الكبرى وشؤون المال، والخزانة.

وثانيهم: الكنستابل (Constable)، وهو قائد الجيش، وتحت رئاسة الملك مباشرة، وهو المسؤول عن كل ما يتعلّق بالتنظيمات العسكرية، والإمدادات.. ويساعده في مهامه «المارشال».

وأخيراً الياور (Chamberlain)، وهو المشرف على القصر الملكي ونفقاته المالية[3].

* **الاستيطان في الثغور الساحلية**: كان لا بدَّ للصليبيين من السيطرة على الريف كما سيطروا على الساحل، وعند استيلائهم على الريف قدَّموا تسهيلات كثيرة لتنمية الزراعة، وفي ظل النظام الإقطاعي كانت الأرض تنتقل من إقطاعي إلى آخر مقابل ضريبة معتدلة، واستفاد القسس والرهبان من تلك التسهيلات، ففي منطقة المحمرية الكبرى ـ بالقرب من القدس ـ نجد مشروعاً استيطانياً كبيراً لرهبان القبر المقدس، تطبّق فيه أنظمة شديدة الصرامة، من طرد، وتشريد، وغرامات.. واستغل في ذلك حاجة الحجّاج الفقراء الذين لا يجدون المال الكافي للعودة إلى أوطانهم، وكانت من القسوة إلى الحد الذي وصفها فيه أحد المسيحيين «بأنَّها نوع من

(1) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 467.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 227.

(3) انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 469.

مستوطنات المجرمين»[1]، ولم تكن هذه المستوطنات للمسيحيين فقط، بل سكن معهم مسلمون أيضاً، وبخاصة في المنطقة الجنوبية الشرقية، فحيثما لا يتوفّر أفراد من النصارى المحليين، أو من الفرنج لممارسة الزراعة كان يستقدم المسلمون، من أبناء الشام، وكانت تبذل محاولات من أجل تنصيرهم، وفي الوقت نفسه كانت هناك قبائل بدوية، تعيش على الرعي، متنقلين من مكان إلى آخر وكانوا يعتبرون مع قطعانهم من أملاك الخزانة الملكية[2].

وفي الثغور الساحلية، والحصون والقلاع كانت الزراعة وتربية الحيوان، والصيد البحري لا تختلف في أساسها عمّا هو متبع في التنظيم الاستيطاني، وسيأتي تفصيله في الفقرة التالية.

التنظيم الحربي الاستيطاني في مملكة القدس:

الاستيطان والتدابير العسكرية: إنَّ استغلال الأراضي كان يسير جنباً إلى جنب مع المتطلّبات الدفاعية، ولمّا كان أهم ما يشغل فكر الملك بلدوين الأول هو ثلاثة أمور:

أنْ يكفل لمملكته موانئ على ساحل البحر المتوسط؛ ليسهل الاتصال بأوربا، وتوفير ما يلزم لدولته من طريق البحر.

أنْ بجعل لمملكته حدوداً بريّة آمنة، وملائمة.

وأنْ يفيد في الوقت نفسه من اقتراب مملكته من طرق التجارة العربية الممتدّة من العراق وبلاد العرب إلى البحر الأبيض المتوسط ومصر[3]؛ لذلك عمل الصليبيُّون على تشييد قلاع ذات أهداف هجومية، أو دفاعية وبخاصة في الجنوب الغربي،

---

(1) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 230.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 232.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 154.

وانظر: هايد ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، جـ 1/ ص 175.

حول عسقلان[1] وفي الجنوب الشرقي حول البحر الميِّت، وكان لا بدَّ من أنْ تنشأ حول تلك القلاع قرى ذات كنائس، ينطلق منها الراغبون في الاستيطان لاستغلال المزارع، وتعمير الأراضي، وكان سيِّد القلعة يحصل عليها إقطاعاً من الملك، ويتولَّى تحصيل الضرائب، للإنفاق على القلعة مقابل ضمان الأمن للمستوطنين.

* القلاع والحصون: من القلاع التي شيّدها الصليبيُّون قلعة صفد، وهي تسيطر على طريق عكا دمشق، وعلى حصن يعقوب باعتباره أهم جسر على نهر الأردن، ومدينة صَفَد[2] واحدة من أهم مدن الأُرْدُنِّ، في العصور الوسطى، وهي ـ وإنْ لم تكن من المدن الكبيرة ـ ذات موقع حربي متميِّز، فهي مشرفة على بحيرة طبريّة، تمتدُّ إلى أبوابها من البحيرة قناة من الماء العذب، وتتصل بساتينها العامرة بالقرى، وتنبسط على ثلاثة جبال، في رَبَضٍ متّسع غنيٍّ بالثروات الزراعيَّة والخيرات الوفيرة، وقد اتخذ منها الصليبيون مركزاً لترويع المسلمين الآمنين.

في أوقات السلم كانت حامية القلعة تتكوَّن من خمسين فارساً من الداوية، يخدمهم ثلاثون من الإخوة الرهبان، وخمسون من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً

---

(1) عسقلان: مدينة على الساحل الفلسطيني، بين غزة وبيت جبرين ويقال لها «عروس الشام» استعادها صلاح الدين من الصليبيين عام 583 هـ/ 1187م، ثم خرَّبها بعد فتحهم لعكا في عام 587 هـ/ 1191 م. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 122، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً ص 308، وانظر: الإدريسي: المصدر السابق جـ 1/ ص 357، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 238.

(2) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلَّة على حمص. انظر: معجم البلدان جـ 3/ ص412، وانظر: تقويم البلدان ص 142، وذكر أبو الفداء أنّها بفتح الصاد المهملة، والفاء، ثم مثنَّاة من فوق «صفت» والمشهور على ألسنة الناس صفد بالدال المهملة مكان التاء. وانظر: الطراونة: مملكة صفد 13 ـ 32، وهي واحدة من المدن التي استردَّها صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين بالأمان في سنة 584 هـ/ 1188م انظر: مختار: التوفيقات الإلهامية جـ 1/ ص 616، وكان الملك الصالح الأيوبي إسماعيل قد تنازل عنها للصليبيين في سنة 1240م.
انظر: دائرة المعارف 14/ ص 216.

«التركبولي» وثلاثمائة من حملة الأقواس، وثمانمائة وعشرين رجلاً آخرين، وأربعمائة من الأرقاء، وتؤمّن مأوى لألفي مقاتل، ولسكّان المنطقة من الفرنج.

وحول القلعة قامت زراعة الحبوب، والتين، والرمّان، والزيتون والعنب، والخضر، وتربية نحل العسل، وتربية الماشية، وصيد الأسماك من بحيرة طبرية، ووضع لها نظام متقدِّم لريّ البساتين، وكان الماء يؤخذ من آبار وصهاريج داخل القلعة، وتطحن الحبوب في مطاحن هوائية، أو تديرها الحيوانات، وكلها خارج القلعة، ويقدّر عدد السكان بحوالي عشرة آلاف نسمة، في 260 قرية، أكبرها على سفح الجبل، عامرة بالأسواق[1].

وكان الصليبيون يتخيَّرون الأماكن الهامة لإقامة تلك الحصون؛ فلكي يقطعوا طريق الاتصال بين مصر وباقي الدول الإسلامية تخيَّر الملك بلدوين بقعة، قليلة الخصب، موحشة، تقع في منطقة غابات تبعد نحو مائة ميل عن أقرب مكان ينْزل به الفرنج، تسمَّى «الشوبك»[2]، وشيَّد فيها قلعة ضخمة، عرفت باسم قلعة «جبل الملك» وأنزل بها حامية عسكرية، وشحنها بالذخائر والمعدَّات الحربية[3].

كثرت تلك القلاع، والحصون، وكلهَّا تمتاز بالصفات الحربية ـ دفاعية كانت أم هجومية ـ مع توفير وسائل المعيشة، وتيسير وسائل النقل، وفي إحصاء قام به ابن شدَّاد، وهو يعدِّد فتوحات الناصر صلاح الدين ذكر 78 حصناً، أو مدينة محصّنة استردَّها بالسيف، أو بالأمان، وهي تبيّن الصفة الاستيطانية الصليبية للأراضي المقدّسة، وسعيهم لتأمين وجودهم فيها[4].

---

(1) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 228.

(2) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام قرب الكَرَك، بين عمَّان وأيلة والقُلْزم.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 370، وانظر: ابن سعيد: المصدر السابق، ص151، وأبو الفداء، تقويم البلدان ص 246.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 159.

(4) انظر: النوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية «سيرة صلاح الدين» تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م، ص 248.

كانت أولى القلاع التي بناها الصليبيون، هي «قلعة الحجاج» بناها ريموند الصنجيلي، على التلال المحاذية للشاطئ أمام طرابلس عندما عجز عن اقتحامها، وهي باقية إلى اليوم[1].

ثمَّ أقاموا التحصينات الساحلية؛ لكي يؤمّنوا العمليات البحرية، فأقاموا عند مداخل الموانئ البحرية في عكا، وصور، وصيدا، وجبيل، وغيرها أبراجاً، على جزر صغيرة، بالقرب من مدخل الميناء، وكانوا يستخدمونها لمراقبة الشواطئ، وفي الوقت نفسه أقاموا قلاعاً تحيط بالموانئ، من جهة البر، وكان لهذه القلاع أثر في تعجيل الاستيلاء على المدن، ونلاحظ أنَّ الصليبيين بنوا تلك القلاع على مواقع أبراج وقلاع قديمة، وبأنقاضها[2].

مكانة مملكة القدس بين الإمارات الصليبية:

السيطرة الدينية والعسكرية: سبق أنْ بينَّا أنْ بطريركية بيت المقدس أصبحت لها السيطرة الدينية على الكنائس في الشام، وبتوجيه من البابا نفسه.

وأمَّا السيطرة العسكرية فقد سعى إليها ملوك المملكة، وقد «أعلن بلدوين صراحة، في طرابلس، في سنة 1109م بأنه ينوى أنْ يجعل نفسه سيِّداً على الشرق الفرنجي»[3]؛ ولذلك نراه يتحيَّن الفرص للوصول إلى أهدافه، فعندما بعث إليه برتراند (Bertrand) رسالة عاجلة يطلب إليه الحضور، لمساعدته في حصار طرابلس، ويتعهّد له بالولاء والتبعيّة؛ فإنّه أسرع بإرسال مبعوثين من طرفه: أحدهما إلى تنكريد (Tancrède)، والثاني إلى وليم جوردان (Guillaume Jordan) يخبرهما أنَّ برتراند تحت رعايته، وحمايته، ويطلب إليهما مقابلته على أسوار طرابلس للنظر في ردِّ إرث ريموند الصنجيلي لابنه برتراند، وفي الوقت نفسه خرج على رأس جيش مكوّن من خمسمائة فارس، والتقى جميع زعماء الصليبيين في قلعة صانجيل أمام طرابلس، حيث

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ لبنان ص 352.

(2) انظر: فيليب حتي: تاريخ لبنان ص 357.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 145، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 158.

تمكّن بلدوين ـ ببراعـة، وحكمـة ـ أنْ يعقد صلحاً بين الأطراف المتنازعة، بعد أنْ دان له الجميع بالطاعة، والولاء[1].

وفي سـنة 509 هــ/ 1115م يـشترك ملـك بيـت المقــدس في صـد هجـوم الأتابك بُرْسُق على أنطاكية[2]، ويؤكد سيادته على الإمارات الصليبية في الشام، مـرّة أخرى.

ويبدو أنّه من حسن طالع مملكة بيت المقدس أنْ تهيّأ لها في بدْء تأسيسها عـدد من الملوك الـذين لم يكتفـوا بالحفـاظ عليهـا بـل اسـتطاعوا توسـيع رقعتهـا، ومـدَّ سلطانها، وبسط حمايتها على الإمارات الصليبيـة الأخـرى، إلى أنْ كتــب الله عليهـا الفناء، فاستردَّها صلاح الدين الأيوبي منهم، فدخلها منتـصـراً في يـوم الجمعـة 27 من رجب سنة 583هـ/ 3 من أكتوبر 1187م، فلم يقتل نفساً، ولم يـدنّس طـاهراً، وأصبح خلقــه، وسـلوكه صـورة مـشرفة لخلـق المـسلم في الـصفح، والتـسامح، والسلام.

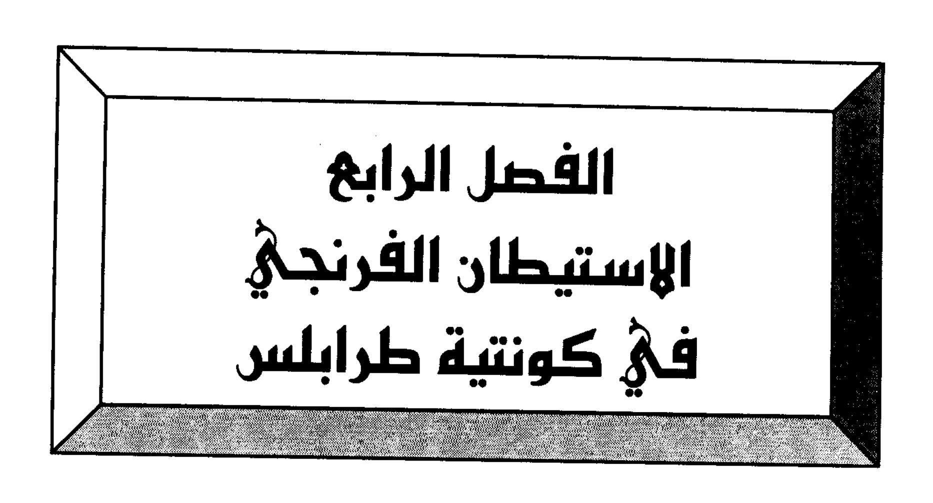
كانت مملكـة بيـت المقـدس واحـدة مـن أربــع ممالـك أقامهـا الـصليبيون، واستوطنوها، في بلادنا، وسأفرد فصلاً لاثنتين من الممالك الثلاث الأخـرى، فـأبيّن نشأتها، وعلاقاتها بجاراتها، وقـد تركت الحديــث عـن الإمـارة الأخـيرة، وهـي إمارة الرها للأسباب التي بيَّنتها في المقدمـة. وسـيكون الفـصل التـالي عـن كونتيـة طرابلس.

---

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 163، وانظر: ابن الأثير: المصدر الـسابق جــ 8/ ص 259، وانظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 358، وانظر: سـالم الـسيد عبـد العزيـز: طـرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1966م، ص 116.

وانظر: Grousset, R.; Histoire des Croisades, VII, p.68.

(2) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 366.



الفصل الرابع
الاستيطان الفرنجي في كونتية طرابلس

الاستيطان الفرنجي
في كونتية طرابلس

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : توطئة جغرافية لمدينة طرابلس: اسمها، موقعها.

المبحث الثاني : تاريخ طرابلس السكاني «الديموجرافي».

المبحث الثالث : طرابلس قبيل الغزو الصليبي.

المبحث الرابع : إمارة بنى عمَّار في طرابلس.

المبحث الخامس: الظاهرة الاستيطانية في كونتية طرابلس الصليبية

المبحث السادس : الوضع في كونتية طرابلس بعد سنة 499 هـ/ 1105م.

المبحث السابع : الوضع السياسي والحربي في المدن الساحلية الأخرى.

المبحث الثامن : الأوضاع في الريف ونشأة المستوطنات الزراعية.

المبحث التاسع : الإقطاع والكنيسة والاستيطان في كونتية طرابلس

المبحث العاشر : تقويم الاستيطان في كونتية طرابلس.

توطئة جغرافية لمدينة طرابلس:

الاسم:

مدينة طرابلس مدينة حديثة العهد بالنسبة للمدن الفينيقية الأربع الأخرى: وهي: أرواد[1]، وجبيل[2]، وصيدا[3] وصور، والتي كانت تمثل كل منها مملكة مستقلة، منعزلة عن غيرها، وتكفي نفسها بنفسها.

لا يزال اسم المدينة القديمة التي بنيت طرابلس في مكانها مجهولاً، والراجح أنّها بنيت في نحو سنة 700 ق.م.[4]، ولم يظهر أهمّيّة موقعها على الساحل إلاّ بعد أنْ غزاها الملك الفارسي قورش الثاني (Kourash II le Grand) (558 ـ 528 ق. م.) حيث كانت تتألّف من ثلاثة مراكز متفرّقة، تحمل أسماء ممثلي صور، وصيدا، وأرواد التي توحّدت في السنة الأولى من حكم الملك الفارسي أرتحشتا الثالث الملقّب أوكوس (Ochus) (359 ـ 338 ق.م)، وسمُّيت «أتار» أو ما يشبه هذا الاسم كما ورد منقوشاً على قطعة من النقود المحلّية تعود إلى سنة 189 ـ 188 ق.م.[5].

---

(1) أرواد: هي Antaradus عند اليونانيين، بمعنى المقابلة لجزيرة أرواد، وقد تكون هي مدينة ألازا الفينيقية، وكان الصليبيون يسمونها Tortosa، وتعرف باسم طَرَطُوس وتقع على ساحل البحر شمالي عمريت. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 30، وانظر: هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ص 132، وانظر: Dussaud R.; Topographie Historique, Paris, 1927, p 41.

(2) جبيل Djebail: ويسميها الإغريق Byblos: مدينة فينيقية، على بعد 30 كم شمالي بيروت. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق جـ 1/ ص 372، وانظر ياقوت: معجم البلدان جـ 2/ ص 109، وانظر: هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ص 305، وانظر: Dussaud R.; op. cit. p 53.

(3) صيدا Sidon: مدينة فينيقية حصينة، دمِّرت عدّة مرات، تبعد عن دمشق 66 ميلاً. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق جـ 1/ ص 370، وانظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 3/ ص 437، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 248، وانظر: هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ص 557.

وانظر: Dussaud R.; op. cit. p 57.

(4) انظر: Michel Mourre; Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, Bordas, Paris, p 4530.

(5) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 1/ ص 247.

وانظر: Bruce C.; Tripoli of Lebanon, Beirouth, 1961, p. 9.

أطلق اليونانيون عليها اسـم تريبـولس (Tripolis) ومعناهـا ثـلاث مـدن[1]، وكانت المكان الذي تجتمع فيه المحكمة التجارية لفـض النِّـزاع في المـشكلات التـي كانت تقع بين المدن الثلاث، كما كانت المقر الذي يعقد فيه مؤتمر سنوي يحضره نحو 300 مندوب لبحث الشؤون المتعلّقة بمصالح البلاد[2]، ولهذا فإنَّهـا قامـت بوظيفـة عاصمة لفينيقة، وكانت لها الزعامة المطلقة على المدن الفينيقية في القرن الخامس قبل الميلاد[3].

موقع طرابلس:

تقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسـط عـلى بعـد 90 كـم شـمالي بيروت، على خط الطول 35 60 شرقاً، وعلى خط العرض 00 34 شـمالاً، يحميهـا البحر من ثلاثة جوانب، وعلى البر سـور عظـيم يـنهض أمـام بركـة كبـيرة، ويقـع بعضها على تل عند مخرج خانق عميق يجتازه نهر قديشا الذي يسميه العرب نهر «أبي علي»، وبعضها الآخر بجوار ذلك التل، ويمتد غربيها سهل خـصب، ينتهـي بـشبه جزيرة، يقع فيه الميناء الذي تحميه سلسلة من الجزر الصخرية الصغيرة، وهو «ميناء عجيب يحتمل ألف مركب»[4]، وأفاضت كتب الجغرافيـة والـرحلات[5] في الحـديث عن سهلها الخصيب، وتحصينها المنيع، وعمارتها الرائعة فقد وصل إليها في يوم السبت الخامس من شعبان سنة 338هـ/ 6 من فبراير سنة 1047م الرحالـة الفـارسي نـاصر

---

(1) هي ثلاثة أحياء، أو ثلاثة مراكز متفرّقة، تحمل أسماء ممثلي صـور، وصـيدا، وأرواد التـي اتحـدت في القرن الرابع قبل الميلاد، واتخذت من مدينة طرابلس مقراً لمؤسساتها الاتحادية.

انظر: Hill G.F.; Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia, London,1910, P 48.

(2) انظر: السيد عبد العزيز سـالم: طـرابلس الـشام ص 19، وانظـر: هنـري عبـودي: المرجـع الـسابق ص562، وانظر: Dussaud R.; op. cit. p 75.

(3) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 1/ ص 92.

(4) انظر: اليعقوبي: المصدر السابق ص 327.

(5) انظـر: الإصـطخري: المـصدر الـسابق ص 61، وانظـر: الـشريف الإدريـسي: المـصدر الـسابق جـ1/ ص372، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 252.

خسرو، ووصف ما حول المدينة من المزارع والبساتين، وأكثرها قصب السكر، والنارنج، والترنج، والموز والليمون، والتمر، وهي مشيّدة بحيْثُ إنَّ ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواجه السور، والجانب المطل على اليابسة فيه خندق عظيم، عليه باب من الحديد محكم، وفي الجانب الشرقي منها قلعة من الحجر المصقول، عليها شرفات، ومقاتلات من الحجر نفسه، وعلى قمّتها عرّادات لوقايتها من الروم، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة، وفي وسط المدينة جامع عظيم، جميل النقش، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام، في وسطه فوّارة من النحاس الأصفر، وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم، وبها يصنع الورق الجميل، وبها يصنع الحرير الفاخر، وهي ثغر دمشق على ساحل البحر، ومركز تجاري هام[1]، وقد تغنَّى الشعراء بحسنها، بل إنَّ المتنبي فضَّلها على جميع البلاد، وجعل السماء تحسد الأرض عليها، وعلى سكانها الأكارم في قوله[2]:

أَكَارِمُ حَسَدَ ٱلْأَرْضَ ٱلسَّمَاءُ بِهِمْ * وَقَصَّرَتْ كُلُّ مَصْرٍ عَنْ طَرَابُلُسِ

وبالرغم من تحصيناتها القوية وموقعها المنيع فقد كانت مهدّدة باستمرار بالسقوط؛ بسبب عزلتها عن العالم الخارجي من ناحية البر، وبسبب احتياجها إلى مورد يمدّها بالماء الصالح للشرب من ناحية أخرى[3]، وظهر ذلك واضحاً يوم أنْ توجّه سفيان بن مجيب الأزدي[4] لفتح مدينة طرابلس، بتكليف من معاوية بن أبى سفيان عامل الخليفة عثمان بن عفّان ﷺ على الشام لم يستطع سفيان دخول طرابلس؛ فأنشأ حصناً على بعد أميال منها، عرف باسم حصن سفيان، وقطع

---

(1) انظر: ناصر خسرو: سفر نامة: المصدر السابق، ص 47، وانظر: الإصطخري: المصدر السابق، ص61.

(2) انظر: ديوان المتنبي ص 18.

(3) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 15/ ص 117.

(4) سفيان صحابي، مجاهد، تولَّى قضاء بعلبك، وتوفي في نحو سنة 50هـ/ 670م.

انظر: بدران: المرجع السابق جـ 6/ ص 183، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 15/ ص283.

الإمدادات عن أهلها من البر، وحاصرها من البحر، فاجتمع أهلها في واحد من حصونها، وكتبوا إلى قنسطانز الثاني (641 668 م(Constance II) الإمبراطور البيزنطي يسألونه أنْ يرسل إليهم سفناً؛ لتحملهم بعيداً عن الحصار، فوجّه إليهم بمراكب كثيرة، ركبوا فيها ليلاً، وهربوا فلمّا أصبح سفيان وجد المدينة تكاد تكون خالية؛ فاستولى عليها[1]، وسوف نلاحظ أنَّ هذه الخطة ذاتها هي التي اتّبعها فيما بعد بحذافيرها ريموند الصانجيلي (Raymond IV de Saint-Gille) في محاولته ليفتتح طرابلس في سنة 498 هـ/ 1105م.

تاريخ طرابلس السكاني (الديموجرافي):

كان العرب الفينيقيون هم سكانها الأوائل الذين بنوها، واستوطنوها، وعرفوا أهمية موقعها، وقد تنبَّه الفرس (538 ـ 333 ق.م.) إلى خطورة هذا الموقع؛ فاتخذوها قاعدة لملكهم، ومركزاً لتجارتهم، ووسعوا بناءها، وعمارتها، ثم استوطنها من بعدهم اليونانيون (333 ـ 64 ق.م.)، فالرومان (64 ق.م. ـ 476م)، فالبيزنطيُّون (476 ـ 646 م)، ولمَّا افتتحها المسلمون تسلّموها، وقد هجرها سكانها[2]؛ فأسكنها معاوية العرب بالإضافة إلى بعض القوميات الأخرى[3]، التي حاولت الاستقلال بالمدينة، والخروج على طاعة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (26 ـ 86هـ/ 646 ـ 705م) فأعاد ابنه الوليد[4] فتحها عندما تولّى الخلافة في

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ2/ ص 296.

(2) لم تذكر المصادر التاريخية تاريخ فتح العرب طرابلس، وبالرغم من أنَ ابن الأثير يذكر فتحها في حوادث سنة 13 هـ/ 634م إلاَّ أنّه من المؤكد أنَّ هذا الفتح لم يتم إلاَّ بعد تكوين أسطول بحري حاصر المدينة من البحر، ويرجّح العبادي وسالم فتحها في عام 26 هـ/ 646م، انظر: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، 1981م، ص 19.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ2/ ص 296، وانظر: اليعقوبي: المصدر السابق، ص 327.

(4) أبو العباس، الوليد بن عبد الملك بن مروان، الأموي، أمير المؤمنين (هـ/ ـ م) عرَّب الدواوين، وفتحت في أيامه السند والأندلس، وبنى جامع دمشق. انظر: الطبري: تاريخ الطبري جـ5/ ص 3، وانظر: الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام جـ1/ ص 58، وانظر له أيضاً: سير أعلام النبلاء جـ4/ ص 347، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ27/ ص 463، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ8/ ص 121.

سنة (86 هـ/ 705م)[1]، وعمل على تغيير الوضع السكاني في المدينة؛ بحيث أصبح أكثر أهلها من المسلمين، ومن بعدهم الروم الأرثوذكس[2] وهو الوضع السكاني الذي كانت عليه عندما حاصرتها القوات الصليبية.

طرابلس قُبَيْل الغزو الصليبي:

كانت أرض الشام ميداناً لأحداث جسام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فقد اشتدَّ الصراع بين القوى الثلاث: الدولة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في مصر، والدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، كل منها تحاول بسط نفوذها، ومدَّ سلطانها، وقهر أعدائها، وكل منها كانت تدَّعي لها حقّاً في تلك البلاد؛ فالبيزنطيون طُرِدُوا منها في أيَّام الفتح العربي، ويريدون استعادتها والعبَّاسيون أصحاب الخلافة الإسلامية صاحبة الكلمة العليا في الأرض العربية كلِّها، وكان الفاطميّون يعتبرونها خط الدِّفاع الأول عن مصر الَّتي اتّخذوها مقرّاً لهم[3]، وكانت مدن الساحل الشامي أكثر تلك البلاد تضرراً جرَّاء هذا الصراع الدَّامي.

ومما يدعو إلى الأسى أنَّ السِّمة الغالبة على ذلك الصراع كانت الأطماع الدنيوية الرخيصة، والرغبة في السلطة والحكم، ولو كان الثمن التضحية بالأخلاق والدين والقيم والأرض، فاختلطت الموازين واختلَّت الأحكام؛ فالمسلم يستعدي

---

(1) انظر: البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار صادر، بيروت، 1983م، ص 151، وانظر: الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر، منسوب إليه كتاب «فتوح الشام»، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، جـ 2 ص 29، وانظر: ابن الأثير: المصدر السابق جـ 2/ ص 296.

(2) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 15/ ص 118.

(3) انظر: ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م، ص 231، وانظر: حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1993م، ص 151.

الرومي على أخيه المسلم، ويستعين بعدوِّه على قتل أخيه، واغتصاب الأرض التي يحكمها، فهذا أبو الفضائل الحمداني[1] يستغيث بالإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (Basile II) (976 ـ 1025م) ليردَّ عنه جيوش الفاطميين التي تهاجم حلب بقيادة منجوتكين، فزحف باسيل على الشام بجيش كبير، فدمّر حمص وشيزر، في سنة 385 هـ/ 995 م وأحرق البلاد، وأذل العباد، وسبى النساء وحاصر طرابلس، ولكنها امتنعت عليه، فرحل عنها[2].

تكررت هذه الخيانة مرة ثانية عندما ثار أهالي صور على الفاطميين، وولوا عليهم ملاَّحاً من البحريين يعرف بالعلاقة، فهجم على جنود الحامية الفاطمية، وقتلهم، واستقل بالمدينة، ولمَّا حاول الفاطميُّون استعادة المدينة استنجد العلاقة بباسيل (Basile II) أيضاً فأرسل إليه أسطولاً ضخماً محملاً بالمقاتلين، دارت بينه وبين الأسطول الفاطمي معركة عنيفة في سنة 387 هـ/ 997 م في مياه صور، وانتهت بنصر الفاطميين وقتل العلاقة[3].

---

(1) أبو الفضائل، سعيد الدولة، سعيد بن بكجور، حكم حلب في الفترة (381 ـ 392 هـ/ 991 ـ 1001 م). انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 45، وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 168، وانظر: الغزي، الشيخ كامل البالي: نهر الذهب في تاريخ حلب، تحقيق شوقي شعث، ومحمود فاخوري، دار الفكر العربي، حلب 1999م، جـ 3، ص 58، وانظر: استانلي لين بول: المرجع السابق، ص 108.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 50، وابن الأثير: المصدر السابق جـ 7 ص 154، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 4 ص 121، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ طرابلس 57، وانظر: السيد سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا، منشورات جامعة بيروت، 1970م، ص76.

(3) انظر: الأنطاكي: يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1909م، ص 184، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ طرابلس 59، وانظر له أيضاً: دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص 76 ـ 77.

إمارة بنى عمّار في طرابلس:

كان قاضي طرابلس أبو طالب الحسن بن عمّار[1] يراقب هذه الأحوال السيِّئة، ورغب في الاستفادة منها، وتجنيب طرابلس مخاطرها، فأعلن استقلاله بها في سنة 462 هـ/ 1069م ورسم سياسة إمارة في الحياد التام بين جميع القوى المتصارعة، والعلاقات المتوازنة بين الفاطميين والسلاجقة[2].

وعلى هذه السياسة نفسها سار خلفه جلال الملك أبو الحسن[3] وأخوه من بعده فخر الملك[4] الذي قاوم الحصار الصليبي بعناد وشجاعة ويبدو أنَّه قد اضطرَّ إلى

---

(1) اختلف المؤرخون في اسمه واسم أبيه واسم جده، بل واختلفوا في لقبه وكنيته أيضاً، فهو القاضي الأجل أمين الدولة، أو أمير الدولة، أبو طالب، أو أبو علي وأبو الحسن، واسمه الحسن بن أحمد بن عمار، وقيل: عبد الله بن محمّد بن عمار أو على بن محمد بن أحمد، أو عبد الله بن محمد بن عثمان، أو عبد الله بن عمّار بن الحسين، وبالرغم من هذا الاختلاف فهم مجمعون على ذكائه، وحكمته وسداد رأيه، وعظيم مكانته، استقل بطرابلس، وأسس فيها إمارة قوية، وتوفي سنة 464 هـ/ 1071م. انظر: ابن شدَّاد: الأعلاق الخطيرة «قسم سورية ولبنان والأردن وفلسطين» ص 107، وانظر: الذهبي:تاريخ الإسلام [461 ـ 470] ص158، وفي حاشيته ثبت ضخم بمصادر ترجمته، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 5/ ص 89.

(2) انظر: ماجد، عبد المنعم: الإمام المستنصر بالله الفاطمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1961م، ص 73.

(3) أبو الحسن، علي بن محمد بن عمّار (ت 492 هـ/ 1098م) أعظم أمراء بني عمار.
انظر: ابن بسَّام، على بن بسَّام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1978م جـ 8 ص 625، وانظر: ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر، دار الحرية، بغداد، 1977م، جـ 12 ص 70، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 22 ص 106، وانظر: تاريخ ابن الفرات جـ 8 ص 77.

(4) أبو علي، عمَّار بن محمد بن عمَّار (ت 502 هـ/ 1108م) آخر أمراء بنى عمَّار. انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق 139، وانظر: سبط بن الجوزي: المصدر السابق، جـ 8 ص 28، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 22 ص 382، وانظر: تاريخ ابن الفرات جـ 8 ص 77.

مصالحة ريموند الصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» على أنْ يكون له ظاهر طرابلس، مقابل مرور المؤن والمسافرين إلى المدينة"[1].

الظاهرة الاستيطانية في كونتية طرابلس:

لَمَّا يئس ريموند الصنجيلي (Raymond IV de Saint-Gilles) من الحصول على ملك أنطاكية واضطر إلى التنازل عن أطماعه فيها، قرَّر العمل على تأسيس مملكة له في طرابلس[2]؛ فبدأ بالاستيلاء على المدن التابعة لها مثل أنطرطوس، وعِرْقَة[3]، وساعده في الاستيلاء عليها أسطول جنوة البحري[4]، ثم أحكم الحصار حول طرابلس.

استنجد ابن عمَّار بجنود الإسلام في دمشق وحمص للمساعدة في فكّ الحصار عن طرابلس في سنة 495 هـ/ 1102م، ولكنهم هُزِمُوا[5] فعرض ابن عمَّار على ريموند الصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» أنْ يدفع له الجزية، ويمده بالميرة فقبل العرض، وانسحب بجنوده إلى أنْطَرَطُوس ليعيد تنظيم جيوشه، ويوفر من السلاح والعتاد ما يمكنه من الاستيلاء على طرابلس"[6].

---

(1) انظر: ابن القلانسي المصدر السابق ص 147، وانظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق جـ 8 ص 8.

(2) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 342، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 82. وانظر: Grousset; op cit V.I, p 334.

(3) عِرْقَة Archas, Arcas, Arqa: بلدة في سفح جبل، في شرقي طرابلس، بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، بينها وبين البحر نحو ميل واحد، وعلى جبلها قلعة حصينة. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص 109.

(4) انظر: هايد ف: المرجع السابق، جـ 1 ص 152.

(5) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 141، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 205، وانظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق جـ 8 ص 2، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 4 ص 132، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 91.

(6) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 356، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 92.

أقـام ريمونـد الـصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» يـتربّص في أنطرطوس سـنتين (495 ـ 497 هــ/ 1101 ـ 1103م) إلى أنْ واتتـه فرصـة وجـود أسطول جنوي في ميناء اللاذقية؛ فاستعان به في حصار طرابلس من البحر، ولكن فخر الملك كان قد استعدَّ لمواجهة حصار طويل بل إنَّه كان يرسل جنوده بحراً للإغارة عـلى البلاد الخاضعـة للفرنج ويحصـل من طـريقهم عـلى المؤن والأقـوات، ويقتلـون مـن يجدونـه من الرجال قاصدين بذلك إخلاء البلاد من المزارعين الـذين يمـدُّون الفـرنج بالغذاء[1]، ولمَّا تأكَّد عجـز ريمونـد الـصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» عـن دخول المدينة ارتحل بالأسطول إلى جُبَيْل التابعة لابن عمَّار، ودافـع عنهـا أهلهـا دفـاع الأبطال، ولكنهم عجزوا عن ردِّ المعتدين ففاوضوه على التسليم في مقابـل تأمينهم على أرواحـهم وأموالهم، فأعطاهم ريمونـد الـصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» موثقه على ذلك، ولمَّا دخـل المدينـة نكـث عهـده؛ فاسـتولى عـلى الأمـوال بتوقيـع العقوبات على الأهالي، وتعذيبهم[2]، وكافأ الجنوية على مساعدتهم بأنْ منحهم ثلـث المدينـة، عـاد ريمونـد الـصنجيلي: «Raymond IV de Saint-Gilles» إلى حـصار طرابلس، وأصبح يطوِّق طرابلس من الشمال، ومن الجنوب كـما أنَّـه وضـع حـدود الإمارة الصليبية في طرابلس[3].

عاد ريموند الصنجيلي: «Raymond IV de Saint-Gilles» إلى حـصار طـرابلس بعد نجدته ملك بيت المقدس بلدوين في الاستيلاء على عكا في سنة 497 هــ/ 1103م، ولكنه أدرك أنْ لا سبيل إلى قهرها والاستيلاء عليها إلا ببناء حصن قويّ يشرف منه على المدينة ويكون مركزاً عسكرياً للحصار، واختار لهذا الحصن الموقع القديم ذاتـه الذي سبق أنْ أقام عليه سفيان بن مجيب حصنه، وهو موقع اسـتراتيجي هـام، عـلى

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل جـ 8 ص 219.

(2) انظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ 4، ص 134.

(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 360.

تلّة أبي سمرة الحاليّة الواقعة على الضفَّة اليسرى من نهر قاديشا، وهي التي كانت تعرف بتلّة الحجاج «Mons Peregrinus»[1].

شرع ريموند الصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» يبني الحصن الذي عُرف ـ فيما بعد ـ باسمه وأنشأ ربضاً أدناه لسكنى الجنود، وفي أثناء العمل فاجأه فخر الملك بن عمّار بغارة خاطفة في 19 من ذي الحجة سنة 497/ 12 من سبتمبر سنة 1104م، فقتل من بالحصن ونهب ما فيه من مال وسلاح، وأضرم فيه النيران، وأصيب ريموند الصنجيلي «Raymond IV de Saint-Gilles» بحروق أودت بحياته بعد أيام من الغارة[2]، وبعد أنْ هلك اختار أفصاله وجنوده في الشام ابن خالته وليم جوردان (Guillaume Jordan) قائداً لهم، فواصل سياسة سلفه فشَدَّد الحصار على طرابلس، وحافظ في الوقت نفسه على التحالف مع بيزنطة، وأنفذ إليه الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين «Alexis Comnène 1er» رسولاً يتلقى منه الولاء وفي مقابل ذلك عليه أنْ يقدِّم له الهدايا القيِّمة، وكان من نتائج هذا الولاء أنْ انتظم إرسال المؤن من قبرص إلى الفرنج، وأسهمت القوات البيزنطية من حين لآخر في الحصار المفروض على المدينة وكان الإمبراطور يأمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى الفرنج المحاصرين طرابلس، فتصلهم من طريق قبرص، فأرسل إليهم فخر الملك أسطولا يعترضهم، وجرى بينه وبين الروم قتال ربح فيه المسلمون سفينة محملة بالطعام[3].

طال الحصار على المدينة الصامدة، حتى نفدت الأقوات، وخاف الناس على أنفسهم وأولادهم الموت جوعاً، واضطر فخر الملك إلى فرض ضريبة الجهاد على

(1) انظر: تدمري، عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس، جـ 1/ ص467.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 235، وانظر: أبو الفداء: المختصر جـ 4 ص 138. وانظر: فوشيه الشارتري: مصدر سابق ص 186.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 235، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2 ص 102.

الأغنياء، وأرسل يستنجد بسقمان بن أرتق[1] فجمع جيشاً، وسار إليه، ولكنه مات في الطريق[2].

ساءت أحوال طرابلس، واضطر فخر الملك أنْ ينيب عنه في حكم طرابلس ابن عمه ذا المناقب بن عمّار مع عدد من سراة القوم وأشرافهم كسعد الدولة فتيان بن الأعز، ودفع رواتب الجند لمدة ستة أشهر، واتخذ طريقه متجهاً إلى بغداد، قاصداً استنفار الخليفة المستظهر بالله[3]، والسلطان السلجوقي[4]، يحمل معه من الهدايا والتحف ما لم يوجد مثله عند ملك[5]، ومرَّ في طريقه بدمشق، فاستضافه طغتكين، وأكرمه، وبلغه وهو في دمشق أنَّ ابن عمه ذا المناقب استغل فرصة غيابه، فقتل سعد الدولة، واعتلى سُدَّة العرش، فأرسل فخر الملك إلى أتباعه في طرابلس يأمرهم

---

(1) هو سقمان بن أرتق بن أكسب ـ ويقال: سُكْمان، بالكاف ـ صاحب حصن كيفا التركماني، ولي هو وأخوه إيلغازي إمرة القدس الشريف، بعد أبيهما، وتوجّها إلى الجزيرة وأخذا ديار بكر، وتوفي سقمان في سنة 498 هـ/ 1104م. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 15 ص 287.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 162، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 235.

(3) أبو العبَّاس أحمد بن المقتدى بالله عبد الله، العباسي (470 ـ 512 هـ/ 1077 ـ 1118م) كانت أيامه كثيرة الحروب. انظر: الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام، جـ 1 ص 340، وانظر: ابن دقماق: المصدر السابق جـ1 ص 199، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 5 ص 215، وانظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 494، وانظر: ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق جـ 4 ص 33، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 1 ص 158.

(4) أبو شجاع، غياث الدين، محمد طبر بن ملكشاه، حكم في الفترة (498 ـ 511 هـ/ 1104 ـ 1117م) من السلاجقة العظام. انظر: الحسيني: زبدة التواريخ ص 167، وانظر: العماد الكاتب: تاريخ دولة آل سلجوق ص 86، وابن خلّكان: المصدر السابق، جـ 5 ص 72، وانظر: كليفورد: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين اللبودي، مؤسسة الشراع العربي ومؤسسة عين، القاهرة، 1995م، ص46.

(5) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 250.

بالقبض على ابن عمه، وسجنه في حصن الخوابي[1] وهو واحد من الحصون التابعة لطرابلس[2].

الوضع في كونتية طرابلس بعد سنة 499 هـ/1105 م:

تابع ابن عمّار رحلته إلى بغداد، وهناك أحسن الخليفة وفادته، وأكرمه، وقرَّب مجلسه، وحرص فخر الملك على أنْ يطلع الخليفة على حقيقة الأوضاع في طرابلس، وما يجده من المشقة في مجاهدة الفرنجة، وطلب مساعدته، على أنْ يتكفَّل بجميع نفقات الجيش؛ فوعده الخليفة بالمساعدة والعون[3].

أقام فخر الملك في بغداد منتظراً أنْ يبرَّ الخليفة بوعده، وطال انتظاره، وبلغه أنَّ أهالي طرابلس بعثوا إلى الأفضل[4] بمصر يبلِّغونه الدخول في طاعة الفاطميين، ويطلبون منه إرسال والٍ عليهم، فبعث إليهم شرف الدولة بدر بن أبي الطيِّب الدمشقي الذي قبض على أسرة فخر الملك، وأصحابه، وأمتعته، وبعث بهم إلى مصر؛ فاضطر فخر الملك إلى الرجوع، والاستعانة بطغتكين الذي أمدَّه بجيش مكَّنه من دخول جبلة[5].

---

(1) الخوابي: قال ابن سعيد: على مرحلة من دمشق يمتد جبل سكين الذي تنتشر فيه دعوة الإسماعيلية، وفيه حصونهم: مصياف، والكاف، والخوابي، فيما بين حمص وحماة إلى جهة البحر. انظر: ابن سعيد: كتاب الجغرافية ص 153، وعنه أبو الفداء: تقويم البلدان ص 229.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 161، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 250، وانظر: ابن الفرات: المصدر السابق جـ 8 ص 78.

(3) انظر: ابن الأثير: المصدر السابق جـ 8 ص 250.

(4) أبو القاسم، شاهنشاه بن بدر، الجمالي، الملك الأفضل بن أمير الجيوش، الأرمني الأصل (458 ـ 515 هـ/ 1066 ـ 1121م) وزير من الدُّهاة، قتله الآمر بأحكام الله العبدي.

انظر: الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام جـ 1 ص 342، وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ 19 ص 705، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 16 ص 92، وانظر: والزركلي: المرجع السابق جـ 1 ص 103.

(5) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 161.

جَبَلَة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب، قرب اللاذقية.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2 ص 105، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً، ص 95.

بالرغم من اختلاف الروايات في تصوير ما حدث داخل طرابلس في غيبة فخر الملك؛ فالَّذي لا شك فيه أنَّه قنع بإمارة جبلة إلى أنْ أخذها منه الصليبيون[1].

بعد وفاة ريموند الصنجيلي (Raymond IV de Saint-Gilles) في سنة 497هـ/ 1004م تولى قيادة الصليبيين في شمال الشام وليم جوردان (Guillaume Jordan) واستمر في حصاره لمدينة طرابلس، وبعد سنتين من الحصار افتتح حصن عِرْقَة الذي كان فخر الملك قد استعاده من الصليبيين، وتنازل عنه لطغتكين؛ لعجزه عن حمايته، وعزم طغتكين على زيارته، وتفقُّد أسواره وتحصيناته، فسار في أربعة آلاف فارس، وافتتح حصن الأكمة، واشتبك مع جيش وليم (Guillaume Jordan)، فانهزم طغتكين في شعبان سنة 502هـ/ مارس 1108م، وانسحب إلى حمص، ثم عاد وليم فاستولى على عِرْقَة في رمضان سنة 502 هـ/ أبريل سنة 1108م بالأمان[2] وترك فيها حامية صليبية، وعاد إلى حصار طرابلس، آملاً أنْ يتمكَّن من فتحها والاستيلاء عليها.

كان ريموند قد ترك ابنه الأكبر برتراند (Bertrand)[3] حاكماً لأملاكه في تولوز (Toulouse)، ولمَّا مات ريموند طمع برتراند في ميراث أبيه في الشام، فتخلَّى عن حكم إمارة تولوز إلى أخيه الأصغر ألفونس جوردان (Alphonse Jordan)، وسار في جيش مكوَّن من أربعة آلاف فارس، أبحر على أربعين سفينة متجهاً إلى الشرق، ويبدو أنَّه أدرك حاجته إلى مساعدة المدن التجارية الإيطالية في حصار طرابلس من البحر، فأخذ طريقه نحو جنوة، وهناك وجد رسلاً بعث بهم وليم جوردان (Guillaume Jordan) للغرض نفسه، وهناك جرت مساومة لكسب الحكومة الجنوية قدَّم فيها برتراند تعهداً بمنح الجنويين قصر القائد روجر (Roger)، وثلث

---

(1) انظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 109 ـ 112.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 162، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 256، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 366.

(3) يرد اسمه في بعض المصادر برترام Bertram وهو ابن ريموند من زوجته الأولى ويرى بعض المؤرخين أنَّه من جارية، وبعضهم يراه ابن سفاح. انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1 ص 153، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2 ص 102ح.

مدينة طرابلس من جهة البحر، مع الميناء، والجزر الواقعة قبالته قبل أنْ يكون من ذلك شيء في يد برتراند (Bertrand)، ولكنه كسب الجولة، وحصل على موافقة الحكومة بمساعدته، وأرسلت معه بعض القطع الحربية، فوصل إلى سواحل سورية في أسطول من ستين سفينة[1]، ورست سفنه في ميناء السويدية[2] قاصداً لقاء تنكريد (Tancrède)؛ ليطالبه بحصَّة أبيه في أنطاكية، واللاذقيَّة.

وافق تنكريد (Tancrède) على إجابة مطالبه بشرط أنْ يساعده في حملته التي ينوي القيام بها ضد البيزنطيين في المصِّيصَة، ولمَّا رفض برتراند هذا الشرط؛ طلب منه تنكريد الرحيل فوراً، فاضطر برتراند أنْ يتجه بأسطوله إلى أنطرطوس[3].

في سنة 502 هـ/ 1108م، طلب برتراند (Bertrand) من وليم جوردان (Guillaume Jordan) أنْ يعطيهُ أنطرطوس، وجبيل، وعِرْقة، فهي ميراثه من أبيه، وهو أحقُّ به منه، ولكنه رفض؛ لأنَّه هو الذي حافظ عليها، وقاتل دونها.

احتدم الخلاف بين الرجلين، وانقسم الجيش فريقين: فريق يؤيد بتراند (Bertrand)، وفريق آخر يساند وليم (Guillaume Jordan) الذي استنجد بتنكريد (Tancrède) ووعده أنْ يدخل في طاعته، وأنْ يصير تابعاً له إذا هو مكَّنه من البقاء فيما تحت يده من بلاد، وأعانه في حربه ضد منافسه.

أسرع برتراند بمحاصرة طرابلس من البحر، وأرسل في طلب مساعدة بدوين (Baudouin de Boulogne)[4]، ملك بيت المقدس وأعلمه بالحلف الموقع بين وليم وتنكريد، وتعهَّد له بالولاء والطاعة، وبذل له من الوعود مثل ما فعل خصمه.

---

(1) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1 ص 152.

(2) السويدية: ميناء أنطاكية. انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 29.

(3) انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 357، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص115.

(4) مؤسس إمارة الرها، وشقيق جودفري حامي القبر المقدس، ولمَّا مات طُلِبَ بلدوين ليخلف أخاه على حكم مملكة بيت المقدس، وهلك سنة 1118م. انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 270 ـ 329، وانظر: .Cam. Med. His. V.5 p. 304

وانظر: .Richard, J; Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris 1945.p. 123

سارع ملك بيت المقدس بالحضور، ومعه فرقة من الفرسان، تعدادها خمسمائة فارس، وكان اللقاء في قلعة صنجيل حيث أقسم برتراند (Bertrand) يمين الولاء لبدوين (Baudouin de Boulogne) الذي دعا إلى اجتماع عام يحضره جميع الأمراء الصليبيين، لفض هذا النِّزاع.

حضر الاجتماع كل من بدوين دو بورج (Baudouin de Bourges)، ووليم جوردان (Guillaume Jordan)، وتنكريد (Tancrède)، وأثمرت جهود ملك بيت المقدس في الوصول إلى اتفاق أرضى الطرفين، وكان أساسه تقسيم التركة قسمين:

أ ـ يأخذ جوردان (Guillaume Jordan) عِرْقة وأنطرطوس اللتين استولى عليهما بعد وفاة ريموند Raymond IV de Saint-Gilles.

ب ـ يأخذ برتراند (Bertrand) جبيل، وقلعة صنجيل.

جـ ـ يتعاون الجميع على فتح طرابلس، وعلى أنْ تكون من نصيب برتراند (Bertrand).

د ـ إذا توفي أحدهما دون أنْ يعقِّب ولداً فإنَّ الآخر يرثه في جميع ممتلكاته[1].

تعاون الجميع على الاستيلاء على طرابلس، ولم تمض إلاَّ أيَّام قلائل، حتَّى اغتيل وليم جوردان (Guillaume Jordan)، في ظروف غامضة.

يكاد يتفق المؤرخون على أنَّها مؤامرة من برتراند (Bertrand)، ويبدو أنَّه ـ بناء على رواية ابن القلانسي ـ وضع في طريقه إلى عِرْقة رجلاً من الفرنجة يزرع في الأرض التي هي من أملاك جوردان، إثارة لغضبه، ولَمَّا أراد إبعاده وطرده؛ ضربه الإفرنجي ضربة قاتلة، وبذلك بدا موته وكأنه مصادفة بحتة، لا أثر للتدبير فيها[2]، وبموته ضم برتراند إليه كلَّ أملاك أبيه في الشام، ماعدا أنطرطوس التي احتفظ

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 163، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8 ص 259، وانظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 358، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 116.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 163.

بها تنكريد (Tancrède)، وزاد عليها بانياس[1]، وجَبَلَة، وحصن الأكـراد[2] وغيرهـا من الحصون[3].

اختلف المؤرخون في تحديد الوقت الذي انهـارت فيـه المقاومـة في طـرابلس، وسقطت في أيدي الصليبيين، وأقرب التواريخ إلى الحقيقة هو يوم الاثنـين 11 مـن ذي الحجة سنة 502هـ/ الموافق 12 من يوليو سنة 1109م، وذلك بحـسب روايـة أكثر المؤرخين المعاصرين للحدث والقريبين منه[4].

أصبحت طرابلس إمارة صليبية، تابعة لبيت المقدس إلى أنْ تـوفي برترانـد في سنة 1112م الموافق 505هـ، وتولى العرش من بعده ابنه بونز «Pons».

كان الأوصياء على بونز «Pons» قد بعثوا بـه إلى أنطاكيـة، ليـتعلّم الفروسـيَّة هناك[5]؛ ولذلك سار في سياسته على طريق مخالفـة لـسياسة أبيـه وجـدِّه، فرغـب في التخلُّص من تبعيّته لملك القـدس، والبيزنطيـين، وسـعى إلى التقـارب بينـه وبـين تنكريد (Tancrède) الذي رشَّحه للزواج من أرملتـه سيـسيليا (Sécile) الفرنـسية بعد موته وفي الوقت نفسه أقطعه أنطرطوس، وصافيثا، ومراقية، وحصن الأكـراد، وبذلك اتّسعت كونتية طرابلس، ووصلت إلى أقصى حدودها في عهده[6].

---

(1) بانياس: بلدة صغيرة، غرب دمشق، والصُبَيْبَة قلعتها. انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 248.

(2) حصن الأكراد: حصن منيع، على الجبل الذي يقابـل حمص، من جهة الغرب.

انظر ياقوت: معجم البلدان جـ 2 ص 264، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً، ص 163 وانظـر: أبـو الفداء: تقويم البلدان ص 258.

(3) انظر: سالم: طرابلس الشام ص 147 ـ 148.

(4) كابن القلانسي، وغيره، وانظر تحقيق التاريخ في المرجع السابق ص 121.

(5)انظـر: ابـن القلانـسي: المرجـع الـسابق ص 181، وانظـر: سـعيد عاشـور: الحركـة الـصليبية جــ1/ ص377، وانظـر: سـالم: طـرابلس الـشام ص 150 وانظـر: رنـسيمان: المرجـع الـسابق جـ2/ ص202.

(6) انظر: ابن القلانسي: المـصدر الـسابق ص 181، وانظـر: رنـسيمان: المرجـع الـسابق جــ2 ص 202 و203، وانظر: سالم: المرجع السابق ص 150.

أراد بونز Pons تأمين حدود إمارته، فاستولى على حصن رَفَنِيَّة في سنة 509هـ/ 1115م[1]، وأغار على سهل البقاع في العام التالي وأسس فيه قلعة بَعْرِين[2] القائمة على السفوح الشرقية من جبال النصيرية لحماية مدخل البقيعة، وعندما هاجمته جيوش دمشق بقيادة طغتكين فرَّ راجعاً إلى طرابلس، واستطاع طغتكين الاستيلاء على حصن رفنية المنيع، فاضطرَّ بونز إلى الاستعانة ببدوين لمساعدته في استعادتة، واستطاعا الاستيلاء عليه في سنة 520هـ/ 1126م قبل أنْ تتمكن جيوش دمشق من إنقاذها، وكان سقوطها في أيدي الفرنجة حدثاً هامّاً؛ لأنَّ رفنية حمت طرابلس، وضمنت اتصالها ببيت المقدس وأنطاكية[3].

لم ينعم بونْز (Pons) بالاستقرار في آخر أيّامه إذ هاجمته جيوش دمشق والتركمان، بقيادة الأمير شجاع الدولة بزْوَاج، وتمكَّنت من قتله قرب قلعة صنجيل بمساعدة بعض نصارى طرابلس الوطنيين، في يوم الأحد 4 من رجب سنة 531 هـ/ 28 من مارس سنة 1137م[4].

حكم طرابلس بعد بونز أميران من البيت التولوزي، هما: ابنه ريموند الثاني (532 ـ 547هـ/ 1137 ـ 1152م) وحفيده ريموند الثالث (547 ـ 583 هـ/ 1152 ـ 1187م) وكانت ميولهما إلى العرب، وسياستهما التعاون مع السلطات الحاكمة العربية إلى الحد الذي أصبح فيه صلاح الدين الأيوبي حامياً لهما من غارات الصليبيين[5].

---

(1) رَفَنِيَّة: كورة، ومدينة من أعمال حمص، وقيل عند طرابلس. انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ 3 ص55، ويبدو أنّها خُرِّبت، فقد ذكر أبو الفداء أنّها على مرحلة إلى الجنوب الغربي من حماة، بنى مكانها قلعة بارين. انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 259.

(2) بَعْرِين: ذكر ياقوت أنّها بين حمص والساحل، وتتلفظ بها العامة هكذا، وهو خطأ، والصواب أنّها بارين، المذكورة في الحاشية السابقة. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1 ص 320 و 452.

(3) انظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 150.

(4) انظر: تاريخ ابن الفرات جـ 8 ص 79، وانظر: سالم: المرجع السابق ص 151.

(5) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 68.

وانظر: Stevenson W. B.; The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, p.211.

بعد هزيمة الصليبيين في حطين سنة 583هـ/ 1187م،توفي ريموند الثالث، وبوفاته انتقل حكم طرابلس إلى أمراء البيت النورماندي الحاكم في أنطاكية[1].

حكم طرابلس من البيت النورماندى أربعة أمراء، كلهم يحمل اسم بوهمند (Bohémond)، وهم:

بوهمند الرابع (583 ـ 631 هـ/ 1187 ـ 1233م)

وبوهمند الخامس (631 ـ 649 هـ/ 1233 ـ 1251م)

وبوهمند السادس (649 ـ 674 هـ/ 1251 ـ 1275م)

وبوهمند السابع (674 ـ 686 هـ/ 1275 ـ 1287م)

ويتسم حكم هذا البيت بالعداء الشديد للعرب وللمسلمين والتحالف مع المغول والبيزنطيين ضد المسلمين، وفي الوقت نفسه كان للصراع بينهم وبين ليون العظيم ملك أرمينية من جهة، وبينهم وبين فرسان الداوية والإسبتارية من جهة أخرى أكبر الأثر في إضعاف الصليبيين، وتفتيت قوتهم في الشام، وتدخلت المدن التجارية الإيطالية في هذا النِّزاع، فاستحكمت الفوضى في المدينة، واستمرَّت إلى أنْ تمكَّن السلطان المنصور[2] من الاستيلاء عليها في سنة 688 هـ/ 1289م والقضاء

(1) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 77.

(2) أبو المعالي، سيف الدين، الملك المنصور قلاوون، الألفي العلائي، الصالحي النجمي (620 ـ 689 هـ/ 1223 ـ 1290م) أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك، وهو من أعظم ملوك العصور الوسطى انتصر على التتار، وعلى ملك النوبة، واسترد أكثر مدن الساحل من الصليبيين. انظر: ابن عبد الظاهر، عبد الله: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961م، ص 678 ـ 689، وانظر: اليوسفي، موسى بن محمد: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، 1986م، ص 187 وما بعدها، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 24 ص 266، وانظر: المقريزي: السلوك،، ق 1، جـ 3، ص 13، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 7، ص 292، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 5 ص 203.

على تلك الإمارة الصليبية[1]، حيث أمر بهدم المدينة بما فيها من العمائر والدور والأسوار، وأنشأ مدينة أخرى جديدة على ضفتي نهر أبى علي، على بعد نحو ميل من المدينة القديمة[2]، ويحقق هذا الموقع الجديد الأمن للمدينة من غارات الفرنجة الذين بدؤوا يتجمعون في عكا وقبرص استعداداً للإغارة على طرابلس، وفي الوقت نفسه يجعل المدينة الصليبية في طي النسيان[3].

الوضع السياسي والحربي في المدن الساحلية الأخرى:

كان لسقوط طرابلس في أيدي الصليبيين آثار بعيدة المدى على مدن الساحل الأخرى، فقد انهارت مقاومة المدافعين عنها، وضعفت عزائمهم، واستولى اليأس على نفوسهم وشلَّ حركتهم واغتنم الصليبيّون فرصة الاضطراب الذي شمل البلاد، في ذلك الوقت؛ فكثَّفوا من غاراتهم وضاعفوا جهودهم للاستيلاء على المدن التي في أيدي المسلمين، فبدأت تتساقط في أيديهم واحدة بعد الأخرى، وتفصيل ذلك:

* نزل تنكريد (Tancrède) على جَبَلَة، وحاصرها حصاراً شديداً، أرغم فخر الملك بن عمّار على طلب الأمان، وتسليم الحصن في 22 من شهر ذي الحجة سنة 502 هـ/ 23 من يوليو سنة 1109م[4].
* نزل برترند (Bertrand) على رفنيّة، وحاصرها، فخرج إليه طغتكين من دمشق للدفاع عنها، ولكنه لم يستطع ردَّ الصليبيين عنها، فاضطر إلى مصالحتهم في مقابل:
  1 ـ أنْ يقدِّم إليه ثلث إنتاج إقليم البقاع من الحاصلات الزراعية.
  2 ـ أنْ يسلم إليهم حصني المنيطرة، وعكار[5].

---

(1) انظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 162 ـ 177.
(2) انظر: ابن كثير: المصدر السابق جـ 13 ص 313، وانظر: المقريزي: السلوك جـ 1 ق 3 ص 748.
(3) انظر: سالم: المرجع نفسه ص 370.
(4) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 164.
(5) المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 217.
حصن عكار: هو حصن في جبل عكار الواقع في شرقي طرابلس. انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص68، وانظر: فولفغانغ مولر: المرجع السابق ص 55.

3 ـ أنْ يقدِّم أهل مصياف[1] وحصن الأكراد، وحصن الطوفان جزية مالية كل سنة[2].

* اجتمع بدوين (Baudouin 1er) ملك بيت المقدس، وبرتراند (Bertrand) ملك طرابلس، وجوسلين صاحب تل باشر[3] على بيروت، وحاصروها براً، وبحراً، وعبثاً حاول الفاطميُّون حماية المدينة، فلمَّا يئس صاحب بيروت من المساعدة فرَّ في سفينته ليلاً إلى قبرص، واضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أنْ حصلوا منه على الأمان، ولكن الجنوية والبيازية أحدثوا في المدينة مذبحة رهيبة، بعد سقوط المدينة في أيديهم في 13 من مايو سنة 1110م/ 503هـ[4].

* واغتنم بدوين (Baudouin 1er) وصول أسطول من الحجاج النرويجيين، بقيادة ملكهم سيجورد (Sigurd) فاستعان به في حصار صيدا التي تم الاستيلاء عليها في ديسمبر، من نفس العام[5].

وبسقوط طرابلس سقطت كل هذه المدن الساحلية، وتمكَّن الصليبيون من استئصال المقاومة العربية حول طرابلس، وغيرها من الإمارات الصليبية.

الأوضاع في الريف ونشأة المستوطنات الزراعية:

كان لموقع طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي علي أثر كبير في اهتمام أهلها بالزراعة، فأخذوا يصلحون الأرض ويستنبتون الأشجار في المناطق

---

(1) مصياف: بلدة جليلة، بها أنهار صغار، ولها قلعة حصينة، على بعد فرسخ غربي حماة. انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 229.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 165.

(3) تل باشر: حصن على مرحلتين من حلب، فيه المياه، والبساتين.
انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 232.

(4) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 168، وانظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 145، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 301، وانظر: رنسيمان: الرجع السابق جـ 2، ص 150.

(5) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 147، انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 301، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2، ص 151.

المحيطة بالمدينة، والتي كانت تسمى بالمرج أو الغوطة وامتد نشاط السكان إلى سفوح الجبال القريبة منها، واشتهرت طرابلس بالجمع بين الثمار المصرية والشامية، ففيها قامت زراعة قصب السكر، والنخيل، والفاكهة[1]، قال الأنطاكي: «ووصل من طرابلس الشام ـ يريد: إلى مصر ـ حمائم[2] تحمل هديَّة من فاكهة يابسة ورطبة وغير ذلك من المأكولات»[3]، وقال الإدريسي: «لها رساتيق، وأكوار[4]، وضياع جليلة، وبها شجر الزيتون، والكروم، وقصب السُّكَّر، وأنواع الفواكه، وضروب الغلات الشيء الكثير»[5].

وترتب على الإنتاج الزراعي المتنوع والوفير أنْ قامت في طرابلس كثير من الصناعات التي عرفت بها، وذاعت شهرتها في العالم كصناعات السكر، والصابون، والورق، والمنسوجات الحريرية[6].

---

(1) انظر: الإصطخري: المصدر السابق ص 61، وانظر: ناصر خسرو: المصدر السابق ص13، وانظر: ابن كثير: المصدر السابق جـ 13 ص 313.

(2) نوع من السفن النيلية الصغيرة. انظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة، 1967م، ص340.

(3) الأنطاكي: المصدر السابق ص 290.

(4) الرُّسْتَاق لفظ فارسي، أصله روستا، عرَّبه العرب بصور متعددة، واختلفوا في معناه: أمَّا أكثر صوره شيوعاً فهي: رزداق، ورسداق.. وأمَّا معناه فقيل: السواد ـ بمعنى: جماعة النخل والشجر ـ والقرى، وقيل: البيوت المجتمعة. انظر: ابن برِّي: المصدر السابق، ص 91، وانظر: ابن منظور: المصدر السابق، مادتي: «رستق، ورسدق» جـ 10/ ص 116، وانظر: الفيروزبادي: المصدر السابق «رزداق» جـ 3/ ص 235، وانظر: الخفاجي: المصدر السابق ص 133، وانظر السيد أدّي شير: المرجع السابق ص 71.

والكورة: المدينة، والصقع، وقيل: القرية. انظر: ابن منظور: المصدر السابق، «كور» جـ5/ ص 156، وانظر: الخفاجي: المصدر السابق ص 225.

(5) انظر: الإدريسي: المصدر السابق جـ 1 ص 372.

(6) انظر: ناصر خسرو: المصدر السابق ص 15، وانظر: فيليب حتّي: لبنان في التاريخ جـ/ ص، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 380.

بعد أنَّ أسس الصليبيون إمارتهم في طرابلس، كان لا بدَّ لهم من الاستيلاء على الأراضي المزروعة حولها؛ لتوفير الغذاء والمؤونة لسكانها، وبخاصة أنَّهم يطبِّقون التشريعات الإقطاعيَّة التي اعتمدتها مملكة بيت المقدس اللاتينية، فقد سنَّ الحكَّام الصليبيُّون ما أسموه «قانون الغزو Law of Conquest» الذي يعطي الفرسان الحق في امتلاك ما يحصلون عليه في المدن التي يحتلُّونها، وطبِّق هذا القانون الغريب على الممتلكات الريفية بتحويلها إلى إقطاع، حتَّى إنَّ كثيراً من القرى لم تعد تذكر بالاسم القديم، أيّاً كان أصله، وأصبحت تعرف باسم المحارب الصليبي الذي امتلكها، ولهذا ادَّعى الفرسان امتلاك عدد كبير من القرى في ظل هذا القانون[1] كان الملك الصليبي في بيت المقدس هو السيد الإقطاعي الأعلى للغزاة، وعندما يتم الاستيلاء على مدينة، أو أرض يقوم بتقسيمها إلى إقطاعات صغيرة، يمتلكها سادة إقطاعيُّون، ويصبح من حقهم إقطاع جزء من أملاكه لأحد أفصاله مقابل تأدية الخدمة العسكرية التي يطلبها منه السيِّد[2].

كانت الإقطاعات في المدن الساحلية والأراضي التابعة لها توزع على عدد المسهمين في عملية الغزو، ويكون للمدينة الإيطالية التي شارك أسطولها في الحصار نصيب من الغنيمة، كما هو متّفق عليه، وفي الغالب كانت تفضِّل تلك المدينة الحصول على نصيبها من العقارات والأسواق، وتستبدل بنصيبها من الأرض الزراعية عقارات ومباني يمكنها الاستفادة بها؛ فقد كانت الأرض حول صور قسِّمت ثلاثة أجزاء متساوية، اثنان منها لسلطة المدينة، «أمَّا الجزء الثالث الذي وقع داخل المدينة، وفيما حول المرفأ، فقد أُعْطِيَ إلى أهل البندقية نتيجة تنازلات متبادلة، تمَّ الاتفاق عليها، واحداً إثر الآخر، ليحتفظوا به حقّاً وراثياً لهم ثم عاد الجميع إلى بلادهم»[3]، كما منح بدوين (Baudouin) الجنويين ثلث كل مدينة من المدن

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 87.

(2) انظر: يوشع براور: الرجع نفسه ص 89.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 217 ـ 218.

الساحلية فتحت،أو ستفتح في المستقبل ومعها مساحة مماثلة من الأرض المجاورة، مع الإعفاء من الجمارك، وميزات أخرى[1].

كما كان للبيازية نصيبهم من الغنيمة أيضاً[2].

لم يكن في استطاعة الصليبيين أنْ يزرعوا الأرض بأنفسهم لأسباب كثيرة، منها:

1 ـ قلة عددهم، وتناقصهم يوماً بعد يوم، وبخاصة بعد أنْ أبحر أكثر المشاركين في الحرب عائدين إلى ديارهم، في غرب أوربا بعد النصر وتأسيس مملكة بيت المقدس.

2 ـ كان بعض الفرسان يقحمون أنفسهم في مغامرات خطيرة، تمثَّلت في اعتداءاتهم على الريف حيث كان الأهالي ينصبون لهم الكمائن، ويقتلونهم[3].

3 ـ كان من الضروري أنْ يظلُّوا في حالة استعداد دائم لخوض الحروب، ويمكن تشبيه وضعهم في الشام وقتئذ بالجُزُر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء المتربصين بهم[4].

لهذه الأسباب بقيت الأرض في أيدي أصحابها من العرب، يزرعونها، ويدفعون عنها قدراً معيناً من المال، أو الثمار[5].

الإقطاع والكنيسة والاستيطان في كونتية طرابلس

كانت الحروب الصليبية مشروعاً بابوياً، مما جعل البعض يصف البابوية بأنَّها «مركز استيطاني استعماري»[6]، وعندما تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس،

---

(1) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1 ص 151.

(2) انظر: هايد المرجع نفسه جـ 1 ص 149.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 88.

(4) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1 ص 253، وانظر: Grousset; op. Cit, V.1, p. 181.

(5) انظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 148.

(6) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 574.

اعتبرت المملكة اللاتينية التي أسست فيه «إقطاعاً كنسياً»[1]، وقد خوّل البابا باسكال الثاني (Pascal II)[2] في روما نائبه في بيت المقدس، هو أو من يخلفه أو يعين من قِبَلِه، بموجب مرسوم أصدره في أن يكون له التصرف بحق البطركة، والمطرنة، بجميع المدن، والمقاطعات التي أعادتها البركة الإلهية إلى حكم الملك المذكور - يقصد بدوين ملك بيت المقدس (Baudouin 1er) - أو قد تتلطّف بإعادتها في المستقبل.

إذ إنَّ من المناسب «أنْ تحظى كنيسة قيام الرب على الإجلال الذي يحقّ لها، وفقاً لرغبات جنود الدين، وأنْ تحظى بعد أنْ تحررت من براثن الأتراك والشرقيين بقدر أوفر من التبجيل على أيدي المسيحيين»[3].

كان لا بدّ من حدوث خلاف بين نائب البابا في القدس، والملك بسبب تقسيم الغنائم، وتوزيع الإقطاعات، مما دعا إلى انعقاد مجمع نابلس في سنة 1120م/ 514هـ الذي ضمَّ أهم رجال الدين والأعيان، ودفع الملك الثمن السياسي للكنيسة التي نصَّبته على العرش، وكان من بين القرارات التي اتُّخذت قرار بمنح الكنيسة حقّ التصرُّف بالعُشر الكنسي الذي حرمت منه منذ فترة طويلة[4]؛ وبموجب هذا النص أصبحت الإقطاعات تمنح من ملك بيت المقدس، ومن البطريرك، ومن الأمراء، وكما تمنح للمقاتلين، تمنح أيضاً لرجال الدين، فقد رأينا أنَّ ريموند الثاني (Raymond II) صاحب طرابلس يمنح فرسان الإسبتارية حصنى الأكراد، ورفَنِيَّة للدفاع عن إقليم البقاع[5].

وأمَّا عموري الأول (Amaury 1er)[6] ملك بيت المقدس الذي كان مشغولاً بالإعداد لغزو مصر فقد أخذ منذ سنة 1167م/ 563هـ في توسيع منحه القلاع،

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع نفسه ص 56 - 57.

(2) تولَّى البابوية في الفترة من 1099 إلى 1118م.
انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p 1594.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 217.

(4) انظر: هانس ماير: المصدر السابق ص 121.

(5) انظر: Stevenson; op. cit., p.147.

(6) انظر: Schlumberger; Campagnes du Roi Amaury de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906, P.58-116.

والحصون، والمدن للإسبتارية، والداويّة، إذْ وجد في هاتين المنظمتين الدينيتين خير وسيلة تكفل له الدفاع عن الإمارات الصليبية في الشام، فبسط الداويّة نفوذهم على أنطرطوس، ومعظم الأراضي الواقعة شمالي كونتية طرابلس، وفي الوقت نفسه سيطر الإسبتارية على سهل البقاع وحصون: الأكراد، وعِكّار، وعِرْقة(1).

وكذلك فعل بوهمند الثالث (Bohémond III) صاحب أنطاكية إذْ منح الدّاويّة كثيراً من الحصون الشمالية من إمارته حول بَغْرَاس(2)، كما منح الإسبتارية المناطق الجنوبية منها(3).

تمتَّع الإسبتاريَّة باستقلال القرار، فكان مقدم الاسبتارية يغير على أراضي المسلمين، ويعقد معهم المعاهدات، كما لو كان أميراً مستقلاً، ودون الرجوع إلى أحد، وقد أدَّى نشاطهم في محاربة المسلمين إلى:

1 ـ خلق جو من التوتر الشديد بين كونتية طرابلس، وهذه المنظمة، فقد كان بوهمند الرابع (Bohémond IV) حريصاً على ألاَّ يقحم نفسه في خوض حروب جديدة مع جيرانه المسلمين، ولمَّا كان الإسبتارية يغيرون من وقت إلى آخر على بعرين، وحماة، واللاذقية، فقد عمل بوهمند على الانتقام منهم، فجرَّدهم من جميع ممتلكاتهم في أنطاكية وطرابلس، وأعدم بعضهم(4).

2 ـ تفريق كلمة الصليبيين، وتفتيت قوتهم في شمال الشام، ودخولهم في صراعات عنيفة بينهم بعضهم مع بعض، فقد كان الإسبتارية يتعصبون للأرمن ضد الداوية، وتكرر النِّزاع بين المنظمتين بسبب هذه العصبية، ووقوف بوهمند الرابع

---

(1) انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 2 ص 693، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 167.

(2) بَغْرَاس: مدينة في لحف جبل اللُّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، ذات قلعة مرتفعة، ولها أعين، وبساتين. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1 ص 467، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 258.

(3) انظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 2 ص 714، وانظر: سالم: طرابلس الشام ص 167.

(4) انظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 3 ص 14 8، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ 3 ص103، وانظر: عاشور: الحركة الصليبية جـ 2ص 991.

(Bohémond IV) مع الداوية، مما أوجب تدخّل البابا، فمنع الاعتراف بشرعية حكم بوهمند (Bohémond IV)، ونزع عنه لقب الإمارة، وسمح للإسبتارية بمقاومة أعماله التعسفية بقوة السلاح بل إنّ البابا جريجوار التاسع (Grégoire IX) حضّهم في يناير من عام 1228م/ 626 هـ على إخراجه من أنطاكية[1].

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تدخّل فيها بابا روما في النزاع القائم في شمال الشام، فقد سبق أنْ تخلّى ليون العظيم (Léon) ـ ملك أرمينية ـ عن حصن بَغراس ـ على بعد أربعة فراسخ من أنطاكية في طريق حلب ـ للداويّة نظير مساعدته في الدخول إلى أنطاكية، وقتما يشاء، والوقوف معه في اختيار حفيده روبان (Robin) ـ وهو الابن الأكبر لبوهمند الثالث (Bohémond III) ـ من زوجته الأرمنية أليس (Alice) ابنة أخت ليون (Léon)، ووريثاً لعرش أبيه، بعد وفاته، بناء على الاتفاق الموقع بينهما عندما وقع بوهمند الثالث في أسر ليون (Léon)، في سنة 1194م/ 591هـ، ولم يفرج عنه ليون إلاّ إذا تعهد بوهمند بأن يرث روبان أباه في كل من أنطاكية وأرمينية.

أثار هذا الاتفاق غضب أهل أنطاكية وكنيستها؛ فإنّهم كرهوا وجود حامية أرمينية على حدود إمارتهم، وعارضت الكنيسة التدخل في شؤون منظمة دينية، تابعة لها، وتجريدها من حق من حقوقها، لصالح أمير ملحد، لا ديني، ولهذا أجمع بطريرك أنطاكية، وبوهمند الرابع (Bohémond IV)، ومجلس العموم بأنطاكية، وتضامن معهم بوهمند الثالث (Bohémond III) على استنكار رفض ليون (Léon) لمطالب الداويّة، وبعثوا احتجاجاً على هذا الرفض إلى البابا[2].

طال هذا الصراع على العرش، بعد هلاك بوهمند الثالث (Bohémond III)، وحاصر ليون (Léon) أنطاكية أكثر من مرّة، يؤيده الإسبتارية، بينما قام الداويّة بنصرة بوهمند الرابع، وتحالف معهما العدو الأول للملك ليون الأرمني (Léon)،

---

(1) انظر: Cahen C.; La Syrie du Nord à l' époque des Croisades, Paris, 1940, p. 634.

(2) انظر: Cahen C.; op. cit. p. 593.

وهو الظاهر غازي[1] صاحب حلب، ونجح هذا التحالف في صد ليون عن أنطاكية[2].

3 ـ كان من نتائج هذا الصراع الديني أيضاً أنْ انضمت هاتان المنظمتان الدينيتان العسكريتان، في بعض الأوقات إلى التحالف مع المسلمين ضد الصليبيين، بحكم الخصومات القائمة بينهم، فقد تحالف فرسان الدَّاوية مع دمشق ضد الإسبتارية ومصر، وكانت بينهم وقائع ضارية[3].

4 ـ تجدَّد الصراع على العرش بوفاة بوهمند السابع (Bohémond VII) في عام 1287م/ 686 هـ، ولم يكن له وارث؛ فطمع في الملك فريقان ولكل منهما أنصار:

الأول: لوسيا (Lucie) أخت بوهمند (Bohémond VII)، والوريث الشرعي للإمارة، بعد وفاة أخيها ويساعدها البنادقة والبيازية، ومعهم الإسبتارية بتأييد من أسقف طرابلس.

والآخر: أمير جبيل جي الثاني (Sire Guy II)، ومعه الجنوية، والدَّاويّة، بتأييد كل من: أسقف أنطرطوس، والسلطان المنصور قلاوون.

ونشب القتال بين الفريقين، ونزل أمير جبيل طرابلس ليلاً وكان أميرها قد أخذ الحيطة، فأمر جنوده بالقبض على من ظفروا به، وحاول جي الالتجاء إلى

---

(1) غازي بن محمد بن غازي بن صلاح الدين، الأيوبي، من أمراء الدولة الأيوبية، كان شجاعاً، جواداً، قتله هولاكو سنة 659 هـ/ 1261م. انظر: الحنبلي: أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م، ص 374، وانظر: الزبيدي، محمد بن محمد: ترويح القلوب في ذكر الملوك من بنى أيوب، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969م، ص 94.

(2) انظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 3 ص 140 ـ 154، وانظر: ابن تغري بردي المصدر السابق جـ6 ص189، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 164.
وانظر: Cahen C.; op. cit. p. 602.

(3) انظر: تدمري، عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس، مؤسسة الرسالة، ودار الإيمان، بيروت، 1984م، جـ1/ ص575 .

الداويّة، والاحتماء بهم، ولكنّهم سلّموه إلى أمير طرابلس الذي أهلكهم جميعاً غرقاً[1].

وعلى أثر ذلك نشبت الحرب بين الإسبتارية والداويّة، وأعلن فرسان طرابلس وتجارها الاستقلال بالمدينة، وقيام كوميونة مستقلة بطرابلس يرأسها بنديتو زاكاريا (Benedetto Zaccaria) الجنوى، وأصبحت إمارة طرابلس جزءاً من جمهورية جنوة[2]، ولكن الأحوال ظلّت مضطربة قلقة إلى أنْ استولى السلطان قلاوون عليها.

نتائج الاستيطان في كونتية طرابلس:

كانت إمارة طرابلس أحدث الإمارات الصليبية الأربع الكبرى إنشاء وآخرها أيضاً سقوطاً، وكان سقوطها في أيدي المسلمين يعني القضاء على آمال الصليبيين في البقاء في الشام.

كان تأسيس الإمارة ثمرة جهود التعاون بين مملكة بيت المقدس، وإمارة أنطاكية، والأسطول الجنوي، وتعهّد من برتراند (Bertrand) بالتبعية والولاء للملك بدوين (Baudouin)، وصلح بين الأمراء المتنازعين، وبعد أيّام قلائل من الصلح أغتيل جوردان وليم (Guillaume Jordan)، ولمّا تم للصليبيين الاستيلاء على طرابلس أصبحت إقطاعاً لبرتراند، وتابعة لمملكة بيت المقدس، وكان من الطبيعي أنْ يسارع برتراند (Bertrand) في تقديم المساعدة لبدوين أثناء حصار بيروت.

أصبح الحكم في الإمارة وراثياً، يتولاّه الابن الأكبر دون غيره من الأولاد الذكور، أمّا الفتيات فلم يكن لهن نصيب في الحكم إلاّ إذا لم يكن للمتوفي وارث ذكر، وهو النظام نفسه السائد في النظم الإقطاعية في أوربا[3].

---

(1) انظر: اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، 1992م، جـ 4 ص 171، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 7 ص 316 ح 2، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 176، وانظر: Stevenson; op. cit., p.348.

وانظر: Michaud J. F.; Histoire des Croisades, Paris, 1817 - 1822, V.4, p.650.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 573.

(3) انظر: سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 2 ص 49، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 197.

إذا ترك المتوفّى غلاماً قاصراً، وضع تحت الكفالة، أو الوصاية، ويشترط في الكافل أنْ يكون أقرب الأقرباء للكونت القاصر، ويتولى شؤون الإمارة إلى أنْ يكبر الصغير، ويحصل على لقب «فارس» فيسلّمه الكفيل مقاليد الحكم.

كانت الكفالة في إمارة طرابلس على النحو التالي:

1 ـ عندما وقع ريموند الثالث (Raymond III) في أسر نور الدين محمود، وقضى في أسره إحدى عشرة سنة (559 ـ 570 هـ/ 1163 ـ 1174 م) كان الوصي على طرابلس، في هذه الفترة هو عموري الأول (Amaury Ier) ملك بيت المقدس[1].

2 ـ عندما توفي برتراند (Bertrand) تولّى الوصاية على بونز (Pons) مجلس مكوّن من كبار رجال الدولة، وبتدبير تنكرد صاحب أنطاكية[2].

3 ـ اختير للوصاية على ريموند الثالث (Raymond III) رجل من مقدمي العسكر يعرف باسم البيرتوس (Albertus)[3].

وبوفاة برتراند (Bertrand) بدأت المحاولات للتخلص من التبعية إلى بيت المقدس، وبدأ بونز بالتقرب إلى أنطاكية.

سار خلفه من بعده على السياسة نفسها، في محاولة التخلص من التبعية إلى بيت المقدس، والتحالف مع المسلمين، فقد تحالف ريموند الثاني (Raymond II) مع زَنْكِي، وتحالف ريموند الثالث (Raymond III) مع صلاح الدين بالرغم من وصايته على عرش بيت المقدس.

وأما أمراء طرابلس من البيت النورماندي، فقد ارتبطت بأنطاكية، في عهدهم، وحاولوا التقرب إلى المغول، ومن هنا نلاحظ في جميع الحالات أنَّ كونتية طرابلس كانت شبه مستقلة ولم تكن تبعيّتها إلا تبعية اسمية فقط.

---

(1) انظر: السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه ص 159.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 181، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص198.

(3) انظر: السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه ص 199، وانظر: Richard, J; op. cit.p 47.

ومن الناحية الدينية كان في طرابلس أربع أسقفيات تتبعها تسع مدن وردت في التشريعات باسم Civitates، وهذه الأسقفيات هي:

* ـ أسقفية أنطرطوس، وتتبعها جزيرة أرواد، ومراقية.

* ـ أسقفية طرابلس، وتتبعها البترون، وعِرْقة، وأرطوسية.

* ـ أسقفية جبيل.

* ـ أسقفية رفنيّة.

وبحسب التنظيم الكنسي كانت هذه الأسقفيات كلها تتبع أسقفية صور، التابعة بدورها إلى بطريركية أنطاكية، وكان التنظيم الداخلي فيها يوافق نظائره في الكنائس الغربية، فقد كان لكل منها مجمع إقليمي يضم عدداً من رجال الكهنوت النظاميين، والقساوسة، ورئيس للقساوسة، والمرتلين، وحامل الأختام، ومعلم لاهوتي، ومتولي خزانتها، ومشرِّعها.

وكان للكنيسة إقطاعها، وأملاكها الخاصة، وكان من مواردها ضريبة العشور، وإيجارات العقارات، والأديار التابعة لها ويغلب على الظن أنْ الكونت كان يحتفظ ببعض الحقوق على أراضي الكنيسة، ويتدخلون في القرارات الأسقفية، وربما كان مرجع ذلك إلى أنَّ بعض الأمراء كانوا يقطعون الأساقفة بعض أملاكهم[1].

أسهمت الكنيسة في الصراع الدائر بين الأمراء بعضهم مع بعض، كما أيَّدت فرقة دينية ضد فرقة أخرى، مما كان له أكبر الأثر في تفريق كلمة الصليبيين، وتمزيق وحدتهم، وذلك في الوقت الذي بدأت فيه الصحوة العربية، وبدأت فيه حرب الاسترداد مما عجَّل بالقضاء على الإمارات الصليبية في الشام، وإفشال مشروعاتها الاستيطانية في الوطن العربي.

كان لسقوط بغداد في أيدي المغول في سنة 656 هـ/ 1258م، وقع الصاعقة في نفوس المسلمين، فقد وجدوا أنهم، وبلادهم بين خطرين داهمين ماحقين أحدهما

---

(1) انظر: Richard, J; op. cit.p 61.

المغول من الشرق، والآخر الصليبيون من الغرب، فكان عليهم أنْ يوحِّدوا صفوفهم وأنْ يقوّوا جبهتهم، وإلاَّ تخطّفهم العدو من كل جانب.

لم ينس الظاهر بيبرس[1] التحالف الصليبي المغولي في عهد بوهمند السادس أمير طرابلس، ضد المسلمين، ولذلك عقد العزم على توحيد مصر والشام، والعمل على إخراج الصليبيين، من البلاد، والقضاء عليهم قضاءً مبرماً، فبدأ بالإغارة على أنطاكية وطرابلس، ولما استعصت عليه عمد إلى احتلال القلاع المجاورة لها فاستولى على حصن الأكراد، وقلعتي حلبا، وعرقة، وتُمثِّل هذه القلاع الثلاث ما يشبه المثلث الذي يحمى طرابلس من جهتي الشمال والشمال الشرقي، ولم يمنعه من الاستيلاء على طرابلس في سنة 664 هـ/ 1265م إلاَّ هجوم الموارنة عليه، من الجبال، فاضطر إلى رفع الحصار عنها[2].

الظاهرة الاستيطانية بعد القضاء على الكونتية:

كان الاستيطان الإفرنجي محكوماً عليه بالفشل، والفناء؛ فلم يكن الصليبيون في يوم من الأيام حتى في القدس وسواها من المدن المحتلّة أكثر من أقليّة ضئيلة[3] في وسط محيط من المسلمين المتربصين بهم، والذين نجحوا في آخر الأمر في القضاء عليهم، والاستيلاء على طرابلس، بعد حصار طويل.

---

(1) أبو الفتح، بَيْبَرْس بن عبد الله، ركن الدين، العلائي، البُنْدُقْدَارِيّ، الملك الظاهر (625 ـ 676 هـ/ 1227 ـ 1277م) أصله من أسر القِبْجَاق، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وظل يرتقي إلى أنْ أصبح أتابك العسكر، في زمن الملك المظفر قُطُز، وكان واحداً من الأمراء الذين حقّقوا النصر العظيم على المغول في موقعة عين جالوت سنة 658 هـ/ 1259م، وشارك في قتل قُطُز، وأصبح سلطان مصر والشام، له دور بارز في جهاد الصليبيين. انظر: المنصوري: بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1987م ص 57، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 10/ ص329، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص 79.

(2) انظر: أبو الفداء: المختصر جـ 4/ ص 4، وانظر: المنصوري: المصدر السابق ص 65، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 266.

(3) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 232.

إلاّ أنَّ هناك أسباباً أخَّرت سقوط طرابلس في أيدي المسلمين، منها[1]:

* تعاون الباطنية[2] في الشام مع الصليبيين.

* وتعاون المردة[3] في الشام مع الصليبيين؛ فنجحوا في اغتيال بعض الزعماء، وفشلوا في بعض المحاولات، وهددّوا أمن الدولة في كثير من الأوقات[4].

(1) انظر: السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص 271 ـ 280.

(2) الباطنية: يطلق هذا اللفظ على عدد من الفرق الإسلامية، وغير الإسلامية، ظهر مذهبهم أيام المعتصم العباسي، محمد بن هارون الرشيد (ت 227 هـ/ 841م)، ومن أساليبهم التشكيك في المعتقدات الدينية، وفي الكتب المقدسة، ومذهبهم في الإمام علي ﷺ قريب من مذهب النصارى في المسيح، ومن فرقهم الحشّاشون.

انظر: الإسفرائيني: المصدر السابق، ص 281، وص 312، وانظر: الشهرستاني: المصدر السابق، جـ 1 ص 191، وانظر اليماني، محمد بن الحسن الديلمي: قواعد عقائد آل محمد، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر السيد عزت العطار، القاهرة، 1950م، ص 11 وانظر: مجهول: رسائل بين الملوك الأيوبيين، المخطوط رقم 419/ أدب، معهد المخطوطات، بالقاهرة، وهو غير مرقم انظر: «رسالة إلى مجاهد الدين قايماز» في سنة 599 هـ، وهي محققة ومنشورة في رسالة الساحلي: السياسة الخارجية للدولة الأيوبية ص 241، وانظر: العربي: إسماعيل: المصدر السابق، ص 55.

(3) المردة: وهم من الجنود المرتزقة عند الرومان، لا تعرف أصولهم، وقد سمّوا «الجُرَاجِمَة» نسبة إلى مدينة الجُرْجُومَة بالثغر الشامي، على جبل اللكام، قرب أنطاكيّة، وكان قادتهم من الرومان، ويقومون بغزوات مستمرة على شمال سورية تؤازرهم فرق عسكرية رومانية من البر، وأساطيل من البحر، مما اضطر الخلفاء إلى دفع الجزية لهم اتقاء لشرهم، ولمّا كانوا من المرتزقة فهم مع من يدفع أكثر، لذلك كان العرب يستعينون بهم كأدلاّء في معابر الجبال، وقد دمر مسلمة بن عبد الملك مدينتهم في سنة 90 هـ/ 708م، ففر بعضهم إلى بلاد الأناضول، وتوطّن بعضهم في سوريّة ولبنان حيث سمح لهم الخليفة الوليد بن عبد الملك أنْ يمارسوا طقوس دينهم النصراني دون أنْ يؤدّوا الجزية وأطلق عليهم العرب اسم «الرواديف» واندمج الجراجمة بسكان الجبال من النصارى، وأصبحوا يعرفون باسم «المردة» ومنهم تكوَّنت الطائفة المارونية المعروفة اليوم في لبنان. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 123، وانظر: فيليب حتّي: تاريخ لبنان ص 298.

(4) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 246، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص 227، وانظر: الساحلي: المرجع السابق ص 26، 41.

* تعدد جبهات القتال التي فرضت على المسلمين، فقد واجه الظاهر بيبرس حروباً متعددة ضد التتر في شمال الشام، وفي بلاد الأرمن، وفرسان الداوية، والإسبتارية[1]، وذلك بعد نصر المماليك العظيم على الخطر المغولي الماحق، في موقعة عين جالوت الشهيرة، في سنة 658هـ/ 1259م.
* حصانة المدينة، واحتياجها إلى أسطول بحري قوي[2].

تابع المنصور قلاوون سيرة الظاهر بيبرس، وصمم على تطهير الشام من الصليبيين، وبعد استيلائه على طرابلس، لم يبق في أيدي الصليبيين إلاَّ مدينة عكا التي استعادها ابنه الملك الأشرف خليل[3]، في سنة 691 هـ/ 1291م، وبذلك انتهت أحلام الصليبيين في الشام.

سقطت عكا في أيدي المسلمين في يوم الأحد 28 من شهر جمادى الآخرة سنة 691هـ/ 18 من مايو 1291م[4]، وقرَّر سقوطها مصير المدن الساحلية القليلة المتبقّية تحت سيطرة الصليبيين، فأخليت صور في اليوم نفسه، وتحررت صيدا في يوم 27 شهر رجب سنة 691هـ/ 14 من يوليو 1291م، واستسلمت بيروت في 4 من شعبان

---

(1) انظر: المنصوري: المصدر السابق ص 58 ـ 85، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ4/ ص 3ـ10.

(2) كان الأسطول المصري قد تحطم على صخور قبرص في سنة 669هـ/ 1270 م، ويبدو أنَّ فتح طرابلس قد تم عن طرق نقب الأسوار.
انظر: المنصوري: المصدر السابق ص 70.

(3) صلاح الدين، خليل بن قلاوون (666 ـ 693 هـ) تاسع سلاطين المماليك، وإليه يرجع الفضل في تطهير جميع الشام من الصليبيين، واستعادة عكا منهم.
انظر: الذهبي: دول الإسلام، جـ2 / ص 194 وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 13/ ص 399، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 11.

(4) حضر هذه المعركة عدد كبير من فرسان المماليك، كان منهم أبو الفداء، وبيبرس المنصوري، وذكر المنصوري أنّ هذا الفتح العظيم كان في يوم الجمعة 17 من جمادى الآخرة سنة 690 هـ/ 17 من يونية 1291م. انظر: المنصوري: المصدر السابق ص 127، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ4/ ص 24.

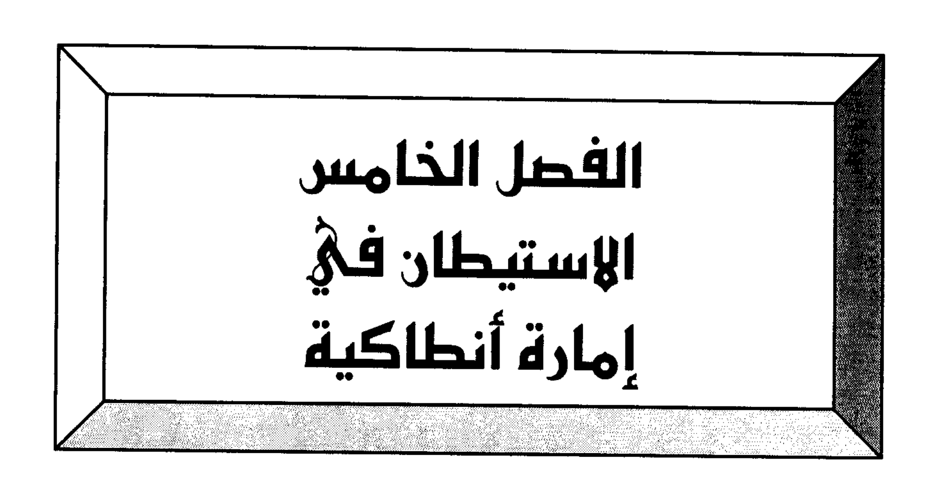
سنة 691 هـ/ 21 من يوليو 1291م، ومن بعدها تطهّرت أنطرطوس في 18 من شعبان سنة هـ/ 3 من أغسطس 1291م، وكان فرسان الدّاويّة قد هجروا عَثْلِيث[1]، فهدِّمت في رجب/ يوليو من العام نفسه وأقاموا في جزيرة أرواد[2] إحدى عشرة سنة، وبالقضاء عليهم انتهت آخر فصول الحروب الصليبية في الشام[3].

بيَّنت الباحثة فيما سبق خضوع إمارة طرابلس لوصاية حكام أنطاكية وارتباطها بالتبعية لهم، وهذا ما سنتبيّنه في الفصل التالي.

(1) عَثْلِيث: حصن بسواحل الشام، يعرف بالحصن الأحمر، يقع بين قيسرية وعكا.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص 85، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 29

(2) جزيرة أرواد: جزيرة سورية تجاه طرسوس، قرب الشاطئ، طولها 800م، ومساحتها 350 كم^2، وعدد سكانها 3000 نسمة، كانت عاصمة لمملكة فينيقية قديمة، وبها آثار فينيقية وصليبية. انظر: معلوف: المنجد في اللغة والأعلام ص 40.

(3) انظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ4/ ص 26، وانظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ2/ ص 249.



الفصل الخامس
الاستيطان في إمارة أنطاكية

الاستيطان في
إمارة أنطاكية

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : توطئة جغرافية لمدينة أنطاكية: الاسم، والموقع.

المبحث الثاني : تاريخ أنطاكية السكاني «الديموجرافي» قبيل الغزو الصليبي.

المبحث الثالث : الاستيطان في إمارة إنطاكية بعد 1098م.

المبحث الرابع : الوضع في مدينة إنطاكية وما يجاورها.

المبحث الخامس : الوضع السياسي والحربي في المدن الساحلية الأخرى.

المبحث السادس : الأوضاع في الريف ونشأة المستوطنات الزراعية

المبحث السابع : الإقطاع والكنيسة والاستيطان في إمارة أنطاكية

المبحث الثامن : نتائج الاستيطان في إمارة أنطاكية.

توطئة جغرافية لمدينة أنطاكية:

اسم أنطاكية:

قُسِّمت الإمبراطورية الضخمة للإسكندر الأكبر (Alexandre Le Grand) بعد وفاته في سنة 336 ق.م، على ثلاثة من كبار قادته واستطاع (Babylone) سلوقس الأول ("Séleucos 1er")[1] ـ حاكم بابل ـ أنْ يستولي على سورية، وأنْ يؤسس الدولة السلوقية فيها في سنة 305 ق. م، وكان مولعاً بالبناء؛ فأسس تسع مدن تحمل اسمه، وخمس مدن تحمل اسم أمه الأوديسا (Laodicée)، وثلاث مدن تحمل اسم زوجه الحبيبة أفاميا (Apamée)، وست عشرة مدينة باسم أبيه أنطيوخس (Antiochos)[2]، وكانت أنطاكية واحدة من المدن التي أنشأها سلوقس الأول باسم أبيه، وقد عرَّب العرب الاسم بأَنْطَاكِيَة ـ بتخفيف الياء ـ[3]، أو أَنْطَاكِيَّة ـ بتشديد الياء ـ[4] وهو الأصح.

---

(1) الملقّب بالمنتصر Nikatôr، وهو واحد من قادة الإسكندر، لم يكن له دولة أو نصيب في تركة الإسكندر، ولكنه أصبح حاكماً على بابل في سنة 321 ق.م وقام بحملات على الهند، وأعلن نفسه ملكاً في سنة 305 ق. م إلى أن توفي في سنة 280 ق. م.

انظر: Grand LAROUSSE encyclopédique. V. IX.art "Séleucos 1er".

وانظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 480.

(2) كانت «أنطاكية Antioche» تطلق على عدة مدن، منها:

أنطاكية «نصيبين» بميجدونيا، وأنطاكية أودسا «الرها» بوادي الأورفة وأنطاكية على بحر الجليل، كما أطلق على مدينة أورشليم اسم أنطاكية أيضاً فترة من الزمن، وأعاد أنطيوخوس الأول «Antiochos 1er» بناء ثلاث مدن على الأقل من الإسكندريات في نحو سنة 293 ق.م، وهي: خوقند Chodjend، ومرو، وتارميتا «ترمز»، على نهر جيحون «أموداريا»، وسماها جميعاً «أنطاكية». انظر: تارن: المرجع السابق 162 ـ 164. وانظر:

Grand LAROUSSE encyclopédique. V. I, art "Antioche, gr. Antiokheia, mod. Antakya".

(3) ضبط ياقوت الحموي الاسم بقوله: «بالفتح، ثمَّ السكون، والياء مخفَّفة» ثم ذكر بيتين من الشعر لامرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى جاءت فيهما أنطاكيَّة بتشديد الياء ـ وزعم أنَّه ليس في ذلك دليل على تشديد الياء. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 266.

(4) روى الصفدي عن ابن الجوزي، وغيره من العلماء الثقات أنَّ أنطاكيَّة بتشديد الياء، ولا يصح تخفيفها؛ فالتخفيف من أخطاء العوام.

انظر: الصفدي: تصحيح التصحيف، ص 135، وانظر: ابن مكي: المصدر السابق، ص66، وانظر: ابن برِّي: المصدر السابق، ص 34، وانظر: الخفاجي: المصدر السابق ص 34.

أجمع الذين وصفوا أنطاكيّة على أنّها بلدة حسنة الموضع، كريمة البقعة، كثيرة المياه، لها سور عجيب من الحجر، حصين، منيع، يحيط بها، وبجبل مشرف عليها، ولأسوارها أربعة أبواب، ولها ثلاثمائة وستون برجاً، يحرسها أربعة آلاف فارس، وفي داخل السور: صخرة موسى ﷺ، وأرحاء[1]، وبساتين، وجنّات البقول، وبها أسواق عامرة، ومبان زاهرة، وقامت بها صناعات عظيمة، وبخاصة صناعة أنواع من الثياب الفاخرة[2].

وكان في أنطاكيّة أربعة أحياء كبيرة، لكل منها سوره داخل سور المدينة العام، فقد بنى سلوقس الأول الحيين الأول والثاني، وشاد سلوقس الثاني (Séleucos I1)[3] الحي الثالث، وأقام أنطيوخوس الرابع (Antiochos IV)[4] الحي الرابع، ولم تكن أنطاكية في يوم من الأيام مركزاً للعلم، وهي وإنْ أصبحت مركزاً تجارياً عظيماً فقد كانت شهرتها دائماً أنها مدينة الملذات، كما ساءت سمعة حديقتها الكبرى دافني (Daphne)، وقد كتب بوسيدنيوس (Posidonios)[5] ـ وهو من سكان أفاميا

(1) الأرحاء: جمع «الرحى»، وهي الطاحونة، وتجمع على أرحاء وأرحية، وأرحٍ.. انظر: مسعود، جبران: الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، ص 722.

(2) انظر: الإصطخري: المصدر السابق، ص 63، وانظر: الشريف الإدريسي: المصدر السابق، جـ 2/ ص645، والحموي: معجم البلدان، جـ 1/ ص 266.

(3) سلوقوس (Séleucos I1) الثاني الملقب Kallinikos، وهو ابن أنطيوخوس الثاني "Antiochos II" (246 ـ 226 ق. م) أحد ملوك الدولة السلوقية.
انظر: هنري عبودي: المرجع السابق، ص 481.
وانظر: " Grand LAROUSSE encyclopédique. V. IX.art "Séleucos II.

(4) أنطيوخوس الرابع "Antiochos IV" الملقب Epiphanos، وهو ابن أنطيوخوس الثالث "Antiochos III" (175 ـ 164 ق. م) أحد ملوك الدولة السلوقية. انظر: هنري عبودي: المرجع السابق، ص 141.
وانظر: "Grand LAROUSSE encyclopédique. V. I, art "Antiochos IV.

(5) بوسيدنيوس (Posidonios) كاتب سوري، مؤرخ، وعالم طبيعي (135 ـ 51 ق. م) ولد في أفاميا وتوفي في رودس، وهو أحد الفلاسفة الرواقيين، له مؤلفات كثيرة، وكان معلماً لشيشرون "Cicéron". انظر: هنري عبودي: المرجع السابق ص 244، وانظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان 1/283، وانظر: تارن: المرجع السابق 371.

(Apamée) المجاورة ـ يَنْعَي على السكان الإغريق السوريين ما ينغمسون فيه من ترف[1].

أصبحت أنطاكيّة عاصمة الدولة السلوقية بعد عام 301 ق.م. والعاصمة الفكرية لسورية الشمالية[2]، وأُنْشِئَت فيها مكتبة كبيرة[3] وارتقت فيها الفنون، واشتهرت بفرقها الموسيقية التي كانت تدعى للاشتراك في الأعياد، وفي المناسبات، وفي طقوس المعاد[4]، ولمَّا كانت أنطاكية تقع على نهر العاصي Orontes ـ الذي كان صالحاً للملاحة في تلك الأيام ـ ولها مرسى يقال له: «السّويدية» فيه تفرغ السفن حمولتها، لتنقل على الدواب إلى كل البلاد؛ لذلك أصبحت أهم مدن الشام التجارية، ومعبر التجارة من البلاد الإسلامية إلى جميع دول أوربا[5]، وبلغت درجة عالية من الأهمية؛ حتى لقبّها الرومان بـ«أنطاكية الجميلة وبملكة المشرق»، وكانوا يعدّونها العاصمة الثالثة بعد روما والإسكندرية[6].

وبعد ظهور المسيح ﷺ زادت مكانة أنطاكية، وعلا قدرها «فليس في العالم كله مدينة غير القدس مرتبطة أكثر من أنطاكية بتاريخ الكنيسة الرسولية»؛ فقد قامت بها أول كنيسة للأمم، وبها دُعِي التلاميذ «مسيحيين» أولاً، وأقام فيها القديس بولس (Paul st)، وكان بطرس الرسول (st Pierre) أول أسقف أقيم لكنيسة أنطاكية سنة 38 م، ولقِّبت «عين كنيسة الشرق»[7]، وبعد تدمير أورشليم على يد الإمبراطور الروماني أدريان (Adrien)، في سنة 135م، أصبحت أنطاكية العاصمة الدينية

(1) انظر: تارن: المرجع السابق 162.

(2) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان جـ 1/ ص 395.

(3) انظر: تارن: المرجع السابق ص 371.

(4) انظر: فيليب حتّي: المرجع السابق جـ 1/ ص 343.

(5) انظر: الحموي: معجم البلدان 1/266، وانظر: هايد: المرجع السابق، جـ 1/183.

(6) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 3، ص 62، وانظر: المعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف، تهران، 1880م، جـ 4/ ص 508.

(7) انظر: المعلم بطرس البستاني: المرجع السابق جـ 4/ ص 509 ـ 510.

للمسيحيين[1]، وكانت الكنائس الكبرى في العالم المسيحي هي كنائس عواصم البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط الثلاث، وهي: روما، والإسكندرية، وأنطاكية[2].

انفصلت الكنيسة النسطورية الفارسية عن الكنيسة الغربية الكاثوليكية انفصالاً تاماً في سنة 499م، وكان من أثر ذلك الانفصال أنْ فقدت أنطاكيّة سيادتها على المسيحيين في بلاد العراق[3].

تعرَّضت مدينة أنطاكية في تاريخها القديم والحديث إلى الكثير من الكوارث الطبيعية والبشرية:

أمَّا الكوارث الطبيعية فقد دمَّرتها الزلازل أكثر من عشر مرات في القرون الستة الأولى[4].

وأمَّا الكوارث البشرية فقد دمَّرها الغزاة، وحاصروها، وعاثوا فيها فساداً أكثر من مرّة، من ذلك:

* حاصرها سابور الأول (Sapor Ier)[5] في سنة 260م، واستولى عليها، ونقل عدداً كبيراً من أهلها إلى جنديسابور[6].

---

(1) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان جـ 1/ ص 370.

(2) انظر: الشريف الإدريسي: المصدر السابق جـ 2/751، وذكر الإدريسي أنَّ كرسي بيت المقدس محدث، لم يكن موجوداً في أيّام الحواريين، فاتخذ بعدهم؛ لتعظيم بيت المقدس، وانظر: نورمان بينْز: المرجع السابق ص 97 ح 1، وانظر: أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصِلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، 1956م، جـ 2/ ص 84.

(3) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 3/ ص 62.

(4) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان جـ 1/ ص 42.

(5) سابور هو الاسم العربي واللاتيني للفظ الفارسي «شاهبور»، وسابور الأول هو الذي أسس مدينة جنديسابور، وسمَّاها «بِهْأزنديوسابور» ومعناها: خير من أنطاكية ومدينة سابور انظر: الطبري: تاريخ الطبري جـ 2/ ص 51، وابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 1/ ص 224.

(6) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 3/ ص 62.

* ثم دمَّرها كسرى أنوشروان (Chosroès I^er Le Grand) ملك الفرس، في سنة 540م[1]، ونقل عدداً كبيراً من أهلها إلى طَيْسفون Ktesiphon القريبة منها، وظلت أطلالاً وخرائب إلى أنْ أعاد بناءها جوستنيانوس (Justinianus) (527 ـ 565م)[2].

فتح العرب أنطاكية في سنة 15 هـ/ 636م[3]، وأصبحت جزءاً من جند قِنَّسْرِين، وقصبة العواصم في الثغور الشامية[4].

فكانت الجنود تخرج منها لغزو الروم، في كل عام، وبخاصة لغزو حصن المصيصة[5]؛ ولهذا لم تنقطع غارات الروم عليها، ومحاولة احتلالها، والسيطرة

---

(1) انظر: فيليب حتّي: المرجع السابق جـ 1/ ص 414.

(2) انظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ 1/ ص 63.

(3) ذهب الواقدي إلى أنَّ فتح أنطاكيّة كان في سنة 17 هـ/ 638 م، ويبدو أنَّه وهم منه؛ فخلط بين تاريخ فتحها صلحاً على يدي عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة وبين تاريخ دخول أبي عبيدة بن الجرَّاح إليها زائراً، ومنظماً لشؤونها في سنة 17 هـ.
انظر: الواقدي: المصدر السابق، جـ 1/ ص 309.
والصحيح أنَّها فتحت في سنة 15 هـ. انظر: البلاذري: المصدر السابق، ص 175، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 2/ ص 345.

(4) قِنَّسْرين: هي كورة بالشام، من ديار ربيعة، ومدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص، وموضع ينزل به الجند، ثم ضعفت بقوة حلب وخرِّبت في سنة 355 هـ/ 965 م، وهي الآن قرية صغيرة.
وبعد فتح الشام قسَّمه الجغرافيون العرب ستَّ أقاليم سمُّيت كور، أو أجناد، وهي: قنَّسرين، وحمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، والشَراة، وكانت حلب عاصمة كورة قنسرين، وأنطاكية من مدنها، ثم فصلها هارون الرشيد وجعلها عاصمة لجملة الحصون والمواقع التي تحيط بها وبحلب، وسمَّاها «العواصم»؛ لأنَّ المسلمين كانوا يعتصمون بها من الأعداء. انظر: المقدسي: المصدر السابق، ص 154، وانظر الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 403، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 233، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 4/ ص 130، 131، وجـ 5/ ص 473، وجـ 7/ ص 9.

(5) انظر: قدامة بن جعفر: الخراج، نشر دوجويه، ليدن، سنة 1892م، ص 308، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 4/ ص 130.

عليها، ففي سنة 291هـ/ 903 م، أغار الروم عليها في عشرة آلاف مقاتل، فسبوا، وأحرقوا، فبعث إليهم الخليفة المكتفى بالله[1] قائده المعروف بغلام زرافة فاستعاد أنطاكية من الروم، وقتل منهم خمسة آلاف رجل، وأسر مثلهم، واستنقذ من الأسرى المسلمين خمسة آلاف، وأخذ لهم ستين مركباً، وغَنِمَ أموالاً كثيرة ومتاعاً ورقيقاً[2]، وتكررت هذه الهجمات في سنوات متعددة[3]، مما انعكست آثارها السلبيّة على السكان اقتصادياً وعسكرياً، كما أنَّ وجود جاليات ضخمة من اليهود والنصارى بأنطاكية وما جاورها، وتعاونهم مع الروم مكَّنهم من بسط نفوذهم على أنطاكيَّة، في سنة 359 هـ/ 969 م[4]، إلى أنْ استعادها منهم سليمان بن قَطَلْمَش[5]، في سنة 477هـ/ 1085م.

موقع أنطاكية:

تقع أنطاكيَّة على خط الطول 10َ 36ْ شمالاً، وعلى خط العرض 6َ 36ْ شرقاً، بينها وبين حلب 55 ميلاً من جهة الشرق وبينها، وبين شاطئ البحر ستة أميال من جهة الغرب، وتحتل المدينة سهلاً طوله ثلاثة أميال، تحيط به استحكامات طبيعية: ففي

---

(1) أبو محمد، على المكتفى بالله بن أحمد المعتضد بالله (264 ـ 295 هـ/ 877 ـ 907 م) من أكثر الخلفاء العباسيين عدلاً، وفتوحات، فتحت في عهده أنطاليا، وقضى على فتنه القرامطة، ومات شابا.

انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ 1/ ص 93، وانظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 437.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 6/ ص 109.

(3) انظر: حسين محمد عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م، ص 109.

وانظر: Ostrogorsky; op. cit. p 261 - 262.

(4) انظر: Ostrogorsky; op. cit. p 578.

(5) أمير قونية، وجد سلاطين سلاجقة الروم، قتل في سنة 479 هـ/ 1087م انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 15/ ص 420.

الشرق ينهض حارساً جبل اللُّكَّام[1]، وفي الغرب وعلى مسافة أربعة أميال نهر العاصي، والمدينة على الضفة الجنوبية من النهر، وصورتها على شكل نصف دائرة قطرها متصل بالجبل، والأسوار القوية ذات الأبراج العالية تصعد مع الجبل لتتم دائرة يبلغ طولها اثني عشر ميلاً؛ وبذلك أصبحت مدينة حصينة صعبة المنال من طريق البر، أو من طريق البحر[2]، وكانت مفتاح عواصم المسلمين أيام العباسيين والأيوبيين[3].

تاريخ أنطاكية السكاني (الديموجرافي) قبيل الغزو الصليبي:

لَمَّا كانت أنطاكية العاصمة الفكرية لسورية الشمالية فقد أقيم بها هيكل عظيم للإله الوثني أبوللون Apollon إله النور والفنون والتفاؤل عند الإغريق والرومان، وكانت تقام فيه احتفالات سنوية تمتاز بالمجون وأنواع المفاسد، مما أطلق عليها اسم مدينة الملذات وتنفق فيها الأموال بلا حساب؛ لذلك كان أول من سكنها اليهود[4] فهذه صناعتهم على مدى التاريخ، ثم سكنها معهم قبل الفتح الإسلامي الروم، والأرمن، والنصيرية.

تجمَّع الروم في أنطاكيّة هرباً من جيوش المسلمين الغازية، وأرسلوا في طلب الصلح من أبي عبيدة بن الجرَّاح ﷺ، فصالحهم ودخل المدينة في سنة 17 هـ/ 638 م،

(1) اللُّكَام: تتعدد أسماء هذا الجبل بحسب الأماكن؛ فهو يبدأ من العَرْج بين مكة والمدينة،حتى يتصل بالشام، وأرمينية؛ فيسمَّى «الحَمَل» بفلسطين، ويسمى «الجليل» بالأردن، و«سنير» بدمشق، و«لبنان» للجبل المطل على حلب، وحماة، حمص، ويسمَّى «عكار» عند طرابلس، و«اللُّكام» المتصل بأنطاكية والمصيصة، ثم يمتد إلى ملطية وسُمَيساط، وقاليقلا، إلى بحر الخزر، فيسمَّى هناك «القبْق». انظر: الحموي: معجم البلدان «لبنان، واللكام» جـ 5/ ص 11، وص 22، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 4/ ص 85.

(2) انظر: القفطي، أبو الحسن، جمال الدين علي بن يوسف: تاريخ الحكماء، بعناية جوليوس ليبرت، مكتبتي الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، نسخة مصورة عن طبعة ليبزج سنة 1903م، ص 296.

(3) انظر: عنان: المرجع سابق ص 129.

(4) انظر: المعلم بطرس البستاني: المرجع السابق، جـ 4/ ص 506.

واستوطن فيها جماعة من المسلمين بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وأمره أنْ يقدم لهم عطاءهم، ويُيَسِّر لهم سبل الراحة والإقامة فيها[1]، ثم انتقل إليها جماعة من أهل حمص وبعلبك مرابطين للجهاد في سبيل الله[2]، ونقل إليها معاوية بن أبي سفيان «الزُّط السبابجة»[3]، وفي سنة 404 هـ/ 1013م أصدر الحاكم بأمر الله[4] مرسوماً بإطلاق الهجرة للذِّمِّيين، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها آمنين، فهاجر كثير من النصارى واليهود إلى أنطاكية، وغيرها من ثغور الشام[5].

يمكن القول: إنَّ سكَّان أنطاكيّة وقت قدوم الصليبيين كانوا قلة من العرب المسلمين والأتراك، وكثرة من الذميين.

الاستيطان في إمارة أنطاكية بعد 1098 م:

كانت أنطاكية تحت حكم ياغي سيان[6] والياً عليها عين من قبل السلطان ملكشاه، وكان قد اشترك في الصراع الدائر بين الأخوين:

دقاق حاكم دمشق، ورضوان حاكم حلب الذي استعان به في الهجوم على حمص ودمشق بعد تحالفه مع الفاطميين في مصر ضد أخيه صاحب دمشق[7]، وفي

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ2/ ص 345.

(2) انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ1/ ص 269.

(3) الزُّطُّ السَّبَابجَة: قوم من السند كانوا يقيمون في البصرة.
انظر: ابن منظور: المصدر السابق «زطط» جـ7/ ص 308.

(4) أبو علي، منصور بن نزار العزيز بالله بن معد (375 ـ 411 هـ/ 985 ـ 1021 م) أحد الخلفاء الفاطميين بمصر، وتاريخه حافل بالمتناقضات والعجائب.
انظر مصادر ترجمته في: الزركلي: المرجع السابق جـ7/ ص 305.

(5) انظر: تاريخ الأنطاكي 305، وانظر: عنان: المرجع السابق ص 141.

(6) ياغي سيان ـ أو يغي سنان بن ألب، ويكتب اسمه أحياناً ياغي بصان، وباغيسيان، وتسميه المصادر الغربية أوكسيانيوس ـ صاحب أنطاكية المقتول في سنة 491 هـ/ 1097 م كان تُتُش قد أقامه حاكماً على أنطاكية في سنة 479 هـ، وكان له دور في مقاومة الصليبيين.
انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 135، وابن واصل: المصدر السابق، جـ1/ ص19، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق، جـ5 ص 147.

(7) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ1/ ص 344 ـ 349.

هذا الوقت الحرج بدأ حصار الصليبيين لأنطاكيّة في 29 من شهر شوال سنة 492/ 22 من أكتوبر سنة 1097 م، ودام حصارهم لها نحواً من تسعة أشهر عجز المسلمون خلالها عن حمايتها، وفك الحصار عنها، بسبب فرقتهم وتنازعهم؛ وكان أوّل من أسرع إلى نجدة أنطاكية دُقَاق ملك دمشق، وبصحبته جناح الدولة أمير حمص، حيث التقى جيشُ المسلمين جيشَ الفرنجة بالقرب من البارة بقيادة روبرت فلاندر (Robert De Flandre)، وبوهيموند Bohémond، ولم تسفر المعركة التي دارت رحاها بينهما في 16 من المحرم سنة 492 هـ/ 31 من ديسمبر سنة 1097م عن نصر حاسم لأحد الطرفين[1].

وكانت المحاولة الثانية من جانب رضوان صاحب حلب الذي استجاب لنداء ياغي سيان، ولكن بوهيموند انتصر عليه في المنطقة الواقعة بين نهر العاصي وبحيرة أنطاكية في 4من ربيع الأول سنة 491 هـ/ 9 من فبراير سنة 1098م، واستولى الفرنجة على حصن حارم[2] الذي كان يحمي أنطاكية من جهة حلب، وخسر المسلمون الكثير من الرجال والعتاد[3].

اضطر ياغي سيان أنْ يعتمد على قواته، وأنْ يتصدَّى للفرنجة بنفسه؛ فهاجمت قواته بوهيموند وكونت تولوز أثناء عودتها من ميناء اللاذقية محمّلين بأدوات البناء والحصار التي أمدّتهم بها السفن الجنوية، ولكنه هزم في جمادى الأولى 492 هـ مارس 1098 م، وتفرَّغ الصليبيّون لإكمال حصار أنطاكية[4].

---

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 134، وانظر ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 46.
وانظر: حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص <115
وانظر: الشيخ: الجهاد المقدس، ص 111.

(2) حارم: حصن حصين، وكورة، من أعمال حلب، تجاه أنطاكية، وفيها أشجار كثيرة ومياه. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 205.

(3) انظر: Duggan A.;The Story of The Crusades, London, 1969, pp 58-60.

(4) انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 117.

أعاد ياغي سيان الاستنجاد بالمسلمين؛ فأرسل إلى كربوغا حاكم الموصل الذي هبَّ لنجدته بقوات كثيفة، في جمادى الآخرة 492 هـ/ مايو 1098م، ولكنه أضاع الوقت في حصار الرُّها دون طائل[1].

تمكَّن بوهيموند من الاستيلاء على المدينة خيانة في أول رجب 492 هـ/ 3 من يونيو 1098م عن طريق برج الأختيْنِ الواقع في الركن الجنوبي الغربي من أسوار المدينة، بمساعدة فيروز الأرمني الخائن الذي كان يتولَّى حراسة البرج، والذي وعده بوهيموند بامتيازات كبيرة[2]، ولمَّا ارتقى الفرنجة إلى البرج بسلّم استولوا على بقيَّة الأبراج المجاورة، وانتشروا في المدينة، وفتحوا الأبواب للجيوش الصليبية التي أحدثت مذبحة رهيبة داخل المدينة، راح ضحيّتها الآلاف من الرجال والنساء والأطفال[3].

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي لعبت فيها الخيانة الدور الحاسم في سقوط مدينة أنطاكية؛فالملاحظ في تاريخها أنَّها سقطت في أيدي الغزاة نتيجة الخيانة أكثر من مرّة ـ فمن ذلك:

* بعد فشل نقفور فوكاس (Nikephoros Phokas) الإمبراطور البيزنطي في الاستيلاء عليها، في سنة 355 هـ/ 965م، تمكّن قائده برتز (Burtzes) من الاستيلاء عليها في سنة 358هـ/ 968م، بمعاونة خائن عربى من عامّة الناس مكّنه منها[4].

---

(1) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 347، وانظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص52.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل جـ8/ ص 185، وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 348.

(3) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 135، وانظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1965م، ص 346. وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 316.

وانظر: Grousset; op. Cit, V. I, p. 92.

وانظر: Chalandon F.; Histoire de La Première Croisade, Paris, 1925, P. 202.

(4) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، جـ 3/ ص 64.

* لم يتمكّن سليمان بن قَطَلْمَش الأول السلجوقي[1] صاحب قونية Iconium من فتح المدينة إلاَّ بخيانة حاكمها اليوناني[2].

ترتّب على سقوط أنطاكيّة أن انفتح الطريق أمام الصليبيين للزحف جنوباً في اتجاه بيت المقدس، وتهديد بلاد الشام كلها، وتهديد مصر، وفي الوقت نفسه ثبّت أقدامهم في أرض الجزيرة ودعَّم إمارة الرُّها، كما كان له تأثير نفسي كبير إذ أفقد المسلمين الثقة في قدرتهم على مقاومة الصليبيين، ورد عدوانهم[3].

ظلَّت أنطاكية 170 سنة في قبضة المسيحيين، وأصبحت عاصمة لولاية صليبية تابعة لمملكة بيت المقدس، وعمل حكامها على توسيع حدودها؛ فاحتلّت الإقليم الجانبي من شمالي سوريّة، من نهر جيحان (Pyramus) في الشمال إلى النهر الكبير قرب اللاذقية في الجنوب، وخضع لها العمق المنخفض ووادي نهر العاصي إلى شيزر Larissa في شمالي غرب حماة.

حَكَمَ أنطاكيَّة سبعة عشر ملكاً، منهم خمسة ملوك من بيت المقدس بالوصاية، وأربعة من طرابلس بالوصاية أيضاً، والباقون كانوا مستقلين بحكمها؛ كان أوّلهم بوهيموند الأول (Bohémond 1^er) الذي حكم الإمارة في الفترة ما بين سنتي 492 ـ 498 هـ/ 1098 ـ 1104م، قضى منها ثلاث سنوات 494 ـ 497 هـ/ 1100 ـ 1103 في أسر غازي كمشتكين بن الدانشمند الذي أسره حينما هبَّ لنجدة جبرائيل

---

(1) سليمان بن قَطَلْمَش هو جد سلاطين سلاجقة الروم، قتله تُتُش على حلب في سنة 479 هـ/ 1086م. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 140، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 15/ ص 420.

(2) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، جـ 3/ ص 64.

(3) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق 137، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص186، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 209.

وانظر: Chalandon F.; Histoire de La Première Croisade, p.181.

حاكم ملَطْيـة الأرميني[1]، وتولى الوصايـة عـلى العـرش، في غيبتـه ابـن أختـه تنكريـد (Tancrède) الذي انفرد بحكم الإمارة بعد وفاة خاله.

كان بوهيموند (Bohémond 1er) مـن أشـجع الحكـام الـصليبيين وأكثـرهم طموحاً، إلى جانب ما اتصف به من المكـر وسعــة الحيلـة والدبلوماسـية، وكانـت سياسته مرتكزة على جانبين:

* التوسع، في الخـارج عـلى حـساب الأرض الإسـلامية شرقـاً، وشـمالاً، وتـأمين حدودها.

* دعم إمارته، في الداخل، وتثبيت أركانها.

فبالنسبة للجانب الأوّل: بمجرّد توليته أميراً على أنطاكيّة، بدأ بحصار أفاميّة، وإتلاف مزارعها، ولمَّا عجز عن اقتحامهـا، جَمَـعَ أعوانـه مـن الفرنجـة في الجَـزْر[2]، وزَرْدَنَا[3]، وسَرْمِين[4]، واتّجه إلى الأثَارِب[5] في 25 من شعبان 493 هـ/ 5 مـن يونيـو 1100م، والتقى رضوان[6] هناك حيـث هُـزِم المـسلمون هزيمـة منكـرة، واسـتباح

---

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق 84، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 127.

(2) الجَزْر: كورة من كور حلب. انظـر: الحمـوي: معجـم البلـدان جــ 2/ ص 133، وانظـر لـه أيـضاً: المشترك وضعاً، ص 100.

(3) زَرْدَنَا: بليدة من نواحي حلب الغربية. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 136.

(4) سَرْمِين: مدينة على منتصف الطريق بين معرّة النعمان، وحلب على مسيرة يوم جنـوبي حلـب. انظـر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 264.

(5) الأثَارِب: قلعـة معروفة بين حلب وأنطاكيّة، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسـخ. انظـر: الحمـوي: معجم البلدان جـ 1/ ص 89.

(6) هو فخر الدولة، رضوان بن السلطان تُتُش بن ألب أرسلان، ولِّيَ سلطنة حلب بعد وفاة أبيه في سنة 488هـ/ 1095م، وبها توفي في سنة 507 هـ/ 1113م، ولم يكـن لـه دور يـذكر في حـرب الـصليبيين. انظر: ابن القلانسي: المصدر الـسابق ص 189، وانظـر: بـدران: المـصدر الـسابق جــ 5/ ص 322، وانظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ق 8 جـ 2/ ص 46 وانظر: الصفدي: تحفة ذوى الألباب، جـ 2/ ص 58، وانظـر له أيضاً: الوافي بالوفيات، جـ14/ ص 129، وانظر: ابن تغرى بردى: المصدر السابق جـ 5/ ص 205.

الفرنجة معسكرهم، وقتلوا الكثير من الجنود، وأسروا نحواً من 500 نفس، ثمَّ تمكَّنوا من الاستيلاء على برج الحاضر(1)، وكفر طاب(2).

بعد عودة بوهيموند (Bohémond) من الأسر، باشر توسعاته في الأرض الإسلامية، وذلك في الوقت الذي تصدَّعت فيه الجبهة الإسلامية في الموصل، وفي آسيا الصغرى، وفي شمال الشام، واشتد الخلاف بين أمراء حلب ودمشق، بعد اغتيال جناح الدولة(3)، كما دبَّ الخلاف بين غازي الدنشمندي وبين سلاجقة الروم بسبب استئثار غازي بفدية بوهمند لنفسه(4) في الوقت الذي نشب فيه القتال بين السلطان بركياروق(5)، وأخيه محمد(6)، «وتطاولت بينهما الحروب، وعمَّ الفساد،

---

(1) برج الحاضر: مقام على منطقة بظاهر حلب، قريب من أسوارها.
انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 2/ ص 206.

(2) كفر طاب: بلدة صغيرة في غربي حلب، على الطريق بين معرّة النعمان وشيزر، على مسافة اثني عشر ميلاً من شيزر. انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 4/ ص 470، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ4/ ص 125.

(3) حسين بن ملاعب، جناح الدولة، صاحب حمص، كان مجاهداً شجاعاً، يتولَّى الحروب بنفسه، قتلته الباطنية بإيعاز من رضوان في سنة 495 هـ/ 1101م. انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 142، واسمه فيه «حسين أتابك»، وانظر: سبط ابن الجوزي المصدر السابق، ق 8 جـ 2/ ص 423، وانظر: الدوادري: المصدر السابق، جـ 8/ ص 137، و153، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 13/ ص 77، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق، جـ 5/ ص 168.

(4) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1/ ص 387.

(5) أبو المظفر، بركياروق بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، ركن الدين، أحد ملوك الدولة السلجوقية، وتوفي في سنة 498 هـ/ 1104م.
انظر: العماد الكاتب: تاريخ آل سلجوق ص 50، وانظر: الحسيني: المصدر السابق، ص 153 وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق، جـ 1/ ص 268، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 10/ ص 121، وانظر المقريزي: السلوك: ق 1، جـ 1/ ص 34.

(6) أبو شجاع، محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، غياث الدين، كان أفضل أولاد ملكشاه، وأحسنهم سياسة، توفي في سنة 511 هـ/ 1117م. انظر: العماد الكاتب: تاريخ آل سلجوق، ص 86، وانظر: الحسيني: المصدر السابق، ص 161 وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق، جـ 4/ ص 163، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 5/ ص 62.

فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخرَّبة، والقرى محرَّقة»[1]، إلى أنْ وقع الصلح بينهما في سنة 497 هـ/ 1103م.

استغلَّ بوهيموند (Bohémond) هذه الظروف المواتية؛ ففرض الجزية على قُنَّسْرِين وإقليم العواصم، وسار وبرفقته جوسلين (Joscelin de Courtenay) صاحب تل باشر فاستوليا على المسلَّميَّة[2]، وفرضا عليها الجزية، وبعد ذلك اتّجه بوهيموند (Bohémond) إلى أملاك ثاتول Thatoul[3] الأرمني الموالي للبيزنطيين، فاستولى على مدينة مرعش[4] في الوقت الذي ذهب فيه جوسلين (Joscelin)، وبودوين (Baudouin) ـ كونت الرُّها ـ فاستوليا على مرج الرَّقّة[5]، وقلعة جَعْبَر[6]، في شهر صفر سنة 497 هـ/ نوفمبر 1103م.

ثمَّ انضم إليهما بوهيموند واستولوا على بَسَرْفُوث[7] في جمادى الآخرة 497 هـ/ مارس 1104م، بالإمان؛ وبذلك قطعوا الطريق بين حلب وأنطاكيّة،

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 205، و220.

(2) المسلَّميّة: من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب، وتبعد عنها مسافة 15كم. انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ 1/ ص 360 ح 2.

(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1/ ص 390، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص130.

(4) مَرْعَش: مدينة في الثغور، بين الشام وبلاد الروم. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ5/ ص107، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 262.

(5) الرَّقَّة: مدينة مشهورة شرقي الفرات، من ديار مضر في بلاد الجزيرة، بينها وبين حرَّان ثلاثة أيام. انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 3/ ص 58، وانظر له: المشترك وضعاً، ص 208، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 276.

(6) قلعة جعبر: قلعة حصينة بين الرقة وبالس، على الفرات، من الجانب الشمالي، في بر الجزيرة، مقابل صفّين، وهي على صخرة لا ترام.

انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 4/ ص 390، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 276.

(7) بَسَرْفُوث: حصن من أعمال حلب، في جبال بني عليم. انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 1/ ص420.

ثــم وصــلوا إلى كفــر لاثــا[1]، ولكــنَّ بنــى عُلَــيْم هزمــوهم، وردّوهــم إلى بسرفوث[2].

كان لا بدَّ للصليبيين من الاستيلاء على حَرَّان[3]، فساروا إليها فـالتقوا قـوّات سُقْمان بن أُرْتُق[4] صـاحب مـاردين[5] وجَكَـرْمَش أتابـك[6] الموصـل، وهنـاك هُـزم الصليبيون هزيمة ساحقة[7].

كانت موقعة حرَّان مـن المواقـع الحاسـمة في تـاريخ الإمـارات الـصليبية في الشام؛ إذ ترتب على هزيمتهم آثار بعيدة المدى، في تاريخ المنطقة، فمن نتائجها:

* ضياع آمال بوهمونـد (Bohémond) في المحافظـة على إمارته وعجْزه عن جمع المـال الذي دُفِع فدية له، وتدمير جيشه بالكامل فاضطــر إلى التوجّـه إلى أوربـا لجمـع حملة صليبية جديدة، يستعيد بها أملاكه، وبدأ بغزو بيزنطة، ولكنـه هُـزِم، واضـطر

(1) كفر لاثا: بلدة من نواحي حلب، في سفح جبل عاملة، بينها وبين حلب يوم واحد. انظر: الحمـوي: معجم البلدان، جـ 4/ ص 470.

(2) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ 1/ ص 360.

(3) حرَّان: مدينة عظيمة، من ديار مضر، على الفرات.
انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 4/ ص 390، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 276.

(4) سقمان بن أرتق بن أكسب، معين الدولة، التركماني ـ ويقـال: سـكمان ـ بالكـاف ـ كـان هـو وأخـوه أميرين على القدس الـشريف، بعـد أبـيهما، وتوجّهـا إلى الجزيـرة، وأخـذا ديـار بكـر، تـوفي في سـنة 498هـ/ 1104م. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، أخبار متفرقة في الجزء الثامن راجع الفهـارس ص 273، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 15/ ص 287.

(5) مَارِدِين: قلعة مشهورة، على قنّة جبل الجزيرة، مشرفة على دُنَيْسر، ودارا ونصِّيبين. انظـر: الحمـوي: معجم البلدان، جـ 5/ ص 39، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 278.

(6) جَكَرْمَش، شمس الدولة (ت 500 هـ/ 1106م) صاحب جزيرة ابن عمر كان من المجاهدين، وهـو الذي أسر بلدوين صاحب الرها، وأخباره متفرّقة.
انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الفهارس، ص 213.

(7) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 143، وانظر: ابن العـديم: زبـدة الحلـب، جــ1/ ص361، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 221.

إلى توقيع معاهدة ديفول Devol وبمقتضاها يحكم أنطاكية كتابع للإمبراطور ألكسيس (Alexis Comnène) وخلفائه من بعده، ومات شريداً في يوم 23 من جمادى الآخرة سنة 504 هـ/ 7 مارس 1111م[1].

* نقض رضوان أمير حلب الهدنة التي كانت بينه وبين الفرنجة، واستعاد كل المعاقل الشرقية لإمارة أنطاكيّة وأغار على أنطاكيا نفسها، وغنم منها أموالاً كثيرة[2].

* زحف الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين (Alexis Comnèn) على آسيا الصغرى، واسترد المدن التي كان بوهيموند (Bohémond) (Bohémond) قد استولى عليها، من قبل، واستعاد أيضاً ميناء اللاذقية[3].

بعد موت بوهيموند (Bohémond)، تولّى الإمارة تنكريد (Tancrède) الذي سعى إلى العودة بحدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه قبل موقعة حرَّان، وبدأ بقتال المسلمين، ففي عام 498 هـ/ 1105 م، هزم رضوان، واستولى على قلعة أرتاح[4] وفي العام التالي استولى على أفامية، وهدد حلب ذاتها، وأرغم رضوان على توقيع معاهدة بينهما في سنة 498 هـ/ 1105م، وهي أول اتفاقية تعقد بين المسلمين واللاتين منذ قدم الصليبيون إلى فلسطين[5].

بعد أنْ استعاد تنكريد (Tancrède) ما ضاع من أملاك الإمارة في الشرق والجنوب، اتّجه إلى مهاجمة أملاك الدولة البيزنطية؛ فقد رفض الالتزام بتعهدات بوهيمند (Bohémond) للإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين (Alexis Comnène)،

---

(1) انظر: أنّا كومينا: المصدر السابق، ص 62، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 132ح 141.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 144.
وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ1/ ص 366.

(3) انظر: أنّا كومينا: المصدر السابق، ص 58.

(4) أرتاح: حصن منيع، من العواصم، من أعمال حلب.
انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ1/ ص 140.

(5) انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 133.

بموجب معاهدة ديفول (Devol)، فاستولى على ميناء اللاذقية بمساعدة البيازية (Pisans) في منتصف سنة 501هـ/ 1108م ثم استولى على أَذَنَة[1]، والمصيصة، وطَرَسُوس؛ وبذلك يكون قد استعاد الواجهة البحرية[2] لإمارته من البيزنطيين.

غيّرت سياسة تنكريد (Tancrède) الهجومية مواقف الأمراء في المنطقة وأثارت خوف الجميع، مسلمين ومسيحيين، ولأول مرّة بدأت تظهر الأحلاف المشتركة بين المسلمين والصليبيين، في مواجهة بعضهم البعض:

* كان الحلف الأول بين بولدوين (Baudouin) كونت الرها، وجوسلين (Joscelin) صاحب تل باشر، ومعهما جاولي[3] حاكم الموصل، في مواجهة تنكريد (Tancrède) ومعه رضوان صاحب حلب وفي الصدام المسلح بين المتحالفين انتصر تنكريد (Tancrède) ورضوان على خصومهما قرب منبج في سنة 502هـ/ 1108م[4].

* وكان الحلف الثاني حلفاً إسلامياً بين بني منقذ[5] ومودود[6] حاكم الموصل في مواجهة تنكريد (Tancrède) وبدوين ملك (Baudouin) بيت المقدس، والتقى

---

(1) أَذَنَة: بلد من الثغور، قرب المصيصة. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 132، وانظر له ـ أيضاً ـ: المشترك وضعاً، ص 18، وانظر: أبو الفداء تقويم البلدان ص 248.

(2) انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص199.

(3) هو جاولي سقاووه، من فرسان السلطان بركياروق السلجوقي، وأخيه السطان محمد الذي ولاّه الموصل في سنة 500 هـ/ 1106م، وأخباره متفرّقة.
انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الفهارس ص 208.

(4) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 148، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 134.

(5) بنو منقذ، قبيلة عربية، تنتهي إلى كنانة، كانت تحكم شيزر، ونبغ منها عدد كبير من الفرسان،والأدباء، والعلماء، كان منهم أسامة بن مرشد صاحب كتاب الاعتبار.
انظر مقدمة الاعتبار ص 14.

(6) الأمير مودود بن التونتكين، ولاّه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، الموصل بعد قتله جكرمش في سنة 502 هـ/ 1108م، وكان فارساً شجاعاً مجاهداً، وأخباره متفرقة. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الفهارس، ص 448.

الفريقان عند أفامية، في صيف سنة 505 هـ/ 1111 م[1] وانتصر الفرنجة على المسلمين نصراً دلَّ على أنْ قدرة المسلمين على مقاومة الفرنجة أمر مستبعد[2].

كانت هذه المعركة آخر أعمال تنكريد (Tancrède) الذي مات بعدها في 8 من جمادى الآخرة 506 هـ/ 12 من ديسمبر1112 م وقد أوصى بالإمارة من بعده لروجر دو سالرن (Roger de Salerne).

بلغ روجر دو سالرن (Roger de Salerne) بإمارته أقصى حدود وصلت إليها في تاريخها الصليبي؛ حيث امتدت حدودها جنوباً إلى حصن المرقب[3] الذي يشرف على الطريق من اللاذقية إلى طرابلس، وفي الشمال استولى على عَزَاز[4]، وطوّق حلب من كل جانب.

أصبح روجر (Roger de Salerne) أعظم الأمراء الصليبيين في شمال الشام، ولم يصل إلى هذه المكانة إلاَّ بمساعدة المسلمين أنفسهم مع الأسف، فقد تحالف معه إيلغازي الأرتقي حاكم ماردين، وطغتكين أتابك دمشق، وبفضل المعلومات التي أمدّه بها لؤلؤ أتابك حلب استطاع روجر (Roger de Salerne) أنْ يوقع هزيمة منكرة بقوات برسق بن برسق قائد السلطان السلجوقي في تل دانيث[5]، وذلك في 23 من

---

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 136.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 175، وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ1/ ص363، وانظر: ابن الأثير: الكامل 8 جـ/ ص 26، وانظر ابن منقذ: المصدر السابق ص 162.

(3) المَرْقَب: بلد، وقلعة حصينة، على الساحل، بين أَنْطَرْطُوس وبانْياس، بينه وبين أنطرطوس نحو اثنيْ عشر ميلاً، وهو لا يقل أهميّة عن حصن الأكراد.
انظر: الشريف الإدريسي: المصدر السابق جـ 2/ ص 644.
وانظر: معجم البلدان جـ5/ ص 108.
وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 4/ ص 145.

(4) عَزَاز: بليدة فيها قلعة، شمالي حلب، من جهة الشرق بينهما يوم واحد. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص118، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 4/ ص 172.

(5) دانيث: بلد من أعمال حلب، بين حلب وكفر طاب. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 434.

ربيع الثاني 509هـ/ 14 من سبتمبر 1115م، وكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ المنطقة؛ فقد وضعت نهاية للخطر السلجوقي الذي كان يتهدد الفرنجة[1].

انتهت حياة روجر نتيجة اندفاعه، وتخلّيه عن حذره، فعندما بلغه خروج إيلغازي الأرتقي وطغتكين لقتاله أسرع إليهم ولم ينتظر وصول حلفائه، فلقي مصرعه، وقتل معه أكثر رجاله في المعركة التي يسميها الأوربيون «ساحة الدم Ager sanguinis» وذلك في يوم 16 من شهر ربيع الأول سنة 513 هـ/ 28 من يونيو سنة 1119م، ولم ينقذ أنطاكية نفسها من السقوط في أيدي المسلمين إلاَّ وصول بدوين الثاني (Baudouin II) ـ ملك بيت المقدس ـ لنجدتها[2].

الوضع في مدينة أنطاكية وما يجاورها:

احتلَّ الصليبيّون أنطاكيَّة، بالخيانة، واستوطنوها، ومفهوم الاستيطان في عرفهم الصليبي هو ما عبَّر عنه واحد منهم بقوله: «بدأ العامة من رجالنا يستولون على كل ما وقعت أيديهم عليه في الطرقات، وفي البيوت، وأمَّا الفرسان الذين خبروا فنون الحرب فقد واصلوا تقصي الأتراك، وقتلهم»[3].

ويبدو من هذا النص أنَّ السياسة التي اختطّها الصليبيون لحملتهم تسير في اتجاهين متآزرين:

* قتل الأنفس، دون تمييز بين مسالم، ومحارب، وإخلاء البلاد من سكَّانها، وإحلال الغزاة محلهم.
* نهب الأموال، والاستيلاء على الممتلكات بكل أنواعها.

(1) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 396، وانظر: ابن الأثير: الكامل جـ 8/ ص 271، وانظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 195، وانظر: عطية: المرجع السابق ص 138.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 199، وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 390، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 288، وانظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 168، وانظر: ماير: المرجع السابق، ص 120، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق، جـ 2/239، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 140.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 58.

تبدو هذه السياسة واضحة من خلال دراسة المدّة التي حكم فيها كل من: بوهيمند (Bohémond) وتنكريد (Tancrède) وروجر (Roger de Salerne)؛ فقد وضعوا نصب أعينهم التوسّع الدائم في الأرض الإسلامية، ونهب كل ما تطاله أيديهم، وإتلاف كل ما يعجزون عن امتلاكه سواء بالحرق، أو التخريب والتدمير.

ومن مكمّلات هذه السياسة العدوانية إرهاب الآمنين، وحصار المدن، وفرض الجزية الثقيلة عليها، والاستيلاء على الحيوانات، واقتسام المراعي، والإنتاج الزراعي مع الفلاحين.

وبهلاك روجر (Roger de Salerne) انتهى عصر القوة في حياة إمارة أنطاكية الصليبية؛ لتبدأ عصر الذبول والانحدار، وتعيش في ظل التبعيّة أكثر الأوقات؛ فقد تولّى الوصاية على عرشها سبعة أمراء، من إمارتين مختلفتين، كانت فترة الوصاية الأولى لملوك مملكة بيْت المقدس، والفترة الثانية كانت لأمراء مملكة طرابلس، فأمّا أوصياء الفترة الأولى فأربعة من أمراء بيت المقدس، وهم[1]:

الملك بودوين الثاني (Baudouin II)، وتولَّى الوصاية على العرش في فترتين:

الأولى في سنوات 513 ـ 520 هـ/ 1119 ـ 1126م.

والأخرى في سنوات 525 ـ 526 هـ/ 1130 ـ 1131م.

والملك فولك الأنجوي (Foulques d'Anjou)، وتولَّى الوصاية على العرش لفترة واحدة في سنوات 526 ـ 531 هـ/ 1131 ـ 1136م.

والملك بولدوين الثالث (Baudouin III)، وتولَّى الوصاية على العرش في فترتين:

الأولى في سنوات 544 ـ 548 هـ/ 1149 ـ 1153م.

والأخرى في سنوات 555 ـ 558 هـ/ 1160 ـ 1162م.

---

(1) انظر قائمة بأسماء أمراء أنطاكية، والأوصياء عليها في كتاب «إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون» لحسين محمد عطيّة، ص 526.

والملك عموري الأول (Amaury Ier) وتولَّى الوصاية على العرش لمدة واحدة في سنة 557 ـ 558 هـ/ 1162 ـ 1163م

وأمَّا أوصياء الفترة الثانية فثلاثة من أمراء طرابلس، وهم:

الملك بوهيموند الرابع (Bohémond IV) وتولَّى الوصاية على العرش في فترتين:

الأولى في سنوات 597 ـ 613 هـ/ 1201 ـ 1216م.

والأخرى في سنوات 616 ـ 630 هـ/ 1219 ـ 1233م.

والملك بوهيموند الخامس (Bohémond V) وتولَّى الوصاية على العرش لفترة واحدة في سنوات 630 ـ 649 هـ/ 1233 ـ 1251م.

والملك بوهيموند السادس (Bohémond VI) وتولَّى الوصاية على العرش لفترة واحدة في سنوات 649 ـ 666 هـ/ 1252 ـ 1268م.

ويمكن أنْ نلاحظ أهمَّ الأحداث، والاتجاهات السياسية في فترة الوصاية الأولى 513 ـ 558 هـ/ 1119 ـ 1163م فيما يأتي:

* انتهى حكم النورمنديين للإمارة، لتحكمها أسرة فرنسية[1] في الوقت الذي بدأت فيه صحوة إسلامية، بدأت الجهاد باسترداد زَنْكِي الرُّها[2] والقضاء على أول إمارة صليبية بها في سنة 539 هـ/ 1144م وسار على نهجه ابنه نور الدين الذي عمل على توحيد شمال الشام ومصر تحت حكمه؛ ليبدأ المدّ الإسلامي في المنطقة، ولينحسر

(1) انظر: هانس ماير: المرجع السابق، ص 131، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 142.

(2) عماد الدين، الأتابك، زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر، الملك الشهيد (478 ـ 541 هـ/ 1085 ـ 1146م) ثاني ملوك الدولة الأتابكية في الموصل، أجلى الصليبيين عن حلب، وحماة، واستعاد منهم حصن الأتارب في سنة 528هـ/ 1133م، قتل غيلة وهو يحاصر قلعة جعبر. انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 74، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ 1/ ص 27، وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 20/ ص 189، وانظر له أيضاً دول الإسلام، جـ2/ ص 57، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 14/ ص 221، وانظر: النعيمي: المصدر السابق، جـ 1 ص 616.

الوجود الصليبي في الشام باكتمال وحدة المسلمين في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي[1].

* أبرز الأمراء الصليبيين الذين حكموا أنطاكية في هذه الفترة هو بوهيموند الثاني (Bohémond II) الذي أظهر حماسة فائقة في قتال المسلمين، وحاول توسيع إمارته في جميع الاتجاهات، فاستولى على كفر طاب في الجنوب مساعدة الجنوية (Les Génois)[2]، في سنة 519هـ/ 1125م كما استولى على حصن القَدَمُوس[3]، في سنة 530 هـ/ 1135 م[4]، وفي الوقت نفسه، أغار على شيزر في طريق عودته إلى أنطاكية[5]، واتجه شمالاً قاصداً الاستيلاء على إقليم قيليقية ليجعل منه عائقاً أمام تقدّم البيزنطيين إذا ما فكّروا في العودة إلى أنطاكيّة، وهناك لقي حتفه على يد الأمير غازي الدانشمندي عند عين زَرْبَي[6] الذي قضى عليه، وعلى قواته وذلك في شهر ربيع الأول سنة 524 هـ/ فبراير 1130م[7].

* بعد موت بوهيموند الثاني (Bohémond II) اضطربت أحوال الإمارة، مما مكّن الأتابك زنكي من الاستيلاء على أملاك أنطاكية الشرقية، وانتهز ليو (Léon) زعيم الأرمن في سيس الفرصة؛ فاستولى على أملاك الإمارة في قيليقية، كما استولى سيف

---

(1) انظر: جوزيف نسيم: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبَّان العدوان الصليبي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 28، و72.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 318.

(3) القَدَمُوس: قلعة بالقرب من الخوابي، في شمالي طرابلس.
انظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 4/ ص 147.

(4) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8/ ص 330.

(5) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 184.

(6) عين زَرْبَي: بلد بالثغر، من نواحي المصيصة، أهلها من الأرمن.
انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 4/ ص 179.

(7) انظر: ميخائيل السوري: المصدر السابق ص 256، وانظر حسين عطية: المرجع السابق، ص143.

الدين ابن عمرون صاحب حصن الكهف[1] على بعض معاقل أنطاكية في الجنوب بمساعدة التركمان، وبذلك تقلّصت الإمارة، وضاعت ممتلكاتها.

* رغبت أليس (Alice) ـ أرملة بوهيموند ـ في الاستقلال بالإمارة وتحالفت مع الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين (Jean Comnène)، وطلبت حمايته، ولكن الملك فولك (Foulques d'Anjou) ملك بيت المقدس أرسل إلى أنطاكية سِرّاً ريموند بواتييه Raymond de Poitiers أميراً عليها فوصل إليها في الوقت الذي يتهددها خطر زنكي من الشرق وخطر البيزنطيين من الشمال، ورأى أنْ يدخل في طاعة الإمبراطور، ويستعين به في قتال المسلمين، ولكن هذا الحلف انتهى بالفشل، بفضل حكمة زنكي، وحسن سياسته[2].

* حاول ريموند دو بواتييه (Raymond de Poitiers) الاستفادة من وجود الحملة الصليبية الثانية، فهاجم حلب، وشيزر، في سنة 542هـ/ 1148م، ولكنه لاقى فشلاً ذريعاً في محاولته[3]، كما لاقى الفشل نفسه بولدوين الثالث (Baudouin III) ملك بيت المقدس في محاولة غزو دمشق ـ وكانت الحليف الوحيد للصليبيين في الشام ـ في سنة 543هـ/ 1148م، مما دفع أميرها مجير الدين أُنَّر بن محمد إلى تسليم المدينة لنور الدين محمود في سنة 549هـ/ 1154م وبذلك توحّدت بلاد الشام تحت إمرته، وبذلك مال ميزان القوى لصالح المسلمين لأوّل مرّة منذ بدْء الحروب الصليبية[4].

---

(1) حصن الكهف: قلعة بالقرب من القدموس، على نحو ساعة، مقامة على جبل مرتفع.
انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ4/ ص 147.

(2) انظر: ابن واصل: المصدر السابق، جـ 1/ ص 83، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1/ ص 572، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 147.
وانظر: Bréhier L.; Vie et Mort de Byznce, Paris. 1947, p.324.
وانظر: Grousset; op. cit, V.I, p. 121.

(3) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 190.

(4) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ9/ ص 45، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ 1/ ص 94،
وانظر: Prawer J.; The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972, p. 25.

* كان لمعركة إِنِّب[1] في 21 من صفر 545 هـ/ 29من يونيو 1149م نتائج خطيرة في تاريخ إمارة أنطاكيــة، فقـد انتهـت بقتـل ريمونـد (Raymond de Poitiers) وإبادة جيشه، وعلى أثرها تقدَّم نور الدين محمود في أراضي الإمارة، فاستولى على ميناء السويدية، ولم ينقذ مدينة أنطاكيّة نفسها من السقوط في أيـدي المسلمين إلاَّ جهود البطريرك إيمري دو ليموج (Émery de Limoges) الذي عقد هدنـة مـع نور الدين محمود[2].

* تولَّى الإمارة رينو دو شاتيون (Renaud de Chatillon) بعد قتل ريمونـد دو بواتيــه (Raymond de Poitiers)، ولم يستطع رينو دو شاتيون (Renaud de Chatillon) أنْ يواجه نور الدين محمود، بالرغم من استيلائه على حـصن حـارم، في سـنة 553هـ 1158 م[3]، ووجه كل جهوده في إغارتـه على جزيرة قـبرص ممـا دفـع الإمبراطـور البيزنطي مانويل كومنين (Manuel Comnène) إلى تأديبه وانتهى أمـره بـالوقوع في أسر نور الدين محمود، ليبقى فيه حتى سنة 572 هـ/ 1176 م[4].

فاجأ الصليبيون نور الدين عند حصن الأكراد، في سنة 558 هــ/ 1162 م[5] وأعملوا فيهم القتل، ولم ينج نور الدين نفسه من الموت إلاَّ بأعجوبة، ثـم عـاد نـور الدين فاستولى على حارم، وبانياس، وأسر كلاً من:

بوهيمونـد الثالـث (Bohémond III)، وريمونـد (Raymond) كونـت طـرابلس، وجوسلين الثالث (Joscelin III)، والقائد البيزنطي كولومان، في سنة 559هـ/ 1164م[6].

---

(1) إِنِّب: حصن من أعمال عزاز، من نواحي حلب.
انظر: الحموي: معجم البلدان، جـ 1/ ص 258.

(2) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 304 ـ 310، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ1/ ص 71، وانظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 151.

(3) انظر: أبو شامة: الروضتين جـ 1/ ص 100، وانظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ1/ ص127.

(4) انظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 155 .

(5) انظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 1/ ص 135.

(6) انظر: أبو شامة: الروضتين جـ1/ ص133، وانظر: ابن واصل: المصدر السابق، جـ1/ ص143.

يمكن ملاحظة أهمّ الأحداث، والاتجاهات السياسة في فترة الوصاية الثانية 597 ـ 666هـ/ 1201 ـ 1268م فيما يأتي:

* اختلفت سياسة نور الدين محمود تجاه أنطاكيّة عن سياسة صلاح الدين الأيوبي الذي تولّى جهاد الصليبيين بعد وفاة نور الدين في سنة (569 هـ/ 1174م)، وملاحظة الفرق بين السياستين في الآتي:

ـ كان نور الدين حريصاً على عدم الدخول في مواجهة صريحة مع الدولة البيزنطية، باعتبارها أقوى الدول المسيحية في الشرق؛ فقد رأيناه يوقع اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (Manuel Comnène) في سنة 554 هـ/ 1159م[1] نعمت البلاد بعدها بفترة هدوء نسبي بين المسلمين والصليبيين؛ ولذلك نراه يطلق سراح القائد البيزنطي كولومان (Coloman)، والأسرى الأرمن من رعايا بيزنطة، وبوهيموند الثالث (Bohémond III) أمير أنطاكية الخاضع لبيزنطة إرضاء للإمبراطور، ويقول: «إذا ضيّقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية، وسلّموها إليه، ومجاورة بيموند أحب إليّ من جوار ملك الروم»[2]؛ ولذلك نراه يحجم عن الاستيلاء على أنطاكيّة، وقد واتته الفرصة أكثر من مرّة، وكان ذلك في استطاعته.

وأمّا صلاح الدين فقد أدرك ضعف الدولة البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين وانتهاء الحماية البيزنطية لأنطاكية قبيل وفاته[3]، وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين عازماً على تطهير الشام من الصليبيين، بعد أنْ تمكّن من توحيد قوى المسلمين في الشام ومصر[4].

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 357.

(2) انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر ص 125.

(3) انظر: حسين عطية: المرجع السابق 175 ـ 177.

(4) انظر: ابن شدّاد: النوادر السلطانية، ص 50.

- في حياة نور الدين كانت الدولـة البيزنطية تملك جيشاً قوياً يخشى بأسه، وبعد وفاته اختفت كل عقبة أمـام أطـماع قِلـج[1]، صـاحب قُونَيـة[2]، فاحتــل سِـيواس[3]، وغيرها، مما اضطر الإمبراطور مانويل إلى لقائه، في معركة حاسمة؛ ليحدَّ من نجاحـه إلاَّ أنَّه مُني بهزيمـة ساحقة في مضيق فرجيا بالقرب من حصن ميريوكيفـالون وذلـك في 11 من ربيع الأول 572 هـ/ 17 من سبتمبر 1176م اعتبرت كارثة لا تقل آثارها عن نظيرتها معركة ملاذكرد في عام 463 هـ/ 1071م[4].

* حاول إفرنـج الشمال الاستفادة من هزيمـة صلاح الدين في منتصف جمادى الآخرة 573 هـ/ منتصـف نوفمبر 1177م عـلى يـد بـدوين الرابـع (Baudouin IV) ملك بيت المقدس أثنـاء عبـور قوَّاتـه أحـد الأنهـار عنـد تـل الـصافيـة[5]، ولم يـنج

---

(1) قِلج - بكسر القاف، واللام، وأحياناً يزاد بعد اللام ياء فيقال «قِلِيج»، أرسلان بن مسعود، الملك عز الدين السلجوقي، صاحب بلاد الروم، كان فيه عدل، وحسن سياسة (ت 588هـ/ 1192م)، وقيـل: إنه قتل. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ 21/ ص 211، وانظـر: الـصفدي: الـوافي بالوفيـات جـ24/ ص271.

(2) قُونِيَة: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها، وبأَقْصَرا سكنى ملوكها، بين قُونِيَـة وبـين أنقـرة خمـسة أيام، إلى الجنوب منها.

انظـر: الـشريف الإدريـسي: نزهـة المـشتاق جــ 2/ ص 813، وانظـر: الحمـوي: معجـم البلـدان جـ4/ ص415.

(3) سِيوَاس: بلدة كبيرة مشهورة، وبها قلعة صغيرة، بينها وبين قيسارية ستون ميلاً. انظـر: أبـو الفـداء: تقويم البلدان ص 384.

(4) انظر: محمد محمد مرسي الشيخ: تـاريخ الإمبراطوريـة البيزنطيـة ص 372، وانظـر: حـسين عطيـة: المرجع السابق ص 179. وانظر: Cambridge Medieval History, V.4, p. 347.

وانظر: Cahen C.; Une Famille Byzantine au Service des Seldjuqides d'Asie Mineur, in Variorum, London, 1974, p.147.

وانظر: Vasiliev A. A.; History of The Byzantine Empire, University of Wisconsin press, 1961, p 429.

(5) تلّ الصَّافية: حصن من أعمال فلسطين، قرب بيـت جبرين، من نواحي الرملة.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 42.

صلاح الدين إلاّ بصعوبة، شجّعت هذه الهزيمة الصليبيين في شمال الشام على شنّ غارات على المسلمين؛ فأغار بوهيمند (Bohémond) على شيزر في ذي القعدة 574 هـ/ 9 من مايو 1179م[1].

* عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه في حلب، وشمال الشام بعد المؤامرة التي دبَّرها له[2] سعد الدين كُمُشْتكِين[3] الذي رغب في تسليم حصن حارم للصليبيين مقابل مبلغ كبير من المال، ولكن سكّان الحصن استنجدوا بالملك الصالح[4] الذي فاوض الصليبيين على فك الحصار عن الحصن في مقابل مبلغ من المال تعويضاً لهم عن نفقات الحصار[5].

---

(1) اختلفت أقوال المؤرخين في تحديد وقت هذه الغارة، وقد رجّح الدكتور حسين محمد عطيّة هذا التاريخ بعد استقراء الأحداث. انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 190 ـ 192، وعن ظروف الهزيمة راجع: ابن شدّاد: النوادر السلطانية ص 53.

(2) كانت هذه المؤامرة تحريض الحلبيين والموصليين على محاربة صلاح الدين. انظر: الساحلي، نعيمة: التوجهات السياسية للدولة الأيوبية، رسالة ماجستير، قدمت إلى كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، جامعة الفاتح، قسم التاريخ، سنة 1997 ف، ص 72.

(3) سعد الدين، كُمُشْتكِين (ت 573 هـ/ 1177م) خادم نور الدين، ودزداره على قلعة الموصل، ثم صاحب حصن حارم، ونائب حلب للملك الصالح إسماعيل قتله الملك الصالح بتهمة قتل الوزير ابن العجمي. انظر: العماد الكاتب: البرق الشامي، جـ3/ ص 51، وانظر: البنداري: المصدر السابق، ص36، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ1/ ص 275، وانظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ق 8 جـ1/ ص346، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ24/ ص 367.

(4) الملك الصالح، إسماعيل بن نور الدين محمود بن زَنْكي (558 ـ 577 هـ/ 1163 ـ 1181م) تولى حكم حلب بعد وفاة أبيه، وقام بأمر الدولة شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي صالح الإفرنج، على مال يدفعه لهم، فسار صلاح الدين، وأخذ دمشق، وبقي الملك الصالح في حلب، إلى أن توفي شاباً، انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ9/ ص 221، وانظر ابن كثير: المصدر السابق جـ12/ ص 308، وانظر ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ6/ ص 89، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ4/ ص258، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ1/ ص 326.

(5) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ2/ ص 534، وانظر: العماد الكاتب: البرق الشامي جـ3/ ص67، وانظر البنداري: المصدر السابق ص 226.

* بدأت أعمال صلاح الدين المجيدة للقضاء على الوجود الصليبي في الشام بالاستيلاء على حصن الأحزان[1] الذي بناه الصليبيون في موقع أحسنوا اختياره؛ ليكون نقطة دفاع عن إماراتهم، ومنطلقاً لهجماتهم على المسلمين، وقد تمكّن صلاح الدين من هدمه في 24 من ربيع الأول 575 هـ/ 30 من أغسطس 1179م، والتخلص من شره[2].

* توالت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين في الشام، ولم يتعرّض لأنطاكية مكتفياً بتتبع أخبارها من سيبيل (Sibylle) زوجة بوهيموند التي «كانت عيناً له على العدو، وتهاديه، وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم»[3]، ولذلك عندما فتح صلاح الدين حصن برزيه[4] وأسر من فيه منَّ عليهم السلطان بالعفو وأعادهم إلى أنطاكية إكراماً لسيبيل التي شكرته على صنيعه ودامت مودتها للمسلمين[5].

كان زواج بوهيموند (Bohémond) من سيبيل (Sibylle) سبباً لوقوع حرب أهلية في أنطاكيّة، ذلك أنَّ البطريك إيمري دو ليموج أصدر قراراً بحرمان بوهيموند من الرعاية الكنسية بسبب زواجه من أكثر من زوجة في وقت واحد، مما دفع بوهيموند إلى اضطهاد رجال الدين، والقسوة عليهم؛ فاستولى على

---

(1) حصن الأحزان: بناه الصليبيون في جمادى الأولى 574هـ/ أكتوبر 1178م على الطريق بين دمشق وساحل البحر، عند مخاضة يعقوب ﷺ، على نهر الأردن، شمالي بحيرة طبرية وعلى مسافة عشرة أميال من بانياس. انظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 192ح 95.
وانظر: Dussaud; op. Cit p.18.
وانظر: Stevenson; op. cit, p. 219.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 9/ ص 147، وانظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 2/ ص 80.

(3) انظر: أبو شامة: الروضتين جـ 2/ ص 131.

(4) حصن بَرْزُويَه: ـ والعامة تسميه «بَرزيَه»: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يضرب به المثل في الحصانة، انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 383، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص260.

(5) انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ 2/ ص 131.

أملاك الكنيسة، وحاصر رجالها وهاجمهم، واضطرهم إلى اللجوء إلى حصن المرقب حيث أعلن رينو مازوير Renaaud Masoire ـ نائب بوهيمند على الحصن ـ الحرب على بوهيمند، وهزمه، وردّه إلى أنطاكية مما جعل الملك بدوين الرابع (Baudouin IV) ملك بيت المقدس يتدخل لحل النِّزاع بين بوهيموند والكنيسة، وانتهى الأمر برد أملاك الكنيسة إليها، ورفع قرار الحرمان عن الإمارة فقط[1].

* قبيل موقعة حطين، كانت سياسة صلاح الدين تجاه أنطاكية مجرّد المراقبة والمهادنة، واكتفى بتوقيع هدنة بين بوهيمند وبين تقي الدين[2] قائد صلاح الدين الذي كلّفه عمّه بمراقبة تحركات الأعداء في شمال الشام وبعد النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطّين الشهيرة في يوم السبت 24 من ربيع الآخر 583هـ/ 4 من يوليو 1187م، وبعد القضاء على مملكة بيت المقدس، وعودة الحرم الشريف إلى حظيرة الإسلام، أسرع كثير من الصليبيين إلى التجمع في مدينتي صور وأنطاكية بعد أنْ سقطت أكثر المدن والمعاقل الصليبية في أيدي المسلمين، وبخاصة بيروت، وجبلة، واللاذقية، وحصن الأكراد، وغيرها من القلاع والحصون، ولم يبق تحت حكم بوهيموند إلاَّ المدينة فقط، في وضع شبه محاصرة، فراسل صلاح الدين يطلب عقد هدنة بينهما، مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين في سجون أنطاكية، وعُقدت الهدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر[3].

---

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق ص 199.

(2) أبو سعيد، عمر بن شاهنشاه بن أيوب، تقي الدين، الملك المظفر (ت 587 هـ/ 1191م) وهو ابن الأخ الشقيق لصلاح الدين، كان شجاعاً مقداماً، ناب عن عمه في مصر وغيرها، له ترجمة مطولة في خريدة القصر، للعماد الكاتب، قسم شعراء الشام جـ 1/ ص 80، وانظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جـ 3/ ص 453، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 22/ ص 484.

(3) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 260، وانظر: ابن شدّاد: النوادر السلطانية ص94، وانظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 2/ ص 69.

* لم يكن بوهيموند (Bohémond) صاحب مبدأ، كما لم يكن بعيد النظر، فقد حاول الاستفادة من الحملة الصليبية الثالثة كتلك المحاولة التي حاولها مع قواد الحملة الثانية، ففي 16 من جمادى الأولى 586هـ/ 21 من يونيو 1190م استقبل بوهيموند فريدريك Frédéric دوق سوابيا (Souabe) الذي تولَّى قيادة الحملة الألمانية الثالثة بعد غرق أبيه فريدريك دو بارباروسة Frédéric Barbe - Rousse عند وصوله إلى أنطاكيَّة استقبالاً حافلاً، وأعلن خضوعه له، وأنه تابع للإمبراطورية الألمانية، وترك له، ولقواته حرّيَّةَ التصرف في المدينة وقلعتها، وهو يريد بذلك إقناع الدوق بمشاركته في القيام بحملة ضد حلب، في الوقت الذي يحاصر فيه المسلمون عكا، ولكنه فشل في محاولته، ورحل الدوق إلى فلسطين[1].

* بعد موت صلاح الدين في يوم 27 من صفر 589 هـ/ 3من مارس 1193م، انشغل ورثته بالصراع على السلطة[2] إلى أنْ استتب الأمر لأخيه الأصغر الملك العادل[3] الذي سار على نهج أخيه، في الفترة الأخيرة التي اتسمت بالهدوء، والمهادنة.

* انتهز البطريرك إيمري (Émery de Limoges) فرصة قبض ليو الثاني الأرمني (Léon) على بوهيموند (Bohémond) والجزء الأكبر من حاشيته في رمضان 589هـ/ أكتوبر 1193م ليجمع نبلاء اللاتين في كنيسة القديس بطرس، وتم طرد

---

(1) انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية ص 136.

(2) انظر: الساحلي، نعيمة: المرجع السابق ص 6.

(3) أبو بكر، محمد بن أيوب، سيف الدين (540 ـ 615 هـ/ 1145 ـ 1218م) أخو صلاح الدين، يصغره بسنتين، ولد في بعلبك ـ وقيل: في دمشق ـ واختلف في تاريخ مولده، شارك أخاه فتوحاته، وناب عنه في دمشق، ومصر وحلب.

انظر: تاريخ ابن الوردي جـ 2/ ص 192، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 2/ ص 235، وانظر: ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13/ ص 79، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق، جـ 6/ ص 160، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق، جـ 4/ ص 65، وانظر: الزركلي: المرجع السابق، جـ 6/ ص 47.

الأرمن، وتكوين أول كوميونة ـ «مجلس شعبي» ـ لإمارة أنطاكية، وهي أقدم الكوميونات اللاتينية في الشرق، وانتهى الأمر إلى أنْ ارتبط مصير الإمارة بمصير قيليقية من الآن فصاعدا[1].

* تعد حقبة حكم بوهيموند الرابع (Bohémond IV) والتي تقارب الثلاثين عاما (597 ـ 630 هـ/ 1201 ـ 1233م) ـ باستثناء السنوات الثلاث التي حكمها ريموند روبين الأرمني (613 ـ 616 هـ/ 1216 ـ 1219م) (Raymond) ـ تعدُّ أكثر فترات الإمارة اضطراباً، وتقلّباً في السياسة، وكانت الحرب فيها بين الصليبيين أنفسهم بعضهم مع بعض، وبين المدن الإيطالية جنوا والبندقية، وقدّر عدد القتلى بين رجال المدينتين بحوالي عشرين ألفاً وهو عدد يزيد خمسة آلاف رجل عن قتلاهم في موقعة حطّين[2]، وانعدمت الثقة فيما بين الحكام وأصبح الملك الظاهر حامياً لبوهيموند (Bohémond IV) ضد عدوه ليو الأول الأرمني (Léon)، وظل يمدّه بالعون طوال حياته، ويرى البعض أنّه ربّما كان يدفع له ثمن تلك الحماية[3].

* استولى المغول على حلب في 10 من صفر 658 هـ/ 26 من يناير 1260م، وسارع أهل كومونة أنطاكية بتقديم فروض الطاعة للمغول الذين سيطروا على الشام وفلسطين، وأثاروا الرعب في مدنها وأقاليمها، وبعد هزيمتهم في عين جالوت في يوم 24 من رمضان 658 هـ/ 2 من سبتمبر 1260م استرد المسلمون دمشق وحلب، وبدأ الظاهر بيبرس مشروعه العظيم بالقضاء على الصليبيين في الساحل الشامي، وكان لابد له من تدمير قليقية، وأنطاكية، وذلك لأنَّ هيثوم ملك قليقية الأرمني هو المسؤول عن جلب المغول إلى العراق والشام، وهو الذي استدعى المغول الموجودين لدى السلاجقة، وفرسان أنطاكية وألبسهم ملابس المغول وأغار بهم على حارم، وسرمين، والجَزَر، وغيرها من بلاد الشام الشمالية فنهبوا، وسلبوا، وأفسدوا

---

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق 237 ـ 239.

(2) انظر: حسين عطية: المرجع نفسه ص 248 ح 5.

(3) انظر: Cahen; La Syrie du Nord, p. 593.

المزارع[1]، ولهذا وجه بيبرس ضرباته إلى أنطاكيـة، واستولى عليها في يوم 5 من رمضان 666 هـ/ 18 من مايو 1268م[2].

الوضع السياسي والحربي في المدن الساحلية الأخرى:

يبدو أنَّ الصليبيين كانوا يخلون المدن الكبيرة والعاصمة من غير الـصليبيين؛ فكانوا يقتلون الجميع، بدون تفرقة، وأمَّا في المدن الداخلية، والقرى فكانوا محتاجين إلى الأيدي العاملة، فكانوا يبقـون عـلى الـبعض إمَّـا أسرى، وإمَّـا يرغمـونهم عـلى اعتناق المسيحية؛ فبعد أنْ استولى الصليبيون على قرية تل مَنَّس[3] التـي سـلَّمها لهـم سكَّانها السريان، وعرفوا أنَّه بـالقرب مـنهم حـصن يمتلـئ بالمسلمين خـرج إليـه الصليبيون، وحاصروه، وتمكَّنوا من السيطرة عليه «أسروا كل من فيه من المسلمين، وأبقوا على حياة من اعترفوا بالمسيح كمخلِّصهم، ورغبوا في أنْ يعمَّدوا، وقتلوا كلَّ من رفض منهم اعتناق المسيحيّة»[4].

كانت القوات الصليبية تهاجم الموانئ والمدن الساحلية الإسلامية وتفـرض عليها الحصار من البر، في الوقت الذي تكون فيه السفن الإيطاليـة قـد أحكمـت الحصار البحري عليها، فبعد حصار عنيف استمر أسابيع احتـلَّ الصليبيون ميناء يافا، وقاموا بنهب هـذه المدينـة وسـلبها، وذبـح أهلهـا جـميعهم، وإخلائهـا مـن سكانها[5]، مما دفـع بعض النـبلاء مـن الـصليبيين إلى المطالبـة بنبـذ هـذه الـسياسة التعسفية، ومنع عمليات السلب والنهـب والقتـل في المـدن التـي يـستولي عليهـا الصليبيون من أيدي المسلمين «وذلك بغيـة الحـصول عـلى هـذه المـدن في شـكل إقطاعات ومن الواضح أنَّ أفراد طبقـة النبلاء الصليبيين كانوا يفـضِّلون اسـتلام

---

(1) انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 191.

(2) انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق ص 308، وانظر: Grousset; op cit, V.3, p. 461.

(3) تلّ مَنَّس: حصن قرب معرّة النعمان بالشام. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 44.

(4) انظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص 256.

(5) انظر: Michaud; op. cit, V.11, p. 12.

هذه المدن بأسواقها التجارية، وورشها الصناعيـة سليمة، دون أنْ يلحقها الدمار، وليست كومات من الأطلال»[1].

ومن تتبع الأحداث التاريخية لتلك الفترة نلاحظ أنَّ الحيـاة في تلـك المـدن لم تكن مستقرَّة في يوم من الأيام، فهي:

* إمَّا مُحَاصَرَة من قوّة غازية معادية، قد تكـون عربيـة إسـلامية أو صـليبية، أو مـن المدن التجارية الإيطالية.
* وإمَّا غنيمة لقوة غازية تجوب شوارعها مدمّرة، سالبة[2].

وبسبب كثرة الغارات والقتال حول المدن والقلاع، فقد لجأ أمراء أنطاكية إلى التنازل عنها إلى فـرق الفرسـان الدَّاويـة، أو الإسـبتاريّة والتيوتـون للـدفاع عنهـا، وحمايتها[3].

الأوضاع في الريف ونشأة المستوطنات الزراعية:

لم يكن في استطاعة الصليبيين ترك السلاح والتفرغ للزراعـة وبخاصّـة أنهـم كانوا قليلي العدد، وتنقصهم الخبرة والمعرفة بطبيعة الأرض ومحاصيلها، ويمكننا أنْ نتعرَّف على أسس سياستهم في مستوطناتهم الزراعية كالآتي:

* في البدْء، حاول الصليبيون إبعاد المسلمين في الجنوب والشرق بحيث تصبح البادية الممتدة بين المناطق الزراعية والصحراء منطقة عازلة بينهم وبين المـسلمين في مصر والعراق، ومثل هذه السياسة كانت تقتضي احتلال حلـب ودمـشق، ولكـنهم لم يتمكّنـوا من احتلالهما، فاستعاضوا عن ذلك بتوقيع اتفاقيـات المهادنـة والتعـاون من أجل إيجـاد منطقـة محايـدة في شـمالي الأردن، وفي المنطقـة الممتـدة بـين الزرقـاء واليرموك وسهل السواد، وفي سهل البقاع اللبناني الممتد بين جبـال لبنـان الـشرقيـة

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 35.

(2) انظر: ابن العديم: زبـدة الحلب جـ 1/ ص 379.

وانظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص190.

(3) انظر: Prawer; op. cit, p. 275.

والغربيـة، وفي أطراف منطقـة حـوران، وفي هـذه المنطقـة المحايـدة كانـت الثـروة الزراعية والحيوانية قسمة بين المسلمين والصليبيين؛ فيستفيدون من مخـزون الحبـوب ورعي المواشي في الجولان»[1].

ومن المعروف أنَّ الصليبيين اعتبروا السكان المحليين، وحتَّى المسيحيين منهم «هراطقـة Hérésie» غـير جـديرين بـالاحترام، ولـذلك لم يجـدوا حرجـاً في نهـب ممتلكاتهم، غير أنّ ضرورة التعايش جعلتهم يغـيّرون مـسلكهـم، ويحـسنون معاملـة الناس، بل إنَّ بعض رجال الكنيسـة تنبهوا إلى ما يمكن أن يجلبه تبادل القروض من أرباح على كنائسهم»[2].

والمستوطنـة الزراعية إقطاع من الأمير إلى واحـد مـن الـصليبيين، وعليـه أنْ يلتزم بأمرين:

الأول: أنْ يدخل الحرب من حين إلى آخر ضد المسلمين، وأنْ يدفع جزءاً من الغنيمة التي يحصل عليها.

والآخر: يدفع ضريبة مفروضـة على الأراضي الزراعية، ويدفعها من المحاصيل الطبيعية[3].

وكان للكنيسة في داخل البلاد نصيب وافـر مـن الاسـتيطان، وقـد نظمـت الإدارة تنظيماً دقيقاً، فقـد كان الإقطاعي يكلف الرقيـب «Dispensateur» بالـسهر على جودة العمل، وكان من حقـه أنْ يطـرد مـن حـين إلى آخـر أحـد المـستوطنين المهملين، وله الحق في سحب الأرض من المعاقب، وفرض غرامة ماليـة عليـه، ولا يتم ذلك إلاَّ بالتفاهم مع هيئة الإدارة[4].

(1) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 101.

(2) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق ص 215.

(3) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 229.

(4) انظر: هانس ماير: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

ونعلم من الوثائق المتوفّرة أنَّ المدن التجارية الإيطالية كان لها نصيب مفروض من الأرض الزراعية إلى جانب المنح الأخرى، قدمت لهم أجراً على مساعداتهم في فتح المدن الساحلية، ونقل الجنود، فعندما منح بولدوين الأول (Baudouin 1er) ـ ملك بيت المقدس ـ البنادقة (Les Vénitiens) صك امتياز بامتلاك ثلث مدينة صور، تسلّموا هذا الثلث بالكامل بما فيه الأراضي والحقول التابعة لها، والمستأجرة بطريق المزارعة[1].

ومن المؤكد أنَّ الحياة في هذه المستوطنات كانت باهظة التكاليف في الأرواح، والمساكن، والمزارع، والممتلكات، فمن استقراء الأحداث لا نكاد نجد مظلّة من الأمن أو الاستقرار تظلل بلاد الشام كلها أو فلسطين؛ فإنْ كانت المستوطنة للصليبيين، تعرّضت لغزو المسلمين، فيستولون على المحاصيل، أو يتلفونها، ويسوقون دوابهم «غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم»[2] وبالمثل إنْ كانت الضيعة للمسلمين فهي معرضة للغزو الصليبي، وكثيراً ما كانت غاراتهم تتسم بالوحشية والقسوة، وكان من المألوف أنْ يجني المسلمون محاصيلهم تحت حراسة الجنود[3].

وبحسب القواعد الإقطاعية ربّما ساءت العلاقة بين الأمير وأفصاله ففي جمادى الأولى من عام 601 هـ/ ديسمبر 1204م وقع خلاف بين بوهيموند الرابع (Bohémond IV) وبين رينوار الثاني (Renoart II) حاكم أَنَفَة[4]، وسبب الخلاف أنَّ رينوار الثاني (Renoart II) تزوج إيزابيلا (Isabella) بنت أستيفورت (Astefort)

---

(1) انظر: هايد: المرجع السابق، جـ1/ ص 164.

(2) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 183.

(3) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 171، وانظر: براور: المرجع السابق، ص 86 .

(4) أَنَفَة: ويسميها الأوربيون نيفين Nephin، واسمها الحالي أنف الحجر ـ وهي بليدة على ساحل بحر الشام، شرقي جبل صهيون، بينهما ثمانية فراسخ، وهي على بعد 16 كيلومتراً جنوبي طرابلس.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ1 / ص 271.
وانظر: Dussaud; op. Cit. P. 77.

حاكم حصن عكار دون الحصول على موافقة سيِّدِهِ، بحسب ما تمليه الأعراف الإقطاعيّة، ورأى بوهموند الرابع (Bohémond IV) في هذا السلوك إهانة له، يستوجب العقاب عليه، وقرر استدعاء تابعه، لِيَمْثُلَ أمام محكمة عقدت له في طرابلس، ولكن رينوار الثاني (Renoart II) أعلن التمرّد على سيّده، ورفض حضور المحاكمة التي أصدرت حكمها بأنّه قد ارتكب خطأ في حق سيده، وأعطت المحكمة بوهموند الرابع (Bohémond IV) الحق في الاستيلاء على إقطاع تابعه، وفرضت حالة التمرّد هذه عليه أنْ يعد نفسه لعمل حربي كبير ضد تابعه[1].

الإقطاع والكنيسة والاستيطان في إمارة إنطاكية:

كان للكنيسة دور بارز في تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية، باعتبار أنطاكيّة أقدم المدن التي تبنّت قيام الكنيسة المسيحيّة، والإشراف عليها، ورعايتها، ومنها انتشرت في أنحاء العالم.

وكان لهذا الدور أربعة مظاهر:

أولها ديني بحت: وهو ناشئ عن الصراع بين الكنائس الكبرى، وبسط نفوذها على غيرها من الكنائس المحلية، وتبعيّتها لها.

وثانيها سياسي: وهو ناشئ عن رغبة البطاركة في بسط سلطانهم على الأمراء، أو تدخلهم للإصلاح بينهم، أو تآمرهم على بعضهم؛ لإبعادهم، أو حرمانهم.

وثالثها حربي: وتمثله الفرق الدينية التي تولّت الدفاع عن الحصون والقلاع، وكانوا من القساوسة والرهبان المقاتلين.

ورابعها اقتصادي: وهو ناشئ عن حق التصرف في الأموال.

فبالنسبة للمظهر الأول «الديني»:

لعلَّ أبرز صوره هو الخلاف بين كنيستي أنطاكية وبيت المقدس حول الإشراف على كنيسة صور؛ ففي الوقت الذي أحكم فيه الصليبيون الحصار حول صور، حتى

---

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 267.

خضعت بالأمان في 23 من جمادى الأولى 518 هـ/ 8 من يونيو 1124م[1]، بدأ الصراع بين البطاركة فيمن يحق له الإشراف على كنيستها، وهي ثالثة الكنائس الشامية في الرتبة.

فيقول بطارقة أنطاكية: إنَّ صور كانت تابعة لهم زمن البيزنطيين وهم أحق بالإشراف عليها.

بينما يقول بطاركة القدس: إنَّ مركزهم ازداد قوة بالامتيازات التي منحها البابا باسكال الثاني Pascal II في روما لكنيستهم في عام 505 هـ/ 1111م[2].

«إذْ إنَّ مجلس أوفيرون Auvergne ذلك المجلس النافذ السلطة الذائع الصيت كان قد أصدر قراراً بالإجماع دون معارضة يقضي بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبر البحر العظيم يمكن انتزاعها من براثن الكفار إلى أبد الدهر، فضلا عن أنَّ ذلك قد أعيد تثبيته، وسلَّم به الجميع في مجلس أنطاكية... وقد ثبَّت البابا هذه الامتيازات من حين لآخر، ونقلها لكنيسة القدس، ولسوف تتمتع كنيسة القدس بحق هذه الامتيازات، ومستندة لسلطة كنيسة روما، إلى أبد الدهر»[3].

وبالنسبة للمظهر الثاني «السياسي»:

عندما اعتلى بوهموند الرابع (Bohémond IV) عرش الإمارة بتأييد من كوميونة المدينة والبيازية (Pisans) وجماعتي: الداويَّة (Templiers) والإسبتارية (Hospitaliers)، وبدعم من الملك الظاهر بحلب، أيضاً، عارضه ليو الثاني (Léon II) ملك أرمينيا بتأييد من بطريرك أنطاكية اللاتيني بطرس الأول دو أنجويلم (Pierre I^er d'Angoulème) وفشلت جهود المندوب البابوي الكاردينال سوفريد دو سان براسيدس (Soffred de st. Praxedis) في الصلح بين

(1) انظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 234.

(2) انظر نص القرار في: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 217، وانظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 241، وانظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 123.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص 216.

المتخاصمين، مما اضطره في النهاية إلى إنزال عقوبة «الحرمان» ببوهيموند (Bohémond IV)»[1].

وعندما رفض ليو الثاني (Léon II) رد ما نهبه من أملاك جماعتي الداويَّة (Templiers) والإسبتارية (Hospitaliers) أنزل به بطرس كابوانو دو مارسللو (Pierre Capuano de st Marcello) المندوب البابوي عقوبة «الحرمان» أيضاً، وبعدها أسدى النصح لأطراف النِّزاع حتى لا تنشب حرب بينهم بلا مبرر[2]، ووسط هذه التيارات السياسية المتناقضة سعى البابا أنوسنت الثالث (Innocent III) إلى حماية استقلال الكنيسة اللاتينية، كي يحافظ على توازن القوى بين إمارتي أنطاكية وأرمينية اللتين سعى حكامها إلى الحصول على تأييد الحكام المسيحيين الآخرين[3].

وبالنسبة للمظهر الثالث «الحربي»:

قام فرسان الجماعات الدينية بدور كبير في حماية إمارة أنطاكية، والدفاع عنها ضد غارات المسلمين عليها، ففي رأيهم «أنَّه لما ينال رضا الإله أن يصبح الربط بين حياة الرهبنة ومحاربة المسلمين المثل الأعلى الجديد للفرسان»[4]، ثم أصبحوا القوة الوحيدة التي كان لها جيش قوي، منظم، عامل، ومستعد على الدوام، وأصبحوا دولة داخل الدولة، فقد منح ريموند بواتيه (Raymond de Poitiers) في عام 544 هـ/ 1149 م جماعة الداوية (Templiers) حق الإعفاء من الضرائب، والالتزامات الإقطاعية، ونقل ممتلكاتهم داخل الدوبة وخارجها، وفي الوقت نفسه منح بوهيموند الثالث (Bohémond III) جماعة الإسبتارية (Hospitaliers) الاستقلال الذاتي كاملاً؛ فكان من حقهم عقد الاتفاقيات مع المسلمين، وشنّ الغارات عليهم، كما يحق لهم الاحتفاظ بالغنائم التي يستولون عليها منهم في حين أنّهم غير ملزمين بتنفيذ

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 261.

(2) انظر: حسين عطية: المرجع نفسه، ص 265.

(3) انظر: Cahen; La Syrie du Nord, p. 617.

(4) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 125.

الاتفاقيات التي يعقدها هو مع المسلمين، بل وليس من حقّه توقيع معاهدة معهم دون الرجوع إليهم، وكما كان لهم الاستقلال السياسي والحربي كان لهم أيضاً الاستقلال التجاري فكانوا يستوردون ويصدّرون، ويبيعون، ويشترون دون أي التزام منهم نحو أمير أنطاكيّة[1].

ولمّا أصبح تدخّلهم في شؤون البلاد أمراً مفروضاً، اضطر ليو الثاني (Léon II) ملك أرمينية إلى الاستعانة بفرسان التيوتون (Les Chevaliers Teutoniques) فمنحهم في قليقية من الحصون والامتيازات مثل ما للآخرين[2]، وكان من الطبيعي أنْ تتضارب مصالح هذه الجماعات الدينية، فيؤيِّد بعضها أميراً، ويساند بعضها غيره، وكان لهذا الموقف من جانب الجماعات الرهبانية أثره في اتخاذ القرارات[3].

وبالنسبة للمظهر الرابع «الاقتصادي»:

في مجمع نابلس سنة 1120م الذي يضم أهم رجال الدين والأعيان صدر قرار ينظّم العلاقة بين الكنيسة والسلطة الحاكمة، وكانت البنود الثلاثة الأولى منه تمنح الكنيسة حق التصرف بالعشر الكنسي الذي حُرمت منه منذ فترة طويلة، وقد أنهى هذا الاتفاق جزءاً من نزاع التنصيب على العرش بين الملك المرشح والكنيسة الذي بدأ في أوربا، ووصل إلى الشرق مع الصليبيين[4].

كان الملك يؤدي قسم الولاء الإقطاعي لأسقف الكنيسة، ويتسلّم به أرضاً إقطاعيَّة، ومن الناحية النظرية كان هذا النبيل يلتزم بالدفاع عن هذه المؤسسة، سواء كانت كنيسة أو ديراً، ومن المحتمل «أن اللقب الغريب - يريد لقب حامي

---

(1) انظر: حسين عطية: المرجع السابق، ص 160، وانظر: Smith J.R.; The Knights of st. John in Jerusalem and Cyprus (1050 – 1310), London, 1967, p. 66.

(2) انظر: حسين، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م، ص 145.

(3) انظر: حسين عبد الوهاب: المرجع السابق ص 231.

(4) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 121.

القبر المقدس Advocatus Sancti Sepulchri ـ الذي اختاره جودفـري دو بوايون (Godfrey de Bouillon) كان يعني اعترافـه إلى حد ما بنوع من السيادة الكنسية، وإنْ كـان المعنـى العمـلي لهـذا الاعـتراف ظـل غامـضاً، وغـير محـدد عـلى أرض الواقع»[1].

نتائج الاستيطان في إمارة أنطاكية:

من تاريخ إمارة أنطاكيـة في نهاية أيامها، يتبـيّن لنـا مـا أصـابها مـن المـرض، وعوامل الفناء، و«في هذا الطـور تحصل في الدولة طبيعــة الهـرم، ويـستولي عليهـا المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْء، إلى أنْ تنقرض»[2].

فلم ينفع أمراءها تحالُفُهم مع أعداء العروبة والإسلام طمعاً في توفير الأمـان لهم، وفي إطالة عمر مستوطناتهم، فهم:

تحالفوا مع بيزنطا؛ وبعد توقيع معاهدة ديفول Devol في سـنة 500 هــ/ 1107م أصبحت أنطاكيـة خاضعـة للإمبراطـور ألكـسيس (Alexis Comnène) وخلفائـه مـن بعده، يسيطـرون على حكامها، ويوجهون سياستها.

وتحالفوا مع الأرمن؛ فنهبوا ممتلكاتهم، كما نهبها العرب، فقد تمكّـن الأتابـك زنكي من الاستيلاء على أملاك أنطاكية الشرقية، وانتهز ليو (Léon) زعـيم الأرمـن في سيس الفرصة؛ فاستولى على أملاك الإمارة في قيليقية.

وتحالفوا مع المغـول؛ في سـنة 658هــ/ 1260م وأثـاروا الرعـب ونـشروا الخوف والفزع في المدن والقرى حول أنطاكيـة، وشـحنوا نفـوس المـسلمين حقـداً عليهم، وكراهية لهم.

وتحالفوا مع غيرهم من القوى البحرية أو البرّية، فكانت أحلافهم مع البنادقـة، والبيازنة، والداوية، والاسبتارية وفرسان التيوتون وبالرغم من كل تلـك الأحـلاف لم

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 57.

(2) انظر: مقدمة ابن خلدون، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000م، ص 121.

يجدوا الأمان المنشود، ولا استطاعوا الاستقرار في بلادنا، بل ربّما كان ذلك سبباً للإسراع بفنائها، وطيِ صفحة الاستيطان فيها.

وإذا كانت الحروب قد انتهت وقائعها، وانحسرت تلك الهجمة الظالمة الطاغية فقد تركت آثاراً سياسية، واقتصادية، واجتماعية، بعيدة المدى في الإمارات الصليبية، والمجتمع العربي في الشام، ستتناولها الباحثة بالدراسة فيما يلي من فصول وسيكون الفصل التالي بعنوان:

(تأثير الاستيطان في البيئة السياسية للإمارات الصليبية).

الفصل السادس
تأثير الاستيطان في البنية السياسية للدويلات الصليبية

تأثير الاستيطان في البنية السياسية للدويلات الصليبية

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : مفهوم الدولة والإمارة الصليبية.

المبحث الثاني : السلطة في النظام الإقطاعي:

* سلطة الحاكم.
* سلطة الكنيسة.
* سلطة المجلس الأعلى.
* سلطة القضاء.

المبحث الثالث : مشكلة الحدود الآمنة.

المبحث الرابع : الحصون والقلاع وقوات الجيش.

المبحث الخامس: السياسة الداخلية للإمارات الصليبية:

* العلائق بين الصليبيين في الإمارات الصليبية.
* العلائق بين الصليبيين والمسيحيين المحليين.
* العلائق بين الصليبيين والمسلمين الخاضعين لهم.

المبحث السادس : السياسة الخارجية للإمارات الصليبية:

* الصليبيون والدول الإسلامية.
* الصليبيون والبيزنطيون.
* الصليبيون والمسيحيون في أوربا.
* الصليبيون والمدن الإيطالية.
* الصليبيون والمغول.

المبحث السابع : أسباب انهيار الاستيطان الصليبي في الشرق.

مفهوم الدولة والإمارة الصليبية:

اختلف مفهوم الدولة في علم الاجتماع الإنساني باختلاف العصور، وتطوَّر معناه من جيل إلى جيل؛ ففي فجر التاريخ كان الحاكم هو الدولة، وحدودها غاية ما يستطيع الوصول إليه بالغزو وما يمكنه الحفاظ عليه بالقوة، وظل هذا المفهوم هو السائد في العصور الوسطى، وإنْ اختلف نظام الحكم، فهناك فرق بين شكل الدولة وشكل الحكومة؛ إذ يتحدد شكل الدولة على أساس وحدة السلطة أو تعددها، بينما يتحدد شكل الحكومة على أساس الصيغ القانونية القائمة، والتي يمارس الأشخاص، أو الهيئات من خلالها سلطتهم[1].

ويقسِّم علماء القانون الدولة قسمين:

الأول: الدولة العادية، أو البسيطة État Simple، وربَّما أطلقوا عليها اسم الدولة الموحدة، أو المتحدة، أو المنفردة État Unitaire لأنها تنفرد بإدارة شؤونها.

والآخر: الدولة المتحدة، أو المركبة État Composé، وربَّما سمّوها أيضاً الدولة الاتحادية[2].

عناصر الدولة:

لعلَّ تعريف الدولة الأكثر شيوعاً هو أنَّها «مجموعة كبيرة من البشر، تقطن إقليماً معيناً، تدير شؤونها سلطة عامة متمتعة بالشخصية المعنوية والاستقلال»[3] ومكونات الدولة التي تظهر من خلال هذا التعريف ثلاثة عناصر، وهي:

1 ـ الشعب: كثر عدده، أو قل، ولا يشترط فيه وحدة العرق أو الدين، أو اللغة.

---

(1) انظر: الحسيني، محمد: التكييف الدستوري لشكل الدولة الإسلامية، موقع على الإنترنت تحت عنوان «الدولة» ص 1.

(2) انظر: ربَّاط، إدمون: الوسيط في القانون الدستوري العام، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، جـ1/ ص 275، وانظر: سليمان، حسن سليمان: مدخل للثقافة السياسية، الشركة العامة للورق والطباعة، الخمس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1999ف، ص 61.

(3) انظر: سليمان، حسن سليمان: المرجع السابق، ص7.

2 ـ الأرض: وهي الجزء من اليابسة الذي يعيش عليها الشعب بصفة دائمة، وكل ما يحيط بها من سماء، ومياه، وتحدها حدود معترف بها، وتقوم عليها سلطتها السياسية.

3 ـ السلطة: وهي السلطة العليا التي يخضع لها جميع الأفراد، وقد يمارس هذه السلطة فرد أو ملك أو هيئة، أو شعب، وذلك بحسب شكل الدولة ونظام الحكم فيها.

وقبل أنْ تبيِّن الباحثة أنَّ الإمارات الصليبية التي تكوَّنت على الأرض العربية كان الفناء محكوماً عليها، طال الزمن أو قصر، فمن الواجب التفريق بينَّ مصطلحي: الأمة، والشعب؛ لتتضح خصائص الدولة القوية المتماسكة التي يكتب لها البقاء والنماء.

الشعب: مجموعة الأفراد، من الجنسين، يعيشون كمجتمع واحد في إطار الدولة، بغض النظر عن الأصل، أو اللون، أو الدين.

الأمة: مجموعة من الناس مستقرة على بقعة من الأرض، تجمع بينها رغبة مشتركة في العيش معاً، وهي رغبة قوية أوجدتها عوامل متعددة، منها: الأصل الواحد، واللغة المشتركة، والدين والعادات، والتقاليد، والتاريخ المشترك، والمصير الواحد، والأماني القومية الواحدة[1].

ومن هنا نجد أنَّ الشعب الذي ينتمي إلى أمة واحدة تذوب فيه عوامل التفرقة، وتنعدم الصراعات، ويعمل الجميع متعاونين لتحقيق أهدافهم المشتركة، ولمثل هذا الشعب المتجانس يكون البقاء والاستمرار بينما الشعب غير المتجانس المنتمي إلى أمم متعددة؛ حيث تختلف فيه الأصول، والأديان، والعادات، والأماني تكثر فيه أسباب الفرقة والتناحر، ولا ينتظر له الاستقرار والخلود.

وإذا نظرنا إلى الحملة الصليبية الأولى لم نجد شيئاً يجمع بين أفرادها غير «اللصوصية المزيّنة بالصلبان على صدورها.... فلم يكن ثمَّة شيء يربط مختلف

---

(1) انظر: سليمان حسن: المرجع السابق ص 8.

الفصائل بعضها ببعض، وكان كل سيِّد يمضي مع عـصبته، ولم يكـن ثمَّـة قـادة، لا كبار، ولا صغار معيّنون رسمياً من قِبَل أحد ما، ولم تكن ثمَّة قيادة واحدة مـشتركة للجميع ولم يخطر في بال أحد أنْ يرسم خطّة عامة مشتركة.... وكـان قـوام مختلـف الوحدات المتجمعة عفوياً حول أشهر السَّادة يتغيّر؛ لأنَّ الفرسـان كانـوا غالبـاً مـا ينتقلون من قائد إلى آخر، بأمل الحصول منه على هذه الفوائد أو تلك»[1].

كانت هذه الفصائل الصليبية تمثل عدداً كبيراً من الأصول واللغات:

* فقد كـان أتبـاع الكونـت روبـرت الثـاني الفلانـدريِّ (Robert II De Flandre) يتكلمـون اللغة الفلمنكية، في الوقت الذي كان فيه قادتهم يتحدثون الفرنسية.
* وكانت الجمـوع التي يقـودها روبرت الثـاني دو فلانـدر (Robert II De Flandre) تضم فرساناً من نورمان فرنسا، ونورمان إنجلترا.
* وكانــت الجمــوع التــي يقودهــا الــدوق جــودفروا البوايــوني، دوق اللــورين (Godfroy de La Lorraine) تتحـدث لغـة هي مزيج من الألمانية والفرنسية.
* وكانت الجموع التي يقودها الكونت ريموند الرابـع الـصنجيلي (Raymond IV de Saint-Gilles) تتحدث اللغة القطالونية.
* وكانت الجمـوع التـي يقودهـا بوهيمنــد (Bohémond) وتنكريـد (Tancrède) تتحدث لغة الفرانكو نورمانية[2].

عن هذا التنافر قال فوشيه الشارتري: «من ذا الذي سمع من قبـل عـن مثـل هذا الخليط اللغوي في جيش واحد؟ كان هناك الفرنجة، والفلمنك، والفريزيــون، والغال، والألوبروجيـون، واللوثرنجيـون، والألـيماني، والبافـاريون، والنورمـان، والإنجليز، والأسكتلنديون، والأقطانيون، والإيطاليون، والداشيون، والأبوليـون، والأيبيريون، والبريتون، واليونان، والأرمن.

---

(1) انظر: زابوروف، ميخائيل: المرجع السابق، ص 67.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع، ص 86.

وإذا أراد واحد من البريتون أو التيوتون أنْ يسألني فإنَّني لم أكن أستطيع الرد، أو أنْ أفهم ما يقول»[1].

وعلى هذا يمكن تقسيم الصليبيين عرقياً كالآتي:

* أبناء اللورين وشمال فرنسا الذين استقروا في القدس.
* أبناء البروفنسال ـ جنوب فرنسا ـ وقد استقروا في كونتية طرابلس، مما صبغ الكونتية بصبغة بروفنسالية في النظم والعادات.
* والنورمان في أنطاكية، والتي حكمت فيما بعد من أبناء شمالي فرنسا فكانت لها سمات نورمانية في عاداتها ومظاهرها.
* وكانت كونتية الرها قصيرة الأمد، ولم يحلّ الغزاة محلّ سكانها من الأرمن[2].

لم يكن من العجيب ـ إذن ـ أنْ يظهر الخلاف بين قادة هذه العصابات، منذ اليوم الأول لتأسيس إماراتهم في الشام، وأنْ يحكم على تلك الإمارات بالزوال؛ فإنَّ قادة الحملة الصليبية الأولى الذين أصبحوا حكاماً للإمارات الصليبية الجديدة قد قاموا بمنح الإقطاعات والإيرادات لأتباعهم[3].

السلطة في النظام الإقطاعي:

من المسلم به أنَّه لم توجد على الإطلاق حكومة إقطاعية نموذجية في العصور الوسطى، وإنَّما وجدت أمثلة عمليّة لبعض أنظمة الحكم دالّة على خصائص الحكم الإقطاعي؛ ذلك لأنَّ النظام الإقطاعي تعددت أشكاله وتنوَّعت ألوانه باختلاف الأحوال والبلاد التي نشأ فيها «إذ طبعته أيدي النورمان القوية في إنجلترا بطابع معيَّن، وصبغه ضعف الملكيَّة في فرنسا بصبغة خاصَّة، على حين تأخَّر نضجه وتمامه في ألمانيا بسبب نظامها القبلي، وصولة الأباطرة فيها»[4].

---

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق (ترجمة قاسم عبده) ص 105.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 225.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 86.

(4) انظر: كوبلاند، وفينوجرادوف: الإقطاع والعصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، 1958م، ص 24.

كانت السلطة الحاكمة في الإمارات الصليبية صورة من صور النظام الإقطاعي السائد في أوربا في العصور الوسطى، نقله الصليبيون معهم إلى بلادنا، وإنْ فرضت عليه الأحوال، وطبيعة الأرض والبيئة بعض التغيير، وستحاول الباحثة أنْ تبيِّن الأسس التي قام عليها هذا النظام وأوجه الخلاف بينه وبين الإقطاع الأوربي، من خلال الحديث عن سلطة الحاكم وسلطة الكنيسة وغيرهما، وإنْ كان هذا النظام يُعَدُّ في الواقع نموذجياً للحكم الإقطاعي، وإنْ قام على أساس غير الأساس الأوربي وفي أرض أجنبيّة لأنَّ الصليبيين لم يعرفوا نظاماً غيره للحكم[1].

سلطة الحاكم:

كان الملك الصليبي في بيت المقدس هو السيّد الإقطاعي الأعلى للغزاة؛ فهو الذي ينظِّم الحملات العسكرية، ويقودها، ويوقّع المعاهدات، وقد حرص الملوك الأول جودفروا (Godfrey) وبلدوين الأول (Baudouin 1er) على انتهاج سياسة حذرة وحكيمة في توزيع الإقطاعات على أفصالهم وأتباعهم؛ فإذا تمكّن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة إسلامية لم يقطعوها فور سقوطها مباشرة لواحد من القادة الصليبيين، بل كان يعيّن لها حاكمٌ من قبل الملك وحامية عسكريّة، وتصبح منطقة نفوذ ملكية «دومين ملكي» الذي كان يتألف من ثلاث مدن رئيسة هي بيت المقدس، وعكا، ونابلس، ثم أضيف إليها الداروم[2] فيما بعد[3]، ولم يوزّع الملك إقطاعات إلاَّ القرى والأملاك المصادرة في المدينة[4].

(1) انظر: كوبلاند، وفينوجرادوف: المرجع السابق ص 24، وانظر: طرخان، إبراهيم: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1978م، ص 47.

(2) الداروم «ويقال لها أيضاً الدارون»: وهي قلعة بعد غزة بينها وبين البحر فرسخ.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 424.

(3) انظر: Richard, J; Le Royaume Latin de Jérusalem, p 71.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 88.

ووفقاً للنظريـة الاجتماعيـة في العـصور الوسـطى كـان كـل الأعيـان وكـل الفرسان ينتمـون إلى طبقة النبلاء التـي انقـسمت إلى ثلاثـة أقـسام غـير متجانـسة، وهذه الأقسام هي:

- طبقة الأعيان، أو الرجال الأغنياء Notables.
- طبقة البارونات Barons.
- طبقة صغار الفرسان Lesser Kinghts.

وكانت هذه الطبقات الثلاث أمام القانون سـواء، فـلا تمـايز بينهـا وبمـرور الوقـت استطاع كبار الأعيان أنْ يجمعوا بين امتلاك الإقطاعات وتولِّي الوظـائف في الإدارة الملكية الصليبيـة، واحتكروا السلطة الحقيقية في المملكة[1].

وإلى جانب طبقة النبلاء وجدت طبقة العامة Bourgeois التي اعتبرت الطبقة الأدنى من النبلاء، وهي تمثل المحاربين المشاة وكوّنوا النواة للمستوطنين الـصليبيين الذين استقرُّوا في منطقة الشرق الأوسط.

وبالرغم من ادّعاء أمراء المالك الصليبية في كل من الرُّهـا، وأنطاكيـة، وطـرابلس أنّهم يتمتّعون بالاستقلال الكامل والسيادة التامّة في إماراتهم إلاَّ أنَّ الحقيقة تؤكد تبعيتهم لمملكةِ بيت المقدس التي كانت لها الأولوية الظاهرة بحكـم مكانتهـا الدينيـة والتاريخيـة، وليس أدل على ذلك من نظرة المسيحيين جميعاً إليها باعتبارها مدينة المسيح، وبها كنيسته، وهي مقصد الحجاج من جميع بلاد العالم المسيحي[2].

لم تكن سلطات الملك مطلقة، بل قيدتها سلطة الكنيسة، وسلطة الـشورى في المجلس الأعلى:

سلطة الكنيسة:

بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس قام البطريرك دايمبرت (Daimbert) بإحضار القادة الصليبيين الثلاثة الموجـودين في الـشرق اللاتينـي، وهـم جـودفروا

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 139، وانظر: Grousset, R.; L'Empire du Levant, p 97.

البوايوني (Godfroy de Bouillon)، وبدوين (Baudouin) أمير الرُّها، وبوهيمند (Bohémond) أمير أنطاكية؛ ليقسموا بين يديه «قسم الولاء الإقطاعي» فمن المعروف أنَّ الصليبيين حضروا إلى الشام استجابة لدعوة البابا أوربان الثاني (Urbain II)، ولم يشترك ملوك أوربا في الحملة الصليبية الأولى، ووعد جودفروا (Godfroy) أنْ يتنازل عن المدينة المقدسة للبطريرك دايمبرت Daimbert وظل وفياً لعهده إلى حين وفاته، في سنة 494 هـ/ 1100م، وكان أوَّل حاكم صليبي يعترف بتبعيّته للبابا، أو البطريرك اللاتيني، وآخرهم في الوقت نفسه[1]، فما يكاد يعتلي عرش المملكة أخوه بدوين الأول (Baudouin 1^er^) حتى أعلن أنّه حصل على العرش «بنعمة من الرب» دون الاعتماد على أيّة واسطة[2].

لم يكن غريباً أن يقع الصراع العنيف بين الملك والبطريرك «الذي أُقِيل، وأُعِيد إلى منصبه أربع مرات، وهذا يعنى أنَّ الباباوات في سعيهم إلى توطيد مواقع الكنيسة الرومانية، في ممتلكاتها الجديدة كانوا يحرصون بلا كلل على مراعاة مصالح نواب القديس بطرس في الأرض»[3].

أكّد جان الإبليني Jean d'Ibelin ـ مؤلف مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس ـ أنَّ المملكة الصليبية كان على رأسها اثنان من السادة، أحدهما ديني روحي، هو البطريرك، والآخر علماني دنيوي هو الملك، ولكن الواقع كان يخالف ذلك؛ فقد كان الملك يستطيع أنْ يعيِّن البطريرك، ولذلك كان البطاركة أوفياء للملوك ومن المؤيدين لهم[4].

سلطة المجلس الأعلى:

كانت العلاقة بين الملك وباروناته تخضع للتشريع الإقطاعي المعمول به في أوربا، والذي ينص على أنّه: «للبارون جميع الحقوق القضائية في إقطاعه، ولا

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق، ص 56.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع نفسه، ص 57.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق، ص 153.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 194، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 66.

يستطيع الملك أنْ يعلن سلطته في هذا الإقطاع بدون موافقـة البارون، كما لا يستطيع البارون بدوره أنْ يعلن سلطانه في أرض تابع من أتباعه دون موافقة هذا التابع»[1].

المعروف أنَّ مملكة بيت المقدس تألّفت من مجتمع مـن النـبلاء الـصليبيين، ولم يكن الملك إلاَّ زعيماً لهذه الطبقة الحاكمة، يخضع للقانون الذي جعل مكانته مساوية تماماً لمكانة سائر أفراد المجتمع، وكان من الطبيعي أنْ يختار النبلاء رئيساً لهم، وعـلى هذا الأساس تم اختيار ملوك بيـت المقـدس الثلاثـة الأول جـودفروا (Godfroy)، وبدوين الأول (Baudouin I^er)، وبدوين الثاني (Baudouin II) وهذه المساواة بـين الملك ونبلائه تحوّلت بمضي الزمن إلى «ملكية وراثية» فإنَّ ما يسرى على الإقطاع من قوانين التنازل يطبّق أيضاً على المملكة باعتبارها إقطاعاً للملـك «ذلـك أنَّ المملكـة يصح أنْ تنتقـل، شأنها في ذلك شأن سائـر الإقطاعات من وريثتها إلى زوجها»[2].

كانت مملكة بيت المقدس تتكوّن من أربع بارونيَّات كبيرة وهي: يافا، وتكون من نصيب الابن الصغير بالأسرة المالكة، والجليل، وصـيدا ومـا وراء نهـر الأردن، وكان أرباب هذه الإقطاعات مساوين للملك في المكانة، وفيما كان لديهم مـن كبـار الموظفين، ويليهم في المنْزِلة اثنا عشر إقطاعاً ثانوياً، أهمها إقطاع قيسارية يـرأس كـل منها أمير[3]، ومن كل هؤلاء النبلاء يتكون المجلس الأعلى صاحب الكلمـة النافـذة في كل ما يتعلّق بسياسة الدولة الداخلية والخارجية.

سلطة القضاء:

كانت المؤسسات السياسية للإمارة الإقطاعيـة تتمثـل في تنظيمهـا القـضائي الذي يتكون من[4]:

---

(1) انظر: كوبلاند وفينوجرادوف: المرجع السابق ص 98.

(2) انظر: باركر: المرجع السابق ص 55.

(3) انظر: رانسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 475.

(4) انظر: باركر: المرجع السابق ص 59، ويوشع براور: المرجع السابق ص 172، وانظر:
La Monte J.L.; Feudal Monarchy in The Latin Kingdom of JERUSALEM, Cambridge 1932, p105.

* المحكمة الإقطاعية العليا Haute Cour.

* والمحاكم الوطنية الصغرى Cours des Bourgeois.

كان المبدأ القضائي السائد في مملكة بيت المقدس يقضي بأنْ يباشر القضاء أسوياء المتقاضين لهذا عرفت المملكة الأنواع الآتية من المحاكم:

ـ المحكمة الإقطاعية العليا: وتتألف من طبقة النبلاء، وتنظر في كل ما يتعلّق بهذه الطبقة، وإقطاعاتها، وتعتبر المصدر الرئيس للقضاء وتسيير شؤون الحكم في الوقت نفسه؛ فقد تحققت فيها نظرية محكمة الأسوياء «Judicum Parium» وهي تنظر في:

* المحافظة على حقوق النبلاء.

* الفصل في القضايا التي تتعلّق بالنِّزاع بين الملك وأسويائه، كالخدمة العسكرية.

* تقرير انتقال لقب الملك.

ـ المحاكم الوطنية الصغرى: وتتألف من اثني عشر مشرِّعاً، يرشحهم الملك، أو رئيس المدينة، ويرأسهم نائب «فيكونت» Vicomte من الفرسان، ويرشحه الملك أيضاً ويكون من الذين لهم دراية كافية في الشؤون المالية والقضائية، وتنظر فيما يتعلّق بطبقة سائر الفرنجة الأحرار من غير النبلاء، وهي تنظر في:

* ما يجرى بين أهل المدن Burgesses من المعاملات والعهود، مثل عمليَّات نقل الأملاك الإقطاعية، أو التنازل عنها بالبيع، أو الرهن، أو التقسيم، أو التبادل.

* القضايا الجنائية المتعلِّقة بأهل المدن.

وكان لهذه المحاكم ما للمحكمة العليا من قوانين، وهي عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد المرعية، والتي لم يجر تدوينها إلاَّ بعد سقوط مملكة بيت المقدس[1]،

---

(1) كان لكل إمارة من الإمارات الصليبية الثلاث في كل من: الرها، وطرابلس وأنطاكية ما لمملكة بيت المقدس من القوانين، وقد أثيرت كثير من الشكوك حول قوانين مملكة بيت المقدس التي تعرّضت للتعديل والتغيير؛ فقد كانت تعرف باسم «رسائل القبر المقدس»، وضاعت في سنة 1187م، وحاول المشرعون إعادة صياغتها. انظر: باركر: المرجع السابق، ص 60 ح 1.

وكانت الأحكام القضائية التي تصدرها المحكمة نهائية، ولا يمكن استئنافها أمام أيّة محكمة أخرى في المملكة[1].

ـ محاكم المدن Cours de la Fonde: ويقال لها: «محاكم الفندق أو السوق»، وتختص بالمدن التي نشطت بها التجارة، وعددها ثلاث وثلاثون مدينة، ويتولّى رئاستها وكيل القنصل Bailli، ولما اتّسعت دائرتها ضمت إليها المحاكم الوطنية، والمحاكم المستقلّة التي كان السوريّون يباشرون من خلالها الفصل في قضاياهم ويرأسها قاض وطني يعرف بالرئيس، وترتب على اندماج هذه المحاكم في محاكم المدن أنْ أصبح لوكيل القنصل ستة أعوان Assessors، منهم أربعة سوريون، واثنان من الفرنج، ويحلف المتقاضون الوطنيّون اليمين على كتابهم المقدس؛ فالمسلمون يحلفون على القرآن الكريم، واليهود يحلفون على التوراة، والمسيحيون يحلفون على الإنجيل، وتنظر هذه المحاكم في:

* القضايا التجارية الصغرى، والتي لا تتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية واحدة «مارك».
* القضايا المدنية والجنائية التي تتعلّق بالسكان الوطنيين، وليس من بينها القتل.
* تسجيل عقود البيع، وهبات المِلْك، وإثبات صحتها.
* جباية الضرائب المتعلقة بالتجارة[2].

ـ محاكم الموانئ Cours de la Chaine: وتقع بموانئ السفن، في كل المدن الساحلية، ويقال لها «محاكم المرفأ»، وهي تتألف من نائب القنصل وأعوانه كمحاكم المدن، ويختار محلفوها من بين التجار والبحارة، وتنظر في:

* القضايا المتعلقة بالبحرية كشحن السفن وتفريغها.

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق، ص 176.

(2) انظر: رانسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 484، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 63، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 186، وانظر: La Monte; op. Cit. P 108.

* تسجيل كل ما يتحصل من الديوان «الجمارك، ورسوم رسو السفن وغيرها..»[1].

وكان إلى جانب هذه المحاكم الرئيسة محاكم خاصة، منها:

*** محكمة الحي الإيطالي:**

وهي في كل مدينة فيها جالية إيطالية، ويرأسها القنصل، وتنظر في القضايا الخطيرة مثل: القتل، والسرقة، والتزوير... فهي تمثل جانباً من الامتيازات العامة التي حصلت عليها المدن الإيطالية في مقابل مساعداتها للصليبيين، مما جعل من هذه الأحياء دولة في داخل الدولة «Imperia in Imperio»، وكانت هذه الامتيازات تتكون من أراض تقام عليها المباني، أو من عدد من المنازل، أو من شارع كامل، أو من قسم من المدينة، وكان مجموع المباني التي تصبح ملكاً لأمة تجاريّة يطلق عليه اسم Ruga أو Vicus، وتتضمن المباني الخاصة بالسلطات والمنشآت العامة التي يستخدمها أفراد الجالية، وبيوت الأفراد، وفي مقدمتها جميعاً مقر الإدارة والمحكمة «Bailliage»، ويقيم به رئيس الجالية، ويجتمع فيه مع المحلفين الذين تتشكل منهم المحكمة[2].

*** محكمة البارونات:**

كانت لكبار المقطعين محاكمهم الخاصة التي تفصل في منازعات أتباعهم الفرسان، وبلغ عددها اثنتين وعشرين محكمة فضلاً عن أربع محاكم خاصة بإقطاع الملك، وكان لكل هذه المحاكم مجال اختصاص بالغ التحديد.

وإذا كان المتقاضون ينتمون إلى فئات مختلفة؛ فتنظر القضية المحكمة التي ينتمي إليها أدنى المتقاضين مكانة[3].

---

(1) انظر: رانسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 485، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 64، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 187، وانظر: La Monte; op. Cit. P 109.

(2) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1/ ص 164.

(3) انظر: رانسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 485، وانظر: La Monte; op. cit. p 109.

بعد هذا العرض للسلطات الحاكمة في الإمارات الصليبية يتبقى أنْ تشير الباحثة في إيجاز إلى ثلاثة أمور:

الدستور في الممالك الصليبية، والنظام الإداري، ثم الفروق بين الاستيطان الصليبي في الشرق والغرب.

أولاً: الدستور في مملكة بيت المقدس وإمارات الفرنجة:

يؤكد أكثر الباحثين[1] أنَّه من المستحيل ـ الآن ـ تقديم عرض دقيق لدستور الإمارات الصليبية في الشام، ذلك لأنّه لم يكن لها في وقت من الأوقات دستور ثابت، بل كانت تحكمها الأعراف والتقاليد التي تطوَّرت وتعدَّلت بالتجارب العملية، وبصدور إعلانات، أو قرارات خاصة، وحينما صنَّف رجال القانون فيما بعد كتباً عن الدستور، مثل:

كتاب إلى الملك «Livre au Roi»، أو قوانين مملكة بيت المقدس « Assizes de Jerusalem» فإنَّما كانوا يحاولون أنْ يكتشفوا المواضع التي غيِّرت فيها قرارات معيّنة عرفاً مسلَّماً به، لا أنْ يضعوا قانوناً ثابتاً للحكومة، فقد بيّنوا ما بين الملك وأتباعه من أعراف، وأوضحوا الأحكام المتعلّقة بتولِّي العرش، فبينما كان العرش ينتقل بالوراثة في طرابلس وأنطاكيّة، فقد كان الملك ينتخب في بيت المقدس، ثم أصبح وراثياً، فقد ورث بدوين الرابع (Baudouin IV) عرش أبيه في سنة 570 هـ/ 1174م، بالرغم من أنّه كان في الثالثة عشرة من عمره، فضلاً عن كونه مريضاً بالبرص[2].

ويجب أنْ نلاحظ أنَّ الأسيز «Assizes» في الوقت ذاته كان «هيئة عسكرية سياسية تبحث قضايا الحرب، والسلم، والدبلوماسية، وتفصل فيها، كان المجلس

---

(1) انظر ـ مثلاً ـ: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 479، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 143، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص 467، وانظر: غالب غانم: المرجع السابق ص294.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 480.

الأعلى يحدّ من سلطة الملك، ويراقب أعمال الملك حيال الأتباع، وكانت الكورية[1] تقوم بدور حافظة، وحارسة للكوتوم (الأعراف، والعادات) الإقطاعية»[2]؛ لذلك كان لا بد من التصديق على تعيين الملك وارثاً لأبيه وإقرار ما حدث اقتضى إجراء الانتخاب، وكثيراً ما كان المنتخبون يفرضون شروطهم، كما حدث أنْ أرغموا الملك عموري الأول (Amaury I^{er}) على ضرورة تطليق زوجته أجنيس (Agnes) قبل أنْ يجيزوا له تولّي العرش، وكذلك الأمر إذا كان الوارث الطبيعي للحكم امرأة، فلا بد من إجراء الانتخاب لاختيار زوجها الملك[3].

ثانياً: النظام الإداري في الدول الصليبية:

كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي، كما بيّنا، وكان له جهاز إداري يعاونه في شؤون الإدارة، وتشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين يختارهم الملك من بين كبار المقطعين بالمملكة، وهم[4]:

* القهرمان، أو الصنجيل «Seneschal»: أولّ الموظفين الكبار وهو المسؤول عن الاحتفالات الكبرى، وحامل الصولجان عند التتويج، ويتقدّم الملك في المواكب، ويعتبر رئيس الإدارة المدنية والمشرف على الشؤون المالية والخزانة.
* الكونتستابل «Constatble»: ويلي القهرمان في المنْزِلة، وإنْ فاقه في السلطة الفعلية، إذ كان يلي الملك في قيادة الجيش، وحامل لوائه، ويشرف على كل ما يتعلّق بالمؤن العسكرية، والقضاء.
* المارشال «Maréchal»: وهو مساعد الكونتستابل، وينوب عنه في جميع مهامّه.

---

(1) يريد بالكوريّة الكلمة الفرنسية cour، ومن معانيها أرباب الدولة، والحاشية وهو إشارة إلى سلطة المجلس الأعلى.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 143.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 480، وانظر: La Monte; op. Cit. P 137.

(4) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 486، وانظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص 469، وانظر: La Monte; op. cit. p 125.، وانظر: Cam. Med. Hist., V.5, p 304.

* اليـاور، أو الحاجـب «Chamberlain»: وهـو المـشـرف عـلى القـصر الملكـي، والمسؤول عن حاشية الملك الخاصة، وأمواله، وفي أوقـات المواكـب كـان يـؤدي دور الأمين الخاص، ووظيفته من الوظائف التي تدر على صاحبها أموالاً طائلـة؛ لما يقدّمه له الأتباع من الهـدايا عنـد قـسم اليمـين الخـاص بـالولاء، وربَّـما مـنح صاحبها إقطاعاً من الأرض، وبعضهم كان يبيع هـذه الإقطاعـات التـي يحـصل عليها، دون أنْ يغضب الملك؛ لقرب مكانته منه.

* الساقي «Échanson»: ولم تكن اختصاصاته معروفة، ولعلّها كانت قـاصرة عـلى تقديم الشراب، والإشراف على الحفلات.

* الشانسلور «Chancellor»: كبير الكتَّاب، ورئيس ديوان الإنشاء، وهو دائـماً مـن رجال الكنيسة، وإنْ لم يكن هو كاهن الملك، كما هي العادة في دول الغرب، ومـن اختصاصه:

- تحرير كل الوثائق الرسمية.
- وتسجيل الرسائل، وحفظها في ديوان الرسائل.
- وضع خاتم الملك عليها.

وكانت اللاتينية هي لغة ديوان الرسائل الرسمية، في القرن 6 هـ/ 12م، وتـؤرخ الرسائل عادة بالتاريخ الميلادي، وأحياناً يضاف إليـه الـسنة التـي اسـتهلّ فيهـا الملك حكمـه، أو السّنة التي استولى فيها الفرنج على بيت المقدس[1].

وكانـت الـسنة تـستهل بعيـد المـيلاد، ويحـسب الملـوك بعـددهم لا بأسـمائهم، ابتـداء مـن بـدوين الأول (Baudouin 1er)، وتـصدّر الرسـائل بهـذه الـصيغة «Per Dei gratiam in Sanctae Civitate Jerusalem Latinorum Rex»[2].

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 487، وانظر: La Monte; op. Cit. P 132.

(2) ترجمة العبارة: «بفضل الله، ملك اللاتين، بمدينة بيت المقدس المقدسة».
انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 488، وانظر: La Monte; op. Cit. P 132.

* الفيكونت «Vicomte»: نائب الحاكم، وتعتبر وظيفته أهم وظائف الإدارة المحليّة، فهو يمثّل الملك، أو البارون في كل المدن التي تقع في إقطاعات سيده، ووظيفته ليست وراثية، ويختار من أسرة نبيلة، واختصاصاته هي:
- يكون مسؤولاً عن المحاكم المحلية.
- وحفظ الأمن بوجه عام.
- وجباية الضرائب.

* المحتسب، أو كبير السرجنداريّة: وظل محتفظاً بالاسم العربي، وهو المسؤول الرسمي عن الأسواق، ومراقبة الأسعار[1].

ثالثاً: أوجه الاتفاق والاختلاف بين الاستيطان الصليبي في الشرق والنظام الإقطاعي في أوربا، وأركّز على النقاط الآتية:

* انتهج حائزو الإقطاعات الكبيرة التي حصلوا عليها من الملك السياسة نفسها التي يتبعها الملك في عدم الميل إلى تقسيم الأراضي التي اكتسبوها حديثاً، والإقطاعات التي يمكن منحها للغير لا تتجاوز إقطاعاً صغيراً يكفي لتجهيز فارس واحد فقط، ومن النادر أنْ يمنح إقطاع كبير لأحد الحائزين بحيث يمكنه أنْ يقطع بعض إقطاعاته لأفصاله[2].

* وجود الإقطاع النقدي - أو إقطاع السيزنت Fieg de Sesant - كبديل لإقطاع الأرض، وذلك بأنْ يُعْطَى الفارس الحق في تحصيل إيجارات مرافق، أو أملاك في مدينة مثلاً، وهو نظام لم تعرفه أوربا، ويمكن أنْ نرجع وجوده في الشام للأسباب الآتية:

1 - كانت الإقطاعات الصليبية صغيرة نسبياً، وتقسيمها يفقد الحائز مناطق نفوذه، ولا يحقق له مكاسب إدارية.

---

(1) انظر: La Monte; op. Cit. P 135, 167.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 89.

2 ـ التأثير المباشر للظروف المحليّة للمنطقة، فقد كان مطلوباً من الفارس أنْ يظل في خدمة سيّده العام كلّه، في الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية في أوربا لمدة أربعين يوماً فقط[1].

3 ـ كان الاقتصاد السائد في الشرق اقتصاداً نقدياً متطوراً، فمنذ وقت مبكّر اعتمد الشرقيون في تعاملهم الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، وتخلّوا عن نظام الاقتصاد الطبيعي القائم على تبادل السلع، والسائد في النظام الإقطاعي الأوربي[2].

* الإقطاع المتنقل: كان ملوك بيت المقدس يمنحون إقطاعاً لشخص، ثم بعد فترة يمنحونه لشخص آخر، وبعد سنوات قليلة يردُّ الإقطاع نفسه إلى ملك بيت المقدس مرة ثانية ليعيد إقطاعه لشخص ثالث، وهو النظام ذاته الذي كان معروفاً عند السلاجقة وعند السلاطين الأيوبيين[3].

مشكلة الحدود الآمنة:

لم تكن الحدود بين الدول أمراً معروفاً في العصور الوسطى وكان من حق الحاكم أنْ يوسِّع حدود دولته باستخدام القوّة، وما يحصل عليه من أرض حق له ما دام قادراً على الاحتفاظ به، وحمايته.

لم تكن السيادة الصليبية في الشرق ثابتة الأركان قوية الدعائم بل هي واهية ضعيفة الترابط فيما بينها، فقد كانت إماراتهم الصغيرة أشبه بجزر مفصولة في بحر من ديار الإسلام، تمتد شريطاً ضيقاً بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر

---

(1) انظر: طرخان: المرجع السابق، ص 48.

وانظر: Richard; Le Royaume Latin de Jérusalem, P 243.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 89.

(3) انظر: نظام الملك، أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي: سياسة نامة أو سير الملوك، تحقيق يوسف حسين بكار، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1987م، الفصل السابع والثلاثون ص 174، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 89.

وانظر: Lane-poole; SALADIN And the fall of The Kingdom of JERUSALEM, V.I, P15.

الأبيض المتوسط على مسافة تقدَّر بأكثر من 1000كم؛ فكانت أنطاكية تبعد عـن القدس أكثر من 300 كم، وتبعـد عـن الرُّهـا نحـو 200 كـم، وكانـت الحـدود الشرقيـة لهذه الإمارات تتغيّر على الدوام، تضيق، وتتسع[1].

وإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ الصليبيين - إلى جانب قلّـة عـددهم - كـانوا يعيـشون بصورة رئيسـة في المدن الكبرى، وفي القصـور المحصَّنة «وكانت مصر تهدد مملكـة القدس من الجنوب، وكان يتعيَّن صد هجوم المصريين كل سنة تقريباً، سواء من البر أم من البحـر، ولم تكـن ثمّـة مدينـة سـاحليّة لم تهاجمهـا الـسفن المـصرية، وأحيانـاً بنجاح»[2].

ومن جهة الصحراء السوريـة في الـشمال كانـت جيـوش الأتابكـة والأمـراء السلجوقية تشن الغارات عـلى دول الـصليبيين، ولم يـتمكّن الـصليبيون يومـاً مـن امتلاك المدينتين الكبيرتين دمـشق وحلـب وإذا عرفنـا أنّـه «كـان الغـزاة الغربيـون يعادون بعـضهم بعـضاً أبـداً ودائـماً، وكـان تقـسيم الغنيمـة وتوزيـع الإقطاعـات والوظائف يوفران الذرائع لمخاصمات لا نهاية لها»[3]، ولكل هذه الأسباب كان لا بُدَّ من وضع نظام للدفاع عن ممـالكهم؛ فقـد اضـطر الغـزاة الأوربيـون تحـت ضـغط الحاجة إلى حفظ الحياة بحكم وجودهم في أرض غريبة عنهم، بعيدة عـن بلادهـم، اغتصبوها من سكانها ووجب عليهم المحافظة عليها خـشية أنْ يـستردها أصـحابها منهم، ويقوم هذا النظام الدفاعي على تشييد القلاع، وتسوير المدن.

الحصون والقلاع وقوات الجيش:

اعتمدت المؤسسة العسكرية الصليبية على دعامتين أساسيّتين همـا: الحـصون والقلاع، وقوات الجيش.

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 153، وانظر: Thompson; op. cit p 396.

(2) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 154.

(3) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 154.

أوّلاً: الحصون والقلاع: خطط الصليبيّون لإنشاء سلسلة من الحصون والقلاع، يحرس بعضها بعضاً، وضعت بطريقة مدروسة مستفيدين في ذلك من المواقع التي اتّخذها البيزنطيون والعرب من قبل أماكن حصينة للدفاع أو الهجوم؛ فالذي لا شكّ فيه «أنَّ الصليبيين كانوا على استعداد للتعلم من البيزنطيين والمسلمين على حدّ سواء، وبالأخص في فنون العمارة العسكرية»[1].

ولم يكن من شأن مثل هذه القلاع والمدن أنْ تحميهم ومواشيهم، فحسب، وإنَّما كانت تمكنهم من وضع خصومهم تحت رقابتهم المستمرة أيضاً[2].

كانت التحصينات والقلاع العسكرية تمثِّل العنصر الاستراتيجي للدفاع، وإدارة الحكم؛ فلا يمكن اعتبارها منشأة عسكرية فحسب، بل هي مراكز للسيادة الصليبية حيث يمارس الصليبيون منها حكم البلاد التي غزوها، وتم الاستيلاء عليها إلى جانب وظيفتها الدفاعية، وقد اختيرت أماكنها لتحقق غرضين:

الأول: الحرب الفعلية التي يخوضها الصليبيون، وفرضتها ظروف وجودهم، والتحديات التي كانت تواجههم بشكل مباشر.

والآخر: بسط السيادة على سكان في حالة عداء دائم معهم، بعد أنْ أخفقوا في اكتساب محبة الوطنيين[3].

وعلى طول الشريط الضيّق من الأرض التي يسيطر عليها الصليبيون والذي كان يمتد على مسافة خمسمائة ميل، تبدأ من سواحل البحر الأحمر وحتى ضفاف نهر الفرات، ولا يزيد عرضه في أقصى اتساع له عن ستّين ميلاً انتشرت قلاع الفرسان لحماية شرقي المملكة الصليبية وجنوبيها، كما أنشئت القلاع والحصون أيضاً على امتداد السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي الأراضي الداخلية المتاخمة لحوضه الشرقي[4].

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 339.
(2) انظر: فولفغانغ مولّر ـ فينر: المرجع السابق ص 9.
(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 339.
(4) انظر: فولفغانغ مولّر ـ فينر: المرجع السابق ص 9.

وكان للقلعة الصليبية دور هام في وقت السلم، وفي وقت الحرب على السواء، وعلى سبيل المثال كانت قلعة صفد تسيطر على طريق عكا دمشق، كما تسيطر على حصن يعقوب ـ وهو أهم جسر على نهر الأردن ـ، وتتكون حاميتها في أوقات السلم من 50 فارساً من الداويّة، و30 من الإخوةِ القائمين بأعمال الخدمة، و50 من الفرسان المسلحين بالأسلحة الخفيفة المعروفين باسم «التركبولي»[1]، و 300 من حملة الأقواس، و800 رجلاً آخرين، و400 من الأرقاء، وفي الحروب الصغيرة كان بوسع القلعة أنْ تؤمِّن مأوى لألفي مقاتل بالإضافة إلى سكَّان المنطقة من الفرنجة[2].

ثانياً: قوات الجيش: وهو عنصر التحرك التكتيكي، والتخطيط العسكري، من أجل القيام بعملية الغزو، والتوسع الصليبي في المنطقة العربية، ويقدّر عدد المقاتلين في مملكة بيت المقدس بنحو 25 ألف رجل، وهذه القوات تتكوّن من:

* الجيش الإقطاعي[3]: والذي يتكوَّن من فرسان، ومشاة:

أمَّا الفرسان الصليبيون فهم يؤدون الخدمة العسكريّة طوال العام، وكان على المقطعين الكبار تقديم عدد معيَّن من الفرسان، بكامل عدتهم، وهم يؤدون الخدمة العسكرية مقابل أجر، والملك ملزم بدفع ذلك الأجر، وباسم نظام العوض أو البدل «Restor» يكون الملك ملزماً أيضاً بتعويض الفارس عن خسارته من بيت المال «Secretum»، فيقدم له فرساً عوضاً عن فرسه الذي فقده بشرط ألاَّ يكون ذلك نتيجة خطأ متعمد.

---

(1) التركبولي Turcopuli ـ ومعناه: أبناء الأتراك ـ وهم فئة من المولدين المسلمين، ينحدرون من أب تركي، وأم يونانية، ويعملون كجنود مأجورين مسلحين بالأسلحة الخفيفة. انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، مصدر سابق جـ2/ ص 149. ح 1.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 228.

(3) عن قوات الجيش في مملكة بيت المقدس انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 245، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 57، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 388.

انظر: La Monte; op. Cit. P 120-151، وانظر Jacques de Vitry; The History of Jerusalem, tr. Aubrey Stewart, London, 1896, p 79.

وكان على كل من كونت «يافا»، وسيد «صيدا»، وأمير الجليل أنْ يقدم للملك 150 فارساً بكامل عدتهم، ويقدم سيد إقطاع ما وراء نهر الأردن 60 فارساً[1].

* الفرسان المأجورون، وهم المعروفون باسم «Soudoyers» وهم مرتزقة يجنّدون من بين الحجاج الذين جاؤوا من أوربا لتأدية الشعائر الخاصة بالحج، ويفضِّلون البقاء في الممالك الصليبية ويتناولون أجورهم رواتب يحصلون عليها مما يتم تحصيله من أموال الإقطاعات «Fief de Soudée»، ولم يكن لهم إقطاع على الرغم من أنّهم يؤدّون يمين الولاء والتبعيّة الإقطاعيّة للملك الصليبي[2].

وأمّا المشاة فكان يطلق على الجندي من المشاة اسم «Sergent»، وكان الملك يجندهم من المنشآت الكنسية، ومن مدن المملكة الصليبية، وربّما كان من بينهم من يركب جواداً، ويقال لهم حينئذ: «Sergent à Cheval».

* فرقة من الفرسان المتخففين «التروكبولي» مجندون من السريان والمسلمين، ويستخدمون الأساليب الحربية المعروفة عند العرب.

* فرقة من مشاة الأرمن المسيحيين.

* فرقة من رماة السهام المارونيين المسيحيين.

* فرسان الطوائف الدينية: الإسبتارية، والداوية، والتيوتون، وكان لهم دور هام في حماية حدود الممالك الصليبية، باعتبارهم يحتلّون القلاع الواقعة على الحدود، وكانوا مسؤولين عن تزويد القلاع بالقوات والمؤن، كما كانوا يشاركون في الحروب، فقد زوَّد الإسبتارية الملك عموري (Amaury I^{er}) في حملته على مصر في سنة 562هـ/ 1166م بـ 500 فارس و500من المشاة[3].

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 476.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 88.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 392.

السياسة الداخلية للإمارات الصليبية

* العلائق بين الصليبيين في الإمارات الصليبية:

من الوجهة النظريّة كانت للمملكة الصليبية في القدس السيادة على الإمارات الصليبية الأخرى في الرها، وأنطاكية، وطرابلس؛ ولكنَّ الحقيقة أنَّ ملوك القدس لم يكونوا يملكون أيّة مزايا، أو أفضليّات بالنسبة للأمراء الثلاثة الآخرين الذين كانوا يحكمون مستقلين استقلالاً فعلياً عن الملك في القدس؛ فهؤلاء الأمراء كانوا مربوطين شكلاً برباط الخضوع والطاعة للملك، وعملياً، كان الملك يشغل وضع رئيس اسمي لأعضاء متساوين في الحقوق في ضرب من كونفيدراسيون Confédération (اتحاد كونفيدرالي) من الدول، وكان حكام أنطاكية، والرُّها، وطرابلس يملكون في إماراتهم ودوقيّاتهم نفس السلطة التي كان يملكها سيِّدهم في مملكة القدس[1].

وكانت أكثر ما تتجلّى حقوق ملك بيت المقدس على أمراء الممالك الصليبية الأخرى في جانبين:

الأول: الوصاية على العرش؛ فإذا مات الأمير، ولم يترك وريثاً للعرش، أو كان الأمير الذي ورث الملك صغير السن، لا يقوى على القيام بأعباء الحكم، فعندئذ يصبح لملك بيت المقدس الحق في أنْ يتولّى الوصاية على العرش، أو الوصاية على الأمير القاصر، ومثال ذلك:

أنَّ بودوين الثاني (Baudouin II) تولّى الوصاية في أنطاكية مرتين في سنتي 513هـ/ 1119م، و525 هـ/ 1130م.

والآخر: فض النِّزاع بين الأمراء، والصلح بينهم، ومثال ذلك:

ما حدث في سنة 502 هـ/ 1108م عندما طلب برتراند (Bertrand) ـ وهو يحاصر طرابلس ـ من بدوين (Baudouin de Boulogne) التدخل لفض النِّزاع بينه وبين وليم جوردان (Guillaume Jordan) الذي رفض أنْ يعطيه ميراثه من أبيه.

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 139.

والواقع أنَّ ملوك بيت المقدس اعتبروا أنَّ حقّ الوصاية عبءٌ ثقيلٌ، لا امتيازٌ كبيرٌ؛ فقد فرضت عليهم واجبات لا يحصلون على مقابل لها من الحقوق؛ فإنَّ الأمراء كانوا يتصرفون على أنّهم أسوياء للملك «وجرى في بعض الأحوال أنّهم لم ينحازوا إليه إلاَّ بعد إرغامهم على ذلك، ودأب الأمراء على أنْ يعقدوا المعاهدات مع المسلمين، أو يقوموا بمهاجمتهم على الرغم من معاهدات الملك وصار الأمراء يؤرخون وثائقهم بسنوات حكمهم، ولكل منهم قوانينه الخاصة»[1].

*** العلائق بين الصليبيين والمسيحيين المحليين:**

رحَّب المسيحيُّون في الشرق بقدوم الصليبيين وهم إخوانهم في الدين، آملين أنْ يجدوا في كنفهم حلاً لمشاكلهم وتخليصاً لهم من سيطرة السلجوقيين على مقدَّرات البلاد، وفي الحقيقة لولا ما قدَّمه المسيحيُّون من عون للصليبيين لما أمكنهم تحقيق النجاح الذي حققوه في احتلال البلاد، والبقاء فيها، فمن ذلك:

* المسيحيُّون هم الذين استقبلوا الصليبيين في الأناضول، ووفروا لهم الزاد والمؤن، ومكَّنوا بودوين (Baudouin de Boulogne) من دخول الرُّها ـ وكان حكامها من الأرمن ـ وفيها تأسست أول إمارة صليبية في أوائل سنة 492 هـ/ 1098م، مما كان له أثره الكبير في رفع الروح المعنوية لهم[2].

* والمسيحيّون هم الذين مكَّنوا تنكريد (Tancrède) من دخول قليقية ـ وسكانها كذلك من الأرمن، وبينهم جماعة من اليونانيين ـ فاستولى على طَرَسُوس وسائر نواحيها[3].

* وبخيانة فيروز الأرمني المسيحي دخل بوهيمند (Bohémond) والصليبيّون أنطاكية، وفيها تأسست الإمارة الصليبية الثانية.

---

(1) انظر: باركر: المرجع السابق ص 54، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 140.

(2) انظر: Iorga N.; L’Armenie Cilicienne, Paris, 1932, p 88.

(3) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 225.

* والمسيحيّون الموارنة هم الذين قادوا الصليبيين إلى بيت المقدس وكانوا أدلاَّءهم في الطريق، وقدَّموا إليهم خدمات جليلة[1].

* وكان من بين المسيحيين المحليين فرقتان تقاتلان المسلمين إلى جانب الصليبيين في مملكة بيت المقدس[2].

ويبدو أنَّ المسيحيين كانوا مخدوعين في الصليبيين ويجهلون حقيقة نواياهم، تماماً كما خُدِع بهم المسلمون، فقد كان الصليبيون يعتبرون السكان المحليين جميعاً ـ مسلمين ومسيحيين ـ هراطقة غير جديرين بالاحترام، ومنذ اللحظة الأولى التي رأوا فيها الصراع محتدماً على الغنائم بين بدوين (Baudouin) وتنكريد (Tancrède) في قليقية «صار من الواضح أنَّ الأمراء الصليبيين ليسوا مستعدِّين لأنْ يتعاونوا من أجل صالح العالم المسيحي، متى سنحت الفرصة لحيازة ممتلكات خاصة، ولم يلبث المسيحيُّون الوطنيون أنْ أدركوا أنَّ الفرنج القادمين لتخليصهم إنَّما تحرِّكهم أغراض أخرى، وإنْ كانوا في الظاهر يزعمون أنَّهم يعطفون عليهم، وأيقنوا أيضاً أنَّ مصلحتهم العليا تقضي بأنْ يعملوا على الإيقاع بين الفرنج بعضهم ضد البعض»[3].

وما تكاد أقدام الصليبيين تطأ المدينة المقدسة حتى كشفوا عن سوء طويَّتهم بالنسبة للمسيحيين المحليين الذين كانوا يصفونهم بالهراطقة، فقام البطريرك أرنولف (Arnulf) أثناء ولايته الأولى في سنة 493 هـ / 1099 م باستبعاد جميع المذاهب الشرقية من كنيسة القيامة، وسلبها امتيازاتها، وأساء إلى التقاليد المحليّة بأنْ سمح للنساء بالخدمة في الأماكن المقدسة.

ولمَّا تولَّى من بعده البطريرك دايمبرت (Daimbert)كان أقسى منه قلباً، وأشد عداوة، فلم يكتف بإبعادهم عن الكنيسة المقدسة بل طردهم من جميع ديَّاراتهم

(1) انظر: تاريخ وليم الصوري ص 213، وانظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 228.

(2) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق ص 215.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 300.

ومنشآتهم في بيت المقدس، يتساوى في ذلك من كان من الأرثوذكس كاليونانيين والكُرْج[1] أو من المنشقِّين كالأرمن واليعاقبة والنساطرة[2].

نجم عن كل هذه الجرائم الكبيرة أن انطفأت مصابيح كنيسة القيامة عشيّة عيد القيامة في سنة 495هـ/ 1101م، مما أرغم الملك بودوين الأول (Baudouin 1er)، وبطريركه أرنولف (Arnulf) في ولايته الثانية إلى تغيير سياسة التعصب هذه، وبناء علاقات طيّبة بين هيئة الكنيسة من اللاتين وبين المسيحيين الوطنيين، فأصرَّ الملك على رفع الظلم عن المسيحيين الوطنيين، والاهتمام بإحساسهم ومشاعرهم؛ فقام بالآتي:

* إعادة مفاتيح كنيسة القيامة إلى اليونانيين التي أخذت منهم، وإعادة بعض كهنتهم إلى الكنيسة؛ فحظي الملك بتأييد المسيحيين ورضاهم، وقبولهم هذا الوضع[3].
* وأجاز لهم أنْ يستخدموا لغتهم في محاكمهم.
* أجاز لهم أنْ يسيروا وفق عاداتهم وتقاليدهم، وليس للكنيسة أنْ تتدخَّل في شؤونهم الدينية.
* أجاز لهم الهجرة من البلاد المجاورة الخاضعة للمسلمين إلى مملكة بيت المقدس؛ وذلك لاحتياجه إلى فلاحين مهرة يزرعون له الأرض التي هجرها أصحابها المسلمون، وكان من نتائج هذه السياسة الحكيمة التعاون بين المسيحيين والمسلمين[4].
* العلائق بين الصليبيين والمسلمين الخاضعين لهم.

---

(1) الكُرْج (الجورجيون): جيل من الناس، نصارى، كانوا يسكنون في جبال القَبَق، وبلد السرير، ثم ملكوا مدينة تَفْليس، ولهم ولاية تنسب إليهم، ولهم لغة خاصة بهم، وملك يقال له: «برزينان». انظر: المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1964م جـ 1/ ص 123 وانظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص446.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 140.

(3) انظر: رانسيمان: المرجع نفسه جـ 2/ ص 140.

(4) انظر: رحلة ابن جبير ص 201، وانظر: رنسيمان: المرجع نفسه جـ 2/ ص 163، و470.

كانت العلائق بين القادمين الغرباء والسكان المحليين تتسم عادة بالحذر، وعدم الثقة أحيانا، وبالعداء الصريح أكثر الأحيان وكان على الإفرنج أنْ يتعلَّموا كيف يفهمون السكان الوطنيين، وأنْ يتعاونوا معهم في العمل، ولم يكن هذا أمراً عسيراً على الحكام في الإمارات الصليبية، نظراً لأنّه لم يكن بها من الأعيان العرب من يقاوم السلطة بها، فقد هجرها المسلمون الأحرار، ولم يبق بها إلاّ الأرقّاء والمستضعفون الذين لا حول لهم ولا قوة.

أمّا الأعيان من أمراء العرب فكانوا يعجبون من صلفهم وكبريائهم وهم مجرد برابرة «سبحان الخالق البارئ، إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبّح الله تعالى، وقدَّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال، لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»[1].

ولم تكن علائق الصداقة والمودّة تدوم بين الأمراء العرب والصليبيين، فإنَّ الهدوء الذي كان يجرى في أثنائه تبادل الأسرى، والزيارات، ويتبارى فيه الأمراء والبارونات بالإعراب عن الآداب والمجاملات الفروسية سرعان ما ينقطع بالحرب[2].

وأحياناً كانت تتحالف مع الصليبيين بعض المدن الإسلامية مثل صرخد[3]، وبُصْرى[4]، وبانياس التي كان يسيطر عليها الإسماعيلية[5]، ويطلبون منهم العون والمساعدة[6].

---

(1) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 240.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق، ص 155.

(3) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران، من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة واسعة.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 401.

(4) بُصْرى: قصبة كورة حوران، من أعمال دمشق، ولها قلعة حصينة.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 441، وانظر له أيضاً: المشترك وضعاً، ص 57، وانظر: فولفغانغ مولّر ـ فينر: المرجع السابق ص 87.

(5) انظر: زيان، حامد: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983م، ص85 ـ 100.

(6) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 289، 290، 314، 316، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ 3/ ص 2 ـ 3، وانظر: تاريخ ابن خلدون جـ 6/ ص 6.

كما كانت قبائل البدو من الصحراء السورية مثل قبيلة بنى فضل الطائية تحارب أحياناً إلى جانب الإفرنج وأحياناً إلى جانب الفاطميين[1].

وكان جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس يضم كتيبة من الفرسان المسلمين الذين كان يطلق عليهم «التروكبولي»، وكتيبة من المشاة الأرمن، وأخرى من حملة الأقواس الموارنة[2].

وأمَّا صورة الحياة التي كان المسلمون يحيونها في المدن التي يسيطر عليها الصليبيّون فأمامنا لوحة فاجعة لتلك الحياة، صوَّرها الرحَّالة العربي ابن جبير[3] وقد رآهم في عكا قد عقدوا العزم على أنْ يجمعوا أبناءهم ونساءهم في المسجد الجامع، فيقتلوهم غيرة عليهم من أنْ يتملّكهم الصليبيّون، ثم يخرجوا إلى العدو يقاتلونه حتى الموت، ولكن الفقهاء نهوهم عن ذلك، وأمَّا من دعاه حب الوطن إلى التمسك به، والإقامة فيه فقد اشترط عليهم الصليبيون شروطاً مجحفة «منها الذِّلة والمسكنة الذمّية، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدّس الله ذكره، وأعلى خطره لا سيّما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة، والتصرف بين الخنازير، وجميع المحرّمات، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده، فالحذر الحذر من دخول بلادهم»[4].

---

(1) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 259.

(2) انظر: Jacques de Vitry; op. cit. p79.

(3) أبو الحسين، محمد بن أحمد بن جبير، الكناني، الأندلسي، البلنسي (540 ـ614 هـ/ 1145 ـ 1217م) وهو رحّالة، أديب، شاعر، صاحب الرحلة المشهورة، مولده في بلنسية، وجاور بمكة، وتوفي بالإسكندرية.
انظر: الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام جـ 2/ ص 413، وانظر له أيضاً: العبر جـ 3، ص 163،
وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 5/ ص 319.
وانظر: كحّالة: المرجع السابق جـ8/ ص 245.

(4) انظر: رحلة ابن جبير ص 214، وانظر: كلود كاهن: المرجع السابق ص 215.

* الصليبيون والدول الإسلامية:

جمعت الأطماع الماديّة، والمكاسب الدنيوية بين الأمراء الصليبيين وأمراء الدويلات الإسلامية، فكثيراً ما كانوا «ينسون بسرعة عداواتهم المتبادلة، ويصبحون حلفاء إذا اقتضت ذلك المصالح الديبلوماسية والعسكرية»[1]، فلم يكن بين الإفرنج والمسلمين المجاورين سلام دائم بل صدام أحياناً، ومهادنة أحياناً أخرى، وكانت بينهم مناطق حدود تعاهدوا على احترامها، حكى ابن جبير، وهو في طريقه من بانياس إلى عكا قال: «واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلّوط، عظيمة الجِرْم، متّسعة التَّدْويح، أُعْلمنا أنَّها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا: هي حدٌّ بين الأمن والخوف، في هذه الطريق لحرامية الإفرنج ـ وهم الحوَّاسة، والقطَّاع ـ من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع، أو شبر أُسِر، ومن أُخِذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أُطْلق سبيله؛ لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها»[2].

ولا نكاد نجد حاكماً على إمارة عربية لم تربطه بالصليبيين معاهدة حيناً، أو يكون بينه وبينهم قتال حيناً آخر.

فقبل أنْ يستولي نور الدين محمود على دمشق كان أمراؤها من السلاجقة يقيمون علائق طيبة مع مملكة القدس، وأحياناً كانت تتحالف معهم ضد الدول الإسلامية[3].

وكان ابن عمّار،أمير طرابلس، يقدّم لهم المؤن والهدايا، ويتحالف معهم أحياناً، ويقاتلهم أحياناً أخرى[4].

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 155.

(2) انظر: رحلة ابن جبير ص 209.

(3) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 308، وانظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 312، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ 1/ ص 77، وانظر رنسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 366.

(4) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ 2/ ص 228.

بل إنَّ أمراء الدولة الأيوبية أنفسهم، ومن بعدهم المماليك انتهجوا هذه السياسة ذاتها: التحالف حيناً، والقتال حيناً.

ومن طرائف العلائق بين الشرق والغرب ما عرضه الملك ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur De Lion) على صلاح الدين الأيوبي، في مفاوضاتهما على صلح الرملة، ويبدو أنَّه كان يعرف حبَّ الملك العادل النساء؛ فأراد تزويجه أخته (Joanna) ملكة صقلية، فعرض شروطاً جديدة للصلح بينهما أهمها[1]:

1 ـ أنْ يتنازل السلطان صلاح الدين عن كل مُمتلكاته، في فلسطين، لأخيه الملك العادل، وفي المقابل، يتنازل ريتشارد (Richard Cœur De Lion) عن كل ما تحت أيديهم، في بلاد فلسطين إلى أخته.

2 ـ يتزوج الملك العادل والملكة، ويقيمان في بيت المقدس.

3 ـ رد ممتلكات الداوية، والإسبتارية إليهم، في فلسطين.

4 ـ إطلاق الأسرى من الجانبين.

5 ـ إعادة صليب الصلبوت، للمسيحيين.

واستقبل صلاح الدين هذه المطالب بالموافقة، والرضا، ودلَّ قبوله لها على نظر بعيد، وسياسة حكيمة، ولم يخف عليه ما فيها من مكر، وخديعة وكان على ثقة من أنَّ ريتشارد لن يستطيع تنفيذ هذه الشروط، والوفاء بها فيها من بنود، وصدق حدسه، فالملكة جوانا رفضت الزواج من مسلم، وبحث ريتشارد عن وسيلة لإقناعها، فاقترح على الملك العادل أن يعتنق المسيحية، فرفض، واعتذر بأدب عن اقترانه بالملكة.

وكان لدى ريتشارد رغبة أكيدة، في مصاهرة الملك العادل لينال بالمصاهرة ما لم يستطع الوصول إليه بالقتال، وإذا كانت أخته قد رفضت الزواج، وربما وقف البابا مانعاً، في حالة موافقتها على إتمام هذا الزواج؛ لذلك فكَّر في تزويجه ابنة أخته، وهي في كنفه، وتحت رعايته ويملك تزويجها، دون إذن من البابا، ولكن الملك العادل رفض

---

(1) انظر: انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية ص 195، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 3 ص 115، وانظر: الساحلي: المرجع السابق ص 153.

الإصهار إلى الصليبيين، واكتفى بتبادل الهدايا، وإقامة الولائم، دون أن تؤثر تلك المشاعر الطيبة على مستقبل البلاد، ومصائر الناس"[1].

وكانت ضرورات الحياة تفرض على المسلمين والصليبيين على حد سواء التعاون في توفير الأمن للتجار للقيام بالخدمات اللازمة للمجتمع، والاستمرار في تبادل المنافع، وتوفير السلع، ونجم عن الصلات التجارية أن نمت الصداقة بينهم"[2].

* الصليبيون والبيزنطيون:

من المؤكد أنّ الدولة البيزنطية هي أكثر الدول المسيحيّة اهتماماً، وارتباطاً بأمور الشام؛ فهي المجاورة لحدودها في جنوب آسيا الصغرى، وكانت جزءا من ممتلكاتها التي طُرِدت منها، ولا تزال تسعى لاستعادتها، في الوقت الذي تخضع فيه بعض مدنها لسيطرتها كاللاذقية.

عندما تولَّى الحكم الإمبراطور ألكسيس كومنين (Alexis Comnène) في سنة 474هـ/ 1081م كانت الإمبراطورية تعاني من الإفلاس والفساد، واستطاع الإمبراطور إعادة بناء الدولة بحكمته، وبترشيد الإنفاق؛ فأنشأ جيشاً قوياً من المرتزقة، وجدّد بناء أسطول ضخم سيطر به على السواحل، وأفاد من الحركة الصليبية في استعادة الجزء الغربي من آسيا الصغرى من السلاجقة فقد حرص على أنْ يأخذ المواثيق على قادة الحملة الصليبية الأولى في أنْ يعيدوا إليه الأراضي التي يستولون عليها[3].

ولم تكن الثقة متبادلة بين الإمبراطور والصليبيين، فقد عمد كل منهم إلى خداع الآخر، ومحاولة الاستفادة منه دون أنْ يقدم مقابلاً لتلك الاستفادة، فاستولى الإمبراطور على نيقية خدعة[4].

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 3 ص 120، وانظر: الساحلي: المرجع السابق ص 154.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2 ص 512.

(3) انظر: Chalandon; Essai sur la Règne d´Alexis Comnène, 146.

(4) انظر: أنا كومنين: المصدر السابق ص 35.

وقابل الصليبيون خدعته بخدعة أخرى، فعندما تمكّن الصليبيون من دخول أنطاكية كان أول ما رغب فيه ألكسيس هو أنْ يستعيد أنطاكية، وأنْ يسيطر على الطرق المؤدّية إليها، ولكن ما اتصف به بوهيمند (Bohémon) من طموح وعناد لم يمكنه من ذلك، وطرد مندوبه المرافق لهم، وأبقى المدينة لنفسه[1].

ويمكن للباحثة أنْ تلخص سياسة الدولة البيزنطية في النقاط الآتية[2]:

* كان البيزنطيون يقيمون علاقات طيبة مع الدولة الفاطمية الشيعية في مصر ليكونوا لهم عوناً ضد الدولة العباسية في بغداد والسلاجقة في الشام وفي آسيا الصغرى، وهم سنيون؛ لذلك امتنع من المضي مع الجيش الصليبي الزاحف على بيت المقدس.
* كان الإمبراطور البيزنطي ألكسيس (Alexis) قد أبدى استعداده للتعاون مع القادة الصليبيين إذا أقسموا له يمين الولاء والطاعة على أنَّ تلك المساعدة لن تتعدى التعاون في فتح الطرق في آسيا الصغرى، وتقديم المؤونة، ولما رأى منهم الغدر، ونكث الوعد اتخذ من حكام النورمان في أنطاكية موقفاً ينم عن الكراهية الشديدة والعداء الصريح.
* كثيراً ما كان يقدم العون والمساعدة لمن يطلبها منه.

*** الصليبيون والمسيحيون في أوربا:**

كان بقاء الصليبيين في الشام رهناً بما تقدمه لهم أوربا من مساعدات مادية وبشرية؛ فمن المعروف أنَّ فلسطين إقليم فقير في موارده فهو في مجموعه أراض شبه صحراوية، وتربته غير خصبة «فلم تقم فيه صناعة كبيرة بمدينة من المدن، بل إنَّ ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا من الثروة ما حازه كونت طرابلس أو أمير

---

(1) انظر: الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص 417، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 31، وانظر: .Vasiliev; op. Cit. P 335، وانظر: Ostrogorsky; op. Cit. P 315.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 34.

أنطاكية»[1]، ولذلك كان اعتمادهم على أوربا اعتماداً كلياً، وأكثر ما جاءتهم المساعدة كانت في:

* الحملات الصليبيــة المتواليــة التي كانت تأتيهم نجدة، كلما تعرضوا لكارثة، أو هزيمة، ومن أمثلة ذلك الحملة الصليبية الثانية التي أعقبـت سـقوط الرهـا في أيدي المسلمين في يوم 6 من جمادى الثاني سنة 539 هــ/ 4 مـن ديـسمبر سـنة 1144م[2].
* المال الوفير الذي يحصلون عليه ممن تتـوافر عنـدهم الرغبـة في عمـل الخـير عنـد المسيحيين في أوربا؛ ذلك بما يجمعونه لهم من تبرعات، ومـا يجرونـه مـن أحبـاس على المنشآت الدينية في البلاد المقدسة[3].

*** الصليبيون والمدن الإيطالية:**

كانت مملكة بيت المقدس بقعة معزولة، تبعد مسافات طويلة عـن الإمـارات الصليبية في الشمال، وكان الساحل الممتد مباشرة إلى الـشمال مـن المملكـة تقـع فيـه أربعة موانئ بحرية وافرة الثراء، وهي عكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وهي تـدين لمصر بالولاء، وكان لا بدّ للصليبيين من توفير الموانئ التي تصلهم بأوربا، ومن هنـا جاء دور المدن الإيطاليـة التي قدّمت لهم كل العون في الاستيلاء على تلك المـوانئ، ومن أمثلة ذلك:

* فقد ساعد الأسطول الإيطالي بوهيمنـد (Bohémond) في حصار أنطاكية، ووفـر له المؤن وآلات الحصار، حتى سـقطت المدينـة في أول رجـب 492 هــ/ 3 مـن يونيو 1098م[4].

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 19.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 143.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 22.

(4) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ2/ ص 226.

* ولم تفتح مدن أرسوف، وقيسارية في سنة 495 هـ/ 1101م إلاَّ بمساعدة أسطول جنوي[1].

* وسقطت عكا ذات الأسوار الحصينة إثر هجوم كاسح عليها من بوارج بيزا وجنوا في سنة 498هـ/ 1104م[2].

* الصليبيون والمغول:

المغول، ويقال لهم أيضاً: «التتار، أو التتر»[3]، وهم من شعوب منطقة شمالي غرب الصين، استطاعوا القضاء على الدولة العباسية في بغداد، في سنة 656 هـ/ 1258م، ثم اتجهوا إلى سوريّة، وكانت حلب ضحيتهم الأولى حيث سقط خمسون ألفاً من سكانها طعاماً للسيف ثم اجتاحوا حارم، وحماة[4]، ثمَّ وجه

(1) انظر: فيليب حتّي: المرجع نفسه جـ2/ ص 230.

(2) انظر: فيليب حتّي: المرجع نفسه جـ2/ ص 230.

(3) المغول: عرفوا في المصادر الأوربية باسم «Tartarius»، وقد اختلفت آراء المؤرخين في أصلهم، وفي الفرق بين لفظي «المغول والتتر أو الططر»، والتطورات التي مرت بكل منهما، ويكاد يجمع الباحثون على أنَّ المغول أسبق في الظهور من التتار، فقد تمكّن أميرهم جنكيز خان Genghis Khan (1154 ـ 1227 م) من الاستيلاء على منغوليا Mongolie في سنة 1206م، ثم فتح شمالي الصين في سنوات 1211 ـ 1215م، وأسس إمبراطورية ضخمة تمتد حدودها من الصين شرقا إلى البحر الأدرياتي في الغرب، ويعد جنكيز خان واحدا من أشهر الفاتحين في التاريخ ويبدو أنّه استعان بالتتار في قواته، ولمّا كثروا في جيوشه، وأصبحت لهم اليد الطولي في الفتوحات، تسلّطوا بدورهم على المغول، وشهروا من دونهم.

انظر: سرهنك، إسماعيل: المرجع سابق جـ1/ ص 241، وانظر: يوسف، جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 137 ح 1، وانظر: موسوعة المورد CD مادة «جنكيز خان».

(4) حماة: مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، ولها قلعة حصينة، وهي تقع بين حمص وقنسرين.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 300، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 262.

هولاكو[1] أحد قادته لحصار دمشق، بينما عاد هو إلى فارس، ولم تلبث إمارة أنطاكية اللاتينية أن التحقت بالمغول وتحالفت معهم[2].

ظن لويس التاسع (Louis IX) أنْ عقد ميثاق مع الغزاة قد يساعد في النضال ضد المسلمين؛ وكان جغطاي (Äljigidäi)[3] قد بعث إليه سفيرين هما مرقس وداود من المسيحيين النساطرة يفاوضانه على التعاون معاً لانتزاع بيت المقدس وفلسطين من أيدي المصريين، وأحسن الملك استقبال السفيرين، وأرسل بعثتين لتحقيق سياسة التقارب بين الصليبيين والمغول التي سبقه إليها البابا أنوسنت الرابع (Innocent IV) الذي أرسل عدة بعثات في سنة 643هـ/ 1245م الهدف منها:

أولاً: ترغيب التتار في اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي.

ثانياً: استطلاع نواياهم، والعمل على إبعاد خطرهم عن أوربا بعد أن أخذوا يعيثون فساداً في بولندا وهنغاريا، وأصبحت ألمانيا تحت رحمتهم.

ثالثاً: اشتراك اللاتين والمغول في القيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضي المقدسة من الحكم الإسلامي[4].

---

(1) هولاكو بن تولي قان بن جنكيزخان، ملك التتار، كان طاغية، ومن أعظم ملوك التتار، وكان شجاعاً مقداماً حازماً وذا خبرة بالحروب، وكان مع ذلك محبّاً للعلوم من غير أنْ يعقل منها شيئاً، ولم يكن له دين، ويقال: إنَّ زوجته تنصّرت، وفي الروايات العربية أنّه أسلم لمّا رغب في الزواج من بنت ملك الكُرْج وتوفي بعلّة الصرع، وله من العمر ستون سنة في عام 664 هـ/ 1265م. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ27/ ص 399.

(2) انظر: اليونيني: المصدر سابق جـ2/ ص 3، وانظر: الدوادرى: كنز الدرر «الدرة الزكية» جـ8/ ص 35، وانظر: هايد: المرجع السابق جـ2/ ص 298، وانظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية جـ2/ ص 268.

(3) يعرف جغطاي خان في المصادر الغربية بأكثر من ثمانية أسماء مختلفة، انظر: يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص 68 ح 3.
وانظر: Atiya A. S. op. cit. p241.

(4) انظر: لجوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر ص 68، والعدوان الصليبي على بلاد الشام ص253، ودراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص 140.
وانظر: Iorga; Histoire des Croisades, p165.

لقد اعتبرت هذه الاتصالات على جانب كبير من الأهمية، ولكنها لم تسفر عن نتائج ذات قيمة، إذ سرعان ما التقى المسلمون والمغول، في معركة حاسمة، قرب عين جالوت في سنة 658 هـ/ 1260م، وكان قائدهم كَتْبُغا نوين من مسيحيي المغول وفيها انتصر المسلمون، وقُتِل قائدهم في الموقعة، وانحسرت هذه الموجة البربرية، وتراجعت إلى بلاد فارس[1].

لم ينس الظاهر بيبرس للصليبيين تحالفهم مع أعداء الإسلام[2] فبدأ يعد العدَّة للقضاء عليهم في الساحل الشامي، وكان لابد له من تدمير قليقية، وأنطاكية، وذلك لأنَّ هيثوم ملك قليقية الأرمني هو المسؤول عن جلب المغول إلى العراق والشام وهو الذي استدعى المغول الموجودين لدى السلاجقة وألبس فرسان أنطاكية ملابس المغول وأغار بهم على حارم، وسرمين، والجَزَر، وغيرها من بلاد الشام الشمالية؛ فنهبوا البلاد، وسلبوا السكَّان الآمنين، وأفسدوا المزارع[3]، ولهذا وجه بيبرس ضرباته إلى كل من قليقية، وأنطاكية التي استولى عليها في يوم 5 من رمضان 666 هـ/ 18 من مايو 1268م[4].

أسباب انهيار الاستيطان الصليبي في الشرق:

لا يخفى أنّ بقاء مثل هذه الإمارات الغريبة واستمرارها كان رهناً بوصول إمدادات جديدة من المجندين بصورة متواصلة من الوطن الأول، في أوربا، وببقاء الأعداء مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة فلمَّا تغيِّرت الأحوال، وانقطع وصول الأوربيين، وقامت الوحدة العربية بفضل جهود نور الدين محمود وحمل لواءها من

(1) انظر: أبو شامة: عيون الروضتين جـ 2/ ص 113، وانظر: اليونيني: المصدر السابق جـ2/ ص 33، وانظر: تاريخ ابن الوردي جـ 2/ ص 295.

(2) انظر: عودات، أحمد، وآخرين: تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، إربد، الأردن، 1990م، ص 25.

(3) انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق ص 191.

(4) انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق ص 308، وانظر: Grousset; op cit, V.3, p. 461.

بعده صلاح الدين الأيوبي كان هذا نذيراً بزوال الغمّة وانقشاع الظلمة، والقضاء على هذه الإمارات الهزيلة[1].

وهناك أسباب أخرى أدَّت إلى إنهاء الظاهرة الاستيطانية في الشام منها:

ـ **انغلاق دائرة طبقة كبار النبلاء على نفسها**، واقتصارها على من ينتسب إليهم، واصطدام مصالحهم الشخصية بسياسة الملك وبالصالح العام؛ فبعد أنْ كان الصليبيون يرحّبون بالقادمين الجدد الآتين من أوربا إلى المناطق الصليبية في الشام، بدؤوا يضيقون بهم منذ منتصف القرن 6هـ/ 12م، ويعتبرونهم منافسين لهم في أرزاقهم وسلطانهم، ومتطفلين عليهم في دولهم وإماراتهم، وقد ظهر هذا العداء سافراً عندما فضَّل الصليبيّون المحلّيون التفاوض مع المسلمين لفك الحصار عن قلعة شيزر في سنة 552 هـ/ 1157م والرجوع عنها، حتى لا تسقط في أيديهم، ويرونها خاضعة لسيطرة الحاج ثيري الفلاندري (Thierry of Flander)، وهو واحد من القادمين من أوربا حديثاً[2].

ـ **تعدد الأعراق والأجناس**، جعل منهم أمة متنافرة، متناحرة، لا يمكن أنْ يجمعها تعاون أو مودّة.

ـ **نظام وراثة العرش**، وما سببه من خلافات وصراعات، فقد جرت العادة أنْ يكون الملك هو زوج الوارثة ، وكانت طبقة كبار النبلاء يحرصون على وقف التدخل الملكي في إتمام عقود الزواج، والإصرار على تأكيد أهميّة موافقتهم على عقود زواج وريثات الإقطاعات، وكان الهدف من وراء ذلك هو منع حدوث التزاوج غير المتكافئ Mesalliances بين تلك الوارثات وبين الرجال الذين يختارهم الملك أزواجاً لهن[3]، ونتج عن ذلك صراعات عنيفة، ومن أمثلة ذلك:

---

(1) انظر: يوسف، جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات ص 45.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 9/ ص 55، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 95، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 68.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 94.

* نجح رينـو دو شاتيـون (Renaud de Chatillon) ـ وتـسميه المـصادر العربيـة «أرناط» ـ في الزواج من وارثتين صليبيتين:

الأولى: هـي كونـستانـس (Constance)، التـي ورثـت عـرش بوهيمنـد الثـاني (Bohémond II) ملك أنطاكيـة الذي توفي في سـنة 525 هـ/ 1130م، فتزوجت من ريمونـد (Raymond de Poitiers) وبعـد وفاتـه تزوجهـا رينو في سنة 553هـ 1158م، وأصبح حاكماً على أنطاكيـة، قبـل أسره، ووفـاة زوجتـه، وترتـب عـلى هـذا الـزواج أنْ تجـددت العـداوة بـين الإمبراطورية البيزنطية وأمير أنطاكية[1].

والأخرى: هي أشيف دو مللى (Eschive de Milly)[2] التي ورثـت عـرش أمهـا المتوفاة وأبيها الذي أصبح راهباً ومقدماً لفرسان الداوية في ما وراء نهـر الأردن، وبذلك أصبح رينـو حاكماً على حصن الكَرَك[3].

* بعد وفاة بودوين الرابع (Baudouin IV) ملك بيت المقدس ورثـت العـرش أختـه سيبيـل (Sibylle) التي تزوجـت من وليم لونجسورد (William Longsword) أحـد القادمين الجدد، وبعد وفاتـه تزوجت مـن جـي دو لوزينـان (Guy de Lusignan) وهو أحد القادمين الجدد أيضاً مما أثار الحقد في نفوس الصليبيين المحليين الطـامعين في العرش، ومنهم ريموند دو بواتيـه (Raymond de Poitiers) حـاكم طرابلـس،

---

(1) انظر: باركر: المرجع السابق ص 70.

(2) تذكرها المصادر الغربيـة بأسماء متعـددة، منها: اسـتيفاني (Stephanie)، وأتينـت (Etiennette) وكـان زواجها برينو هو الزواج الثالث. انظر: السيد، على أحمد: الخليل والحرم الإبراهيمي في عـصر الحـروب الصليبية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م ص 149.

وانظر: Grousset, R.; Histoire des Croisades, V.II, p 554.

(3) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 59، وانظـر له: البرق الشامي جـ 5/ ص 169، وانظـر: ابـن واصل: المصدر السابق جـ 2/ ص 192، وانظر سـبط ابـن الجـوزي: المـصدر الـسابق جــ 8 ق 1/ ص369، وانظر: يوشع براور المرجع السابق ص 96، وانظـر: باركر: المرجع السابق ص 53.

وأسفــر هــذا الحـدث عــن إلحـاق التفكــك والانقــسام في وحــدة المملكــة الصليبية[1].

ـ **نقص الموارد المالية للدولة**، فقـد كانـت نفقـات الملـك باهظـة؛ لأنَّ أكثـر المقاتلين كانوا يتقاضون رواتب نقدية، وكانت الكنيسة تحصل عـلى نـصيبها كـاملاً من العشـر مع الإعفاءات والامتيازات الضخمـة على ممتلكاتهـا، دون أنْ تـسهم في النفقات، أو تقدم يد العون للملك[2].

ـ **التحالف مع أعداء المواطنين**، سواء أكانـوا من الفرق الدينية كالإسماعيليـة، والحشيشيـة... أم من الأعداء الخارجيين كالأرمن، والمغول...[3].

ـ **اختلاف البيئة والظروف**، ظل الفرسان يسلكون في حياتهم المسلك الذي اعتادوه في بلادهم؛ فيركبون خيولهم بكامل عـدتهم الثقيلـة في شـمس حارقـة، ولم يبلغ عددهم من الكثرة ما يجعلهم يؤدون الأعـمال التـي تتطلبــها الدولــة، لـذلك أضناهم الجهد، وأرهقهم التعـب، وأخذوا في الانقراض والزوال[4].

ـ **الفساد الأخلاقـي**، فَقَـدَ الفرسـان قـوتهم البدنيـة، والأخلاقيــة بعـد أنْ انغمسوا في حياة اللهو؛ وجمعت حياتهم بين أمرين:

* ما اشتهرت به الفروسية الغربية من الإسراف، والبذخ.
* وأسباب الترف في الشرق.

فكانت بيوتهم زاخرة بأنواع الزخارف والرسوم والرياش الفاخر، والملابـس الحريرية، وأمَّا موائدهم فقد جرى تنضيدها بما أخرجه الصنَّاع الشرقيون المهرة مـن الأواني النحاسيـة والفضيـة، وزخرت بالأطعمـة المتنوعة، والحلـوى الدمـشقية[5]،

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 97.

(2) انظر: باركر: المرجع السابق ص 65.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 88.

(4) انظر: باركر: المرجع السابق ص 68.

(5) انظر: باركر: المرجع السابق ص 69.

وهذا مما يبرز عمق التأثير الحضاري العربي في النهضة الأوربية فنياً، وثقافياً، واجتماعياً، وكان للثروات المالية دورها في هذا الترف، والحديث عن هذه الثروات يصل بنا إلى موضوع الفصل التالي عن (تأثير الاستيطان في البنية الاقتصادية للإمارات الصليبية).

الفصل السابع

تأثير الاستيطان في البنية الاقتصادية للدويلات الصليبية

تأثير الاستيطان في البنية الاقتصادية للدويلات الصليبية

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : الدافع الاقتصادي في إشعال نار الحروب الصليبية

المبحث الثاني : الملكية في الإمارات الصليبية:

* أملاك الملك.
* أملاك الكنيسة.
* أملاك البارونات.
* أملاك الإيطاليين.

المبحث الثالث : موارد الدولة:

* الضرائب والمكوس.
* الحاصلات الزراعية ونظام المقاسمات.
* السلب والنهب.

المبحث الرابع : مصارف الدولة:

* الإنفاق الحربي.
* الإنفاق المدني.

المبحث الخامس: النشاط الاقتصادي:

* الزراعة.
* الصناعة.
* التجارة.

الدافع الاقتصادي في إشعال نار الحروب الصليبية:

إذا كان أكثر المؤرخين المنصفين[1] قد شكّكوا في حقيقة الدافع الديني للحروب الصليبية، وأثبتوا بالأدلة القاطعة أنَّ الصليب الذي حمله المقاتلون على صدورهم لم يكن غير شعار مضلل، وإشارة خادعة لإخفاء نواياهم وأطماعهم فإنَّهم يكادون يجمعون على أنَّ الدافع الاقتصادي ربَّما كان هو السبب الأكثر إقناعاً لإضرام نار تلك الحرب الاستعمارية الاستيطانية[2]، ويستدلّون على ذلك بما يأتي:

* سنوات المجاعة في أوربا: تضافرت عوامل عدَّة على نشر الفقر في ريف أوربا في القرنين 4 ـ 5هـ/ 10 ـ 11م، منها:

- تعاظم أطماع السادة الإقطاعيين؛ فأخذوا يزيدون على الفلاحين فريضة المدفوعات النقدية عوضاً عن القيمة العينية، سنة بعد سنة، ويحصّلونها بأقسى الوسائل مما نتج عنه أنْ انزلق أغلب الفلاحين إلى مهاوي الفقر المدقع[3].
- كانت الحروب الداخلية المتواصلة في كل مكان من أوربا عاملاً من عوامل إملاق الريف، وإهلاك الحرث.
- سوء المواسم الزراعية الناتجة عن تلف المحاصيل جعل المجاعة تسود في كل المناطق في أواخر القرن 5 هـ/ 11م قُبَيْل بدْء الحروب الصليبية وبلغت الأمور حدّاً من السوء إلى أنْ أكل الناس لحوم البشر، وأجسام الموتى، وأطلق المؤرخون على الفترة التي سبقت الحروب الصليبية اسم «السنوات السبع العجاف»[4].

---

(1) انظر: لجوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص 37 ـ 60، والعرب والروم واللاتين ص 36 ـ 110، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 11.
وانظر: سميل: المرجع السابق، ص23، وانظر: Iorga; Histoire des Croisades, P 1-3 .

(2) انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 34، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص18.
وانظر: Thompson: Econnomic and Social History of Middle Ages, P 301.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص15.

(4) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص15.
وانظر: Thompson: Econnomic and Social History of Middle Ages, P 303.

ـ الكوارث الطبيعية التي تجمَّعت في هذا الوقت، منها:

* انتشار وباء الطاعون في سنة 482 هـ/ 1089م، والموصوف بالطاعون الناري الذي أهلك العديد من الريفيين، وحوَّل كثيرين آخرين منهم إلى مشوهين، ومقعدين، وبعد ثلاثة أعوام من هذا الوباء ظهر في أوربا مرض رهيب أصاب الناس والمواشي[1].

* وقوع هِزَّات أرضية في سنة 482 هـ/ 1089م في ألمانيا، وغيرها تسببت في جدْب التربة في سنة 483 هـ/ 1090م.

* فيضان الأنهار في بعض الأنحاء أغرق الأرض وأتلف الزرع.

* زيادة البرد في الربيع، وسقوط الثلج في الشتاء في سنة 486 هـ/ 1093م مما أفسد البذور، وجمَّد النبات، وأنقص الغلات.

* تسببت العواصف الشديدة وسوء المناخ في إنجلترا في إهلاك المحاصيل الزراعية في سنة 486هـ/ 1093م[2].

لكل هذه العوامل كانت أوربا تعاني من الفقر الشديد، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وهي عوامل تدعو الإنسان إلى الهجرة إلى مواطن الخصب والبحث عن مصادر للرزق، وكانت الأرض العربية هي الأمل فهي الأرض التي «تفيض لبناً وعسلاً» كما وصفتها التوراة[3].

* **الأمراء الذين لا ميراث لهم**: لعل أكثر العيوب التي يمكن أنْ يعاب بها الدين المسيحي هو خُلُوُّه من نظام للمواريث يبيِّن أنصبة الأفراد في تركة المورِّث؛ لهذا نجد المسيحي يورِّث واحداً من أبنائه أو بناته، ويحرم الآخرين، وقد يحرمهم جميعاً ويوصي بتركته كلها لإنسان آخر، أو حيوان يحبه أكثر من أبنائه، وفي العصور الوسطى وُجِدَ من بين جموع الفرسان من عرفوا باسم «المعدمين» أو «من لا أرض

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 15.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 15.

(3) تكرر هذا الوصف في أكثر من موضع من الكتاب المقدس، انظر مثلاً: سفر الخروج الإصحاح 3/ الآية 8، وسفر أشعياء الإصحاح 7/ الآية 22.

لهم» وهم أبناء كبار السَّادة الإقطاعيين الذين لا ميراث لهم في تركة أبيهم الذي أوصى بكل أرضه لواحد من أبنائه تطبيقاً لنظام «البكورة» ـ أو حق البكورة Droit d'aînesse ـ وهو النظام الذي يقضي بتوريث الإقطاعات بكاملها إلى الابن الأكبر للسيد، ولا يُجِيز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على أبنائه، وأمَّا الأبناء الباقون فلا يرثون إلاَّ الأموال المنقولة والخيول والدروع، والأسلحة... فظهر في عائلات الإقطاعيين أعداد كبيرة من الأبناء المحرومين من الأرض، وكانوا محلَّ سخرية الآخرين؛ فكان على هؤلاء المعدمين أنْ يفتِّشوا فيها وراء البحار عن الفرص لإصلاح أوضاعهم الاقتصادية واقتناء العقارات[1].

* **المغامرون والطامعون**: انتشر في أوربا في القرن 5 هـ/ 11م جماعات من الفرسان المغامرين، وكثرت حملاتهم اللصوصية، وقطعهم الطرق على السابلة، ومهاجمتهم القرى والحصون والمنشآت الاقتصادية، والممتلكات الإقطاعية يغتصبون كل ما وقع في أيديهم من أموال، وكان لا بُدَّ للكنيسة من مواجهة هذه الظاهرة الفاشية حماية لممتلكاتها وعقاراتها فسعى قساوسة فرنسا إلى حثِّ الأعيان والفرسان بجميع الوسائل على الاشتراك في حرب الاسترداد في أسبانيا Reconquisto، وإحاطة المشتركين فيها بهالة الاستشهاد من أجل الدين والإيمان، ثم أفلحوا أخيراً في توجيههم[2]، إلى الأرض العربية؛ وبذلك تخلّصوا من خطرهم، واستراحوا من غزواتهم، ولعل أبلغ ما يصوِّر فعل هؤلاء القساوسة هو ما عبَّر عنه هولباخ Holbach[3] في قوله: «الحروب الصليبية حروب مقدَّسة، منظمة بأمر من الباباوات

---

(1) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 43.
وانظر: Grand LAROUSSE encyclopédique. V.I art. “Aînesse”.

(2) انظر: النقاش، زكي: المرجع السابق ص 13، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 18.
وانظر: Baldwin; OP. CIT. P 101.

(3) هولباخ هو Paul – Henri, baron de Holbach فيلسوف ومفكر فرنسي من الماديين المتهمين بالزندقة، ولد في إدشيم Edesheim في سنة 1723م، وتوفي في سنة 1789م، من مؤلفاته «نظام الطبيعة» و «علم اللاهوت الجيبي».
انظر: Grand LAROUSSE encyclopédique. V.IV art. “Holbach”.

بغية تحرير أوربا من العديد من الأنذال الأتقياء الذين مضوا بشجاعة يقترفون جرائم جديدة في أقطار أخرى لكي يحصلوا من السماء على غفران الجرائم التي اقترفوها في أوطانهم»[1].

* الجياع والرقيق: إذا كانت الدعوة إلى الحروب الصليبية قد وجدت تلبية فورية واسعة من الفرسان والأمراء فلم يكن صداها في الأوساط الشعبية أقل منه في بيئة النبلاء والأعيان؛ فقد زحفت مئات الألوف من الفقراء والرقيق نحو بيت المقدس مدفوعين بالأمل في حياة أفضل من حياتهم المهينة الذليلة «وكل ما كانوا يعتقدونه هو أنَّهم يسيرون إلى موطن السعادة السرمدية»[2] وقد اختلطت في أذهانهم صورة القدس السماوية ذات الأبواب الياقوتية والأسوار المرصَّعة بالأحجار الكريمة «ولألاؤها أشبه بلألاء أكرم الحجارة... والمدينة ذهب خالص أشبه بالزجاج الصافي، وأسس سور المدينة مرصّع بكل حجر كريم..»[3]، والعجيب أنَّ هذا القطيع المتحرِّك نحو المجهول لم يكن يعرف شيئاً عن مدينة القدس، ولا في أي البلاد تقع؛ «تحرَّكت هذه الجموع الشعبية، واجتازت الأقاليم المجاورة المعروفة، وكذلك الأقاليم التي لم يعرفوها من قبل وعندما كانوا يقتربون من كل مدينة جديدة يسألون: هل هذه هي مدينة بيت المقدس السماوية؟»[4].

وفي الوقت نفسه لم يكونوا يعرفون من فنون الحرب شيئاً، بل لا يحسنون حمل السلاح، وإنَّما الحرب بالنسبة إليهم إمَّا أنْ تكون وسيلة للتخلص من آلام الفقر، ومن نير العبوديَّة، والأمل في أنْ يصبحوا أحراراً، وإمَّا باباً للهرب من ديونهم، أو محاولة لتأجيل سدادها، وإمَّا ملجأً يفرُّون إليه من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم[5].

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 11.

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق ص 28.

(3) انظر: سفر رؤيا يوحنا، الإصحاح 21/ الآيات 11 ـ 21.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 22.

(5) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 34، وانظر: زابوروف: المرجع السابق.
وانظر: Thompson; Econnomic and Social History of Middle Ages, V. I, p.302.

مما سبق يتبيّن للباحثة أنَّ القاسم المشترك الذي جمع بين جميع من حملوا الصليب واتّجهوا إلى الشرق كان هو الطمع والرغبة في الحصول على المال بكل الوسائل، وهذا هو ما يفسِّر سلوكهم الآتي:

* نهب جميع الكنائس وبيوت العبادة التي مرُّوا بها «واقتلعوا الرصاص من أسقفة الكنائس»[1] «ودخلوا إلى الهيكل، وأخرجوا كل ما وجدوا به من صوان فضية، وقوارير نحاسية، وصلبان ومباخر وقناديل وأيقونات معدنية وأناجيل... وجمعوا كل ما وجدوه من ذهب وفضة ونحاس وحديد وثياب وستائر، حتى إنّهم أخذوا من الهيكل أثاثه»[2].

* نهب المنازل والبيوت، فعندما دخلوا بيت المقدس «اندفع الصليبيون في أنحاء المدينة، يستولون على الذهب، والفضة، والجياد، والبغال، وينهبون المنازل المكتظّة بكل أنواع الثريَّات، بعد ذلك، جاء الجميع إلى قبر مخلِّصنا مبتهجين، يبكون من شدَّة الفرح»[3].

* ارتبط النهب والسلب بالجريمة والقتل، ولم يفرِّق الصليبيّون بين مسلم ومسيحي، فسكَّان مدينة كاستروريا (Castera) المسيحيُّون لم يمدُّوا لهم يد المساعدة؛ لشدَّة خوفهم منهم، فلم يعتبروهم حجاجاً بل جماعة من اللصوص الطامعين في تخريب أرضهم والفتك بهم، وقد صدق حدسهم، واستحقُّوا الموت والحرق لدفاعهم عن أنفسهم وأموالهم، يقول صاحب أعمال الفرنجة: «ولقد استولينا على الخيول والثيران والحمير، لا، بل على كل ما صادفناه، أو عثرنا عليه في طريقنا ولمَّا غادرنا كاستروريا دخلنا إلى إقليم بيلاغوني حيث صادفنا بلدة من بلدان الهراطقة، فهاجمناها من جميع أطرافها وسرعان ما استولينا عليها، فأضرمنا النيران وأحرقناها بمن فيها من السكان، ودمَّرناها تدميراً»[4].

---

(1) انظر: مجهول: المصدر السابق ص 79.

(2) انظر: روايات ميخائيل السوري 94. وانظر: ابن العبري تاريخ الزمان ص 318.

(3) انظر: بطرس توديبود: المصدر السابق، ص 318.

(4) انظر: مجهول: المصدر السابق ص 84.

الملكية في الإمارات الصليبية:

عندما استولى الصليبيُّون على المدن الإسلامية «دخلوا بيوت السكان، واستولوا على كل ما وجدوه بها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من يسبق إلى الدخول فقيراً كان أم غنياً يستولي على البيت، ولا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنْزل أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية خالصة له، وهكذا اتّفقوا جميعاً على هذا النمط من حقوق الملكية وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أغنياء»[1].

أمَّا البلاد والأراضي فكانت مقسَّمة إلى إقطاعات، يملك الملك أو الحاكم النصيب الأكبر منها، ثم تنقسم الدولة إلى وحدات أصغر من الحيازة الملكية، وهي البارونات التي تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر هي إقطاعات الفرسان، والتي تسمى الفيودات «Feod، Fief»، وتختلف مساحتها بحسب مكانة الفارس، فقد تكون جزءاً من قرية، أو قرية واحدة، أو عدداً من القرى، يوزِّعها الملك على أفصاله، بعد أنْ يقسموا له قسم الطاعة والولاء[2]، وهذه صورة من تلك الإقطاعات.

* أملاك الملك:

كان ملك القدس أكبر إقطاعي؛ فكانت أملاكه تمتد من جهة الشرق إلى نهر الأردن والبحر الميت، ومن جهة الغرب إلى البحر الأبيض وكانت المدن الخاضعة له هي: القدس ـ إلا ربعها الذي كان ملكاً للبطريرك ـ ونابلس، وصور وصيدا مع ضواحيها، ودوائرهما، وكانت الضياع والمدن تعود على الملك بمداخيل كبيرة[3].

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق «ترجمة قاسم» ص 138.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 140.

(3) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 141.

أخذت الأملاك الملكية تتقلّص عاماً بعد عـام بـسبب توزيـع هـذه الأراضي إقطاعاً على الفرسان، وفي أواسط القرن 6هـ/ 12م لم يكن يملك الملك سوى ثلـث الأراضي حول صور"[1].

* أملاك الكنيسة:

أنشأ الصليبيُّون في مملكة بيت المقـدس خمس أبرشـيات، وتـسع أسـقفيات، والعديد من الديَّارات، ونالت الكنيسة نصيباً ضخماً مـن الأراضي مكافـأة لهـا عـلى تنظيمها للحملة الصليبية، وقيادتها لها، وعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس آلت إلى ملكيتها الإقطاعات الآتية:

* الأملاك التي كانت مملوكة لرجال الدين المسلمين من قبل.
* الأملاك التي كانت تخص الكنـائس المـسيحية الـشرقية بـما فيهـا كنيـسة الـروم الكاثوليك.
* الأملاك التي يهبها السادة العلمانيون للحصول على مساندة الكنيسة، وتأييدها.
* أملاك الفرسان التي كان القسس يضعون أيديهم عليها[2].

وكان بعض الأملاك الكنسية تعادل أمـلاك الأمـراء الإقطـاعيين إنْ لم تـزد عليها، ففي القرن 7هـ/ 13م كانت أبرشية الناصرة وحدها تملك نحواً من عشرين ضيعة وعقاراً[3].

وأصبح رجال الدين الكاثوليكي من الإقطاعيين الكبـار في جميـع الإمـارات الصليبية «وقد اضطر ملوك القدس حتى إلى اتخاذ الإجراءات لتبريد مشاعر الجـشع والطمـع الحـارّة عنـد خـدم الـرب فقـد منعـوا مؤسـسات الكنيـسة مـن امـتلاك الإقطاعات، ومنعوا الفرسان من الوهب»[4].

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 142.

(2) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 151، وانظر: Duby G.; Le Chevalier, La Femme et le prêtre, le Mariage dans La France Féodale, Paris, 1981, p. 213.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 151.

(4) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 151 ـ 152.

* أملاك البارونات:

كان أكثر من ثلثي أراضي المملكة الصليبية في بيت المقدس في حيازة السادة الإقطاعيين[1]، وهي موزعة على أربع ممتلكات وأفصالهم وهي:

* إمارة الجليل[2]، ومركزها طبرية[3]، في الغرب.

* بارونيات: صيدا، وقيسرية[4]، وبيسان[5].

* دوقية يافا[6] وعسقلان.

* قلعة كراك دو مونتريال (Le Crac de Montréal)[7]، وسان إبراهام[8].

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 142.

(2) الجليل: جبل في ساحل الشام، يقبل من الحجاز، وتتعدد أسماؤه باختلاف المواقع، فهو بفلسطين «الحَمَل»، وبالأردن «الجليل»، وبدمشق «لبنان»، وبحمص «سَنير» انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 157.

(3) طبرية: بليدة في طرف جبل مطلة على البحيرة المعروفة باسمها، ويطل عليها جبل الطور. انظر: الحموي: المصدر السابق جـ2/ ص 157.

(4) قيسارية: ميناء يقع في خليج طبيعي بين حيفا ويافا. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص 421، وانظر: فولفغانغ مولَّر ـ فيز: المرجع السابق ص 97.

(5) بيسان: مدينة بالأردن، بالغور الشامي، بين حوران وفلسطين. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ1/ ص527.

(6) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال فلسطين، بين قيسارية وعكا. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ5/ ص 426.

(7) كراك دو مونتريال: هو حصان الكَرَك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة، وبحر القلزم، وبيت المقدس، على بعد عشرة أميال إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ4/ ص 453، وانظر: فولفغانغ مولَّر ـ فيز: المرجع السابق ص 55.
الكرك هي الآن في محافظة مؤتة في الأردن أما مونتريال فهي قلعة الشوبك.

(8) سان إبراهام: هي مدينة حبرون، أو حَبْرَي، وغلب على اسمها «الخليل» حيث يوجد قبر أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ، وهي مدينة بينها وبين بيت المقدس يوم واحد. انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص161، وانظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 212.

وسادة هذه الممتلكات يتبعون الملك مباشرة، ولكل منهم أتباع نالوا منهم إقطاعات أصغر، لهم فيها حق التوريث[1].

وعدا هذه الممتلكات الكبار كان تحت حكم الملك أكثر من عشرة إقطاعات أصغر شأناً مثل:

أرسوف[2]، أريحا[3]، الخليل[4].. وغيرها؛ فكان في مملكة بيت المقدس نحوٌ من 22 سيداً تخضع إقطاعاتهم لقانون التبعية الإقطاعية، علماً بأنَّ كل حيازة في الدول الصليبية الأخرى كانت عبارة عن إقطاع وكل فارس كان تابعاً[5].

*** أملاك الإيطاليين:**

كان للمدن التجارية الإيطالية وضع خاص في الإمارات الصليبية بفضل ما قدمته لهم من مساعدات؛ فقد كانت أساطيلها البحرية تنقل لهم الجنود، والغذاء، وأدوات الحصار، والأسلحة وتحكم الحصار حول الموانئ والمدن الساحلية، «ومن الطبيعي أنْ تكون لكل الأمم التجارية التي قدَّمت تضحيات في الأرواح والمال للمساعدة في إنشاء الدول الصليبية الحق في امتيازات خاصة يمنحها إيَّاها ملوك هذه الدول»[6]، وهذه الامتيازات تتكون من:

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 140.

(2) أرْسُوف: مدينة على ساحل بحر الشام، بين قيسارية ويافا.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 151.

(3) أريحا: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم، تقع في جبال صعبة المسالك. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 165.

(4) الخليل: مدينة عريقة، من أقدم مدن العالم، وقد عرفت بأسماء مختلفة منها «قرية أربع» لأنَّ بها قبور أربعة أنبياء «آدم، وإبراهيم، ويعقوب وإسحاق»، أو لأنها تتكون من أربع مدن «حبرون، مارثوم، بيت عينون، بيت إبراهيم» أسس فيها الصليبيون إمارةً، عن هذه الإمارة، وحدودها انظر: على أحمد السيد: المرجع السابق، ص 59، وما بعدها.

(5) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 140.

(6) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1/ ص 157.

* ثلث المدينة بالكامل، بما فيه الأراضي والحقول التابعة لها المستأجرة بطريق المزارعة.

* أراض تقام عليها المباني، أو عدد من المنازل، وشارع كامل أو قسم من المدينة.

* مستودع، وكنيسة، وطواحين، وسلخانات، وحمامات.

وقد يحصل الإيطاليون على مدن بأكملها، فقد منع برتراند (Bertrand) الجنويين حقَّهم في الحصول على ثلث مدينة طرابلس وهو الثلث الذي كان لهم حق امتلاكه، ولكنهم حصلوا عوضاً عنه على مدينة بأكملها، هي مدينة جَبَلَة (Gibelet)، وضيعة جبل القائد العام (Puy du Connétable) فكانوا بذلك الأمة الأكثر رعاية[1].

وكانت المدن التجارية عندما تمتلك حيّاً من الأحياء تبقي على سكانه الأصليين يساعدونهم في تجارتهم، ويدفعون لهم إيجاراً وغالباً ما يكون هؤلاء السكان عمالاً مهرة، يصنِّعون مواداً يستغلها الإيطاليون في التجارة، ففي حي البنادقة في مدينة صور كان هناك سوريون ويهود، السوريون يعملون في مصانع الحرير، بينما يعمل اليهود في مصانع الزجاج[2].

وفي توزيع الأملاك على التجار كان يراعى ضرورة اشتمالها على حدائق ومزارع؛ فيضاف إلى ثلث المدينة ثلث الأراضي المجاورة في دائرة نصف قطرها ميل واحد، يستغلها الأفراد في زراعة ما يحتاجونه من الحبوب والفاكهة والخضر، فكانت الحقول تشكل مجموعات حول مبان تسمى الضيعة Casaux[3].

لم تكن المدن الإيطالية الثلاث «بيزا، وجنوة، البندقية» صاحبة الفضل وحدها في تأسيس الدول الصليبية، وتوسيعها، بل شاركتها مرسيليا هذا الفضل، واعترافاً بفضلها أصدر الملك بدوين الأول (Baudouin 1er) مرسوماً يبيح للمرسيليين تخطيط

---

(1) انظر: هايد: المرجع نفسه جـ 1/ ص 162 ـ 165.

(2) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1/ ص 166.

(3) انظر: هايد: نفسه.

حي في القدس لإقامتهم لا يشاركهم فيه أحد، وأن يكون لهم به فرن خاص، كما أصبح من حقهم امتلاك شارع، وكنيسة، وفرن في القدس، وعكا، وكل المدن الساحلية في المملكة، إلى جانب الإعفاء من الرسوم الجمركية والضريبة على الإنتاج[1].

موارد الدولة:

*** الضرائب والمكوس:**

تنوَّعت الضرائب التي فرضتها الدول الصليبية لتوفير الأموال اللازمة للنفقات الباهظة للدولة، منها:

* الرسوم المقررة على النقل واستعمال الطرق؛ فكانت هناك رسوم على القوافل التجارية، والموانئ البحرية.
* الجزية المفروضة على المسلمين، واليهود، وما تدفعه الإمارات الإسلامية من إتاوات، إلى جانب الإتاوات المفروضة على البدو.
* الاحتكارات، وإيجار العقارات، والمباني، والمطاحن..
* رسوم القضايا، وما يفرض على الأفصال والتابعين من أموال مقابل إقطاعاتهم[2].
* وكانت هناك ضريبة خاصة برجال الدين، يطلقون عليها «ضريبة العشر» وكانت إيرادات مؤسسات الكنيسة من ضريبة العُشْر هذه كبيرة جداً، وكان الملوك والبارونات يغتصبون حقَّ الكنيسة في ضريبة العُشْر أحياناً، لذلك كثيراً ما كانت تنشب بينهم نزاعات عاصفة[3].

ويبدو أنَّ الضريبة كانت تختلف من مكان إلى مكان، ومن شخص إلى شخص، فقد روى ابن جبير أنَّ الضريبة زادت على المغاربة بسبب تأييدهم المسلمين؛

---

(1) انظر: هايد: المرجع السابق جـ1/ ص 157.

(2) انظر: رحلة ابن جبير ص 210، وانظر: باركر: المرجع السابق ص 65.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 152.

فطائفة منهم قدمت يد العون والمساعدة لنور الدين محمود، وغزت معه بعض الحصون، ففرض الصليبيون على المغاربة ضريبة باهظة عند مرورهم بحصون الصليبيين، وهذه الضريبة مقدارها دينار صوري وقيراط على كل فرد[1]، وهي ضريبة باهظة.

* الحاصلات الزراعية ونظام المقاسمات:

في جميع صور الاستيطان قديماً وحديثاً نرى المحتل يحرص على تفريغ الأرض من أهلها، بقتلهم أو تهجيرهم؛ ليحل محلهم السكان الجدد بعد نهب ثرواتهم، وامتلاك عقاراتهم، والاستيلاء على أراضيهم وكان الصليبيون إذا ما دخلوا بلداً إسلامياً قتّلوا كل من وجدوه من أهله، كبيراً أو صغيراً، ذكراً أو أنثى، وبعد استقرارهم في البلاد حدث تحوُّل ملحوظ في هذه السياسة التعسفية؛ فقد منعت طبقة النبلاء عملية القتل والنهب في المدن التي يستولي عليها الصليبيون طمعاً في الحصول عليها إقطاعاً لهم، وكانوا يفضّلون الاستيلاء على هذه المدن بأسواقها التجارية العامرة، وورشها الصناعية سليمة، وفيها اليد العاملة الماهرة، والقوة الفلاحية اللازمة للزراعة وإنتاج الغذاء، فلا فائدة من الحصول على بلد خراب مدمَّر، لا يصلح لشيء[2]، فلم يكن إبقاؤهم على الأنفس رحمة وشفقة وإنَّما منفعة واستغلالاً، وإذا عجزوا عن الاستيلاء على بلد أو منطقة من المناطق فقد توصَّلوا إلى اتفاقيات مع السلطات الإسلامية تحقق مصلحتهم، فعندما عجز الصليبيون عن الاستيلاء عل منطقة الجولان في جنوبي دمشق اتفق الطرفان على:

* أنْ تصبح الجولان منطقة منزوعة السلاح، غير محصنة.

* وأن تخضع لسيادة مشتركة إسلامية صليبية.

* وأنْ تقسَّم مواردها ثلاثة أقسام:

ـ ثلث الإنتاج للحكام المسلمين في دمشق.

---

(1) انظر: رحلة ابن جبير ص 210.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 35.

ـ وثلث للسلطات الصليبية.

ـ وثلث للفلاحين الذين يزرعون الأرض[1].

ويبدو أنَّ نظام المقاسمات في الإنتاج الزراعي هذا أصبح هو القاعدة الأساسية التي سادت في جميع الأراضي المزروعة الخاضعة لسيادة مشتركة، وذلك لأسباب، منها:

* قلة عدد الإفرنج المقيمين في الشام بالنسبة للسكان المحليين.

* عدم معرفتهم بطرق الزراعة الشرقية، ووسائلها، ومواسمها.

* حالة الحرب الدائمة المفروضة عليهم من جيرانهم تجعلهم دائماً مستعدين للمواجهة، حاملين السلاح في معظم الأوقات.

لهذه الأسباب بقيت الأرض الزراعية في أيدي أصحابها الأصليين وإنْ كانوا فقدوا ملكيتها، وأصبحوا يعملون فيها أجراء ويأخذون حصتهم من الإنتاج في مقابل عملهم[2].

وأمَّا الفلاحون الصليبيون فقد استقروا في قرى محصَّنة أقيمت حول القلاع والتحصينات الجديدة، وزرعوا أراضيها الأمر الذي وفَّر المؤن الغذائية لأفراد حامية القلعة، وفي الوقت نفسه كان الفلاحون الصليبيون يؤدون التزامات عسكرية مقابل اقتسام الغنائم التي يستولون عليها من المسلمين «وهكذا أصبحت القرى المحصنة بمثابة وحدات مستقلة تتمتع بالاكتفاء الذاتي، وتحمي حدود المملكة من الأخطار، كما كانت أيضاً تزوِّد المملكة بقوات عسكرية جاهزة لغزو الأقطار الإسلامية»[3].

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع نفسه ص 32.

(2) انظر: رحلة ابن جبير ص 210 ـ 211، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق.

وانظر:

Grousset; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, V. I; p. 181.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 39.

* السلب والنهب:

لعل أعجب المزايا التي انفردت بها إمارات الغزاة الصليبيين هي أن تكون أعمال اللصوصية والقرصنة والسلب والنهب من الوسائل المشروعة لتنمية موارد الدولة الرئيسة التي تعتمدها في تدبير نفقاتها العسكرية والإدارية، لا يتورَّع عن ذلك الفرسان والنبلاء، والقسس، وعامة الناس، «ولم يأنف ملوك القدس عن القرصنة، والسلب، والنهب وقطع الطرق على المكشوف، الأمر الذي كان يتوافق كليّاً مع روح ذلك الزمن، حين كان يسود حق الأقوى»[1]، روى ابن منقذ خبر الجريمة التي ارتكبها ملك القدس بودوين الثالث (Baudouin III) قرب ميناء عكا، فقد كانت أسرة أسامة بن منقذ تقيم في مصر، وهو يعمل في خدمة الملك العادل نور الدين محمود في دمشق، ورغب في السفر إلى مصر لإحضار أهله وأولاده، واستأذن في ذلك الملك العادل، ولكنه أشار عليه بأنْ يحصل له على صك «أمان» من الملك الصليبي، وأن يبعث به إلى الملك الصالح[2] في مصر ليرسل إليه أهله، وبعث أسامة بصك الأمان مع غلام له إلى مصر مصحوباً بكتاب الملك العادل وكتابه إلى الملك الصالح الذي حملهم في عُشَاري من الخاص[3] إلى مدينة

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 141.

(2) أبو الغارات، طلائع بن رزِّيك (495 ـ 556هـ/ 1102 ـ 1161م) وزير عصامي أصله من الشيعة الإمامية في العراق، أقام في مصر، وولي الوزارة للخليفة الفائز الفاطمي، ثم العاضد، له غزوات مع الفرنج. انظر: اليمني، عمارة بن أبي الحسن علي: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق هرتويغ درنبرج، مكتبة المنى، بغداد، نسخة مصورة عن طبعة باريس، 1897م، جـ1/ ص 32، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ3/ ص 228.

(3) عُشَاري «جمع عشاريات» نوع من القوارب الصغار التي تلحق بالسفن لنقل المسافرين إليها، وكانت تستعمل في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر وفي النيل، وكانت في العصر الفاطمي خاصة بالخلفاء، ثم استعملت لنقل الغلال والأحطاب في العصر المملوكي، وعرفت باسم الحرَّاقات، والتي تخص الخليفة عرفت باسم الدواميس. انظر: ابن الطوير: نزهة المقلتين، تحقيق أيمن فؤاد سيِّد، فرانتس شتاينر شتوتغارت، ألمانيا، 1992م ص 201 ح 2.
وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ3/ ص 513 و516، وانظر: العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص 87، وانظر: النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، نشر جامعة الإسكندرية، 1974م، ص 95.

دِمْيَاط[1]، وجهّزهم بكل ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصّى بهم وأقلعوا من دِمْياط في بُطْسَة[2] من بُطس الإفرنج.

فلمّا دَنَتْ البُطْسة من عكا بعث الملك بودوين الثالث (Baudouin III) قوماً في مركب صغير، قاموا بإغراق البطسة، وتكسيرها بالفئوس، والناس يرونهم وهم يرتكبون فعلتهم الإجرامية عامدين، والملك واقف على الساحل، ينهب كل ما فيه.

تقدَّم غلام أسامة إلى الملك «والأمان معه، وقال له: يا مولاي الملك، ما هذا أمانك؟

قال: بلى، ولكن هذا رسم المسلمين إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد.

قال: فتسبينا؟

قال: لا.

وأنزلهم ـ لعنه الله ـ في دار، وفتَّش النساء، حتى أخذ كل ما معهم، وقد كان في المركب حلى أودعه النساء، وكسوات، وجوهر، وسيوف، وسلاح، وذهب، وفضة بنحو من 30 ألف دينار فأخذ الجميع، ونفّذ لهم خمسمائة دينار، وقال: توصَّلوا بهذه إلى بلادكم، وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمة»[3].

عندما بلغ الخبر الملك العادل وأسامة، هوَّن الملك على صاحبه، بسلامة الأهل والأولاد، وإذا كان أسامة قد أحزنه ذهاب ما ذهب من المال إلاَّ إنَّ فجيعته الكبيرة

---

(1) دِمْيَاط: ثغر من ثغور مصر الشمالية، بين تنيس ومصر، على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، طيبة الهواء، مشهورة بصناعة الثياب. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 472.

(2) البُطْسَة، ويقال لها أيضاً بَطْسَة، أو بَطْشة، والجمع بطاس وبُطَس: وهي مركب كبير للحرب أو التجارة، قد تصل حمولتها إلى ألفين وخمسائة راكب.

انظر: ابن الطوير: المصدر السابق ص 99 ح 1، وانظر: العبادي: المرجع السابق ص 136 وانظر: النخيلي، المرجع السابق: ص 95،

وانظر: Dozy R.; Supplement Aux Dictionnaires Arabes, librairie du LIBAN, Beyrouth, 1981.

(3) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 164.

كانت في فقد الكتب، فإنَّها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، ترك ضياعها حزازة في قلبه، لم ينسها ما عاش"[1].

ونلاحظ خداع الملك الصليبي وتضليله، فإذا كان المبدأ المطبق عند المسلمين أنْ ينهب أهل البلد السفن المحطمَّة قريباً من بلدهم، فإنَّهم لا يقطعون الطرق على المسافرين، ولا يتلفون السفن عامدين للسطو عليها ونهب ركابها.

ويبدو أنَّ ملوك الإفرنج كلمَّا أعوزتهم الحاجة، وافتقروا إلى المال عمدوا إلى شن الغارات على جيرانهم المسلمين متخذين من السلب والنهب وسيلة لجمع الأموال، وترويع الآمنين[2].

مصارف الدولة:

*** الإنفاق الحربي:**

لعل أكبر نقيصة أو عيب في تنظيم مملكة بيت المقدس يتمثَّل في افتقارها إلى الأساس المالي، فمن المعروف أنَّ للملك الصليبي دخلاً كبيراً يتولى جمعه مساعده الفيكونت Vicomte، ويقوم بتأديته إلى بيت المال Secretum، ويأتي جزء من هذا الخراج من داخل الدولة، وجزء منه يأتي من خارجها:

فأمَّا الجزء الداخلي فهو الضرائب والمكوس، ورسوم القضايا، والاحتكارات، والجزية، وغيرها من الموارد التي سبق الحديث عنها.

وأمَّا الجزء الخارجي فهو ما يرسله ملوك أوربا من تبرعات إلى الأراضي المقدسة، على سبيل البدل عن الاشتراك الشخصي في الحروب الصليبية، ففي أواخر القرن 6 هـ/ 12 م ابتدعت البابوية في روما بدعة جديدة تبيح لمن لا يقوى على المشاركة في الحرب الصليبية بنفسه أنْ يتبرَّع بمبلغ من المال للمساعدة على استمرار الحرب، وفي المقابل يحصل على صك غفران ذنوبه، وينال ثواباً يعادل ثواب المشاركة الفعلية

(1) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 164.

(2) انظر: باركر: المرجع السابق ص 65.

في الحرب، وصارت مورداً مالياً ضخماً للخزانة البابوية، ويبعث جزءٌ منها إلى ملوك القدس[1].

وبالرغم من أنَّ «المداخيل المحصَّلة بأساليب شرعية وغير شرعية، والكبيرة نسبياً كانت تؤمِّن لملوك القدس تفوقاً معيناً على السادة الآخرين»[2] إلاَّ أنَّ نفقات الملك كانت أكبر من دخله وذلك للسببين الآتيين:

* كان عليه أنْ يدفع لأفصاله ما هو مطلوب لهم؛ ليضمن ولاءهم، وقيامهم بواجبهم الحربي، فإذا قصَّر الملك في دفع التزاماته يصبح من حق التابع عدم الوفاء بما يطلب منه.

* كان عليه أنْ يدفع الإقطاعات النقدية أو النوعية Fieg de Sesant، لمن لم يكن بيدهم إقطاعات من الأراضي الزراعية، وكان هذا الإقطاع عبارة عن حق تحصيل إيجارات مرافق في مدينة أو أيّة أملاك فيها[3].

*** الإنفاق المدني:**

كان الملك الصليبي إذا استولى على مدينة عربية عّين لها حاكماً، وحامية عسكريّة وخصص نسبة من إيرادات هذه المدينة من الضرائب ومن الرسوم الجمركية للإنفاق منها على إعاشة الحاكم والحامية، ولم يمنح الملك الصليبي الإقطاعات إلاَّ في نهاية العقد الأول من القرن 6 هـ/ 12م، وكانت هذه الإقطاعات من القرى الصغيرة، والأملاك المصادرة في المدينة[4].

ويجب أنْ نلاحظ أنَّ المملكة الصليبية في الشام، وبالرغم من أنَّها كانت تطبِّق النظم الوطنية الأوربية، ومؤسساتها الإقطاعية، وظلّت تمارس الأعراف والتقاليد

---

(1) انظر: باركر: المرجع السابق ص 65، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ2/ ص1214.
وانظر: Cam. Med. Hist., V.5, p 323.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 142.

(3) انظر: باركر: المرجع السابق ص 65، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 89.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 88.

السائدة في أوربا، وبخاصّة فرنسا إلاّ أنّها لم تتحول إلى دولة بيروقراطية، أو على الأقل لم تستخدم موظفين إداريين يتقاضون مرتبات شهرية، ولم تستخدم جنوداً يتقاضون أجوراً أيضاً، بل كان الفارس المأجور يمنح أجراً عرف باسم Fief de Soudée[1].

النشاط الاقتصادي:

* الزراعة:

تأسست المملكة الصليبية في أقدم منطقة في العالم المعمور، وقد عرف أهلها الزراعة والاستقرار منذ فترة طويلة قبل الألف الثاني قبل ميلاد المسيح ﷺ، ووجدت في هذه المنطقة نباتات جديدة، وتقنيات زراعية جديدة، أدت إلى تقدمها[2].

اهتم الصليبيّون بالزراعة لتوفير احتياجاتهم من الغذاء والمؤن والأعلاف، وقد سبق أنْ عرفنا أنَّ الأراضي والقرى والمزارع التي تحيط بالمدن المحتلة ظلَّت في أيدي أصحابها العرب[3]، يزرعونها بحسب عاداتهم وخبراتهم، ثم يقتسمون المحاصيل الزراعية مع القوات الصليبية المحتلة، في الأراضي ذات السيادة المشتركة، أو يدفعون الضريبة الزراعية في الأراضي ذات السيادة الصليبية.

كان لكل قرية صليبية رئيس، أو رئيسان، أو أكثر من رئيس بحسب عدد العائلات الكبيرة فيها، يعيَّنون من قبل السيد الإقطاعي، فإنْ كان للقرية رئيس واحد فعادة ما يكون رئيس أكبر عشيرة فيها[4] ويكون ممثلاً للحكومة، وتقع على عاتقة مهام جسام، منها:

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 170، وانظر: Grousset; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, V. II; p. 132، وانظر: Thompson; Econnomic and Social History of Middle Ages, V. II, p.315.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 422.

(3) انظر: Grousset; op: cit, V. I; p. 181.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 438.

* هو القائد المسؤول عن كل ما يحدث في القرية أمام السلطات الصليبية الحاكمة.
* حفظ الأمن والاستقرار فيها.
* تحصيل الضرائب الزراعية المفروضة على الفلاحين، وتدفع عيناً من نوع محصول الموسم الزراعي، وترسل هذه الضرائب إلى مقر السيد الإقطاعي الصليبي.
* يشارك في سن القوانين والتشريعات الخاصة بالقرية، ومن أهمها نقل الملكية من شخص إلى آخر من أهالي القرية.

فرض عليه أنْ يقر خضوعه للسيد الإقطاعي الصليبي، وأنْ يقدم له ـ هو وحاشيته ـ الطعام في حالة زيارتهم القرية.

وكان رئيس القرية يعتبر من صغار الأفصال الإقطاعيين، أو كان بمثابة فصل يمثل سلطة الحكومة في تحصيل الضرائب الزراعية المفروضة على الفلاحين[1].

والسنة الزراعية في المناطق الصليبية في فلسطين تبدأ قبل فصل سقوط المطر، وكانت المحاصيل الشتوية هي المحاصيل الرئيسة، وعادة كانت تحرث الأرض كلها، وتقسم الأرض الصالحة للزراعة ثلاثة أقسام:

* القسم الأول منها لزراعة المحاصيل الشتوية، فيزرع جزء منها بالقمح والشعير، وجزء يزرع بالبقول كالبسلة والعدس وغيرهما.
* والقسم الثاني للمحاصيل الصيفية، وهي محاصيل ليست لها أهمية اقتصادية، وإنَّما كانت تزرع لصيانة التربة والاهتمام بها، وتنظفها من الحشائش البرية الضارة، وكان السمسم أهم تلك المحاصيل، ويزرع معها البسلة الصغيرة والدُّخن، والذرة.
* والقسم الثالث «أرض الراحة» ويترك محروثاً بلا زرع إلى أنْ يزرع بالمحاصيل الشتوية في العام التالي[2].

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 438.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع نفسه ص 443 ـ 444.

ونظراً لوفرة الأراضي الزراعيـة كان من الممكن زراعة مساحات واسعة بأقل جهد، وترك أجزاء محروثة بدون زراعة لتزداد إنتاجية الأرض.

وبالرغم من وفرة الأراضي الصالحة للزراعة فلـم يكـن الإنتـاج وفـيراً فقـد كانت تواجهه مشكلات جمّة أهمها مشكلتان:

الأولى: قلة الأيدي العاملة؛ فلم تكن الكثافة السكانية كبـيرة، وكـان أكثـر المنـاطق الزراعية تجمعات صغيرة: كفور، ونجوع... وليست قرى كبيرة.

والأخرى: أنواع البذور المستعملة؛ فلم تكن الأرض تعطى أكثر من خمسة أو سبعة أمثال مقدارها من القمح، وعشرة أو ثلاثة عشر أمثالها من الشعير[1].

وإلى جانب زراعة الحبوب والبقول كانت أشجار الفاكهة تغطى أكثر منـاطق الجبال في لبنان، وقد أكثر الرحالة من وصف المدن الساحلية وما حولها من بـساتين وحدائق، ولو رجعنا إلى مـا كتبـه الـشريف الإدريـسي في كتابـه لتأكـدت لنـا هـذه الحقيقة، فيقول عن مدن سواحل لبنان: عسقلان، وأرسوف، ويافا:

«بها شجر الزيتون، والكروم كثيرة جداً»[2].

وكانت مدينة طـرابلس مـن أنـزه مـدن الـساحل، وفيهـا كثـير مـن أشـجار الفاكهة، والموز، والنارنج، والليمون، والتمـور، وقـصب الـسكر...»[3] كـما كـان في داخل سور أنطاكية بساتين، وجنات البقول[4]، ويصدق هذا الوصف على أكثر المدن الساحلية.

*** الصناعة:**

قامت في فلسطـين صناعات كثـيرة، واشـتهرت منهـا صـناعات ذات عائـد اقتصادي كبير، فمن ذلك:

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 445.

(2) انظر: الإدريسي: المصدر السابق جـ 1/ ص 364.

(3) انظر: ناصر خسرو: المصدر السابق ص 47.

(4) انظر: الإدريسي: المصدر السابق جـ 2/ ص 645.

يقول الإدريسي عن صور: «يعمل بها جيد الزجاج والفخار وقد يعمل بها من الثياب البيض المحمولة إلى كل الآفاق كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ثمين القيمة، وقليلاً ما يصنع مثله في سائر البلاد»[1].

وأصبح للزجاج الصوري، والصبغ الأرجواني الذي اشتهرت به مدينة صور قيمة تجارية كبيرة وتحمل صناعاتها إلى كل بلاد المعمورة[2].

وكانت صناعة «السكر» من عصير قصب السكر «من أثمن المواد، وضرورية لصحة الإنسان، ويصدِّر التجار هذه المادة من صور إلى أقصى بلدان العالم»[3]، كما ارتقت صناعة الحلي، والنسيج، ومن الطبيعي أنْ تقوم صناعات كثيرة على المنتجات الزراعية، فمن السكر تصنع أنواع الحلوى والمشروبات ومن الشعير تصنع «الجعة» ومن الكروم تصنع «الخمور»...، وقد بقيت أكثر الصناعات من اختصاص العرب واليهود من بين الشعوب المقيمة في فلسطين، في أيام الحروب الصليبية[4].

ومن الصناعات التي احتكرها اليهود في كل من اللاذقية وطرابلس والخليل والقدس صناعة الأصباغ، وصناعة الدباغة، وتحضير الفراء[5].

وكان التعدين، واستخراج الحديد من الصناعات الرائجة في الشام، فقد كان الحديد والفواكه والأخشاب من بين أهم الصادرات الشامية إلى مصر[6].

وكانت طرابلس مشهورة بصناعة المنسوجات المطرزة، ففي القرن 7هـ/ 13م كان بها أكثر من أربعة آلاف نسّاج ينسجون الحرير، ووبر الجمال[7].

---

(1) انظر: الإدريسي: المصدر نفسه جـ 1/ ص 365.
(2) انظر: فيليب حتّي: تاريخ لبنان ص 386.
(3) انظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 406.
(4) انظر: زكي النقاش: المرجع السابق ص 179.
(5) انظر: زكي النقاش: المرجع نفسه ص 183.
(6) انظر: رحلة ابن بطوطة ص 30.
(7) انظر: Rey; op. cit, p.215.

* **التجارة:**

حرص الصليبيون على تنشيط حركة التجارة في جميع إماراتهم، وتشجيع رحلة الحج إلى مدينة القدس، وتوفير جميع وسائل الحماية والراحة للقوافل التجارية، وللمسافرين من الحجاج المسلمين والمسيحيين على السواء، وبخاصة تلك القوافل التجارية الإسلامية التي تتجه إلى الأسواق الصليبية، وذلك حتى يحصلوا على الأرباح الضخمة من الرسوم المفروضة على المرور، لذلك أعد الصليبيون حاميات عسكرية مسلحة ترافق هذه القوافل، وتمنع ابتزاز التجار، وتحمي أموالهم[1].

وأصبح البحر الأبيض المتوسط طريقاً رئيساً للتجارة المنتعشة، ويرى بعض المؤرخين أنَّ السعي إلى فرض الرقابة على المناطق التي تضطلع بدور مهم فيه السبب الذي حمل ملوك أوربا الغربية إلى المشاركة في الحملات الصليبية، والانضواء تحت لوائها وهو ما يؤكد الدافع الاقتصادي لإشعال نار تلك الحرب[2].

وكان للتجارة والتاجر مكانة عظيمة في المجتمع، وكثير من التجار كان يحظى بمكانة مرموقة، وكلمة مسموعة لدى الحكام، فيفتكُّون الأسرى بمالهم، ويسعون في إصلاح الناس.

حكى ابن جبير أنَّ رجلين من مياسير التجار في دمشق «أحدهما يعرف بنصر بن قوَّام، والثاني بأبي الدر ياقوت ـ مولى العطافي ـ وتجارتها كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصَّبهما الله لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما، وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها، لما قد اشتهر من أمانتهما، وثقتهما، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل»[3].

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 36.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 176.

(3) انظر: رحلة ابن جبير ص 214 ـ 215.

ونهضت التجارة خلال الحروب الصليبية نهضة لم تكن تحلم بها من قبل، ووطئت أقدام التجار الغربيين قارة آسيا لأول مرة، وقد قنعوا في البدْء باحتلال مراكز لهم في المدن الساحلية، على شريط ضيِّق من البلاد ولكن هذا الشريط كان يجمع كل المزايا الممكنة، وإليه تجلب البضائع من كل شرق آسيا ووسطها، ولم يعد هناك بلد يخلو من تاجر غربى، يعمل تحت رعاية أمراء من أصل شرقي، ويتعامل مع سكان تختلف لغتهم، وطبائعهم، وعاداتهم كل الاختلاف عما يراه في وطنه[1].

وإذا كان التاجر الغربي في ظل الاحتلال الصليبي يشعر بالأمان، فقد «أصبح بحق في وطنه، في كنف حكومة من أمراء من جنسيات غربية، وسط سكان يسودهم العنصر اللاتيني»[2] فإنَّ الصليبيين لم يستطيعوا السيطرة على المراكز الاقتصادية الرئيسة في المنطقة العربية، فلم تصل مناطق نفوذهم إلى أبعد من المنخفض العميق الذي يفصل المناطق الساحلية عن المدن العربية الداخلية الكبرى، مثل دمشق، وحلب، وبغداد، ولم يتمكنوا من احتلال القاهرة والإسكندرية، وإنَّما بسطوا سيادتهم على ثلاثة من أهم المراكز التجارية في المنطقة، وهي: طرابلس، وأنطاكية، وصور، وظلت هذه المراكز تتمتع بنشاط اقتصادي جيد[3].

الفنادق والأسواق:

الفنادق والأسواق من المؤسسات التجارية الهامة، فما تعريفهما؟

الفندق: عبارة عن مركز تجاري، في كل مدينة صليبية، يلبي احتياجات السكان المحليين الحياتية، ويكون على هيئة ميدان غير منتظم الشكل، تحيط به المباني ذات الممرات الضيقة بين المنازل المكونة من عدة طوابق، يستخدم الطابق السفلي كحانوت مزود بمصطبة، تعرض فوقها البضائع والسلع، وتستخدم الطوابق العليا

---

(1) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1/ ص 175.

(2) انظر: هايد: المرجع السابق جـ 1/ ص 175.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 467.

لسكنى التجار، أو كمخازن ومستودعات للبضائع، وكانت منطقة الفنادق عبارة عن رحبة واسعة Plathea أو شارع Ruga.

السوق: بالرغم من اختلاف الأسماء، في اللغات العالمية المختلفة، فإنَّ كلمة السوق تعني «رابطة ومكاناً لتجمع التجار، وملتقى لهم لكي يمارسوا فيه أعمال البيع والشراء»[1].

ويمكن أنْ تشير الباحثة هنا إلى أهم مميزات تلك الأسواق:

* هي أسواق نوعية تتخصص في البيع والشراء في أنواع معيّنة من البضائع والمنتجات، فسوق للحرير، وآخر للخزف، وثالث للبهارات والفاكهة، ورابع للأعشاب الطبية...

وفي سوق الدجاج تعرض كل أنواع الطيور، والبيض، والجبن..

وهناك سوق للماشية، وشارع للمطاعم والمأكولات...

* كانت بعض شوارع الأسواق مسقوفة لحماية روادها من الحر أو المطر وهذه السقف تصنع من أقمشة متينة، يمكن فكها، وتركيبها بحسب الحاجة.

* هي في مجملها أسواق دائمة، لا موسمية.

* أقيمت وفق الأصل العرقي أو الديني للتجار، وإنْ كانت كلها خاضعة للسلطة السياسية في المدينة[2].

وكانت التجارة المحلية تسوِّق الآتي:

* المأكولات والأطعمة، كالحبوب، والزيوت، والنبيذ، وعسل النحل والخضراوات..

* منتجات أرباب الحرف المحليين، كالنحاسين، والحدادين، والنجارين..»[3].

النقود: كانت العملة البيزنطية الذهبية المعروفة باسم «نوميسما، أو هيبربيرون» ـ وهذا الأخير كان يعرف باسم الميخائيلية «Michelois» وهي التي ضربت في عهد

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 486.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع نفسه ص 487 ـ 488.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 489.

الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع «Michel VII» هي عملة التداول الوحيدة في التجارة العالمية في العصور الوسطى، وهي قطعة ذهبية تتميز بثبات قيمتها، وجودة نوعيتها، وبعد ظهور الدينار الذهبي الإسلامي تم تداول هاتين العملتين في تجارة عالم البحر المتوسط، ثم ظهرت العملة الثالثة وهي العملة التي ضربها الصليبيون تقليداً للعملات الإسلامية، وعرفت باسم «البيزنت»، وأمَّا العملات المحلية فكانت تضم نقوداً ذهبية، وفضية، ونحاسية[1].

ومن المعروف أنَّ دراسة السَّكَّة المحلِّيَّة[2] لها أهميَّة كبيرة في الدراسات التاريخية، وذلك للأسباب الآتية:

* تعدّ السكة من الوثائق الهامة في تحقيق الأحداث السياسية، وبخاصة ما يتعلّق منها بإخضاع المدن؛ فقد جرت العادة أنْ يقوم الحاكم بسك العملة التي تحمل اسمه، واسم المدينة التي سُكَّت فيها وبعضها يحمل تاريخ السنة التي ضربت فيها، ومن المؤسف أنَّ العملات الصليبية لم يسجل عليها تاريخ إصدارها، مما سبب بعض

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 455، وانظر: الكرملي، الأب أنستاس مارى النقود العربية وعلم النميات، نشر محمد أمين دمج، مكتبة لويس سركيس، القاهرة، 1939م، ص96 ـ 98.

(2) لكلمة «السكة» معان متعددة، فقد يقصد بها:

أ ـ النقود المعدنية بكل أنواعها، سواء أكانت مصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس، أو غيرها، وهو المعنى الشائع الذي يقصد عند إطلاق هذا اللفظ.

ب ـ النقوش التي تزيَّن بها تلك النقود.

جـ ـ القوالب التي تصب فيها،و تختم بها العملة المتداولة.

د ـ وظيفة صناعة العملة تحت إشراف الدولة.

انظر: الماوردي: المصدر السابق ص 132، وانظر: ابن خلدون: المقدمة ص 176، وانظر: المقريزي: «شذور العقود» ضمن كتاب «النقود العربية وعلم النميات» للكرملي ص 103، وانظر: النبراوى، رأفت محمد: النقود الصليبية في الشام ومصر، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص 7 الحاشية رقم 3.

المشاكل الخاصة في تمييز النقود التي تحمل أسماء الملوك والأمـراء الـذين يحملـون اسماً واحداً مثل بوهيموند وريموند..»[1].

* تعتبر السكة سجلاً لأشكال بعض المباني المعمارية القائمة في فترة تداولها.

* تعتبر السكة سجلاً لأنواع الثياب والتيجان التي يرتديها الملـوك والأمـراء وفيهـا تصوير لأشكال الخوذات، والدروع وغيرهما من أنواع الـسلاح الـذي اسـتعمله الصليبيون في حروبهم ضد المسلمين، وقـد ظهـرت هـذه النقـوش عـلى النقـود المضروبة في إمارة أنطاكية بوجه خاص.

* تعتبر السكة دليلاً على الدين المسيحي الذي يعتنقه الصليبيون بما عليها من صور السيد المسيح عليه السلام، والسيدة العذراء، والقديسين، والصلبان وعبارات التثليث...

* تعدّ السكة التي ضربها الصليبيّون تقليداً للسكة الفاطميـة والأيوبيـة أثـراً ماديـاً أكيداً على أمور هامة:

الأمر الأول: كشف النوايا الحقيقية للصليبيين، والهدف من غزوتهم والتي ترجع كلها إلى أمور استيطانية استعمارية لا علاقة لها بالدين.

الأمر الثاني: بيَّنَتْ ما كان يعانيـه الاقتصاد الصليبي من تدهور وانهيار؛ والـدليل على ذلك انخفاض نسبة المعادن الثمينـة فيهـا مـن ذهـب أو فـضة بالمقارنة بالنقود الإسلامية الأصيلة المعاصرة لها.

الأمر الثالث: تدل على عظمة الفنَّان العربي، وبراعته في فنه، وتقدمه في صناعته، وقد ظهر عمـل الـصانع الـصليبي إلى جانـب عملـه عمـلاً بـدائياً ساذجاً، كثير الأخطاء، مجرداً من الذوق.

الأمر الرابع: تدل على ما طبع عليه الصليبيون من الغش والخداع والاعتداء على حقوق الغير؛ وذلك بانتهاكهم امتيازات السك التي كانت من حق الفاطميين والأيوبيين»[2].

---

(1) انظر: رأفت النبراوي: المرجع السابق ص 8.

(2) انظر: رأفت النبراوي: المرجع السابق ص 8 ـ 9.

وهنا يبرز السؤال: ما الأسباب التي جعلت الصليبيين يلجؤون إلى تقليد العملات الإسلامية؟

وللإجابة عن هذا السؤال ترى الباحثة أنَّ هناك أسباباً كثيرة فرضت على الصليبيين تقليد العملات الإسلامية، منها:

* لم تكن النقود الذهبية معروفة في أوربا، في ذلك الوقت؛ فقد توقَّف ضربها هناك منذ القرن التاسع الميلادي / 3 هـ، حتى القرن الثالث عشر/ 7 هـ حيث أعيد ضربها، ولم يعرف الصليبيون النقود الذهبية إلا في الشرق العربي، فعرفوا البيزنتيات البيزنطية والدينار الإسلامي وعلى هذا فلم يكن لهم معرفة سابقة بهذه الصناعة المتقدمة، ولم يكن أمامهم إلاَّ أنْ يجعلوا من النقود الإسلامية النموذج الذي يحتذى، وبخاصة الدينار الفاطمي الذي كان يمتاز بارتفاع وزنه، ونقاء عياره.
* كان تقليدهم النقود الفاطمية لتسهيل معاملاتهم التجارية بينهم وبين العرب، كما كان التعامل بها يتم في عقود بيع الأراضي وشرائها.
* كانت وسيلة لتثبيت أقدامهم في الأرض المقدسة.
* كانوا يدفعون بها الفدية لتحرير الأسرى.
* كثر استعمالها في الزيجات الملكية الكبرى[1].

النظام النقدي الصليبي:

كان النظام النقدي الصليبي في الشام قسمين أساسيين:

<u>القسم الأول</u>: النقود البرنزية والنحاسية ذات الكتابات اليونانية، أو اللاتينية، أو الفرنسية، وهي النقود التي ضربت للتعامل بها بين الصليبيين داخل إماراتهم[2].

---

(1) انظر: رأفت النبراوي: المرجع السابق ص 25، وانظر: Lavoix H.; Monnaies a Legendes Arabes Frappées en Syrie par Les Croisés, Paris 1877, p 46.

(2) انظر حديثاً مفصلاً عن هذه النقود في الفصل الثالث من الباب الأول من كتاب الدكتور رأفت النبراوي السابق ص 106 ـ 165.

القسم الثاني: النقود الرسمية المضروبة من الذهب أو الفضة تقليداً للنقود الإسلامية في مصر والشام، وكانت تستخدم في التداول مع الخارج في منطقة الشرق الأوسط كلها.

والملاحظ أنَّ هذه النقود الرسمية مرَّت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: السكة الصليبية ذات الكتابة العربية الإسلامية، وهي النقود التي قلّد فيها الصليبيون الدينار الفاطمي والأيوبي، وتطلق عليها المصادر الغربية «Besant Sarracenat»، وعرفت في المصادر العربية بأسماء متعددة منها: الدينار الصوري، أو وزن عكا، أو وزن صور، أو وزن طرابلس حيث كانت تضرب في هذه المدن المذكورة، وكان يبلغ وزنه حوالي ثلثي الدينار الفاطمي الأصلي، وكانت هذه الدينارات المقلدة هي والدينار الفاطمي تمثل النقود المتداولة في الشرق الأوسط، ومعترف بها في جميع الإمارات الصليبية في الشام[1].

المرحلة الثانية: السكة الصليبية ذات العبارات المسيحية المكتوبة باللغة العربية، فعندما وصل المندوب البابوي أود الشاتورويّ «Odon de Chateauroux» إلى بلاد الشام في سنة 647هـ/ 1250م الذي رافق لويس التاسع «Louis IX» ملك فرنسا في حملته ورأى الصليبيين يتعاملون بنقود عليها أسماء الحكام المسلمين وشهادة التوحيد الإسلامية والرسالة المحمدية كتب إلى البابا أنوسنت الرابع «Innocent IV» رسالة يلتمس فيها الموافقة على وقف ضرب هذه النقود، واستبدالها بنقود تحمل الكتابات المسيحية، وأصدر البابا مرسوماً دينياً في 12 من فبراير سنة 1253م نَصَّ على عقوبة الحرمان من الدين المسيحي على جميع التجار الذين يقومون بتقليد النقود الإسلامية بما عليها من عبارات إسلامية، وبناء على أمر البابا بدأ ضرب النقود وقد كتبت عليها عبارات التثليث المسيحية، ورسم الصليب، وظلت تكتب باللغة العربية، على قطع من حجم القطع الإسلامية نفسه، حتى لا يشعر التجار المسلمون بتغيير مفاجئ في أنواع العملة، فهي إذن حركة ذات هدف اقتصادي، لا ديني ولم تضرب إلاَّ في عكا،

(1) انظر: رأفت النبراوي: المرجع السابق ص 25 ـ 26.

ولمدة قصيرة، لا تتجاوز أربع سنوات 649 ـ 652 هـ/ 1251 ـ 1254م، وهي المدّة التي قضاها لويس التاسع في الشام[1].

المرحلة الثالثة: السكة الصليبية ذات الكتابات اليونانية واللاتينية والفرنسية، وأكثرها ضرب في إمارة أنطاكيـة على الطراز البيزنطي وقد ضربت نقود هذا القسم أولاً بصورة نصفية ذات رأس عـار، ثـم بعـد ذلـك بـصورة نـصفية تعلـو رأسـها خوذة[2].

لم تستطع الإمارات الصليبية في الـشام تحقيـق الاكتفـاء الـذاتي في مواردهـا، وظلت معتمدة على المساعدات التي تقدمها لها أوربا بالرغم مـن النهـضة الزراعيـة والصناعية والتجارية ذات الأثر الكبير في الحياة الإنسانية، وهذا الأثر هو موضـوع الفصل التالي بعنوان (أثر الاستيطان الصليبي في البنية الاجتماعية).

---

(1) انظر: النبراوي، رأفت: المرجع السابق ص 79 ـ 80.

(2) انظر: النبراوي، رأفت: المرجع السابق ص 105 ـ 106.

الفصل الثامن
تأثير الاستيطان في البنية الاجتماعية للدويلات الصليبية

تأثير الاستيطان في البنية الاجتماعية للدويلات الصليبية

يتناول هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول : طبقات المجتمع في الإمارة الصليبية.

المبحث الثاني : أخلاق الفرنجة وعاداتهم:

* كيفية البدء في الاستيطان.
* الإجرام المقدس طاعة لله وتقرُّباً لملكوت الرب.
* أخلاق الصليبيين من وجهة نظر المسيحيين.
* أخلاق الصليبيين من وجهة نظر المسلمين.

المبحث الثالث : دور الجماعات الشعبية في مقاومة الغزاة:

* الأعيان والشرفاء.
* منظمة الفتوة.
* اللصوص وقطاع الطرق.

المبحث الرابع : التأثير المتبادل بين الصليبيين والمسلمين:

* تأثير الفرنجة في العرب.
* تأثير العرب في الفرنجة.

المبحث الخامس: الآثار المختلفة للحروب الصليبية:

* الأثر الثقافي.
* الأثر الاجتماعي.
* الأثر الفني.
* الأثر الديني.

طبقات المجتمع في الإمارة الصليبية:

كان المجتمع في الإمارة الصليبية يتركب من طوائف متعددة تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً اجتماعياً، واقتصادياً، وثقافياً؛ وهو مجتمع عنصري ينِّزل الناس منازلهم بحسب عقيدتهم الدينية، وبحسب مذهبهم في تلك العقيدة، وبحسب أعراقهم؛ ففي قمة المجتمع يتربّع عليها المسيحيّون الكاثوليك وحدهم، وهم حَمَلَة الصليب القادمون من أوربا فرساناً، ورهباناً، وحُجَّاجاً، ويقاربهم في هذه المنْزلة التجار الأوربيون الذين حملتهم سفنهم من الشواطئ الشمالية للبحر الأبيض المتوسط إلى الشام، بينما تأتي في قاع المجتمع جميع الطوائف الأخرى من مسيحيين محليين، ومسلمين، ويهود، وعبيد.

وهذا عرض موجز لطبقات المجتمع في الإمارات الصليبية:

أولاً: الصليبيون:

لم يكن كل حملة الصليب من الفرسان الأوربيين الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء، أو الأشراف، بل كان أكثرهم من متسكعي الشواطئ واللصوص، وقطاع الطرق، والشحَّاذين، والمغامرين، والمجرمين أرباب السوابق، وأراذل الناس[1]، ويمكن أنَّ نصنِّف الصليبيين في الطبقات الآتية:

أولاً: طبقة النبلاء والفرسان:

ويمثِّلون الصفوة، أو الطبقة الأرستقراطية في المجتمع، وفي يدهم مقاليد الحكم، وهم ملاك الأرض والثروة وأصحاب الإقطاعات، وكان عددهم قليلاً؛ فلم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف رجل وألف من النساء والأطفال، ومثل هذا العدد أيضاً في الإمارات الصليبية الأخرى «أنطاكية، والرُّهَا وطرابلس»[2].

---

(1) انظر: Thompson; Econnomic and Social History of Middle Ages, V.I, p 379.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 468، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص478.

وبالرغم من أنَّ أكثر المؤرخين العرب يقدِّرون عدد الصليبيين القادمين من أوربا في الحملة الأولى بنحو مليون فرد[1] إلاَّ أنهم تعرَّضوا إلى مخاطر كثيرة أهلكت جموعهم، أهمها:

* هلك منهم الكثير في الطريق، أو في حصار المدن؛ بسبب الضعف، وقلة الأقوات، وسوء الأحوال الجوية[2].
* هلك منهم الكثير في ساحات القتال مع المسلمين[3].
* رجعت أعداد كبيرة منهم إلى أوربا بعد فتح القدس؛ فقد عاد إلى بلادهم بعض الأمراء أمثال روبرت النورماندي (Robert De Normandie) وروبرت الفلاندري (Robert De Flandre) وهيجو الفرماندوي (Hugo de Vermandoi) وستيفن البلوي (Stefan de Blois) وكان مع هؤلاء الأمراء نحو عشرين ألفاً من الأتباع[4].

لذلك عاش الصليبيون في الإمارات والمدن التي أسسوها منعزلين، وكانوا قلة وسط أكثرية مسلمة أو مسيحية محلية[5].

ثانياً: طبقة الجنود والفِرَاخ[6]:

ويمثل أفراد هذه الطبقة أغلب الصليبيين من المشاة، في كامل عدتهم الحربية، ومنهم رماة السهام والأقواس، وحَمَلَة الفؤوس، ويمشى بعضهم أمام الخيَّالة، ويسير

---

(1) انظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 5/ ص 148.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 186، وانظر: مجهول: المصدر السابق ص123، وانظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق «ت قاسم» ص 146، 176.
وانظر: Cam. Med. Hist., V.5, p 298.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 195.

(4) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق «ت قاسم» ص 143، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص482.

(5) انظر: Setton; op. cit. p. 369.

(6) جرت عادة المؤرخين العرب على أنْ يجمعوا جندي على «أجناد»، ويجمعون فرخ على «أفراخ»، ومعروف أنَّ وزن «أفعال» لا يكون إلاَّ لجموع القلَّة التي لا يزيد أفردها عن عشرة، والصواب استخدام وزن من أوزان جموع الكثرة.
انظر: الشيخ الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف، ص 99 ـ 108.

بعضهم بدون أعباء أو أثقال، فإذا تعب حلَّ محله غيره، ويطلقون عليهم اسم السرجندارية «Les Sergents»، وينتمون في أصولهم إلى الفرنج ويَنْزِلون بإقطاعات سادتهم؛ ولأنهم ليسوا من النبلاء، وليس لديهم من شرف الأصل وعريق النسب ما يحافظون عليه فقد تزوجوا من المسيحيَّات الوطنيَّات، وبخاصة الأرمنيات[1]، وتألَّفت منهم، ومن أبنائهم فئتان:

فئة الفِرَاخ: منذ سنة 545 هـ/ 1150م أخذ الجنود الصليبيون القادمون من أوربا يختلطون بالمسيحيين المحليين، ويُصْهِرُون إليهم وينجبون من زوجاتهم، وتكونت منهم، ومن أبنائهم فئة البولانية (Les Poulains) والراجح أنَّ الجند المرتزقة «Soudoyers» كانوا يدَّعون أيضاً أنَّهم ينحدرون من أصل الفرنج، وفي كل الأحوال فالبولان مسيحيون آباؤهم من الغرب، وأمهاتهم من الشرق، ويتحدّثون لغة آبائهم.

فئة التركبولية: وهم الجنود المحليون، آباؤهم من الأتراك، أو من العرب الذين غيَّروا دينهم، وأمهاتهم من اليونانيات، ويتحدَّثون لغة أمهاتهم، ويتسلحون بالأسلحة الخفيفة[2].

ثالثاً: طبقة البورجوازيين:

هم الأحرار الأوربيون من عامة الناس؛ فلم يكونوا من النبلاء، ولا من الفرسان، ولا من العبيد، بل هم من المزارعين في ألمانيا، وإيطاليا، وشمالي فرنسا[3]، جاؤوا إلى الشرق صحبة الفرسان من أجل الثراء، واقتصر نشاطهم في المدن على إقامة الحوانيت التجارية، وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلي وامتلك بعضهم الأراضي في الريف مثل الحدائق، والكروم والبساتين[4]،

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 469.

(2) انظر: حبشي، حسن: نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م، ص 154، وانظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 478، وانظر: La Monte; op. Cit. P 160 – 162.

(3) انظر: Longnon J.; Les Français d'Outremer au Moyen Âge, Paris, 1929, p.134.

(4) انظر: Thompson: Econnomic and Social History of Middle Ages, P. 382.

وعملوا كوسطاء بين المسلمين والتجار الإيطاليين المحتكرين للتجارة العالمية، ومعاونة التجار المسلمين في توفير بعض احتياجات الصليبيين من السلع والبضائع، كما كان لهم نشاط ملحوظ في أعمال الصِّرَافَة[1]، وكان لهم بعض السلطان السياسي الذي قرَّبهم من طبقة النبلاء[2]، وكان القادر منهم على حمل السلاح يمنح رتبة فارس[3].

رابعاً: طبقة الفلاحين والرقيق:

هم العاملون بأيديهم في الأعمال الشاقة؛ كشق القنوات، وتعبيد الطرق، والزراعة، وبناء الحصون، وخدمة النبلاء... وتضم هذه الطبقة عدة فئات، منها:

* فقراء الفرنج الذين لا يحملون السلاح، ولم يُكَلَّفوا بالخدمة العسكرية وأكثرهم من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين تظاهروا بالتوبة، وقَدِمُوا إلى الأراضي المقدسة تكفيراً عن ذنوبهم، ولكنهم لم ينسوا طباعهم؛ فعاثوا في الأرض فساداً، وسلبوا، ونهبوا، ونشروا الفساد والدعارة حيث حلّوا[4]، ويقوم الخدم منهم بخدمة السيد؛ فيمشطون له شعره، ويعدُّون له الحمام، ويطهون الطعام، ويشترون حاجات البيت، وكان النبلاء والفرسان يعاملونهم معاملة غير كريمة، وينظرون إليهم باحتقار وازدراء[5].
* والعبيد الأقنان القادمون من أوربا رغبة في الخلاص من الرق، وكانوا يعملون في الزراعة، وبناء الحصون[6].

---

(1) انظر:
Setton; A History of The Crusades, V. I, p. 376 & Grousset; L'Empire du Levant, p. 181.

(2) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 3/ ص 616.

(3) انظر: Grousset; L'Empire du Levant, p. 314.

(4) انظر: رحلة ابن جبير ص 273، وانظر: Cam. Med. Hist., V.5, p. 312.

(5) انظر: Joinville, Jean de; Histoire de Saint Louis, traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly, Paris, 1874, p. 243.

(6) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1/ ص 481، وانظر: Michaud; op, cit, V. II, p.189.

* والأسرى المسلمون من الرجال والنساء والأطفال من مختلف الأعمار وكانوا يعاملون معاملة غير إنسانية؛ فيرسفون في القيود ويُكَلَّفون بالأعمال الشَّاقة[1]، وكان منهم «الخصيان» الذين استعملهم الصليبيون في خدمة نساء السيد وبناته؛ فقد مُنِعَ الخدم الأوربيون من هذا العمل[2]، ويبدو أنَّ أعداد هؤلاء الأسرى كانت أعداداً كبيرةً؛ فقد فك صلاح الدين الأيوبي، في بعض غزواته أسر ما يزيد على عشرين ألفاً منهم[3].

خامساً: طبقة الإيطاليين:

كان للإيطاليين دور بارز في الحروب الصليبية؛ فقد حملوهم في سفنهم، وزوّدوهم بالجنود، وبالسلاح، وبالمؤن، وبآلات الحصار، وساعدوهم في حصار المدن الساحلية، وقاتلوا معهم دفاعاً عن الممالك الصليبية، وظل الصليبيون يعتمدون عليهم في الاتصال بأوطانهم في أوربا، ونقل الحجاج، والتصدِّي للأسطول المصري[4].

عاش الإيطاليون في جاليات مستقلّة، في المدن الساحلية، لهم أحياؤهم الخاصة، وكنائسهم، ومحاكمهم، وأعطيت لهم الامتيازات الكثيرة كالإعفاء من الضرائب، وامتلاك الإقطاعات وإدارة الفنادق والأسواق... مما وفّر لهم ثروات ضخمة[5].

سادساً: طبقة الرهبان ورجال الدين:

كان الرهبان ورجال الدين في الشام جماعات كثيرة، وتحمل أسماء متعددة منها:

---

(1) انظر: رحلة ابن جبير ص 280، وانظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ2/ ص 87.

(2) انظر: حسن حبشي: نور الدين والصليبيون ص 1482.

(3) انظر: المقريزي: السلوك ق 1/ جـ1/ ص 94.

(4) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 504، وجـ3/ ص 621.
وانظر: Setton; A History of The Crusades, V. I, p. 386.

(5) انظر: حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، ص 146، وانظر: Stevenson; 0p. cit. p. 277.

* جماعة الدومينكان (Dominicains , ou Frères Prècheurs)[1].

* وجماعة الفرانسيسكان (Franciscains)[2].

* وجماعة السيسترسيان (Cistercians)[3].

وكلها ترجع في تنظيمها الديري إلى واحد من النظامين الكبيرين: البندكتي، أو الباسيلي، وهما:

* جماعة البندكتيين (Bénédictins) التي أسسها القديس بندكت (Benoît de Nursie)، في مون كاسان (Mont - Cassin) بإيطاليا في سنة 529م، وفيه يقوم الرهبان بالعمل بالزراعة، وغيرها إلى جانب العبادة؛ بل إنَّ بندكت نفسه كان يعتبر العمل عبادة (Laborare est orare)[4].

* جماعة الباسيليين (Basilians) وهي الجماعة التي أسسها القديس باسل (Basile) في قيصرية (Césarée) بآسيا الصغرى في سنة 360م ونظامه مزيج من المثالية والواقع العملي؛ فأصبح الرهبان يعملون سوياً في الحياة العامة، كما قضى على العزلة المفروضة على الرهبان، ونبذ فكرة إقامة الديارات في المناطق النائية الخالية من السكان، وسرعان ما غدت تنظيماته دستوراً لجميع الدَّيَّارَات التي انتشرت في

---

(1) جماعة دينية أسسها القديس دومنيك (Dominique) في تولوز (Toulouse) لمقاومة الهرطقة. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1328.

(2) جماعة دينية أسسها فرانسوا دا سيز (Francois d'Assise) (1182 ـ 1226 م) وتتخذ من يوم 4 أكتوبر عيداً سنوياً لها. انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p13ç2.

(3) نسبة إلى دير سيتو (Citeaux) الذي أسسه جماعة من الرهبان البندكتيين، وكان نظامهم محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلي الذي يسير عليه الدير البندكتي والمركزيَّة المطلقة التي اتبعتها الديرية الكولونية. انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ2/ ص 38.
وانظر: Cam. Med. Hist., V.5, p. 673.

(4) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 2/ ص 34.
وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1226.

الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الدَّيَّارَات تتزعم الحيـاة الديريـة في الإمبراطورية البيزنطية، في العصور الوسطى[1].

وقد سبق الحديث عن الجماعات الدينية الحربية المعروفة باسـم: الإسـبتارية، والداوية، والتيوتون[2]، وهي الجماعـات التـي لعبـت دوراً هامـاً في مجـالَيْ الـسياسة والحرب:

ففي السياسة كثيراً ما تَدَخَّلوا لفـض الخلافـات بـين الأمـراء الـصليبيين، أو مناصرة واحد منهم في مواجهة خصومه.

وفي الحرب كانوا مـسلَّحين بكـل أنـواع الأسـلحة، ويقومـون بالـدفاع عـن الأديار، وحماية الحصون، كما شاركوا في الهجوم على المسلمين، وحصار مدنهم[3].

تمتَّع رجال الدين الصليبيون بمكانة محترمـة في الممالـك الـصليبية، وتعـددت المهام المنوطة بهم في المجالات: الدينية، والحربية، والسياسية، والدبلوماسية[4]:

* كان المجال الديني أوضـح الأعـمال التـي بـرز فيهـا نـشاطهم؛ فمـن المعـروف أنَّ الحروب الصليبية مشروع ديني، دعا إليه وتبنَّاه البابـا أوربـان الثـاني (Urbain II)، وبعـث مندوبـه أدمـار(Adémar) عـلى رأس الحملـة الأولى، ومعـه الأسـاقفة، وأوصاهم بتنظيم الجماعات الصليبية، والصلح بين المتنازعين، وإثارة حماسة الجنـد في القتال، والصلاة على الموتى، ودَفْنِهِم، وإقامة الطقـوس الدينيـة وجمـع الأمـوال للفقراء، والمشاركة في الاحتفالات الاجتماعيـة، وعقـود الـزواج... وقـد أحـاط

---

(1) انظر: سعيد عاشور: المرجع نفسه جـ2/ ص 34.

وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1216.

(2) انظر: الصفحات: 154 ـ 255 ـ 305 من هذه الدراسة.

(3) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 498، وانظر: حسن عبـد الوهـاب حسين: المرجـع الـسابق، ص159.

وانظر: Jacques de Vitry; Lettres de Jacques de Vitry, Leiden, 1960, p. 98.

(4) انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ1/ ص 34.

رجال الدين أنفسهم بالقداسة، وبحقهم في توقيع عقوبة الحرمان الكنسي، وفي فسخ عقود الزواج لمن لا يرضى رجال الدين عن سلوكه[1].

* وفي المجال الحربي لم يقتصر دورهم على رفع الروح المعنوية للجنود، وإثارة حميَّتهم بل إنَّهم حملوا السلاح وشاركوا الجنود في الدفاع، وفي الهجوم، كما شاركوا الملوك والأمراء في وضع الخطط الحربية، وإبداء المشورة[2].

* وفي المجال السياسي كانت أكبر مهامهم توقيع الصلح بين المتخاصمين ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في الخلاف بين تنكريد (Tancrède) وبودوين دو بورج (Baudouin de Bourges)، في سنة 502هـ/ 1108م بشأن الرُّها «فتوسَّط بينهم البطريرك الذي لهم، وهو عندهم كالإمام الذي للمسلمين، لا يخالف أمره، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين»[3].

* وفي المجال الدبلوماسي، قام بعضهم بدور السفير بين الممالك الصليبية في الشرق ودول الغرب، ومن أمثلة ذلك إرسالهم جماعة من القسس والرهبان إلى الأندلس، وإلى صقليّة، في سنة 565 هـ/ 119م، بعد استيلاء نور الدين على مصر؛ يستنجدون بهم ويطلبون معونتهم، ويحرِّضون الناس على الحرب، فأمدوهم بالمال والسلاح[4].

ثانياً: المسيحيون المحليون:

تمتع المسيحيون في الشام بالتسامح والحرية الدينية في ظل الحكم الإسلامي؛ فبنوا الكنائس الفاخرة، ومارسوا عبادتهم فيها في أمن وسلام ولم يشعروا بالتضييق عليهم في عقيدتهم، وإلحاق الأذى بهم إلاَّ في ظل الحكم

---

(1) انظر: Michaud; op, cit, V. II, p.230.

(2) انظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص 205، وانظر: مجهول: المصدر السابق ص 62، وانظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 422.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8/ ص 253.

(4) انظر: أبو شامة: الروضتين جـ 1/ ص 180.

الصليبي؛ فقد نظر الصليبيون إليهم نظرة ريبة واحتقار، واعتبروا أكثر طوائفهم هراطقة منشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية[1].

وفي المملكة الصليبية كان المسيحيون المحليون كثيرين، في كل المدن، كما كانوا يؤلفون غالبية السكان في القرى الواقعة في الإقليم الذي يمتدّ من بيت لحم إلى سهل جِزْرِل (زَرْعِين)[2] شمالاً، بينما هجر معظم المسلمين ديارهم بالمنطقة بعد استيلاء الصليبيين عليها، بل إنَّهم غادروا مدينتهم المحبوبة نابلس[3] التي كانوا يطلقون عليها اسم «دمشق الصغيرة»[4].

وكان المسيحيون المحليون طوائف متعددة، أهمها:

الموارنة: وهم طائفة من السريان الكاثوليك، ينتسبون إلى القديس مارون (Maron) ـ ت 433م ـ ويؤمن أفراد هذه الطائفة بالطبيعتين للمسيح عليه السلام والمشيئة الواحدة له[5].

سكنت هذه الطائفة في شمالي لبنان، وأكثر تجمعاتهم كانت في: معرة النعمان، وشيزر، وحماة، وحمص، وقِنَّسْرِين وأنطاكية... وهم أكثر الطوائف المسيحية مساعدة

---

(1) انظر: Chalandon; Histoire de La Première Croisade, p.284.

(2) جزرل «زرعين»: هو الوادي المسمَّى «يزرعيل»، ويطلق عليه الأوربيُّون الأسماء «Jezreel»، أو «Parvum Gerinum» ولم تجد الباحثة ذكراً له في المصادر الجغرافية التي بين يديها، ويبدو من خارطة فلسطين الطبيعية، وعليها أهم المواقع الفلسطينية القديمة ـ انظر الملاحق ـ أنَّ هذا الوادي يقع غربي نهر الأردن، إلى الجنوب من مرتفعات الجليل وبحيرة طبرية، وأشهر مدنه الناصرة.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 251.

(3) نابلس: مدينة مشهورة بفلسطين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 5/ ص 248.

(4) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 2/ ص 16.

(5) انظر: المسعودي: التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت، 1965م ص 153، وانظر: فيليب حتِّي: تاريخ لبنان ص 301، وانظر: الأب بطرس ضو: تاريخ الموارنة، بيروت، جـ 1 / ص 210، وانظر: لامنس: بحث تاريخي عن سيرة القديس مارون الناسك مجلة المشرق، السنة السادسة، العدد 6، سنة 1903م، ص250.

للصليبين، وأشدهم عداء للمسلمين المدافعين عن الشام[1]؛ ومن أجل ذلك حصلوا على امتيازات كثيرة فأصبح لهم حق تملك الأرض في مملكة بيت المقدس، والحصول على المنح النقدية[2].

ولم تكن العلائق الطيبة سائدة بين الموارنة والصليبيين في جميع الأوقات، بل ربَّما وقعت بينهم بعض المصادمات، وقد ثار الموارنة ضد الصليبيين، في بعض الأحيان، ولعل أبرز مواقف العداء بينهم تآمر الموارنة على بونز (Pons) صاحب طرابلس الذي قُتِل على أيدي المسلمين مما جعل ابنه ريموند الثاني (Raymond II) ينتقم منهم[3].

الأرمن[4]: هاجر الأرمن أمام غزوات السلاجقة إلى جبال طوروس، وإلى شمالي وادي الفرات، وملطية والرها وأنطاكية، وكوَّنوا إمارات في المناطق التي أقاموا فيها خاضعين لسيطرة البيزنطيين حيناً، والأتراك السلاجقة حيناً آخر[5].

اعتنق الأرمن المسيحية، وأسّسوا أول مملكة اتّخذت المسيحية ديناً رسمياً لها في القرن 3م، ويتبعون المذهب المنوفيزيتي (Monophysitisme) ـ مذهب الطبيعة الواحدة

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 141، وانظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 47، وانظر: وليم الصوري: المصدر السابق ص 312 . وانظر: حسن حبشي الحرب الصليبية الأولى ص 176، وانظر: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص 301، وانظر: سمير عبده: المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً 88.

(2) انظر: فيليب حتّي: تاريخ لبنان ص 292.

(3) انظر: ابن الفرات: المصدر السابق جـ 8/ ص 79، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص559.

(4) الأرمن (Armenians) شعب هندي أوربي، أنشأ في أرمينية القديمة مملكة عرفت باسم أوراتو (Uratu) ازدهرت فيما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، وخضع فيما بعد لحكم الميديين والفرس والرومان والعرب، ثم العثمانيين، وعددهم اليوم نحو سبعة ملايين، يعيش أكثرهم في جمهوريات روسيا، وفي تركيا ولبنان...، وانظر: مادة «أرمن» في موسوعة المورد C D.

(5) انظر: سمير عبده: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ص 58.

وانظر: Vasiliev; op. cit. V.I, P 314. وانظر: Setton; A History of The Crusades, V.I, p. 631.

الإلهية للمسيح - وبعضهم يتبع الكنيسة الكاثوليكية، وقد رحّبوا بالصليبيين عند قدومهم إلى الشام أملاً في الخلاص من سيطرة البيزنطيين والسلاجقة، حتَّى ليمكن القول: إنَّ إمارة الرها كانت إمارة فرنجية أرمنية، وكان أكثر زواج الصليبيين من الأرمنيات[1].

غدر الصليبيون بالأرمن، فعاملوهم باحتقار وازدراء، واستولوا على مزراعهم وأراضيهم، وأبعدوهم عن إدارة شؤون البلاد، مما جعل الأرمن يكرهونهم، ويتآمرون على قتلهم والخلاص منهم، ويتحالفون مع أعدائهم؛ كما حالفوا المغول ضد المسلمين، فأضمر لهم المماليك العداء، وبعد أنْ صدُّوا الخطر المغولي عاقبوا الأرمن عقاباً أليماً، وأنزلوا بهم ضربات قاصمة قللت من دورهم السياسي في المنطقة[2].

الروم الأرثوذكس[3]: هم الذين اتَّبعوا الكنيسة البيزنطية من السريان واليونان إلاَّ أنَّهم يختلفون عن الكنيسة البيزنطية في أمور، منها: اختلاف التقويم، ومنع الصور في أماكن العبادة، ومنع زواج رجال الدين... وهم أكثر الطوائف المسيحية انتشاراً في فلسطين والشام، وقد ضيَّق عليهم الصليبيُّون، وأساؤوا معاملتهم بسبب اختلاف مذهبهم عن الكاثوليكية؛ فطردوا بطاركتهم من الكنائس، وأقاموا في مكانهم بطاركة من اللاتين، وفرضوا عليهم أداء ضريبة العشر، ومنعوهم من ممارسة

---

(1) انظر: الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م، ص 214.وانظر: رنسيمان: المرجع السابق ج 1/ ص 287 298.
وانظر: Grousset; L'Empire du Levant, p.316.

(2) انظر: المقريزي: السلوك ق 2/ ج 1/ ص 618، وانظر: فؤاد الصياد: المصدر السابق ص 214، وانظر: حسن حبشي: الحملة الصليبية الأولى، ص 47 وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2/ ص 1147.

(3) انظر: برصوم، البطريرك مار إغناطيوس إفرام الأول: منارة أنطاكية السريانية دار الرُّها، حلب، 1992م، جـ 1/ ص 24، وانظر: سمير عبده: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ص 61، وانظر: الموسوعة الفلسفية العربية «مادة المسيحية» فقرة «الأرثوذكس» م/ 2، جـ 2/ 1260.

شعائرهم في الكنائس الكبرى، ولم يسمحوا بأداء شعائرهم إلاَّ لصغار رجال الدين، مع خضوعهم للكنيسة اللاتينية[1].

اليعاقبة[2]: وهم - كالنساطرة - من السريان القدماء القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام، وكانوا متمركزين بشكل رئيس في الشام، وبخاصة في طرابلس، وجبيل، وبيروت، وعكا، والرها... واشتغلوا بالتجارة في المدن الخاضعة للصليبيين، وهم أكثر الطوائف المسيحية تعلماً ولا يزالون يؤدون شعائرهم الدينية باللغة السريانية، وقد تعرّضوا لاضطهاد الصليبيين كالروم الأرثوذكس[3].

ثالثاً: المسلمون:

يمكن أنَّ نميِّز أربع صور للعلائق بين الصليبيين والمسلمين المقيمين في البلاد الخاضعة للصليبيين، أو متحالفة معهم، وهي:

الصورة الأولى: انتهج الصليبيون، في بدْء قدومهم سياسة قتل المسلمين وإبادتهم، وإخلاء البلاد من سكانها، ولم يفرِّقوا بين كبير وصغير، ولا بين ذكر وأنثى، ولا بين قادر وعاجز؛ فكانت المذابح البشعة التي جرت فيها دماء المسلمين أنهاراً وبحاراً، في كل المدن والقرى التي وقعت تحت أيديهم، إلى جانب بتر الأيدي والأرجل، والتمثيل بالجثث... واستمرَّت هذه السياسة نحواً من اثنتي عشرة سنة، تبدأ من سنة 492هـ/ 1098م إلى سنة 504 هـ/ 1110م[4].

---

(1) انظر: عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس جـ 1/ ص 243، وانظر رنسيمان: المرجع السابق جـ 1/ ص 452، وجـ 2/ ص 516.

(2) انظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p1548.

(3) انظر: فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 2/ ص 139، وانظر سمير عبده: السريانية - العربية الجذور والامتداد، دار علاء الدين، دمشق، سورية، 2000م، ص 41، وانظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ32/ ص 9920.

(4) ابن القلانسي: المصدر السابق ص 20، وص 237، وانظر: مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة ص23 ـ 70، وانظر: الرهاوي المجهول ص 29، وانظر: روايات ميخائيل السوري الكبير ص 93، وانظر: فوشيه الشارتري «ترجمة قاسم» ص 137، وانظر ابن العبري: تاريخ الزمان ص 33.

الصورة الثانية: اضطرُّوا إلى تغيير سياسة القتل هذه لأسباب اقتصاديَّة؛ وذلك لقلّة عدد الصليبيين، وحاجتهم إلى الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة والبناء، فيوافق بدوين الأول (Baudouin 1er) على خروج حاميتي صيدا وصور، من المدينتين والإبقاء على الفلاحين في أراضيهم وكان الطريق من تِبْنِين[1] إلى عكا[2] «كلُّه على ضياع متَّصلة، وعمائر منتظمة، سكَّانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه - نعوذ بالله من الفتنة - وذلك أنَّهم يؤدُّون لهم نصف الغلَّة عند أوان ضمِّها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة، يؤدونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكلُّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين»[3].

كما عاش بعض المسلمين في المدن، وهم أحرار في ممارسة الأعمال التي يحسنونها، وينتقلون من مكان إلى آخر، ولهم الحق في امتلاك الأرض والمسكن، ويقيمون في أحياء خاصة بهم، وفرضت عليهم ضريبة الرؤوس، يؤديها كل من بلغ خمسة عشر عاماً من الذكور، كما كان للتجار المسلمين «خانات» مخصصة لهم ينْزِلون فيها[4].

وطبِّق على الفلاحين المسلمين قوانين الإقطاع المعروفة؛ فهم ينتقلون مع الأرض من سلطة سيد إلى سيد آخر، ولم يكن يسمح لهم بترك الأرض إلاَّ بإذن من صاحب الإقطاع، وإذا هرب أحد الفلاحين الخاضعين إلى سلطته، أعيد له[5].

---

(1) تِبْنِين: بلدة في جبال بني عامر المطلَّة على بانياس، بين دمشق وصور.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 14.

(2) عكَّا، عكَّة: مدينة حصينة على ساحل بحر الشام، من أعمال الأردن.
انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 143.

(3) انظر: رحلة ابن جبير ص 210.

(4) انظر: Setton; A History of The Crusades, V.!, p.631.

(5) انظر: Cahen; La Syrie du Nord, p. 343.

الصورة الثالثة: وهي شبيهة بالصورة الثانية، من حيث بقاء الأرض تحت أيدي أصحابها المسلمين مع اقتسام الغلَّة بين الفلاحين والحكَّام، غير أنَّ هذه الأرض لا تخضع لسيطرة الصليبيين، وإنَّما هي مناطق منزُوعة السلاح، وغير محصنة، وتخضع لسيادة مشتركة إسلامية صليبية، بتحالف بين الطرفين، كالجولان مثلاً، وتقسَّم مواردها ثلاثة أقسام متساوية بين الحكام المسلمين في دمشق، والحكام الصليبيين في القدس، والفلاحين الذين يزرعون الأرض[1].

الصورة الرابعة: المسلمون المستضعفون، والأرقاء، والأسرى الذين كانوا يعاملون معاملة غير إنسانية؛ فكان يجبر بعضهم على العمل بالسخرة في أراضي الإقطاعيين، وجماعات الفرسان، والتجار الإيطاليين وكُلِّفوا بأشق الأعمال، بل إنَّهم تعرَّضوا للقتل بلا شفقة ولا رحمة، ففي سنة 587 هـ/ 1191م عندما قرر ريتشارد الأول قلب الأسد (Richard I^{er} Cœur de Lion) قتل الأسرى المسلمين في عكا لم يبق إلاَّ على من كان قويّاً قادراً على العمل الشاق في عمائرهم[2]، كما تعرَّض بعضهم للتعذيب، وبتر الأرجل[3]، وبلغت قسوة الصليبيين إلى الحد الذي فكَّر فيه المسلمون أنْ عزم بعضهم على أنْ يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع في عكا، ويقتلوهم بالسيف حتى لا يتحكّم فيهم النصارى، ثمَّ يخرجوا إلى عدوّهم فيقاتلوهم حتى الموت، ولكنَّ فقهاءهم منعوهم من ذلك[4].

وفي الوقت نفسه كانت النساء يعملن خدماً في المنازل، أو في إدارة الطواحين، ولذلك كان الفرسان الداوية والاسبتارية يرفضون استبدال الأسرى الإفرنج بالأسرى المسلمين[5].

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 32.

(2) انظر: ابن شدَّاد، بهاء الدين: المصدر السابق، ص، وانظر: أبو شامة: الروضتين جـ 2/ ص 189، وانظر: ابن واصل: المصدر السابق جـ 1/ ص 364.

(3) انظر: ابن طولون: القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، دمشق، سنة 1980م، ص 67.

(4) انظر: رحلة ابن جبير ص 213.

(5) انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 154.

ومما يدعو إلى الحزن والأسى أنَّ أكثر ما عاناه هؤلاء الأرقاء كان على أيدي المسلمين أنفسهم الذين كانوا يديرون أعمال الفرنج «وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أنْ يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله، فإلى الله المشتكى من هذه الحال»[1].

رابعاً: اليهود:

لم يعرف اليهود المعاملة الطيّبة، في تاريخهم كله إلاَّ في ظل الحكم الإسلامي في جميع البلاد العربية، فقد دعا الإسلام إلى ترك المحاجّة والعناد مع أهل الكتاب، فكل إنسان مسؤول عن عمله، وحسابه على الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾[2]، فليس في التاريخ الديني للإسلام ما يوجب كراهية اليهود، ونبذهم، والموقف مختلف بالنسبة للمسيحيين إذ كراهيتهم لهم جزء من العقيدة الدينية المسيحية؛ فهم الذين تآمروا مع الرومان على قتل المسيح عليه السلام، ويقال: إنَّ جودفروا البوايوني (Godfrey de Bouillon) دوق اللورين الأدنى أخذ يجهز للمضي مع الحملة الصليبية الأولى وقد نذر قبل رحيله إلى بيت المقدس أنَّه سوف ينتقم لموت المسيح بإهدار دم اليهود[3].

وزادت كراهية المسيحيين لهم بطول الوقت بسبب الربا؛ فقد دأب اليهود على إقراض المحتاجين بفائدة كبيرة ترهق الناس، وتملأ نفوسهم بشعور الكراهية نحوهم، وبخاصة بين الفلاحين وفقراء المدن الذين كثرت حاجتهم إلى المال، وزادت تلك الكراهية حدَّة في بدْء الإعداد للحملة الصليبية الأولى؛ لأنَّ أكثر الفرسان لم يتوفر لهم من الأرض والأملاك ما يرهنها لتجهيز أنفسهم للاشتراك في الحرب، ولم يكن أمامهم إلاَّ اقتراض المال من اليهود بأرباح باهظة[4].

---

(1) انظر: رحلة ابن جبير ص 211.

(2) انظر: سورة البقرة 2: 139.

(3) انظر: رنسيمان المرجع السابق جـ 1/ ص 210.

(4) انظر: رنسيمان المرجع السابق جـ 1/ ص 207.

لم يكن من المستغرب إذن أنْ يتعرَّض اليهود إلى الذبح والقتل في القدس، بعد احتلال الصليبيين له؛ بل إنَّ الصليبيين أحرقوا المعبد اليهودي على مَنْ لجأ إليه من اليهود[1].

ترك كثير من اليهود بلاد الشام خوفاً من الصليبيين، ومن بقي منهم أقام في المدن الساحلية، يعمل بالتجارة، وبالصيرفة، واشتغل أكثرهم بالصباغة، وبصناعة الزجاج والخزف حتى أصبحت هذه الصناعات من أهم صادرات يافا وصور إلى إيطاليا وجنوبي فرنسا[2].

كان اليهود يعيشون ـ كعادتهم ـ في أحياء خاصة بهم تسمَّى الجيتو (Ghetto) ومسموح لهم بأعمال التجارة والصناعة التي برعوا فيها، كما سمح لهم بأنْ يكون لهم قضاء خاص بهم، ولكن لم يسمح لهم بامتلاك الأرض، كما ألزموا بدفع ضريبة الرؤوس بواقع بيزنت[3] واحد على كل رجل يزيد عمره عن 15 سنة[4]، ولكي ندرك مدى حقارة هذا القدر من المال نقارنه بثمن الحصان الذي كان ثمنه ثلاثة بيزنتات[5].

أثر اختلاف الأجناس في الإمارات الصليبية:

يكاد يجمع المؤرخون على أنَّ أهم أسباب الفشل والضعف في المجتمع الصليبي في الشام يرجع إلى هذه الإثنينيَّة المتعددة الأعراق المختلفة الأهواء والمشارب، المتناحرة عقائدياً، وفكرياً[6].

---

(1) انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 137، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ5/ ص 150، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 123، وانظر: Michaud; op. cit.p. 300.

(2) انظر: السيد سالم: طرابلس الشام ص 230.

(3) البيزنت (Besant): نقد ذهبي، أو فضِّي، عرف بهذا الاسم في العهود المتأخرة للإمبراطورية البيزنطية في أوربا الغربية، وفي القسم الشرقي منها، وكان يسمَّى قبل ذلك «السوليدس، ثم النومزما». انظر: رأفت النبراوي: المرجع السابق ص 23، ح 3.
وانظر: Nouveau Petit LAROUSSE, p.109.

(4) انظر: Frey A; Dictionary of Numismatic Names, New York, 1947, p.224.
وانظر: Richard; Le Royaume Latin de Jerusalem, p.125.

(5) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 134.

(6) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ 3/ ص 5، وانظر: زابوروف: المرجع السابق ص 153.

أخلاق الفرنجة وعاداتهم:

* كشف الصليبيُّون عن طبيعتهم الإجرامية، وسوء أخلاقهم منذ اللحظات الأولى التي وطئت فيها أقدامهم أرض الإسلام؛ فاندفعوا يقتلون ويسلبون، ويستولون على كل ما وقعت عليه أيديهم، فعندما دخلوا مدينة القدس، لم يراعوا للمكان حُرْمته وقداسته، ولم يعرفوا للزمان هيبته ووقاره؛ فقد دخلوها في يوم الجمعة المقدَّسة (Dies Veneris)[1] وهو اليوم الذي خلَّص فيه المسيح العالم كلَّه على الصليب دخلوا المدينة بسيوف مشرعة، لم تبق على أحد «وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكَّان، واستولوا على كل ما وجدوه بها، وتمَّ هذا بطريقة جعلت كل من يسبق إلى الدخول، فقيراً كان أو غنياً يستولي على البيت، ولا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أنْ يحتلَّ المنْزل أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكيَّة خالصة له، وهكذا اتَّفقوا جميعاً على هذا النمط من حقوق الملكية»[2].

* هل قنع فرسان الصليب بهذا القتل والنهب السلب؟

* لا، بل إنَّهم «شقُّوا بطون الذين ذبحوهم، لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية... ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيَّام قليلة بجمع كومة من الجثث، وأحرقوها حتَّى صارت رماداً، بحيث يمكنهم أنْ يجدوا الذهب»[3].

ونتيجة لهذه الأعمال الوحشية أصبح كثير من الصليبيين المفلسين أغنياء؛ بسبب حصولهم على أملاك مكتسبة في المدن التي احتلوها، واعتبرت هذه الملكيّة شرعية وقانونية بموجب «قانون الغزو» الغريب الذي سنَّه الحكام الصليبيون، واستطاع الفارس والراجل منهم غرس جذوره الاقتصادية في المنطقة المحتلَّة[4].

---

(1) هو يوم الجمعة 21 من شعبان سنة492 هـ، الموافق من يوليو سنة 1099م
انظر: مختار باشا: المرجع السابق حـ 1/ ص 524.

(2) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق «ت قاسم» ص 138.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر نفسه «ت قاسم» ص 137.

(4) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 87.

وتعود الباحثة لتسأل: هل قنع فرسان الصليب بهذا القتل والنهب والسلب؟ لا، بل إنَّهم أكلوا لحوم المسلمين، وقد حاول بعض المؤرخين تبرئة الصليبيين من هذا العمل الإجرامي بنسبته إلى جماعة منهم أطلقوا عليها اسم «التافور» (Tafurs)[1].

فمن هؤلاء التافور؟

إنَّهم فقراء الصليبيين، وهم جماعة من «الفلمنك» يأكلون لحوم البشر[2]، سلاحهم الهراوات والخناجر والمطارق الحجرية ولا يعترفون بالقيادة الإقطاعية، وينظرون إلى الفرسان وإلى الأعيان بعداء ظاهر، ويختارون أميراً فقيراً لأنفسهم، يفتش الجميع واحداً واحداً فإذا وجد نقوداً مع أحدهم يأمر بفصله على الفور، ويأمره بشراء سلاح والانتقال إلى صفوف الفرسان، ولا يضم إلى صفوفه إلاَّ الفقراء[3].

ويبدو أنَّ تاريخ هذه الجماعة تعرَّض للتزييف، والتزوير من جانب المؤرخين الغربيين بسبب موقفهم المدافع عن المقدسات الدينية، ومناهضتهم تسلُّطَ النبلاء على الحملة بدون وجه حق، وكان رأيهم في النبلاء مخالفاً لسياسة المديح والتبجيل التي دأب مؤرخو الحملة الأولى على ترديدها في حولياتهم؛ فكان مَلِكُهم يظن أن الأغنياء لا يصلحون للقضية المشتركة، وينظر إلى المقاتل الميسور على أنه شخص غريب الأطوار، وفي الوقت نفسه كان الإقطاعيون ينظرون إليهم نظرة خوف وحذر، ولا يجرؤون على الاقتراب منهم إلاَّ بأقصى درجات الحيطة والاحتراس، فقد كانت الخصومة الاجتماعية حادة بين صفوف الصليبيين.

---

(1) ورد الاسم في بعض المصادر «طافور». انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 114، ويقول: «ذهب جيبرت من نوجان إلى أنها كلمة بربرية الأصل، ومعناها «الأفَّاقُون، المتشردون»، وقد تكون من الجذر العربي «طفر»، ومن معانيه الشعبية «التشرد»، ولم يثبت المؤرخون أصل هذه الكلمة».

(2) انظر: هانس ماير: المرجع السابق، ص 86.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 114.

ويـضرب المـؤرخ الـروسي زابـروف مـثلاً لتلـك الخـصومة بـالنِّزاع بـين بوهيموند (Bohémond) وريموند الصنجيلي (Raymond IV de Saint-Gilles) بعد سقوط أنطاكية والذي أخر الحملـة الصليبية نـصف سـنة، تأكـد الفقـراء أنْ الأغنياء لا يهتمون البتـة بـشؤونهم، وشرعــوا يطـالبون بمواصـلة الزحـف إلى القدس «فإنَّ المسألـة لم تكن مسألـة الغيرة الدينية عند الـشعب «الحـافي والـرث الثياب» بقدر ما كانت مسألة التنافـر الجـليِّ بـين ادّعـاءات الـزعماء الاغتـصابية وأمزجـة الفقراء المعادية للإقطاعيين والمغلَّفة بالغلاف الديني»[1].

وليس غريباً أنْ يناصب الفقراء الـصليبيون أمـراءهم العـداء؛ فقـد ضـاعف الأرستقراطيون ثرواتهم، ولم يكونـوا يتورعون عن اسـتغلال مـصاعب الـصليبيين الفقراء، وابتزازهم؛ فكان الفرسان والأعيان يقتلون الخيـل سراً، ويبيعـون لحومهـا للفقراء بأسعار باهظة[2].

* الإجرام المقدس طاعة لله وتقرُّباً لملكوت الرب:

ومما يثير العجب في سلوك الصليبيين أنَّهم يخدعون أنفـسهم قبـل أنْ يخـدعوا غيرهـم، فيزعمون أنَّ ما يفعلونه من جرائم إنَّما هو تقرُّب إلى ربِّهم، وطلـب الرضـا منه والمغفرة؛ فهذا شاهد عِيَان منهم يـسمِّي اليـوم الأول لـدخول الـصليبيين بيـت المقدس «يوم القتل»؛ لكثرة ما أراقـوا مـن دمـاء الـسكَّان الآمنـين، مـن المـسلمين واليهود، ثم يقول: «وفي يوم آخر، عقد المسيحيّون اجتماعـاً قبالـة المعبـد، واتّفقــوا على أنْ يؤدِّي كل منهم الصلوات، ويقـدِّم الـصدقات، ويـصـوم، عـسى أنْ يختـار الرَّب من بينهم شخصاً مقبولاً لديه، لـيحكم الآخـرين، ولـيحكم بيـت المقـدس، ولينهب المسلمين»[3].

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 116.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق، ص 113.

(3) انظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص 318 ـ 319.

فانظر أيُّها القارئ الكريم إلى هذا التفكير المنحرف الذي يرى القتل والنهب توفيقاً من الله، ويدعون ربَّهم تضرُّعاً أنْ يلهمهم، ويهديهم إلى اختيار من يقودهم لقتل المسلمين، ونهبهم باسم الرب.

قد يبدو هذا التفكير المنحرف مقبولاً بإزاء العداء للمسلمين ولكن كيف نفسِّر «الزنا» بالمسيحيِّات تقرُّباً إلى الرب؟

يرسم العماد الكاتب صورة ساخرة رائعة لهذا السلوك الأخلاقي المنكر في صفحات ثلاث من كتابه الفتح القسِّي، في فصل بعنوان «ذكر حال نساء الفرنج»[1] اللائي وصلن إلى عكا في سنة 585 هـ/ 1189م، في مركب تحمل «ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة، متحلِّية بشبابها وحُسْنِها متزيِّنة، قد اجتمعن من الجزائر، وانتُدِبن للجرائر واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهَّبْن لإسعاد الأشقياء»، وفي جمل كثيرة مسجوعة يستمر العماد الكاتب في تصوير فساد هؤلاء النسوة، وانحراف أخلاقهن عن الطريق المستقيم، ولا يتَّسع المجال هنا لنقلها كلها، وتكتفي الباحثة بذكر هاتين الفقرتين:

* في الفقرة الأولى يُظْهِر دافع هؤلاء النسوة لارتكاب الخطيئة، فهنَّ لا يجدن عملاً يقرِّبهم من «الرب» غير هذا السلوك المشين، و «لا يتقرَّبْن بأفضل من هذا القربان»[2].
* وفي عبارة ساخرة يرسم العماد الكاتب صورة لأخلاق الفرسان الصليبيين الذين ماتت في نفوسهم الغيرة على نسائهم والحميَّة على شرفهم[3].

---

(1) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 347 ـ 349.

(2) انظر: العماد الكاتب: المصدر السابق ص 247.

(3) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 349، ولاحظ أنَّ العماد الكاتب يستعمل لفظي «الأعزب والعزباء»، وهي لغة ضعيفة، والفصيح أنْ يقال للرجل وللمرأة معاً: «عَزَبٌ» على لفظ واحد لهما، ويجوز تأنيث الكلمة، فيقال للمرأة «عَزَبَة». انظر: ابن منظور: لسان العرب «عزب» جـ 1/ ص595.

والحقيقة أنَّ المجتمع الصليبي في بلاد الشام ابتلى بكل أنواع المفاسد والآثام؛ فانتشرت بينهم جرائم: الزنا، ولعب الميسر، وشرب الخمر، وتحدَّث المؤرخون العرب والفرنج عن شيوع هذه المفاسد بين الصليبيين؛ فابن جبير يرى في عكا وصور جميع المحرَّمات مما لا يقع تحت حصر أو تعداد[1]، ويؤكد جوانفيل (Joinville) للقاصد الرسولي انحطاط أخلاق اللاتين في الأراضي المقدسة قائلاً: «لا يعلم أحد مثلي الآثام والمعاصي التي ارتكبت في عكا»[2] وسوف تذكر الباحثة هنا بعضاً من تلك الأخلاق من وجهة نظر الغربيين أنفسهم ومن وجهة نظر الشرقيين.

أخلاق الفرنجة وعاداتهم:

* أخلاق الصليبيين من وجهة نظر المسيحيين:

حاول بعض المؤرخين - قديماً وحديثاً - إخفاء الحقائق، وتزييف الوقائع ليثبت للصليبيين أخلاقاً فاضلة، لا وجود لها أصلاً في أقوالهم، أو أفعالهم، بل وكذَّبوا أنفسهم بأنفسهم بما ذكروه من روايات متناقضة عن تلك الأخلاق التي تمنَّوْها، ولكنها ظلَّت مجرد أماني، لم تتحقق، فالقس فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres) يقول: «على الرغم من اختلاف ألسنتنا، كنَّا نبدو إخوة في حب الرب، وتفكيرنا واحد تقريباً؛ لأنَّه عندما كان أي فرد يفقد أمتعته فإنَّ مَنْ يجدها، يحتفظ بها في حرص عدَّة أيام، ويسأل عن صاحبها حتَّى يجده، ويعيدها إليه»[3].

قد يتوهَّم من يقرأ هذا الكلام أنَّه يتحدَّث عن الصليبيين الذين خرجوا للغزو والسلب، والقتل والنهب، ولكنه يفاجئنا بجملة بعد هذا الكلام مباشرة يقول فيها: «كان هذا في الواقع التصرف الصحيح لأولئك الذين قاموا برحلة الحج بدافع من

---

(1) انظر: رحلة ابن جبير ص 215.

(2) انظر: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام ص 321.

وانظر:. Michaud; op, cit, V. II, p.192.

(3) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق (ت د/ قاسم) ص 105.

التقوى»[1]، وإذن هو يتحدَّث عن أخلاق الحجاج الأتقياء الذين أخرجهم الإيمان والرغبة في إرضاء الله، وليس الحديث هنا عن جماعة اللصوص الذين يجمعهم الجشع والطمع، وليس أدلَّ على ذلك مما رواه ريمون الجيلي (Raymond d'Agilers) عن أحوال الصليبيين المتأزمة خارج أسوار بيت المقدس، ومدى المعاناة التي مروا بها بسبب قلّة الطعام، وندرة الماء حيث كشف للباحثين جانباً من طبائع الفرنج حين يحرص كل منهم على صالحه الخاص وتنتشرُ بينهم الأثرة وحب الذات غير عابئين بالأخُوَّة الصليبية التي يدّعيها رجال الدين اللاتين ومؤرخو الحملة الصليبية الأولى[2].

وزعم يوشع براور (Prawer Yoshua) أنَّ الصليبيين كانوا يحترمون مقدسات الأديان الثلاثة[3].

إذا كان هذا الكلام صحيحاً:

فمن الذي نهب الكنائس والديَّارات؟

ومن الذي أجرى الدماء أنهاراً في المعابد والمساجد؟

وقد مرَّ بنا بحث مفصَّل عن استهانة الصليبيين بالمقدسات، واستهزائهم بالأديان السماوية جميعها، بما فيها الدين المسيحي نفسه، استناداً إلى روايات المؤرخين المسيحيين أنفسهم[4].

ومما رواه المؤرخون المسيحيُّون يتبيّن لنا أنَّ الصليبيين كانوا يتصفون بأسوأ الصفات: من خسَّة ونذالة، ومن مكر وخداع، ومن خيانة ونقض العهود، ومن جشع وطمع، ومن إجرام ووحشية، وذلك بالإضافة إلى ما عرفوا به من التعصب الأعمى والتفرقة العنصرية، وانعدام المروءة والنخوة[5].

---

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(2) انظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص 231، وانظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص323 ح9.

(3) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 222.

(4) انظر: الصفحات 94 ـ 97 من هذه الدراسة.

(5) انظر: الفصل الثاني من هذه الدراسة.

* أخلاق الصليبيين من وجهة نظر المسلمين:

كان الأمير أسامة بن منقذ أكثر أمراء العرب معرفة بأخلاق الصليبيين وأحوالهم، فقد حاربهم، وصالحهم، ثم كان بينه وبين بعض أمرائهم صداقة، ومودّة، ومعاشرة، ويعتبر كتابه الاعتبار واحداً من المصادر الرئيسة في تاريخ الحروب الصليبية، وقد كتب فصلاً عن «طبائع الإفرنج وأخلاقهم» بدأه بقوله: «سبحان الخالق البارئ، إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبَّح الله تعالى، وقدَّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»[1]، وكان لا يرى فيهم فضيلة من فضائل الناس غيرها[2]، وضرب أمثلة كثيرة تظهر غفلتهم وجهلهم، فطبيبهم يعالج فارساً منهم طلع في رجله دمّل ببتر ساقه بضربة فأس، سال منها مخ عظمه؛ فمات في وقته، ويعالج امرأة منهم أصابها نُشاف[3] فزعم أنَّ في رأسها شيطاناً قد عشقها، فأخذ الموسى، وشقَّ رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح؛ فماتت في وقتها[4].

وجهل الصليبيين، وانتشار الخرافات بينهم أمر مشهور، ففي حملة بطرس الناسك (Pierre L'Érmite) كان الفلاحون يرون في وَزَّة وعَنْزَة زعيمتين للكتيبة، وتعتبران مفعمتين بالهناءة الربانية، وتتمتعان باحترام كبير «وكانت العساكر العظيمة مثل الماشية تسير إثرهما مؤمنة في ذلك من صميم الروح»[5].

وقد امتلأت كتب مؤرخيهم بهذه الخرافات؛ فقد يرون علامة على هيئة صليب أبيض، تتقدمهم صوب الشرق في خط مستقيم[6]، وفِرْية الحربة المقدسة التي

---

(1) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 240ـ 247.

(2) انظر: ابن منقذ: المصدر نفسه ص 188.

(3) النشاف: الهزال، يقال: انتشف لونه: انتقع. انظر: ابن منظور: لسان العرب «نشف» جـ9/ ص 330.

(4) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 240.

(5) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 56، وانظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 202.

(6) انظر: فوشيه الشارتر: المصدر السابق (ت د/ قاسم) ص 112.

اكتشفها أحدهم في حفرة من الأرض، تحت كنيسة بطرس، وذلك بعد دخولهم أنطاكية وحصارهم فيها، وزعم أنّها الحربة التي طُعن بها الجانب الأيمن للمسيح عليه السلام فحظيت باحترام الأمراء، والعامة إلى أنْ أكّد القساوسة أنّها حربة أخرى لفقّها رجل معتوه[1]، وقد لاحظ قاسم عبده قاسم أنّه كلّما اشتدَّ الكرب بالصليبيين جاء الكلام عن المعجزات، والعلامات الربانية لمساعدتهم، وطالما كانت الأمور في صالحهم اختفت هذه الأخبار[2].

وكان أكثر ما أثار عجب المسلمين في أمور الصليبيين هو اختلاف سلوكهم الاجتماعي، في حياتهم المنْزليّة والأُسَرِيَّة عمَّا اعتاده الرجل الشرقي[3]؛ فكان كل من الطرفين تحكمه عادات متباينة نابعة من اختلاف البيئة الاجتماعية، واختلاف العقيدة الدينيّة أيضاً؛ فانعكست آثارهما على موقف الرجل من المرأة، والنَّظر إليها باعتبارها روح المجتمع، والمؤثِّر فيه، ويمكن أنْ نرى جذور هذه النظرة في القرآن الكريم، وفي الكتاب المقدَّس، فبينما يروى القرآن الكريم أنَّ سيِّدنا آدم عليه السلام هو المسؤول عن الطرد من الجنَّة: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾[4] نجد الكتاب المقدَّس يلقى الذنب على زوج آدم، ويحمِّلها مسؤولية الخروج من الجنَّة: ﴿ وَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ طَيِّبَةٌ لِلأَكْلِ وَمُتْعَةٌ لِلعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ مُنْيَةٌ لِلتَّعَقُّلِ فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ أَيضاً زَوْجَهَا الذي مَعَهَا فَأَكَلَ ﴾[5] ونتج عن هذه الجذور أنَّ المسلم يمتثل لأوامر الله وتعاليم نبيِّه ﷺ فيرى في المرأة سكناً وأمناً، وبينهما مودَّةٌ ورحمةٌ، وكُلِّف الرجل بحماية المرأة، وحفظها، والدفاع عنها، وصون كرامتها؛ فهي عرضه وشرفه، وذلك في الوقت الذي يرى فيه المسيحي أنَّ المرأة هي

(1) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق (ت د/ قاسم) ص 116.

(2) انظر: فوشيه الشارتري: المصدر نفسه ص 112 ح 1.

(3) انظر: العماد الكاتب: الفتح القسي ص 349، وانظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 243.

(4) انظر: سورة طه 20: 120 ـ 121.

(5) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح 3، الآية 2.

«الخطيئة الكبرى»، وأنَّها مصدر كل الشرور والمفاسد، وأنَّها المسؤولة عن فشل الصليبيين في الشرق بسبب تسلطها وعظيم تأثيرها[1]، بل إنَّ الممالك الصليبية لم يكن انهيارها في الحقيقة إلاّ بسبب ما تحوكه نساء البلاط من المكائد والمؤامرات مع رجال الدين في سبيل التحكم بشؤون الدولة[2].

وبالرغم من هذا التناقض في السلوك فقد أخذ كل من الجانبين يتقرَّب إلى الآخر، ويسود بينهما الكثير من عوامل التفاهم والتسامح، وحسن المعاملة[3].

وكان ابن منقذ دقيقاً في ملاحظته أنَّ الصليبيين الجدد يأتون من أوربا قساة، جفاة، غلاظاً، يسلكون سلوكاً غير متحضِّر، فإذا أقاموا في الشرق تحضَّروا، وتهذَّبت أخلاقهم، وحسن سلوكهم، وارتفعت أذواقهم، وأصبحوا يميِّزون بين السلوك الجيِّد والرديء، وضرب مثلاً لذلك عندما زار بيت المقدس، ودخل المسجد الأقصى للصلاة، وقد جعله الإفرنج كنيسة، وكان بجانبه مسجد صغير يتركه فرسان الدَّاوية لصديقهم أسامة يؤدِّي فيه صلاته، واتَّجه جنوباً إلى الكعبة قبلة المسلمين وراه واحد من فرسان الإفرنج القادمين حديثاً من أوربا، فهجم عليه وأمسك به، وأدار وجهه في غلظة إلى الشرق، وقال له «كذا صلِّ»، فتبادر قوم من الدَّاويّة إليه، وأبعدوه عنه، وعاد أسامة إلى صلاته، فاغتفلهم الرجل، وهجم على أسامة بن منقذ مرّة أخرى، وأدار وجهه جهة الشرق، فأبعده الدَّاويَّة مرَّة أخرى، واعتذروا له بأنَّه غريب، لم ير من قبل من يصلِّي إلى غير الشرق[4].

دور الجماعات الشعبية في مقاومة الغزاة:

تنبَّه المسلمون إلى الخطر الصليبي على دينهم، وثقافتهم، وديارهم فشرعوا يتأهَّبون للجهاد وردِّ العدوان، وقد شاركت فيه جميع طوائف الشعب العربي

---

(1) انظر: زكي النقاش: المرجع السابق ص 150.

(2) انظر: Grousset; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, VII, p. 326.

(3) انظر: Grousset; Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, V.I, p. 209.

(4) انظر: زكي النقاش: المرجع السابق، والصفحة نفسها.

مسلمين ومسيحيين، كباراً وصغاراً، ولا تريد الباحثة أنْ تتحدَّث هنا عن جهاد الدولة الذي رفع لواءه الملوك والأمراء العظام، أمثال زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهم ممن تملأ سيرتهم أكثر الصفحات في كتب التاريخ الإسلامي، في تلك الفترة، ولكنها تقصر حديثها على الأفراد العاديين البعيدين عن سدّة الحكم.

*** الأعيان والشرفاء:**

إذا رجعنا إلى كتب المؤرخين المعاصرين للحملات الصليبية الأولى من الغربيين[1] ومن المسلمين[2] لا نكاد نجد سنة تمر دون حرب هنا أو حرب هناك، أو حصار لحصن، أو رجوع عن حصار؛ فالسمة الغالبة على العلائق الصليبية العربية أنَّها حرب متصلة لم تخمد نارها أبداً، في يوم من الأيام، حتَّى في أوقات السلام المتعارف عليها بين الحكومات، والموثَّقة في معاهدات واتفاقيات مبرمة بين بعض الحكام العرب وأمراء الصليبيين، فإذا توقَّفت الجيوش عن الزحف بدأ دور الشعب يبرز في الإغارة على مزارع الصليبيين وممتلكاتهم، أو إغارة الصليبيين على مزارع المسلمين ومراعيهم؛ فلا يكاد يرى جماعة من المسلمين أفراداً من الصليبيين حتى تقع بينهم المناوشات، والحروب والكر والفر؛ ولذلك كثر القتل، والجراح والأسر بين الطرفين.

وقد تولَّى أمراء العرب قيادة أفراد من الشعب تخصصوا في اختطاف الصليبيين، وقتلهم، والاستيلاء على أموالهم، وقد كان لأمراء شيزر من بني منقذ

---

(1) انظر مثلاً: المؤلف المجهول: المصدر السابق ص 75، وانظر: فوشيه الشارتري: المصدر السابق ص118، وانظر: بطرس توديبود: المصدر السابق ص 204، وانظر: ريمون دو جيل: المصدر السابق ص277.

(2) انظر مثلاً: ابن القلانسي: المصدر السابق ص 190، وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ1/ ص 427، وانظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 147 ـ 183، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 9/ ص6.

القدح المعلّى في هذا المجال[1]، بذلوا دماءهم في الحرب، وأموالهم في افتكاك الأسرى حسبة لله ورغبة في الثواب[2].

ومن كثرة المواجهات بين الطرفين، تعلّم الفرنجة الحذر والحيطة، والاستفادة من طوبوجرافية الأرض في تحقيق مكاسب لهم، والانتصار على أعدائهم[3].

* منظمة الفتوة:

منظمة الفتوّة منظمة شعبية، ظهرت في بلاد الشام، ويرى بعض المؤرخين الغربيين أنّها قامت على نسق المنظمات التي عرفتها الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الإسلامي[4]، بينما يرى سهيل زكار أنّها نبعت من مشاكل البلاد الخاصة السياسية والاجتماعية والثقافيّة، وكان أكثر نشاطها في مدينتي حلب ودمشق، واتسع مجال نفوذها في الفترة المحصورة بين النصف الثاني للقرن 4 هـ / 10 م، وأواخر القرن 5هـ/ 11م، وكان لها دور بارز في مقاومة الدولة الفاطمية، والدفاع عن مدينة دمشق في سنة 363هـ/ 973م، وأحكموا قبضتهم على المدينة، واحتال الفاطميُّون على إضعاف شوكتهم؛ مما كان له أسوأ الأثر في تجريد البلاد من القوى القادرة على المقاومة في وجه الجيوش الصليبية الغازية[5]، واقتصر نشاط البقية الباقية منهم على السير في ركاب المجاهدين الذين يفتحون الحصون؛ يقتلون من بقي فيها من الصليبيين، وينهبون أموالهم[6].

---

(1) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص ص 147، 149، 183.

(2) انظر: ابن منقذ: المصدر نفسه ص 202.

(3) انظر: ابن منقذ: المصدر نفسه ص 149، ص 169.

(4) انظر: Cahen; La Syrie du Nord, p. 256.

(5) انظر: سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 80 ـ 86 .

وانظر: Zakkar; The Emirate of Aleppo, p. 215-220.

(6) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب جـ 1/ ص 392.

* اللصوص وقطاع الطرق:

إذا كان البابا أوربان الثاني (Urbain II) جمع لصوص أوربا وأكابر مجرميها، ووجههم إلى الشرق ليمارسوا فيه نشاطهم الإجرامي فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد سلَّط على رجاله من يذيقهم من الكأس التي أذاقوها للناس، فأصبح اللصوص العرب يتخطَّفون الصليبيين، ويقعدون لهم كل مرصد، وينالون منهم قتلاً، وأسراً ونهباً[1]، وهذه رواية واحد منهم هو ساوولف (Sawwulf) ـ الحاج الأوربي الذي قام برحلة إلى الأراضي المقدسة بين عامي 496 ـ 497 هـ/ 1102 ـ 1103م قال: «اعتاد المسلمون على نصب الكمائن والمصائد للمسيحيين؛ إذ إنَّهم كانوا يختبئون في الأماكن الجوفاء من الجبال والكهوف الصخرية، ويراقبون ليلاً ونهاراً حتى تسنح لهم الفرصة لمهاجمة مجموعة من المسافرين أو الهجوم على أولئك الذين يتخلَّفون وراء جماعتهم بسبب التَّعب والإرهاق، وفي لحظة ما يمكن رؤيتهم في كل مكان، ثم يختفون كلية... وكم هو كبير عدد الجثث الملقاة، أو الممزقة من الوحوش في الطريق، أو على جانبيه»[2].

التأثير المتبادل بين الصليبيين والمسلمين:

لم يستطع الصليبيون أنْ يحتفظوا بعاداتهم، وتقاليدهم، وأصولهم الغربية سليمة نقية، بل أصابها تغيير في صفاتهم الأصلية، واكتسبوا الكثير من التعديلات السلوكية الجديدة؛ بحكم قلّة عددهم في وسط محيط شرقي واسع[3].

وكان هذا التأثير قوياً وسريعاً إلى درجة أنَّ الصليبيين في الحملة الثانية (540 ـ 544هـ/ 1145 ـ 1149م) «صدمهم ما اكتشفوه في فلسطين من قيام مجتمع غَيَّر أفراده، في جيل واحد أسلوب حياتهم؛ إذ صاروا يتحدثون باللهجة الفرنسية، غير

---

(1) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 171 ـ 172، وص 205.

(2) انظر: ساوولف: المصدر السابق، ص 13 ـ 14.

(3) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية 1/ 478.

وانظر: Richard; Le Royaume Latin de Jérusalem, p.122.

أنّهم ظلُّوا أوفياء للكنيسة اللاتينية، وجرت حكومتهم على ما هو معروف بالتقاليد الإقطاعية،غير أنَّ هذه الأحوال الظاهرية جعلت الاختلافات تزيد في حيرة القادمين حديثاً من الغرب»[1].

وفي الوقت نفسه ترك الصليبيّون تأثيراً في البيئة العربية وذلك لأنَّ «المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيِّه، ونحلته، وسائر أحواله، وعوائده»[2].

ولهذا تجد الباحثة أنَّ الحروب الصليبية تركت آثاراً بعيدة المدى في المجتمعين الشرقي والغربي، وستحاول أنْ تذكر بعض أنواع التأثير والتأثر بين الطرفين.

*** تأثير الفرنجة في العرب:**

لم يترك الصليبيون أثراً كبيراً في العرب؛ وذلك لاختلاف الدين والعادات، ونظرة الاحتقار التي كان العرب ينظرون بها إلى هؤلاء الأجلاف الذين رمت بهم أوربا في الأرض العربية قلب العالم المتحضر في ذلك الوقت، ويعجب الأمير أسامة بن منقذ من صديقه الفارس الأوربي العائد إلى بلده، وقد خرج أسامة لتوديعه وأراد ذلك الفارس أنْ يعبِّر عن حبِّه ومودّته لابن منقذ، فطلب منه أنْ يرسل معه ابنه البالغ من العمر أربع عشرة سنة إلى أوربا؛ ليتعلم هناك «العقل والفروسية»، يعلِّق ابن منقذ على هذا الاقتراح الغريب بقوله: «فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل؛ فإنَّ ابني لو أُسِر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج»؛ فاعتذر إليه بأدب، ورجع بابنه[3].

وربَّما كان أكثر تأثير الفرنجة في العرب يظهر في الأنظمة السياسية والإدارية، ومن أمثلة ذلك التأثير:

---

(1) انظر: رنسيمان: المرجع السابق جـ2/ ص 467.

(2) انظر: مقدمة ابن خلدون ص 101.

(3) انظر: ابن منقذ: المصدر السابق ص 240.

* **نظام تربية الفارس**: كان الصبية الذكور الصغار من أمراء العرب، وغيرهم يعزلون في أماكن خاصة، ويُوَفَّر لهم المدرسون والمدرِّبون، فيتعلّم كل واحد منهم فنّاً من أنواع الحرف، والعلوم التي تحتاج إليها الدولة من الشجاعة والفروسيّة، وغير ذلك، فإذا كبر الصبي سُلِّم إليه سلاح كامل، وهم على نمط الدَّاويَّة الفرنج، وعندما يثبت الواحد منهم كفاءة ونبوغاً في المهام التي ينتدب إليها يصبح أميراً، ويعطى منصباً في الدولة، ويطلق المؤرخون عليهم لقب «الحُجَرِيَّة» لتربيتهم في حجر خاصة[1].

وقد بقي هذا النظام معمولاً به في تربية الفارس المملوكي؛ فعندما يشترى المملوك صغيراً، يربَّى هذه التربية العسكريّة ذاتها في مكان يسمّونه «الطِّباق»، مع تعليمه مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وتعليمه شيئاً من الفقه، فإذا اكتملت مهارته، وأتم تدريبه يُلْحَق بالخدمة في جيش «أستاذه»، وهو سيده الذي اشتراه[2].

* **قسمة الغنائم**: عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على مدينة نابلس في سنة 580هـ/ 1184م، وحصَّل المسلمون منها غنائم يضيق الحصر عنها من الأمتعة، والذخائر، والأموال، والأثاث، والنَّعم وغير ذلك «أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته، وسلَّم لهم ذلك، فاحتازت كل يد ما حوت، وامتلأت غنى ويساراً»[3]، وهذه السياسة في تشجيع المجاهدين على الحرب وإغرائهم بما يحصلون عليه من غنيمة هي ذاتها سياسة الصليبيين مع فرسانهم طبَّقها صلاح الدين في أيَّامه الأخيرة، بعد أنَّ قسَّم دولته على أولاده وأمرائه، وبدأ الجنود يتخاذلون عن الجهاد[4].

---

(1) انظر: ابن الطوير: المصدر السابق، ص 57، وانظر: ابن خلّكان: المصدر السابق جـ 3/ ص 418، وانظر: المقريزي: الخطط جـ 1/ ص 144.

(2) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 11/ ص 173، وانظر: العريني، السيد الباز: المماليك، بيروت، بدون تاريخ، فصل «تربية الفارس» ص 159 ـ 205، وانظر: Dozy: Supp. dict. arab. V.II, p. 25.

(3) انظر: رحلة ابن جبير ص 209.

(4) انظر: الساحلي: المرجع السابق ص 4 وما بعدها..

* **تأثير العرب في الفرنجة:**

كان تأثير العرب في الصليبيين عظيماً، في جميع المجالات، المدنية والعسكرية، من ذلك:

* **وظيفة المحتسب:** وهو من وجوه العدول وأعيانهم، ولا يتولاَّها إلاَّ رجل مشهود له بالعلم وبالتقوى وعليه أنْ يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ووظيفته مراقبة الأسواق، ومراعاة المكاييل، والموازين، والأسعار.. وهو صاحب الكلمة المطاعة في جميع ما يأمر به"[1]، وقد طبَّق الصليبيّون هذا النظام في المدن التي احتلُّوها[2].

وهذا بيان لبعض أنواع التأثير التي أوجدتها الحروب الصليبية في المجتمع الغربي، والتي نقلها إليه الفرسان العائدون إلى بلادهم من الشرق.

الآثار المختلفة للحروب الصليبية:

* **الأثر الثقافي:**

الذي لا شكّ فيه أنَّ الشرق العربي بثقافته الواسعة قد أثَّر تأثيراً بالغاً في جميع جوانب الحياة الماديَّة والروحانيَّة في المجتمع الإقطاعي الأوربي الغربي، فمن ذلك الأثر:

أولاً: اقتبس الغرب كثيراً من الشعوب الشرقية في مضمار العلوم وآلات الحضارة؛ فعن طريقهم عرفوا:

* طواحين الهواء، والدولاب المائي المحسَّن.
* استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل.
* نقلوا الكثير من أنواع النبات والزهور كالقمح، والأرز والبطيخ، والمشمش، والليمون، ومن أنواع الزهور الجميلة الورد الدمشقي..

---

(1) انظر: الماوردي: المصدر السابق ص 300، وانظر: المقريزي: الخطط جـ 1/ ص 463، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 3/ ص 483.

(2) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 179.

* وعرفوا السكر، وأنواعاً متعددة من الحلوى، وحفلت مائدتهم بأطايب الطعام الشرقي.

* صناعة الأقمشة الفاخرة، ومنها «الداما، والموصلين (نسبة إلى مدينتي دمشق، والموصل) والأطلس..»[1].

ثانياً: انعكس تأثير الشرق على نطاق واسع في ميدان الآداب، وأساليب المعيشة، فمن ذلك:

* بدأ الأوربيون يربُّون اللحى، ويرتدون العمائم.

* شرعوا يستعملون الماء الساخن في الاستحمام، مرات متعددة وكانوا لا يغتسلون إلاَّ بالماء البارد نادراً.

* يغيّرون كثيراً الملابس الداخلية، والخارجيّة؛ وكانوا يلبسون الأثواب حتى تبلى[2].

ثالثاً: كان للحروب الصليبية تأثير بارز في الآداب الشعبية، وشعر الملاحم؛ فقد أنشأ الكتاب، والشعراء القصص والأغاني باللغات المحلية معبرين عن المشاعر والمعارف بأسلوب ممتلئ بالحيوية والخصب، وتعتبر خير مرآة انعكست فيها صورة المجتمع الإقطاعي، وكان شارلمان أهم شخصية في أغاني المآثر Chansons de Geste التي نظمت باللغة الوطنية الفرنسية[3].

* الأثر الاجتماعي:

ربّما كان الأثر الاجتماعي أوضح الآثار التي خلّفتها الحروب الصليبية في المجتمعات الآوربية، فمن ذلك:

---

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 333.

(2) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 334.

(3) انظر: Thompson: The Middle Ages, V.II, p. 810.

وانظر: Taylor H. O.; The Medieval Mind, London, 1930, V.I, p. 574.

* إذا كانت المشاريع الثيوقراطية البابوية العالمية لم تحقق مكاسب دائمة، من حيث رفع مكانتها، وهيبتها فمن المؤكد أنَّ الكرسي الرسولي استطاع أن يعزز قاعدته المالية؛ بفضل الضرائب وابتزاز الأموال، وكان رحيل الفرسان إلى «ما وراء البحار» إسهاماً في توسيع ملكية الكنيسة للأراضي.

* توطيد فرنسا سياسياً، تحت حكم ملوكها؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى هجرة الأعداد الكبيرة من الفلاحين «العراة»، ومن «المحرومين من الأرض»، ومن «السادة» الكبار الذين كانوا يحمون استقلالهم بحماسة، إلى الشرق.

* ازدهار التجارة المرتبط بالهيمنة التجارية الإيطالية في البحر المتوسط.

* شقّت الحروب الصليبية ثَلْماً عميقاً يفصل السادة، والفرسان عن الفلاحين الفقراء، واضطر الفريق الأول رغم أنوفهم إلى توحيد صفوفهم ليس فقط أمام الأعداء بل أيضاً أمام الرعاع المتمردين والأقنان الذين كانوا يزدادون فقراً[1].

*** الأثر الفني:**

كان تأثير الفنون العربية عظيماً في الفن الأوربي، في الرسم والنحت، والنقش، والبناء، فمن ذلك:

* استخدم الفرسان الشعارات المرسومة على الدروع، والسيوف، والخناجر.

* نقل الغزاة الغربيون إلى أوربا أساليب الشرقيين في الهندسة المعمارية؛ فبدؤوا يبنون كنائسهم، ومعابدهم على صورة كنيسة القبر المقدس في القدس، ومستخدمين القباب المستديرة الشبيهة بقبة الصخرة في المسجد الأقصى.

* وأخذوا الآلات الموسيقية، وعرفوا عزف المؤلفات الموسيقية العسكرية في أثناء القتال.

* وأخذوا بعض أشكال المعاملة في المعيشة[2].

---

(1) انظر: زابوروف: المصدر السابق ص 330.

(2) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 334.

* أخذوا عن الفنان الشرقي زخرفة الكتب بالنقوش والصور والمنمنمات الدقيقة، وقد اكتشف الأثريون كثيراً من تلك الكتب والمخطوطات، في ستينيات القرن الماضي، ونقلت إلى المكتبات الكبرى في أوربا[1].

*** الأثر الديني:**

الحروب الصليبية مشروع بابوي في أساسه، ولكن الملاحظ أنَّ هذا المشروع سرعان ما تحوَّل إلى مشروع استثماري كبير للنهب والسلب وجمع الأموال، وقد تحوَّل القسس والرهبان من الصلاة والعبادة إلى الفرسان، وحمل السلاح، والمضاربة في الأسواق، واكتناز الذهب والفضة؛ وزادت ممتلكات هيئات الفرسان الداوية والاسبتارية عن طريق الهدايا، والهبات، والغزو، حتى أصبحت على درجة خطيرة من القوة، والثروة، واتساع النفوذ، في القرن 6 هـ/ 12م[2].

وقد أدَّى إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أغراضها الدينية، وما ارتبط به من فشل أصاب خطط الاتحاد الكنسي أدَّى ذلك إلى تقويض سمعة البابوية، وأخذت تتدهور بصورة شديدة، ومطّردة منذ أواخر القرن 7 هـ/ 13م[3] وأصبح المثقفون الأوربيون يرون في الحملات الصليبية «جنوناً دموياً»، ووصفها بعضهم بأنها «وباء الكلب»[4].

بقي السؤال: هل تخلّص الأوربِّيّون من «الجنون الدَّمَوِيّ»؟، أو هل شُفُوا من «وباء الكلب»؟، وبمعنى آخر: هل انتهت الحروب الصليبية بخروجهم من عكا في سنة 690هـ/ 1291م؟

---

(1) انظر: يوشع براور: المرجع السابق ص 528.

(2) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1/ ص 473.

وانظر: Grousset; L'Empire du Levant, p. 291.

(3) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 328.

(4) انظر: زابوروف: المرجع نفسه ص 345.

الإجابة: لا؛ فإنَّ الحروب الصليبية باقية، مستمرَّة، متطوِّرة، وستبقى ما بقي للأوربيين أطماع يسعون إليها، وستبقى ما بقي للمسلمين دين يجاهدون دفاعاً عنه.

وفي القرن 8هـ/ 13م طرأت على أيديولوجيّة الحملات الصليبية تحولات خطيرة بقدر ما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية تزداد تعقّداً؛ فقد تحوَّلت من الاستيطان إلى القرصنة والاستغلال، وستكتفي الباحثة بمثالين أحدهما قديم، والآخر حديث:

المثال الأول: في سنة 767 هـ/ 1365م أبحر ملك قبرص بطرس الأول لوزينيان (Pierre I de Lusignan) من جزيرة رودس إلى الإسكندرية في أسطول من 165 سفينة، عليها جيش من الفرسان الإفرنج الذين فقدوا إقطاعاتهم في الشرق، وانضم إليهم فصائل الفرسان الأوربيين الذين جنَّدهم الملك من فرنسا، وغيرها، وفي هجوم خاطف احتلُّوا الإسكندرية، ودمَّروها تدميراً كاملاً، ولم يبقوا حتى على كنائس المسيحيين الأقباط[1]، وارتكبوا مذبحة بشعة أعادت إلى الأذهان «حمَّامات الدم» التي أغرق فيها الصليبيون القدس ومعرّة النعمان وأنطاكية، وغيرها من المدن الإسلامية التي دخلوها في الشام، وقد سجَّل وقائع هذه المذبحة المؤرخ محمد بن قاسم النويري (ت نحو 777 هـ/ 1376م) في كتابه الضخم «الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضيّة في وقعة الإسكندرية»[2].

المثال الثاني: ما أعلنه جورج بوش الابن (George Bush the son) ـ رئيس دولة أمريكا الحالي ـ من أنَّ غزوه للعراق ما هو إلاَّ حملة صليبية جديدة، الهدف المعلن منها القضاء على الإرهاب المتمثل في الإسلام ـ من وجهة نظره ـ والهدف الحقيقي القرصنة والسلب، وقد أعلن مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف

(1) انظر: زابوروف: المرجع السابق ص 343، وانظر: مختار باشا: المرجع السابق جـ2/ ص 803.

(2) حققه عزيز سوريال عطية، ونشره في سبعة أجزاء، في 1976م، وقد كتب مقالاً مفصلاً عرَّف فيه بالكتاب، وبمؤلفه، ترجمه، ونشره جوزيف نسيم يوسف. انظر كتابه: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص 155 ـ 239.

أنَّ هذه الحرب الصليبية التي تستهدف الإسلام تجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم[1].

والحقيقة التي لا مجال للشك فيها أنَّ أرض الإسلام تعرَّضت للغزو الصليبي غزواً مستمراً من العصور الوسطى، وإلى الآن، وهذا الغزو يتستَّر وراء أسباب كاذبة؛ ليخفي أطماعه، ويظهر بصور متعدِّدة:

في العصور الوسطى: كانت الأسباب المعلنة هي ما يتعرَّض له الحجَّاج المسيحيُّون من سلب ونهب، إلى جانب المخاطر الأمنية التي كانوا يواجهونها من اللصوص وقطَّاع الطرق، وقد بيَّنت الباحثة أنَّ الحج ليس فريضة دينية عند المسيحيين، باعترافهم هم أنفسهم، وإنَّما أراد الحكَّام استغلال هذه البدعة المحدثة لتحقيق أطماعهم الدنيوية[2].

وفي الوقت نفسه أكَّد المؤرخون المسيحيُّون أنَّ هذه الحجَّة كذب وافتراء، ولم يثبت أنْ تعرَّض المسيحيُّون إلى أي نوع من المخاطر عند أدائهم لشعائر دينهم في ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة، وإنَّما سبب الشكوى أنَّ أكثر الحجَّاج المسيحيِّين كانوا من الفقراء الَّذين لا يملكون دفع رسوم المرور، وتحمُّل نفقات السفر، ولا ذنب للمسلمين في هذه الحال[3]، وبالرغم من ذلك فقد تعرَّضت بلادهم للتخريب والتدمير، وما صحب غزوهم من قتل الأبرياء، ونهب الأموال.

وفي العصر الحديث: كان سبب الغزو الصليبي الجديد ـ كما أعلنه جورج بوش الابن (George Bush the son) ـ هو أنَّ العراق يمتلك أسلحة الدمار الشامل، مما يهدِّد الأمن العالمي، ويعرِّض السلام لمخاطر جمَّة؛ ذلك لأنَّ العراق يحكمه رئيس

---

(1) انظر مقالاً مفصلاً لعمرو الشوبكي عن «زلَّة اللسان» هذه ـ كما اعتذر عنها بوش، فيما بعد ـ وموقف الأزهر الشريف وعلماء الإسلام، ومجمع الكنائس الشرقية، وبابا روما من إقحام الدين في الأطماع الدنيوية، والمقال منشور في جريدة الأهرام المصرية، العدد 42547، بتاريخ 3/ 6/ 2003 م.

(2) انظر: ص من هذه الدراسة.

(3) انظر: كلود كاهن: المرجع السابق، ص 33.

متسلِّط ظالم، يشجع الإرهابيين، وأنَّ الغرض من هذا الغزو هو محاربة الإرهاب، ونشر الديمقراطية.

وكما تبيَّن كذب الأسباب الأولى تبيّن أيضاً كذب الأسباب الثانية فقد اجتاحت القوات الأمريكية والمتحالفة معها أرض العراق، وفتَّشت كل بقعة فيه، ولم تجد أسلحة دمار لا شامل، ولا غير شامل، ومنذ أنْ احتلَّ الصليبيُّون العراق زاد الإرهاب، وأصبح الأمن العالمي معرَّضاً لمخاطر كبيرة، وكشفت هذه الغزوة الجديدة الوجه الإجرامي للحضارة المسيحية، وأظهرت أمرين هامَّين:

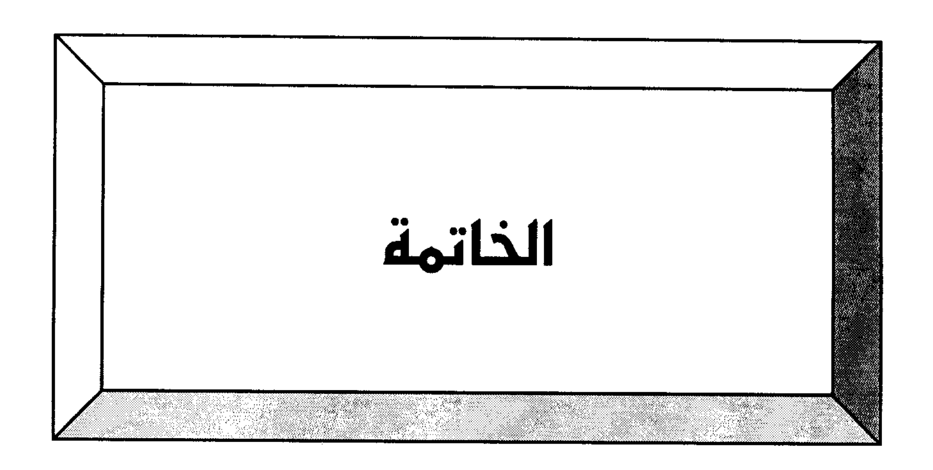
الأول: «أنَّ غالبية السياسيين والباحثين وقادة الرأي العام في العالم لا يتوقفون كثيراً أمام الخطاب السياسي الرسمي الأمريكي القائل بأنَّ الحرب تستهدف نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية بوصفها مصدراً لتهديد الأمن الأمريكي والأمان في بقية أنحاء المعمورة كما لا يتوقفون أمام الادعاء الأمريكي القائل بإقامة نظام ديمقراطي في العراق... ويرون أنَّ لهذه الحرب دوافع أو أهدافاً إستراتيجية واقتصادية فمن الناحية الإستراتيجية سيكون العراق هو السابقة الأولى لتطبيق مذهب بوش وبذلك يصبح نموذجاً للشكل الجديد للهيمنة الأمريكية الكونية أمَّا من الناحية الاقتصادية فإنَّ الدافع أو الهدف هو السيطرة على البترول»[1].

والثاني: أنَّ الحرب الحديثة تجعل المدنيين هدفها الأول والرئيس، تحت ستار ما يسمى «تدمير البنية التحتية» للعدو في المواصلات والمياه والكهرباء ووسائل المعيشة... فلم يعد هناك أي معنى لمصطلح الحرمات والمحرمات والمحظورات والممنوعات في أي قانون أو اتفاق[2].

---

(1) انظر: عبد العظيم حماد: قراءات ألمانية في خطط بوش الإمبراطورية، الأهرام عدد 10 مارس 2003م.

(2) انظر: يحيى هاشم حسن فرغل: الفتوى الإفرنجية في الحادثة اللندنية، جريدة الشعب المصرية الإلكترونية 26/ 7/ 2005م.



الخاتمة

الخاتمة

لعلَّ حدثاً في التاريخ الإنساني لم يحظ بالرعاية والاهتمام من المؤرخين كما حظيت الحروب البربرية الهمجيَّة التي أطلقوا عليها لقب «الصليبية»؛ فقد سجَّل وقائعها بعض معاصريها، ووصفوا حملاتها: في سيرها، وفي أعمالها، وفي رجالها، وفي نتائجها، وعلى منوالهم نسج مؤرخو الغرب فجاءت كتبهم مليئة بالحقد، وبالكذب، وبالأساطير، وأصبح لزاماً على العرب أنْ يسمُّوا الأشياء بأسمائها، وأنْ يصحِّحوا الأخطاء التي يريد الغرب منا تقبُّلَها، وأنْ يُنَزِّهوا المسيحية السَّمْحَة من وصمة «الصليبية» التي ألصقوها بها ظلماً لأنفسهم، وافتراء على الله، ومن هذا المنطلق كانت هذه الدراسة التي حاولت فيها الباحثة أنْ تقدِّم تصوُّراً منصفاً لهذه الحرب؛ فتبيّن دوافعها، وأهدافها كغزوة استيطانية استعمارية، قامت بها عصابات من اللصوص، وقطاع الطرق،والطامعين في بلادنا الطيِّبة التي «تفيض لبناً وعسلاً» - كما جاء في العهد القديم - ومن خلال استقراء أحداث تلك الحرب بنظرة محايدة، يمكن التوصُّل إلى النتائج الآتية:

أولاً: حَمَلَ الصليبيُّون شعار الصليب على صدورهم، في الوقت الذي رفعوا فيه لواء الأسطورة، والخرافة في أقوالهم، وفي سلوكهم، وفي أفعالهم، من ذلك:

* تقودهم الوَزَّة المقدسة عبر السهول، وبين السهوب، وفي أعالي الجبال، وفوق الوهاد.
* ويرشدهم سهم البرق الخاطف في السماء إلى طريق الشرق.
* ويظهر رسم الصليب على جثث الموتى معجزة؛ لأنَّ ما كان يحمله الأحياء على ملابسهم - الصليب العلامة المنصورة - ينبغي بإرادة الرب أنْ يظل معهم، بعد موتهم.
* ببركة الحربة المقدسة التي طُعن بها السيِّد المسيح عليه السلام فكُّوا حصار المسلمين عن مدينة أنطاكية.

* تجلِّي «الرب» للهاربين من الموت، يشجّعهم، ويعدهم النصر ويأمرهم بالعودة، وتثبيت قلوب الآخرين.
* اكتشاف صليب الرب في مكان سري بالقدس.
* ظهور شهاب في السماء، لمدة خمسين يوماً يشاهد في العالم كله، ينبعث منه ضوء جميل أبيض، أخذ يخفت يوماً بعد يوم.
* إشراق شمسين أخريين، عن يمين الشمس الحقيقية وعن شمالها.

ومن أساطيرهم تصويرهم رجالهُم أنّهم «أشدّ الجنود المسيحيين بَسَالَةً»، والفارس منهم «فائق القدرة»، وهم «هذا العرق العنيد الذي لا يعرف الرحمة» وأمّا أعداؤهم فهم جبناء، إذا واجهوا الصليبيين «لاذوا بالفرار وقد استبدّ بهم الذعر»، وفي المعارك «يولُّون الأدبار هاربين في فزع، كما لو كانت الدنيا كلُّها تطاردهم»، والحقيقة التاريخيّة تؤكد غير ذلك؛ فلم يكن جنودهم فرساناً شجعاناً، ولم يكن المسلمون جبناء، وإنَّ النصر الذي حققوه راجع في الغالب إلى حالة الضعف التي كانت عليها بلاد الإسلام في ذلك الوقت؛ فقد كانت الشام ساحة الصراع العقائدي، والسياسي:

* فقد انقسم المسلمون إلى سنة وشيعة، والحرب بينهم قائمة، لا تنتهي.
* وانقسم المسيحيون إلى نساطرة، ويعاقبة، وأرثوذكس... ولم تكن العلائق بين طوائفهم تختلف عن العلائق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأديان الأخرى.
* وانقسم اليهود إلى ربانيين، وقرَّائين، والعداء بينهم أشد وأنكى مما هو بينهم وبين غيرهم من المسلمين والمسيحيين.
* وكان الواقع السياسي في الجزيرة والعراق قبل السلاجقة منقسماً إلى عدة إمارات في الموصل، وديار بكر، والحِلَّة، وحلب، وبين تلك الإمارات كل صنوف الصراع، والتآمر.
* ثم جاء السلاجقة إثْرَ فتنة البساسيري، فاستولوا على إمارات الشام، وبدأ الصراع بينهم وبين الفاطميين في مصر، والبيزنطيين في الشمال، وكانت نتائج هذا

الصراع أنْ خلت الأرض العربية من القوة الموحّدة الضاربة، والاقتصاد القوي القادر على المواجهة مما مكّن للصليبيين في بلادنا.

ثانياً: جاءتنا الحروب الصليبية، وقد لازمتها بعض الظواهر السلوكية التي ميّزتها من غيرها من أنواع الصراع الدموي بين أبناء بني البشر، من هذه الظواهر:

* الوحشية والإجرام والتجرد من جميع المشاعر الإنسانية.
* الانحطاط الخلقي والبعد عن كل القيم الإنسانية النبيلة.
* التفرقة العنصرية البغيضة.
* التعصب الأعمى: الديني، والمذهبي.
* الاستهزاء بجميع الأديان السماوية والعدوان على مقدساتها بما في ذلك الدين المسيحي نفسه.

وقدَّمَتْ الباحثة الأدلة على هذه الظواهر، والكشف عن دوافعها من خلال أقوال المسيحيين أنفسهم، وأعمالهم، وكثير منهم كان شاهد عِيَان، ومشاركاً في تلك الوقائع محارباً أو واعظاً.

ثالثاً: حمل الصليبيون معهم كل أفكارهم التي عرفوها، وأنظمتهم التي ألفوها إلى بلاد الشرق، وحافظوا على ميراثهم هذا، ولم يبدعوا أمراً جديدا إلاَّ إذا أجبروا على ذلك، تحت ضغط الظروف الجديدة في البيئة المحليّة.

وكان الإقطاع واحداً من تلك الأنظمة التي طبّقوها في الحكم كما عرفوها في بلادهم، وهو نظام هرميٌّ، طبقي، في قمته الملك أو الأمير، ثم أفصاله الذين يُقْطِعُهُم الإقطاعات الكبيرة أو الصغيرة في مقابل الخدمات المالية والحربية التي يؤدونها إليه عند طلبه لها، ثمَّ يأتي الفلاحون وأقنان الأرض في أسفل الطبقات، وهم محرومون من كل ما يتمتّع به السيِّد، وإنْ كانوا مصدر ثروة المجتمع، وتوفير احتياجاته من الغذاء، والكساء.

ولم يختلف التنظيم الكنسي عن التنظيم الإقطاعي، فهو بناء هرمي طبقي، يأتي البابا على رأس النظام، وكان يعتبر نفسه رأس العالم بأجمعه ويحيا حياة الملوك

بكل ما لها من مظاهر دنيوية، وسلطة ونفوذ وهيلمان وتنظيم إداري، ومالي؛ وكانت الكنيسة تمتلك إقطاعات ضخمة تدر عليها دخلاً منتظماً ويأتي بعده البطاركة، في الحواضر الكبرى، ويشرف البطريرك على عدد من الأساقفة الذين يأتون بعدهم في السلم الإداري، ويأتي في ذيل النظام القس في القرى والنجوع، وحياته أشبه ما تكون بحياة الفلاحين والأقنان، كما كان يخضع في الوقت نفسه للأمير الإقطاعي الذي تقع أبرشيته في أرضه.

ولا نكاد نجد للصليبيين ابتكاراً غير مرتكز على النظائر الأوربيّة إلاَّ تجربتين اثنتين:

* التحوَّل المباشر بالدين المسيحي من التسامح، والرحمة إلى الحرب، والإجرام، وجمع الأموال؛ وذلك بإنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية القائمة على مبدأ الأخوَّة (Confraternitas) كالداوية، والاسبتارية والتيوتون.
* التنظيم الحربي، فقد اتبَّع الصليبيُّون النظم الحربية العربية، وذلك في بناء الاستحكامات، وتشييد القلاع، وأدوات الحصار والاعتماد على سرعة الحركة.

رابعاً: كانت الإمارات الصليبية الأربع التي أسسوها في الشام وفلسطين قصيرة الأجل، منهارة البناء، يحيط بها الأعداء من كل جانب، وهذه الإمارات هي:

1 ـ إمارة الرُّها: وهي أولى الإمارات تأسيساً، وأولاها زوالاً، ولم يكن لها من الأهميَّة ما لغيرها من الإمارات؛ لصغر حجمها، وقلَّة مواردها، وضعف جيشها، وبعدها عن موانئ الاتصال بأوربا، وكثرة الحروب التي تعرَّضت لها، فلم تنعم بالاستقرار، ولم تكن في الواقع أكثر من إقطاعيّة كبيرة تابعة لمملكة القدس.

2 ـ مملكة القدس: وهي أكبر الإمارات مساحة، وأعلاها قدراً وهي مصدر التشريع والإدارة، وبها أقوى الجيوش، وأعظم الفرسان، وعليها الاعتماد في صد الغارات، وشنّ الهجوم على المسلمين، وحماية العروش المنهارة، والوصاية على

الأمراء الصغار وفضّ المنازعات بين الأُمَراء، وإغاثة المستجير بها، وقد تهيَّأت لها هذه المكانة الممتازة بفضل العوامل الآتية:

* المكانة الدينية المقدسة للمدينة، وما فيها من آثار ومعالم.
* أتيح لها منذ تأسيسها عدد من الملوك العظام الذين عُرِفُوا بالكفاءة، والشجاعة، والطموح، وحسن الإدارة، فلم يكتفوا بالحفاظ عليها، وإبقائها، بل عملوا على توسيع رقعتها، ومدَّ نفوذها، وبسط حمايتها على غيرها من الإمارات الصليبية الأخرى وتهديدها لكثير من الأراضي الزراعية العربية مما اضطر سكانها إلى اقتسام محاصيلهم، ومنتجاتهم بينهم وبين ملوك القدس.
* كانت أكثر الثغور على الساحل الشرقي للبحر المتوسط تابعة لها، مما سهَّل لها الاتصال بالدول الأوربيّة، وتلقّي النجدات منها والحصول على المساعدات المالية، والحربية.
* قربها من طرق التجارة العربية الممتدة من العراق، وبلاد العرب إلى فلسطين، ومصر وفَّر لها ثروة كبيرة.

3 ـ كونتيّة طرابلس: ترجع أهميَّة كونتيّة طرابلس إلى موقعها الممتاز، ومينائها الكبير، وحصانتها، كما استمدَّت مكانة جليلة من تاريخها القديم كقاعدة للملك الفرس، ومركز للتجارة.

لم يتمكَّن الصليبيُّون من الاستيلاء عليها إلاَّ بعد حصار طويل، وتضحيات جمَّة، وبتعاون جيوش الممالك الصليبية كلها، ومساعدة البحرية الجنوية في حصارها من البحر، ثم أصبحت إمارة صليبية تابعة لبيت المقدس، إمَّا بالخضوع الإقطاعي، وإمَّا بالوصاية على العرش، وحكمها أربعة أمراء من البيت التولوزي (Les Toulousains) ثمَّ انتقل حكمها من بعدهم إلى أربعة أمراء من البيت النورماندى (Les Normands) المشهورين بعدائهم الشديد للمسلمين، والتآمر عليهم مع الأعداء مما جعل الملك المنصور يستولي عليها، ويدمِّرها تدميراً تامّاً، ويبني مدينة أخرى جديدة على موقع بعيد عن المدينة القديمة.

4 ـ إمارة أنطاكية: هي الإمارة الثانية بعد مملكة بيت المقدس في الأهميَّة من الوجهتين الدينية والحربية:

* فأمَّا من الوجهة الدينية: فليس في العالم كلّه مدينة مرتبطة بتاريخ الكنيسة بعد القدس غير أنطاكية؛ ففيها أنشئت أول كنيسة للأمم، وبها دعي التلاميذ مسيحيين، وأقام فيها القديس بولس (st Paul)، وكان بطرس الرسول (st Pierre) أول أسقف لكنيستها، ثم أصبحت العاصمة الدينية للمسيحيين جميعهم بعد تدمير أورشليم على يد الإمبراطور أدريان (Adrien) في سنة 135م.

* وأمَّا من الوجهة الحربية: فقد كانت أنطاكية العاصمة السياسية للدولة السلوقية، والعاصمة الفكرية لسورية الشمالية، وأهم مدن الشام التجارية، ذات موقع حصين، وثروة وفيرة.

وبسبب قربها من الأراضي البيزنطية، فقد كانت كتائب الغزو الإسلامي تخرج منها، في كل عام، لذلك كانت هدفاً دائماً للغارات البيزنطية، مما انعكست آثارها السلبية على السكان اقتصادياً وعسكرياً.

لم يتمكَّن الصليبيُّون من احتلالها إلاَّ بالخديعة والخيانة والمكر، وظلَّت عاصمة لولاية صليبية تابعة لبيت المقدس 170 سنة، حكمها سبعة عشر ملكاً، منهم خمسة من بيت المقدس بالوصاية وأربعة من طرابلس بالوصاية أيضاً، وبسبب سياسة أميرها تنكريد (Tancrède) الهجومية ظهرت الأحلاف المشتركة بين المسلمين والصليبيين في مواجهة بعضهم البعض، ولم تستطع المحافظة على وجودها إلاَّ بفضل الحماية التي تولّتها فرسان الجماعات الدينية وظلَّت في صراع دائم بينها وبين العرب من جهة، وبينها وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى أنْ استولى عليها الظاهر بيبرس، في سنة 666 هـ/ 1268م، وقضى على إمارتها الصليبية نهائياً.

خامساً: تركت الحروب الصليبية تأثيراً بعيد المدى في بنية الإمارات الصليبية سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، من ذلك:

* التأثير السياسي: كان التركيب السكاني للإمارات الصليبية يضم فصائل مختلفة متنافرة تمثل عدداً كبيراً من الأصول واللغات، فلم يكن عجيباً أنْ يظهر الخلاف بين قادة هذه العصابات، وأنْ يكون محكوماً على تلك الإمارات بالزوال.

اعتمد التنظيم الإداري في جميع الممالك الصليبية على نظم الإقطاع الأوربية، وإنْ فرضت الظروف البيئية إدخال بعض التعديلات على ذلك النظام؛ فلم تكن سلطة الحاكم في بيت المقدس مطلقة، فقد استطاع كبار الأعيان أنْ يحتكروا لأنفسهم السلطة الحقيقية في الإدارة، ولم يكن الملك إلاَّ زعيماً لهذه الطبقة الحاكمة، يخضع للقانون الذي جعل مكانته مساوية تماماً لمكانة سائر أفراد المجتمع.

كما كان لرجال الكنيسة سلطة تعادل سلطة الملك، وكان لهم من الثروات ما يفوق ثروات المملكة، وقد دفعهم الجشع إلى أنْ يأخذوا كل حقوقهم الإقطاعية، ونصيبهم في ضريبة العشر في الوقت الذي كانوا يمتنعون فيه عن مدّ يد العون والمساعدة للملك في الأزمات الاقتصادية، وفي زمن الحروب، مما كان سبباً من أسباب ضعف الدولة، وانهيارها.

شغلت مشكلة الحدود الآمنة بال الملوك الصليبيين، فقد كانت إماراتهم الصغيرة أشبه بجزر مفصولة في بحر الديار الإسلامية لذلك كان جُلُّ اهتمامهم بناء الحصون، وتكوين الفرق المقاتلة وشن الغارات لتأمين حدودهم، واتبعوا السياسات الآتية:

1 ـ العلائق بين الصليبيين في الإمارات الصليبية: كانت ترتكز على الارتباط برباط الخضوع والطاعة لملك بيت المقدس الذي كان يستطيع جمعهم للحرب.

2 ـ العلائق بين الصليبيين والمسيحيين المحليين: كانت في البدْء قائمة على مساعدة المحليين للصليبيين على أمل أنْ يجدوا في كنفهم حماية من سيطرة السلاجقة، ولكنهم لم يجدوا منهم إلاَّ الاحتقار وسوء المعاملة، فانقلبوا عليهم.

3 ـ العلائق بين الصليبيين والمسلمين: هي علائق العداء، والحرب، وسوء الجوار: فكان المسلمون في البلاد التي يحكمها الصليبيون يعاملون معاملة الرقيق، يعيشون في ذلّة ومسكنة.

وكان الأعيان المسلمون والأحرار ينظرون إلى الصليبيين نظرة احتقار وعجب من جهلهم، وغطرستهم.

4 ـ في السياسة الخارجية للإمارات الصليبية نلاحظ ما يأتي:

أ ـ جمعت الأطماع بين الصليبيين وأمراء الدويلات الإسلامية، وهم جميعاً ليسوا عرباً، فكانت الحرب بينهم دفاعاً عن المصالح، وسرعان ما يتناسون العداء، ويتحالفون، وكانت ضرورات الحياة تفرض على الطرفين التعاون في توفير الأمن للتجار، والقائمين بالخدمات اللازمة للمجتمع.

ب ـ لم تكن الثقة متبادلة بين البيزنطيين والصليبيين، وكانت العلائق بينهم تقوم على الخداع، ومحاولة كل طرف منهما الاستفادة من الطرف الآخر دون أنْ يقدِّم مقابلاً لتلك الاستفادة.

جـ ـ ارتبط الصليبيون في الشام بالدول الأوربية برباط وثيق، فكان الصليبيون في الشرق يعتمدون على ما تقدمه لهم أوربا من مساعدات مالية، وحربية.

د ـ من أبرز العلائق في السياسة الخارجية للإمارات الصليبية تلك التي كانت تربطهم بالمدن الإيطالية، فقد كان التجار الإيطاليون يتمتعون بكثير من المميزات المدنية، والإعفاءات الجمركية نظير ما يقدمونه للصليبيين من خدمات هامة، فقد كانت سفنهم تنقل إليهم الجنود، وآلات الحصار، والأسلحة، وتمكنهم من إحكام الحصار من البحر على المدن الساحلية.

هـ ـ تحالف الصليبيون مع المغول أعداء العرب آملين أنْ يتمكّنوا من النصر عليهم، ولكن الله خذلهم، وأذهب كيدهم.

ويمكن أنْ ترد الباحثة انهيار الاستيطان الصليبي في الشرق إلى الأسباب الآتية:

ـ قيام الوحدة العربية بفضل جهود نور الدين محمود، ثمَّ حمل لواءها من بعده صلاح الدين الأيوبي.

ـ انغلاق دائرة طبقة كبار النبلاء على نفسها.

ـ تعدد الأعراق والأجناس، جعل منهم أمة متنافرة.

ـ نظام وراثة العرش أوجد العداء والتنافس بين الأمراء.
ـ نقص الموارد المالية للدولة، فقد كانت نفقات الملك باهظة.
ـ التحالف مع أعداء المواطنين أثار حماسة المجاهدين.
ـ اختلاف البيئة والظروف، فقد ظل الفرسان يسلكون في حياتهم المسلك ذاته الذي اعتادوه في بلادهم.
ـ الفساد الأخلاقي، إذ فقد الفرسان كل ما لديهم من قوة بدنية، وقوة أخلاقية بعد أنْ انغمسوا في حياة اللهو.

* **التأثير الاقتصادي**: من الراجح أنَّ الدافع الرئيس لإشعال نار الحرب الصليبية كان دافعا اقتصاديّاً؛ فقد تضافرت عدَّة عوامل على انتشار المجاعات في أوربا في القرنين 4 ـ 5هـ/ 10 ـ 11م، منها:

ـ تعاظم أطماع السادة الإقطاعيين؛ فأخذوا يزيدون على الفلاحين فريضة المدفوعات النقدية عوضاً عن القيمة العينية.
ـ كانت الحروب الداخلية المتواصلة في كل مكان من أوربا عاملاً من عوامل إملاق الريف، وإهلاك الحرث.
ـ سوء المواسم الزراعية الناتجة عن تلف المحاصيل جعل المجاعة تسود في كل المناطق في أواخر القرن 5 هـ/ 11م قُبَيْل بدْء الحروب الصليبية وبلغت الأمور حدّاً من السوء إلى أنْ أكل الناس لحوم البشر، وأجسام الموتى، وأطلق المؤرخون على الفترة التي سبقت الحروب الصليبية اسم «السنوات السبع العجاف».
ـ الكوارث الطبيعية التي تجمَّعت في هذا الوقت، منها:

* انتشار وباء الطاعون في سنة 482 هـ/ 1089م.
* وقوع هِزَّات أرضية في سنة 482 هـ/ 1089م في ألمانيا، وغيرها تسببت في جدوبة التربة في سنة 483 هـ/ 1090م.
* فيضان الأنهار في بعض الأنحاء أغرق الأرض وأتلف الزرع.

* زيادة البرد في الربيع، وسقوط الثلج في الشتاء في سنة 486 هـ/ 1093م مما أفسد البذور، وجمّد النبات، وأنقص الغلات.
* تسببت العواصف الشديدة وسوء المناخ في إنجلترا في إهلاك المحاصيل الزراعية في سنة 486هـ/ 1093م.

لكل هذه العوامل كانت أوربا تعاني من الفقر الشديد، ويضاف إلى تلك العوامل:

* الأمراء الذين لا ميراث لهم، وقد عرفوا باسم «المعدمين» أو «من لا أرض لهم» وهم أبناء كبار السَّادة الإقطاعيين الذين لا ميراث لهم في تركة أبيهم، وكانوا محلَّ سخرية الآخرين؛ فكان على هؤلاء المعدمين أنْ يفتِّشوا فيما وراء البحار عن الفرص لإصلاح أوضاعهم الاقتصادية، واقتناء العقارات.
* المغامرون والطامعون المنتشرون في أوربا في القرن 5 هـ/ 11م وكان لا بُدَّ للكنيسة من مواجهة هذه الظاهرة الفاشية حماية لممتلكاتها وعقاراتها، وأفلحوا أخيراً في توجيههم إلى الأرض العربية؛ وبذلك تخلّصوا من خطرهم، واستراحوا من غزواتهم.
* الجياع والرقيق الذين زحفوا نحو بيت المقدس مدفوعين بالأمل في حياة أفضل من حياتهم المهينة الذليلة.

مما سبق يتبيّن للباحثة أنَّ القاسم المشترك الذي جمع بين جميع من حملوا الصليب واتّجهوا إلى الشرق كان هو الطمع والرغبة في الحصول على المال بكل الوسائل ومن أي طريق، وهذا يفسِّر لنا سلوكهم الآتي:

* نهب الكنائس وبيوت العبادة.
* نهب المنازل والبيوت.
* ارتبط النهب والسلب بالجريمة والقتل، ولم يفرِّقِ الصليبيّون بين مسلم، ومسيحي، ويهودي.

وعندما نزلوا أرض الإسلام استولوا على الأرض الزراعية، والمدن والقرى، واقتسموها على أنفسهم بحسب نظام الإقطاع الذي سبق أنْ بينّت أسسه.

وكانت موارد الدولة تعتمد على:

* **الضرائب والمكوس المتنوعة**

الحاصلات الزراعية ونظام المقاسمات، في الأراضي الخاضعة لسيطرة مشتركة، فكان إنتاج الأرض يقسم ثلاثة أقسام:

* ثلث الإنتاج للحكام المسلمين في دمشق.
* وثلث للسلطات الصليبية.
* وثلث للفلاحين الذين يزرعون الأرض.
* السلب والنهب، فقد كانت أعمال اللصوصية والقرصنة والسلب والنهب من الوسائل المشروعة لتنمية موارد الدولة.

وأمَّا مصارف الدولة فكانت:

الإنفاق الحربي: كبناء الحصون، وتوفير الخيول والسلاح.

الإنفاق المدني: كالإنفاق على إعاشة الحاكم والحامية.

النشاط الاقتصادي في الإمارات الصليبية:

الزراعة: نالت اهتماماً كبيراً من الصليبيين، لتوفير غذائهم، وعلف دوابهم، وشرِّعت القوانين التي تضمن حقوق الأفراد.

وبالرغم من وفرة الأراضي الصالحة للزراعة فلم يكن الإنتاج وفيراً، فقد كانت تواجهه مشكلات جمّة أهمها مشكلتان:

الأولى: قلة الأيدي العاملة.

والأخرى: أنواع البذور المستعملة؛ فلم تكن الأرض تعطى أكثر من خمسة أو سبعة أمثال مقدارها من القمح.

الصناعة: قامت في فلسطين صناعات كثيرة ذات عائد اقتصادي كبير، كالزجاج، والفخار، والثياب، والصبغ الأرجواني، والسكر، والحلي والنسيج.

وكان التعدين، واستخراج الحديد من الصناعات الرائجة في الشام، فقد كان الحديد، والفواكه والأخشاب من بين أهم الصادرات الشامية إلى مصر.

التجارة: حرص الصليبيون على تنشيط حركة التجارة في جميع إماراتهم، وتشجيع رحلة الحج إلى مدينة القدس.

* **التأثير الاجتماعي**: كان المجتمع الصليبي مجتمعاً طبقياً، فيه الطبقات الآتية: طبقة النبلاء، والفرسان، الجنود، والفراخ، والبورجوازيين، والفلاحين، والرقيق، والإيطاليين، والرهبان ورجال الدين، والمسيحيين المحلِّيين، والمسلمين، واليهود، وكانت لكل طائفة منها حياتها، ونظامها، وانتماؤها العرقي.

ويكاد يجمع المؤرخون على أنَّ أهم أسباب الفشل والضعف في المجتمع الصليبي يرجع إلى هذه الإثنينيّة المتعددة الأعراق والأهواء، والمتناحرة عقائدياً، وفكرياً.

وتميَّزت أخلاق فرسانهم بالأخلاق الآتية:

1 ـ الإجرام المقدس، طاعَةً لله، وتقرباً لملكوت الرب؛ فهم يقتلون، ويسلبون، ويظنون أنَّ هذه الجرائم تقرِّبهم من الله !!.

2 ـ انتشرت بينهم كل أنواع المفاسد: فساد الخلق، ولعب الميسر، وتعاطى الخمور...

3 ـ كانت الخيانة، والكذب، والخداع، والتآمر، والسرقة من الأمور التي تعارفوا عليها، ولم يستنكروها.

4 ـ انتشار الخرافات بينهم، والجهل بكثير من أمور الطب.

5 ـ انعدام الغيرة عند الرجال على حريمهم.

لكل تلك الأسباب هبَّ الشعب، بكل طوائفه وتنظيماته لتطهير أرض الرسالات من دنس المحتل، حتى اللصوص وقطاع الطرق وجّهوا نشاطهم لتخريب أموال الصليبيين، ونهبها.

ومن المؤكد أنَّ الحروب الصليبية تركت تأثيراً قوياً وسريعاً في أخلاق الصليبيين، وفي سلوكهم، وفي الوقت نفسه ترك الصليبيّون تأثيراً في البيئة العربية، من ذلك:

تأثير الفرنجة في العرب:

لم يترك الصليبيون أثراً كبيراً في العرب؛ وذلك لاختلاف الدين، والعادات، ونظرة الاحتقار التي كان العرب ينظرون بها إليهم، وربّما كان أكثر تأثير الفرنجة في العرب يظهر في الأنظمة السياسية والإدارية، ومن أمثلة ذلك التأثير:

* **نظام تربية الفارس:** كان الصبية الذكور من أمراء العرب، وغيرهم يعزلون في أماكن خاصة، ويُوَفَّر لهم المدرسون والمدرِّبون، فيتعلّم كل واحد منهم فناً من أنواع الحِرَف، والعلوم التي تحتاج إليها الدولة من الشجاعة والفروسية، وغير ذلك.

* قسمة الغنائم، وذلك بإطلاق أيدي المسلمين في امتلاك ما يحصلون عليه، وهذه السياسة في تشجيع المجاهدين على الحرب وإغرائهم بما يحصلون عليه من غنيمة هي ذاتها سياسة الصليبيين مع فرسانهم.

تأثير العرب في الفرنجة:

كان تأثير العرب في الصليبيين عظيماً، في جميع المجالات، المدنية والعسكرية، من ذلك:

* وظيفة المحتسب: وهو من وجوه العدول، وأعيانهم، ولا يتولاَّها إلاّ رجل مشهود له بالعلم وبالتقوى، وقد طبّق الصليبيّون هذا النظام في المدن التي احتلّوها.

التأثير في المجتمع الغربي:

فقد نَقَلَ الفرسان العائدون إلى بلادهم من الشرق آثاراً كثيرة، منها:

آثار ثقافية: فالشرق العربي بثقافته الواسعة قد أثَّر تأثيراً بالغاً في جميع جوانب الحياة الماديَّة والروحانيَّة في المجتمع الإقطاعي الأوربي الغربي منها:

أولاً: في مضمار العلوم وآلات الحضارة؛ فعن طريقهم عرفوا طواحين الهواء، والدولاب المائي، واستخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل، ونقلوا الكثير من أنواع النبات والزهور، وعرفوا السكر، وأنواعاً من الحلوى، وصناعة الأقمشة الفاخرة.

وانعكس تأثير الشرق على نطاق واسع في ميدان الآداب، وأساليب المعيشة، فمن ذلك:

* بدأ الأوربيون يربُّون اللحى، ويرتدون العمائم.
* شرعوا يستعملون الماء الساخن في الاستحمام، مرات متعددة، وكانوا لا يغتسلون إلاَّ بالماء البارد نادراً.
* يغيّرون كثيراً الملابس الداخلية، والخارجيّة؛ وكانوا يلبسون الأثواب حتى تبلى.

ثانياً: كان للحروب الصليبية تأثير بارز في الآداب الشعبية، وشعر الملاحم.

آثار اجتماعية: ربَّما كان الأثر الاجتماعي أوضح الآثار التي خلَّفتها الحروب الصليبية في المجتمعات الأوربية، فمن ذلك:

* استطاع الكرسي الرسولي أن يعزز قاعدته المالية؛ بفضل الضرائب وابتزاز الأموال.
* توطيد فرنسا سياسياً، تحت حكم ملوكها.
* ازدهار التجارة المرتبطة بالهيمنة التجارية الإيطالية في البحر المتوسط.
* شقّت الحروب الصليبية ثُلْماً عميقاً يفصل السادة، والفرسان عن الفلاحين الفقراء.

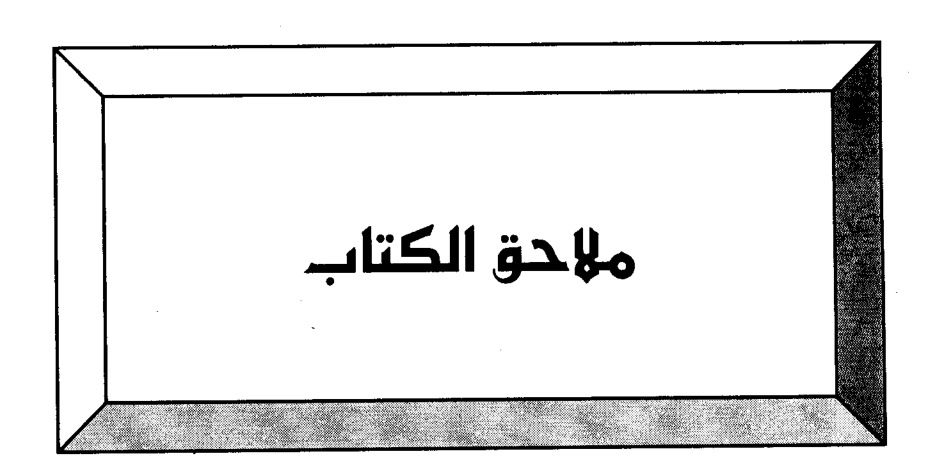
آثار فنية: كان تأثير الفنون العربية عظيماً في الفن الأوربي، في الرسم والنحت، والنقش، والبناء، فمن ذلك:

* استخدم الفرسان الشعارات المرسومة على الدروع، والسيوف والخناجر.
* نَقَلَ الغزاة الغربيون إلى أوربا أساليب الشرقيين في الهندسة.
* أخذوا الآلات الموسيقية، وعرفوا عزف المؤلفات الموسيقية العسكرية في أثناء القتال.
* ومن الشرق أخذ الغربيون بعض أشكال المعاملة في المعيشة.
* أخذوا عن الفنان الشرقي زخرفة الكتب بالنقوش، والصور والمنمنمات الدقيقة.

آثار دينية: تحوّلت الحروب الصليبية من مشروع ديني إلى مشروع استثماري كبير للنهب والسلب وجمع الأموال، وقد أدَّى إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أغراضها الدينية إلى تقويض سمعة البابوية، وأخذت تتدهور بصورة شديدة،

ومطّردة منذ أواخر القرن 7 هـ/ 13م وأصبح المثقفون الأوربيون يرون في الحملات الصليبية «جنوناً دموياً» ووصفها بعضهم بأنها «وباء الكلب».

ولم يتخلّص الأوربِّيّون إلى الآن من «الجنون الدَّمَوِيّ»؟ ولا من «وباء الكلب»؟، وطرأت على أيديولوجيّة الحملات الصليبية تحولات خطيرة؛ فقد تحوَّلت من الاستيطان إلى القرصنة والنهب، والسلب؛ فنهبوا الإسكندرية في سنة 767 هـ/ 1365م، وينهب الصليبيُّون الجدد العراق الآن، في سنة 1424 هـ/ 2003م.


ملاحق الكتاب

الملحق الأول

خطاب البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت

كان البابا أوربان الثـاني (Urbain II) المحـرِّض الأول للحـروب الـصليبية، والداعية إليها، متخذاً من منصبه ومكانته الدينية ستاراً لإخفاء مطامعه، وسلاحاً في محاربة أعدائه، وحافزاً للصوص وقطاع الطرق في نهـب المـسلمين بـدلاً مـن نهـب إخوانهم المسيحيين الأوربيين، وفي الوقت نفسه فـتح بابـاً للأمـل والثـراء في وجـه الفقراء بتوجيههم إلى اغتصاب الأراضي المقدسة التي «تفيض لبناً وعـسلاً»؛ ولهـذا الغرض دعا إلى عقد مجلسين كنسيين:

الأول: عُقِدَ في مدينة بياتْـشِنْزَا (Piacenza) في شـمالي إيطاليـا في مـارس مـن سنـة 1095م/ 488 هـ.

والثاني: عُقِدَ في مدينة كليرمون فران (Clermont Ferrand) في وسط فرنـسا، في نوفمبر من سنة 1095م/ 488هـ، وكان مؤتمراً موسَّعاً، حضره كثير من الأمراء والفرسان ورجال الدين، ومندوبون عن الملوك، إلى جانب جموع غفيرة من العامـة، وبالرغم من شدّة البرد، وقسوة الطبيعـة فقـد كانـت لكلـمات الأب المقـدّس فعـل السحر في تدفئة القلوب والأبدان، عندما أخذ يصوّر لهم النعـيم الأرضي، وعظـيم الغفران السماوي إذا هم استجابوا لله وله، ولبَّوا دعوته، مغرياً لهم بالثراء قال:

«يا أيُّها الشجعان، اذهبوا متسلّحين بسيف مفاتيحي البطرسية واكتـسبوا بهـا لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصـرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً، وأمَّا إذا قتلتم فلكم المجد لأنّكم تموتون في المكـان الذي فيه مات يسوع المسيح».

وكان البابا قد بدأ خطبته بالحديث عـن الأمـاكن المقدسـة، وكيـف أنّ قـبر المسيح ﷺ، والجبل الذي عليه تألم، وعليه مات من أجلهم، والمغارة المختصَّة به، كلُّها أصبحت ميراثاً لشعب غريب، وغاب بهاؤها وانطفـأ نورهـا، ومُنِـعَ الأبـرار

من أنْ يعبدوا الله فيها، ومازالتْ ذراع العرب القوية قادرة على أنْ تمتد إلى القسطنطينية، وغيرها من معاقل المسيحية، وعلى تهديدهم في ديارهم، بعد أنْ أحرز ألب أرسلان شاه الملك السلجوقي نصراً عزيزاً على البيزنطيين في موقعة ملاذكرت الشهيرة في سنة 462 هـ/ 1069م، وأَسَرَ الإمبراطور الروماني رومانوس الرابع (Romain IV Diogène) (1067 ـ 1071م).

وكان فوشيه الشارتري واحداً من الذين حضروا المؤتمر الثاني وسجَّل ما وعته ذاكرته من خطاب البابا، ومما جاء في كتابه:

«ألحُّ عليكم في أنْ تسرعوا إلى تقديم المساعدة لإخوانكم في الشرق التي اعتدتم تقديمها لهم عند الضرورة؛ فقد اعتدى عليهم الأتراك والعرب واندفعوا في الأراضي الرومانية إلى أن وصلوا شاطئ البحر المتوسط عند «ذراع القديس جورج» وتغلغلوا أكثر في بلدان المسيحيين، وهزموهم سبع مرات في المعارك، وقتلوهم، وأسروا كثيراً منهم، وهدموا الكنائس، ونقضوا أركان الدولة، وإذا لم تقاوموهم فإنَّهم سيكونون موجة عاتية تلتهم عدداً كبيراً من عباد الله.

وبهذا يرجوكم ربكم، ويحثُّكم، ولست أنا، بصفتكم سفراء للمسيح، فقراء وأغنياء، حتى تسرعوا لطرد هذا الجنس الوضيع من الأماكن التي يسكنها إخواننا، وتقديم العون الضروري لعبدة المسيح، ولست أنا المتكلم مع الحاضرين والناطق باسم الغائبين، ولكن المسيح هو الذي يأمركم.

وإذا كان المقيمون هنا قد يفقدون حياتهم خلال السفر في البحر، أو البر، أو في المعركة ضد الكفار فإن ذنوبهم ستغفر في ذات الوقت.

إنَّ الرجال المعتادين على القتال بوحشية في الحروب الخاصة ضد المؤمنين سيندفعون ضد الكفار، ويحققون نصراً مؤزراً عليهم في النهاية، وهذا النصر كان يجب أنْ يتحقق منذ زمن طويل، وإذا كانوا قاتلوا في الماضي سعياً وراء عرض زائل فإنَّهم اليوم سينالون مكافآت خالدة، والذين خسروا أنفسهم وأرواحهم من أجل ربح قليل سيبذلون جهدهم اليوم لكسب أجور مضاعفة عند الله».

لوحة لخطاب البابا أوربان الثاني (Urbain II) في مؤتمر كليرمونت

L'appello di Urbano II

Urge portare al più presto ai vostri fratelli d'Oriente, quell'aiuto così spesso promesso e di imperativa necessità. I Turchi e gli Arabi li hanno attaccati e si sono spinti nel territorio della Romania fino a quella parte del Mediterraneo chiamato il Braccio di San Giorgio, e penetrando ancora nel paese di questi cristiani, li hanno sconfitti sette volte in battaglia, ne hanno uccisi e presi prigionieri un gran numero, hanno distrutto le chiese e devastato il regno. Se oggi non opporrete resistenza, saranno un'onda che travolgerà un numero sempre maggiore di fedeli servitori di Dio.

È per questo che vi prego e vi esorto – e non io, ma il Signore vi prega e vi esorta come ambasciatore di Cristo – poveri e ricchi, affinché vi affrettiate a scacciare questa ignobile razza dalle regioni abitate dai nostri fratelli e forniate l'aiuto che è necessario agli adoratori di Cristo. Sono io a parlare ai presenti, sarò io a proclamarlo agli assenti, ma è Cristo ad ordinare...

Se coloro che si recheranno laggiù, perderanno la vita durante il viaggio per mare o per terra o nella battaglia contro gli Infedeli, i peccati saranno loro rimessi in quell'ora...

Che gli uomini abituati a combattere con crudeltà, in guerre private, contro i credenti, si scaglino invece contro gli Infedeli, e concludano con una vittoria finale la guerra che avrebbe dovuto essere iniziata già da molto tempo; che quanti in altri tempi hanno combattuto da mercenari in cerca di sordidi premi, guadagnino oggi la ricompensa eterna; quanti si sono esauriti a scapito del loro corpo e della loro anima, si sforzino attualmente per ottenere un doppia ricompensa.

(Foucher de Chartres: *Histoire du pélerinage des Francs à Jérusalem*).

الملحق الثاني
الذاكرة والمصالحة

بمناسبة حلول الألفية الثالثة لميلاد السيد المسيح عليه السلام، وفي يوم 7 من مارس سنة 2000م، أصدر البابا يوحنا الثاني - بابا الفاتيكان - وثيقة سمّاها «الذاكرة والمصالحة - الكنيسة وأخطاء الماضي Memory and Reconciliation: The Church and the faults of the past» في 42 صفحة، ومعها 7 صفحات أخرى تضم تقرير المجلس الكنسي المنعقد بهذه المناسبة(1)، وبمجرَّد أنْ أعلنت هذه الوثيقة تلقَّاها العالمان: المسيحي واليهودي بالتهليل والتكبير، وقامت الدنيا، ولم تقعد، تشيد بشجاعة هذا البابا العظيم الذي اعترف بصراحة ووضوح بأنَّ الكنيسة قد وقعت في أخطاء، في الماضي تتطلب الاعتذار عنها، وطلب العفو، دون أنْ يتحمَّل المسيحيُّون الحاليّون أوزارها.

وعندما نقرأ هذه الوثيقة بتَأَنٍّ وتأمل نجد أنفسنا أمام صورة مؤسفة من صور الخداع، والتضليل اللذين دأب عليهما أكثر بابوات الفاتيكان - إنْ لم يكن جميعهم - وعُرِفُوا بهما منذ أنْ ظهرت هذه المؤسسة الدينية إلى الوجود، وليس الخداع والتضليل فقط هما كل ما تميَّز به بابوات الفاتيكان، بل إنَّهم ارتكبوا من الحماقات والسخف ما يَنْدَى له جبين الإنسانية، وما قصَّة البابا فورموسوس (Formosus) منَّا ببعيد، كان فورموسوس هذا بابا الفاتيكان لمدة خمس سنوات في الفترة 891 - 896م، وبعد وفاته، ودفنه خَطَر للبابا الذي انتخب من بعده، وهو المدعو بونيفاتيوس (Bonifatius) خطر له محاكمة فورموسوس، فنبشوا قبره، وأخرجوا جثّته، وأجلسوها على عرش، وأخضعوها لمحاكمة ظالمة، وتولَّى أحد الشمامسة الأحياء الإجابة عن الأسئلة التي وجهت إلى الجثة، وصدر الحكم

---

(1) انظرها على الإنترنت، وموقعها:
http:www.vatican.va/rom…/rc con cfaith doc 2000307memory - reconc - itc en.htm 03/07/00.

ضدّه، بإسقاط شرعيّة انتخابه، وعدم استحقاقه المنصب الديني الذي كان يتولاه، وأنْ ينفَّذ فيه الحكم بعدم دفنه، وإلقاء جثّته القذرة في نهر التيبر (Tibre)»[1].

وفي رأي الباحثة أنَّ هذه الوثيقة لا تقل حمقاً وسخفاً عمَّا فعلوه بفورموسوس؛ فقد توقع الناس أنْ يجدوا فيها إدانة لأكبر جريمتين في تاريخ الأديان كلها، سواء أكانت أدياناً سماوية أم بشرية، وإنَّهما لجريمتان كافيتان لإلحاق العار، والخزي بأيِّ دين كان، وأعنى بهما: الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش.

* فأمّا الأولى: فقد مرت بنا جرائمهم البشعة ضد الإنسانية، وضد الأديان جميعاً، تقرأ عنها في أكثر صفحات هذه الدراسة بما يغني عن الإعادة هاهنا، وقد راحتْ ضحيتها ملايين الأنفس البريئة التي فقدت حياتها وأموالها، وشرفها إرضاء لأطماع البابوات، وجشعهم، ورغبتهم في حكم العالم، والسيطرة عليه.

* وأمّا الأخرى فقد استهدفت العلماء، والمفكرين، والفلاسفة ورجال الدين المخالفين لرأي البابا ممن أطلقوا عليهم لقب الهراطقة «فالواقع أنَّه لم يخطر ببال أحد فكرة أنَّ الآريين، والسكسون، والمسلمين بإمكانهم الحصول على حرِّية تفكير ما»[2]؛ وأخذ البابوات يشنُّون حرباً قاسية بلا هوادة، فمن ذلك:

- إعلان ملك فرنسا المدعو روبيرت الثاني التقي (996 Robert II Le Pieux) ـ 1031م) في سنة 1022م، بالاتفاق مع جمعية قساوسة وبارونات أنَّ الهراطقة سيقضي عليهم بالتَّحْرِيق بالنار[3].

- سَحْق البروتستانتية في إيطاليا، واستئصالها بأمر من البابا بيوس الخامس (Saint Pios V) بابا روما في الفترة 1066 ـ 1072م، ومباركته لقتل الأبرياء، وإبادتهم[4].

---

(1) انظر: موسوعة المورد، مادة «فورموسوس» CD.

(2) انظر: ألبير باييه: المرجع السابق، ص 65.

(3) انظر: البير باييه: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(4) انظر: موسوعة المورد، مادة «بيوس» CD.

ـ وخلال الحرب الدينية ضد الألبيجيين (Les Albigeois)[1] حصلت المجازر الرهيبة التي لم تترك رجلاً، ولا امرأة، ولا ولداً، وفيها كانت محاكم التفتيش تلجأ إلى انتزاع الاعتراف من المتهمين باستخدام أبشع الوسائل، منها: منصّة التعذيب[2]، وعمود التعذيب[3]، والشعلة الملتهبة، كما كانت تدعو الأولاد الصغار للشهادة ضد آبائهم، وحكمت هذه المحاكم على الآلاف بالموت حرقاً، أو بواسطة «الخازوق»[4]، أو بإيداعهم السجن مدى الحياة[5].

كان نصيب الجريمتين الكبريين في تاريخ الأديان من تلك الوثيقة البابوية نحو عشرة أسطر فقط من خمسين صفحة، وأنْقل هنا رأياً لمثقف عربي يعبِّر عن إحساس الذين يقرؤون هذه الوثيقة، قال:

«يلاحظ أمران جوهريّان:

أولهما: أنَّه خلا من أي اعتذار.

وثانيهما: أنَّ السؤال الذي طرح فيه لم يَرِدْ على سبيل الاستفهام وإنَّما على سبيل التنصل والاستنكار، أو قل: إنَّه سؤال نفي، لا تأكيد، فالذين صاغوه أرادوا أنْ يقولوا: هل يعقل أنْ نستشعر الذنب الآن بسبب الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، وهي التي كانت ظواهر استثنائية، ومعزولة؟ ،إذا دقَّقت أكثر فستجد أنَّ

---

(1) الألبيجيون «أو الكتار»: بدعة دينية مسيحية ظهرت في أواخر القرن 12م، في جنوبي فرنسا، استمدت بعض تعاليمها من المانوية.
انظر: معلوف: المرجع السابق، ص 62.

(2) منصة التعذيب Chevalet: أداة خشبية، يمدد عليها المجرمون، ويعذبون.
انظر: ألبير بابيه: المرجع السابق ص 74.

(3) عمود التعذيب Estrapade: طريقة تعذيب، برفع المجرم إلى مكان عال ثم تركه يهوى إلى الأرض.
انظر: ألبير بابيه: المرجع السابق ص 74.

(4) الخازوق: عمود طويل محدَّد الرأس، يُدْخل في دُبُرِ المجرم؛ فيموت عليه.
انظر: معلوف: المرجع السابق ص 177.

(5) انظر: ألبير بابيه: المرجع السابق ص 65، وانظر: كولتون: المرجع السابق، ص 233.

الرسالة الحقيقية للسؤال هي أنَّه لا يعقل أنْ نستشعر الـذنب، ومـن ثـمَّ فينبغـي ألاَّ نُحَمِّل أنفسنا بأكثر مما يجب، فلا اعتذار، ولا يحزنون.

ليس هذا فحسـب، وإنَّـما تنـصَّل كرادلـة الكنيـسـة الكاثوليكيـة مـن الأمـر برمّتـه، حين اعتبروا ما جرى من قبيل الحوادث الاستثنائية والمعزولـة، وهو موقف مدهش، يتعذَّر افتراض البراءة، أو حسن الظنِّ فيه»[1].

وهذه ترجمة نص الوثيقة في ما يتعلَّق بالجريمتين:

«وبالتالي؛ فهناك عدد من الأسئلة يمكن أن تطرح:

هل يمكن للضمير اليوم أنْ يـشعر بالـذنب بـازاء ظـواهر تاريخيـة معزولـة، حدثت في الماضي مثل الحروب الصليبية، أو محاكم التفتيش؟

هل من السهولـة أنْ نحاكـم الأقدمـين بضمير اليـوم، وكأنَّ الوازع الأخلاقـي لم يكن موجوداً في وقتهم، كما فعل الفِرِّيسيُّون بحسب ما جاء في إنجيل مَتَّى (23: 29 ـ 32)[2]؟ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: هل لنا أن ننكر أنَّ الحكم الأخلاقـي مـستطاع دائـماً؟ وإذا سلَّمنا بواقع الأمر فإنَّ حقيقة الرب ومقتضياتها الأخلاقية لها قِيَمُهـا الثابتـة، ومهـما تتخذ من سلوك ومواقف ينبغي أنْ تتواءم مع التساؤلات، ونبحث لهـا عـن أجوبـة تتفق وتعاليم السماء، والتحولات القائمة حالياً المتمثلة في العقائد الكنسية.

وعليه: فإنَّ السؤال الأول يتعلَّق بتوضيح المدى الذي تكون فيه التساؤلات عن غفران أخطاء الماضي، وبخاصَّة إذا كانت موجَّهةً للجمهور من أناس اليـوم الـواقعين

---

(1) انظر: فهمى هويدى: المقال المنشور في جريدة «الأهرام» القاهريـة اليوميـة، في بـاب «قـضايا وآراء» العدد 41378، بتاريخ يوم الثلاثاء 21/ 3/ 2000 م.

(2) نص الإصحاح 23 في إنجيل متى، الآيات 29 ـ 32: «الْوَيْلُ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ، وَالْفِرِّيـسِيُّونُ الْمُـرَاءُونَ، فَإِنَّكُمْ تَبْنُونَ قُبُورَ الأَنْبِيَاءِ، وَتُزَيِّنُونَ ضَرَائِحَ الصِّدِّيقِينَ، وَتَقُولُـونَ: لَوْ عِشْنَا في أَيَّامِ آبَائِنَا لَمَا شَارَكْنَاهـم في دَمِ الأَنْبِيَاءِ، فَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَبْنَاءُ قَتَلَةِ الأَنْبِيَاءِ».

تحت آفاق الكتاب المقدس وفي أحضان اللاهوت الداعية إلى التصالح مع الرب، ومع الجار.

وهذه صورة النص الإنجليزي للجزء الخاص بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش من وثيقة «الذاكرة والمصالحة» ص 9، نقلاً عن الإنترنت، من موقع الفاتيكان:

http:www.vatican.va/rom…/rc con cfaith doc 2000307memory-reconc-itc en.htm 03/07/00.

Thus, a number of questions can be identified. Can today's conscience be assigned 'guilt' for isolated historical phenomena like the Crusades or the Inquisition? Isn't it a bit too easy to judge people of the past by the conscience of today (as the Scribes and Pharisees do according to *Mt* 23.29-32), almost as if moral conscience were not situated in time? And, on the other hand, can it be denied that ethical judgement is always possible, given the simple fact that the truth of God and its moral requirements always have value? Whatever attitude is adopted must come to terms with these questions and seek answers that are based in revelation and in its living transmission in the faith of the Church. The first question is therefore that of clarifying the extent to which requests for forgiveness for past wrongs, especially if addressed to groups of people today, are within the biblical and theological horizon of reconciliation with God and neighbor.

الملحق الثالث

دير صهيون

تحقيق

سؤال ابن أبي شريف ﷺ ونفعنا الله ببركاته آمين

في دير صهيون والإفرنج

مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 514/ مجاميع، منه مصورة في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، رقم 1712/ تاريخ.

ابن أبي شريف:

هو كمال الدين، أبو المعالي، محمد بن الأمير ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف، المقدسي (822 ـ 906 هـ/ 1419 ـ 1501م) عالم بالأصول، والفقه، والتفسير، والكلام، ومن كبار علماء الشافعية، وشيخ الإسلام في عصره، درَّس وأفتى في القدس، ومصر، مولده ووفاته في القدس الشريف، وله مؤلفات كثيرة، منها:

«الفتاوى»، و«حاشية على تفسير البيضاوي»، و«الدرر اللوامع بتحرير جمع الجوامع»، و«الفرائد في حل شرح العقائد»، و«المسامرة على المسايرة»، و«صوب الغمامة في إرسال العمامة»[1].

---

(1) السيوطي: نظم العقيان ص 159، وانظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 1/ ص 65، وانظر: نجم الدين الغزي: المصدر السابق جـ 1/ ص 11، وانظر: الشوكاني: البدر الطالع جـ 2/ ص 243، وانظر ابن العماد: المصدر السابق جـ 8/ ص 29، وانظر: الزركلي: المرجع السابق 7/53، وانظر: كحالة: المرجع السابق 11/200.

الحمد لله رب العالمين، جاعل الأنبياء سادة للعالمين، والعلماء قادة للمؤمنين، والفقهاء حافظة للحافظين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وإمام المتّقين، وشفيع المذنبين، وعلى آله الطيبين[1]، وأصحابه الطاهرين.

نُقِلَ من خط شيخ الإسلام الكمالي ابن أبى شريف ـ رحمه الله ـ ما نصه بحروفه: الحمد لله، سُئِلْت في ذي الحجة سنة ثمانمائة وخمس وتسعين[2]، بما صورته، في واقعة وقعت ببيت المقدس، وهي أنَّ بالقدس مكاناً[3]، يقال له: صِهْيَوْن[4]، وهو دير يأتيه من بلاد الفرنج من يقيم به، وإذا شاء انصرف منه يدخل

---

(1) زعم أبو جعفر، أحمد بن محمد، ابن النحَّاس، المصري، النحوي (ت 338 هـ) أنَّ قولهم: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ» خطأ، وقال: إنَّ العرب لا تضيف كلمة «آل» إلاَّ إلى الاسم الظاهر خاصة، ولا تضاف إلى المضمر، والصواب أن تقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد». انظر: الزبيدي: المصدر السابق، ص 14، وانظر: الصفدي: تصحيح التصحيف، ص 67، وانظر: القسطنطيني: المصدر السابق، ص 16.

وراجع في تجويز إضافتها إلى اسم الجنس، وإلى المضمر تفسير الآية 49 من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في تفسير القرطبى، وفي تفسير أبى حيَّان «البحر المحيط».

(2) الموافق لشهر أكتوبر من سنة 1490م. انظر: مختار باشا: المرجع السابق جـ 2/ ص 931، والصواب أنْ يقول: «.. وخمس وتسعين».

(3) في الأصل «مكانٌ» بالنصب، وبلا ألف، وهو خطأ.

(4) صِهْيَوْن: تطلق كلمة صهيون على موضعين:

أ ـ موضع، في بيت المقدس، فيه كنيسة صهيون، بنيت مكان قلعة كنعانية، كانت في الأصل حصناً يبوسياً، استولى عليه سيدنا داود ﷺ، في سنة 1003 ق.م. وسمَّاه «مدينة داود»، وبتطور الزمن أصبح يطلق على هيكل سيدنا سليمان ﷺ، ثم أصبح يطلق على مدينة أورشليم كلها. انظر: مادة «صهيون» في دائرة المعارف الكتابية، CD، من إصدار دار الثقافة، بالقاهرة.

ب ـ قلعة صلاح الدين، ويقال لها باليونانية: (Sigon)، وبالفرنجية (Saone ،Sahaune) وتقع فوق جرف صخري ما بين خانقين عميقين في جبال النصيرية، من أعمال حمص، على بعد 15 ميلاً شمالي شرق اللاذقية.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 3/ ص 436، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 256، وانظر: فولفغانغ مولّر ـ فينر: المرجع السابق ص 50.

هؤلاء بأمان، دون عقد جزية، فانضمَّ إليهم شخص نصراني ماروني، من بلاد طرابلس، وحسَّن إليهم التلبيس[1] والكذب؛ فأنهَوْا بقصَّته، لبَّسُوا فيها لدى المواقف السلطانيَّة أنَّ بقرب ديرهم مكاناً، يعرف بقبر المنسي[2]، يتبرَّك به المسلمون وسألوا في بناء قبَّة عليه، فراج تلبُّسهم، ومُكِّنوا من بناء قبَّة؛ فعمدوا إلى مكان بقرب ديرهم، بعيد عن قبر المنسي المذكور، فبنوا به قبَّة جديدة، محكمة، بالحجر الفص[3] النَّحيت المجرَد، والجبس والجير، ثمَّ بعد بنائها سدُّوا جوانبها بالبناء، وجعلوها كنيسة، وبنوا بها هيكلاً ـ وهو بناء عندهم بمنْزِلة المحراب عند المسلمين ـ فرُفع أمرها إلى سلطان الإسلام الملك الأشرف أبى النصر قايتباى[4] ـ أيَّد الله تعالى بدولته الشريفة الإسلام، ورفع بها أعلام العدل وألويته للأنام ـ فبرز مرسومه أنْ يجتمع العلماء، والقضاة، وأهل الخير، ببيت المقدس، ويُحرَّر الأمر، ويُهْدَم ما يخالف الشرع الشريف، فاجتمعوا كما رُسِم به، وأفتى من يشاء إليه بالفتوى منهم بهدمها، وحكم القاضي الشافعي على من وضعها عُدْواناً بإزالتها، ونَقَلَ حكمَه بقيَّةُ القضاة.

---

(1) التلبيس: كالتدليس، والتخليط شدد للمبالغة، يقال: تلبَّس بى الأمر: اختلط، وتشبَّه، وأصبح مشكلة.

انظر: ابن منظور: لسان العرب «لبس» جـ 6/ ص 204.

(2) مَنَسَّ: هو ابن يوسف بن يعقوب البكر ـ عليهم السلام ـ وأبو واحد من أسباط بنى إسرائيل. انظر: معلوف: المرجع السابق ص 548.

(3) الفصَّ: انفصَّ الشيء من الشيء: انفصل منه، أي المقطوع من الحجارة.

انظر: ابن منظور: لسان العرب «فصص» جـ 7/ ص 67.

(4) أبو النصر، سيف الدين، قايتباي المحمودي (815 ـ 901 هـ/ 1412 ـ 1496م) أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة، دام حكمه نحو ثلاثين عاماً. وكانت مدته حافلة بالعظائم والحروب.

انظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 6/ ص 201، وانظر: ابن الحنبلي، رضيّ الدين: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، دمشق، 1972م جـ 2/ ص 56، وانظر: الغزي: الكواكب السائرة جـ1/ ص298، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ 8/ ص 6 وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 5/ ص 188.

فامتنع المحكوم عليه من الفرنج عناداً، فهدم المسلمون الكنيسة المذكورة، ثـمَّ بعد أيَّام من هدمها، عاد الفرنج إلى عنادهم، فأخـذوا الحجـارة التـي هـي أنقـاض البناء، وأعادوها جداراً دون سقف، وأعادوا الهيكل ليجتمعـوا عنده للكفـر، فهـل يجوز إحداث كنيسة ببيت المقدس؟

وهل ينتقض عهد من أحدثها أو لا[1]؟

وهل يجب على المسلمين[2] هدمها إذا بنيت؟

وهل يأثم من قدر على إزالتها، ولم يفعل؟

وهل يجب هدم ما أعادوه من الجدار، والهيكل، وما بقى مـن البنـاء الأول أو لا؟ أفتونا مأجورين بالجواب أثابكم الله.

الجواب: لا يحلّ إحداث كنيسة مطلقاً، لا سيّما ببلد مـن بـلاد الإسـلام، ولا سيَّما ببيت المقـدس الذي بارك الله تعالى حول مسجده الأقصى، وأثبت له فـضلاً لا يُبْلَغ كنهه، ولا يُسْتَقْصى، وجعله ثاني المسجدين وضعاً وبناءً، وثالث الحرمين فضلاً وسناء، تشدُّ إليه الرِّحال، وتُحطُّ عمَّن قصده للصلاة فيه الأثقال، فيجـب عـلى كـل مسلم له قدرة على هدم هذه البنيّة الخبيثة أنْ الجـدار الـذي أعـاده الفـرنج بأنقـاض الكنيسة المذكورة، فوق بقايا يبادر إليه، فإنْ لم يقدر فالواجب عليه التوصُّل إليـه بـما يمكِّنه، ويأثم كل من قدر على شيء من الأمرين وتركه، وكذا حكم جدرانها، يجـب على كل من له قدرة نَقْضُهُ، ومحو أثر هذه الكنيسة بالكليّة، لا سيَّما إذا كانـت إعـادة هيكلها الذي هو شعار الكفر وبناء الجدار حوله بالأنقاض مُرَاغَمَةً لأهل الإسـلام وعناداً وقد انتقض ببنائها عهدهم؛ لأنَّ المأخوذ عـلى أهـل الذِّمّـة في شروط الـسيِّد عمر بن الخطَّاب فيما شرطه نصارى الشام على أنفسهم، وكتبوا به كتابا إلى عمـر ﷺ

(1) في الأصل «أم لا» وهو خطأ نحوي، لا تستخدم «أم» إلاَّ مع الاسـتفهام بـالهمزة، وقـد تكـرر هـذا الاستفهام بالصيغة المذكورة، وقد أصلحتها كلها.

(2) في الأصل «على المسلمون» وهو خطأ بيِّن، ومن المعروف أنَّ مثل هـذه الأخطـاء النحويـة شـائعة في كتابات المؤرخين المتأخرين.

ولفظ الرواية التي أوردها الشيخ بإسناده، وساقها السُّبْكِيُّ[1] بإسناده إليه: «شرطنا لكم على أنفسنا أنْ لا نحدث في البلد، ولا فيما حولها ديراً، ولا كنيسة، ولا قَلاَّية[2]، ولا صومعة راهب، ولا يُجدّد ما خُرِّب منها، ولا نُحْيِي ما كان منها في خطط المسلمين...».

وفي آخر الكتاب «شرطنا لكم ذلك على أنفسنا، وأهل مِلَّتِنَا، وقَبِلْنَا عليه الأمان، فإنْ نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم، وضَمِنَّاه على أنفسنا، فلا ذمَّة لنا، وقد حلَّ لكم منَّا ما يحل من أهل المعاندة والشِّقاق»[3].

ولم يزل الأئمة والخلفاء والملوك يأخذون أهل الذِّمَّة بها في عهد عمر ﷺ، ويعقدون لهم الأمان بالجزية على ذلك، هذا في أهل الذِّمَّة، أمَّا الفرنج الذين دخلوا بأمان، دون عقد جزية فهم أولى بانتقاض أمانهم لأنَّ العقد لهم أضعف من العقد بالجزية لأهل الذِّمَّة، كما صرَّح بذلك الإمام، شيخ الإسلام السبكي، ولو بقي من

(1) أبو الحسن، تقي الدين، على بن عبد الكافي، السبكي، الأنصاري، الخزرجي، المصري (683 ـ 756 هـ/ 1284 ـ 1355 م) شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، تولى قضاء الشافعية في دمشق، ومن المكثرين في التأليف، منها:

«المسائل الحلبية وأجوبتها» في فقه الشافعية، و«مجموعة فتاوى»، و «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» وغيرها. انظر: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر جـ 3 ص 417، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 4/ ص 302، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ 7/ ص 127.

(2) القلاية: كلمة يونانية، ومعناها: مسكن الأسقف. انظر: معلوف: المرجع السابق ص 652، وفي المعاجم القديمة: تعريب كلاَّذة، وهى من بيوت عبادتهم كالصومعة. انظر: ابن الأثير، مجد الدين: المصدر السابق مادتي «بعث، وقلى» جـ 1/ ص 139، وجـ 4/ ص 105، وانظر: ابن منظور: لسان العرب «قلى» جـ 15/ ص 201، وزعم الخفاجي أنها عربية صحيحة جاءت في الشعر الموثوق به. انظر: شفاء الغليل ص 215، وفي موضع آخر نقل الباز العريني عنه «أنَّها بناء مرتفع ينفرد فيه راهب واحد؛ لينصرف إلى العبادة الانعزالية، وقد لا يكون للقلاية باب ظاهر، إمعاناً في العزلة» انظر: شفاء الغليل ص 221 وانظر: الشيزري: المصدر السابق ص 121.

(3) تراجع هذه الشروط في: سنن البيهقي الكبرى جـ 9/ ص 202، وانظر: الحنبلي: الأنس الجليل جـ 1/ ص254، وانظر: الشيزري: المصدر السابق ص 106، والملحق الأول ص 120.

بناء هذه الكنيسة بقيَّة لخيف ـ إذا طال الزمان ـ أنْ يدَّعى الفرنج قِدَمَها افتراءً منهم، ويزعمون زعماً باطلاً أنَّها كانت بأيديهم، وأنَّهم قُرِّرُوا عليها، ويُقِيمُون على ما اختلقوه وافتروه شُهُودَ زُورٍ ممَّن يدَّعى الإسلام، جَهَلَةً لا يعلمون حكم ما يشهدون به، كما جرى منهم في غير هذه الواقعة، ويتوصَّلون ببذل الأموال إلى مقصدهم الخبيث، وبالله أُقْسِمُ أنَّ مَنْ يدَّعي الإسلام، ثمَّ يجعل شهادته الزور وسيلة إلى تجديد مكان يُكْفر فيه بالله ورسوله لفي غمرة، لا يهتدي معها إلى ما وقع فيه من المصيبة العُظْمى في دينه؛ فإنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم.

قال ذلك، وكتبه محمد بن أبى شريف، الشافعي، سائلاً العفو والعافية.

جميعه منقول من خطه، بحروفه، وما يتلوه كذلك منقول من خطِّه أيضاً:

وسُئِلْت في التاريخ المذكور عن واقعة أخرى تتعلَّق برهبان دير صهيون سؤالاً صورته، في واقعة وقعت ببيت المقدس ـ حماها الله تعالى ـ وهي أنَّ بالقدس مكاناً اسمه «صهيون» هو الآن دير يسكنه رهبان الفرنج، وبه بيت يسمَّى «قبر داود» وهؤلاء الرهبان قوم يأتون من دار الحرب، فيدخلون بأمان مع من يأتي من تجَّار الفرنج، ونحوهم، فيقيمون بهذا المكان، ولا يؤدّون جزية، ثمَّ إذا بدا لواحد منهم الرجوع إلى دار الحرب رجع، من غير أنْ يعقد لهم عقد جزية.

فقصد شخص مسلم قديماً، في زمان السلطان الأشرف بَرْسْبَاي[1] أخذ بوَّابة هذا المكان المعروف بقبر داود، فأخذها بمرسوم سلطاني طويل؛ فسعى الفرنج في إبطال ما فعله، واستفتوا على وَجْهٍ رتَّبه لهم بعض الملبِّسين، فأشهدوا على ذلك الرجل أنَّه لا حقَّ له في البوَّابة، ولا في المكان المذكور.

(1) أبو النصر، بَرْسْبَاي، الدقماقي، الظاهري، الملك الأشرف (766 ـ 841 هـ/ 1365 ـ 1438 م) من أعظم الملوك الجراكسة في مصر، فتح قبرص، وأنشأ عدداً من المدارس، والعمائر. انظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 3/ ص 8، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ 7/ ص 238، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص 48.

ثمَّ لَمَّا كان في أثناء دولة الملك الظاهر جَقْمَق[1] ـ رحمه الله تعالى ـ رُفِع إليه أمر المكان المذكور، وأنَّه لم يزل جارياً على الألسنة أنَّه قبر السيِّد داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأمر برفع يد الفرنج المذكورين عنه، وتسليمه للمسلمين، فرُفعت يد الفرنج عنه، واتُّخذ مسجداً للمسلمين، وبُنِيتْ[2] به قبلة لجهة الكعبة ـ شرّفها الله تعالى، وعظَّمها ـ بغير موضع القبر؛ فإنَّ القبر في الجدار الشمالي منه، بحيث صار البيت كله مسجداً، وأقيمت به الصلاة، وتردد المسلمون إليه للصلاة والزيارة.

ثمَّ لَمَّا وَلِيَ الأشرف أَيْنَال[3] أكَّد ذلك بأنْ رتَّب رجلاً، من أهل العلم، حنفيّاً، ناظراً في مصالح هذا المسجد والضريح، وجعل له على ذلك مرتَّباً، على مال الجوالي[4]، بمرسوم، مربَّع سلطاني[5].

---

(1) أبو سعيد، سيف الدين، جَقْمَق، العلائي، الظاهري (ت 857 هـ/ 1453م) من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام والحجاز، كان ملكاً عظيماً، كريماً، هدأت البلاد في عهده من الفتن. انظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 3/ ص 71، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ7/ ص 291، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص 132.

(2) في الأصل: «وبَنَتْ» سهو من الناسخ.

(3) أبو النصر، سيف الدين، أَيْنَال، العلائي، الظاهري، الملك الأشرف (784 ـ 865 هـ/ 1382 ـ 1461م) من ملوك دولة الجراكسة بمصر، والشام، والحجاز، قام بأعباء الملك بحكمة وعقل. انظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 2/ ص 328، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ7/ ص 304، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 2/ ص 35.

(4) الجوالي: هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم، وهي واجبة على الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين والفقراء، وتسقط عنه إذا أسلم، وهي ثلاث طبقات:

عالية: ومبلغها 4 دنانير وسدس. ووسطى: ومبلغها ديناران وقيراطان.

وسفلى: ومبلغها دينار واحد، وثلث، وربع، وحبتان.

وللجوالي ناظر، وله أتباع، وحاشر لليهود، وحاشر للنصارى، يعرفان أرباب الأسماء الواردة في الديوان، ومن ينضم إليهم ممن يبلغ في كل عام من الصبيان. انظر: ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 317 وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ 3/ ص 491، وانظر: حبيب زيَّات: سمات أهل الكتاب في المصنفات العربية، باعتناء غادة يوسف خوري، دار الحمراء، بيروت، 1992م، ص91.

(5) المرسوم: هو ما يكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلَّق بالولاية. انظر: ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت، سنة 1988م ص 120. =

ولم يزل هذا المكان[1] مسجداً إلى الآن نيِّفاً وأربعين سنة.

ثمَّ في هذه الأيَّام زعم الفرنج أنَّ هذا المكان كان قبراً لهم، يدفنون به موتاهم، وقصدوا انتزاعه من أيدي المسلمين، وإعادته مقبرة لهم، ولبَّسوا في ذلك على بعض أعيان أمراء المسلمين.

فهل ما فُعِل بأمر السلطان الظاهر جَقْمَق ـ رحمه الله ـ ورفع يد الفرنج أمر سائغ شرعاً أو لا؟

وهل يحلُّ إعادة هذا المسجد مقبرة للكفار، أو محلاً يذكر به كلمات الكفر بعد ما ذكر أو لا؟

وهل يعتبر لصحّة ما فعله السلطان الظاهر جقمق أنْ يثْبت بالتواتر أنَّ هذا المكان قبر السيّد داود أو له فعل ذلك على الاحتياط لظهور المصلحة له في ذلك؟

وهل لهؤلاء الفرنج الذين ليس لهم عقد جزية يد على مكان في بلاد المسلمين أو لا؟

وبتقدير أنْ يكون لهم عقد جزية هل يلزم من كون الذين بأيديهم الآن كونه بيدهم من عهد فتوح السيِّد عمر بن الخطاب ﷺ أو يحتاجون إلى ثبوت كون المكان المذكور في عهد السيد عمر دَيراً بأيديهم؟

= والمرسوم المربع: هو الذي يرد إلى ديوان الإنشاء من ديوان الجيش ابتداء، والذي يكتب بالإقطاع، لتخرج المناشير على نظيره، وقد فرَّق القلقشندي بين المرسوم المربع، والمنشور، فكل ما يكتب من ديوان الجيش «منشور»، وكل ما يكتب من ديوان الوزارة، أو ديوان الخاص، وغيرهما «مربعات». انظر: القلقشندي: صبح الأعشى جـ4/ ص 217، وجـ6/ ص 201، وجـ8/ ص 75، وجـ13/ ص 154، وجـ14/ ص 122.

والسبب في تسميته «المربع» ما جرت به العادة في أن يقسم التقليد أربعة أقسام متقاربة في مقاديرها، وهي: الأول: الخطبة.

والثاني: ذكر موقع الإنعام في حق المقلَّد، وبيان الرتبة، وتفخيم أمرها..

والثالث: في أوصاف المقلَّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة من الألقاب.

والرابع: في الوصايا. انظر: الحلبي، شهاب الدين محمود بن سالمان بن فهد: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، 1980م، ص 368.

(1) انظر: في الأصل: «هذه المكان» سهو من الناسخ.

وهل يحلُّ لأحد مساعدة الفرنج المذكورين على إعادة هذا المسجد مقبرة للكفار، ومحل الكفر أو لا؟

وهل إفتاء من أفتاهم قديماً برفع يد ذلك الرجل المستولي على البوابة، وشهادة الرجل على نفسه بأنّه لا حقَّ له في المكان يقتضي منع السلطان الظاهر - رحمه الله - مما فعله بعد ذلك من رفع يدهم لمّا ظهر له، وجعل المكان مسجداً أو لا؟ وإذا كان بناء هذا المكان المُتَّخَذ مسجداً متصلاً ببناء دير صهيون - فهل يمنع ذلك من رفع أيديهم، واتّخاذه مسجداً أو لا؟

وهل الكنائس والديارات ونحوها مما في بلاد المسلمين مملوكة للكفار، حتى يمتنع تصرف الإمام فيها، بغير رضا منهم أو ليس لها حكم المِلْك؟

وهل للإمام، أو سلطان الإسلام أنْ يجلي طائفة من أهل الذمَّة عن مكان من بلاد المسلمين لما يراه من المصلحة أو لا؟

أفتونا مأجورين.

الجواب: هذا الذي فُعِلَ بأمر الملك الظاهر جقمق - رحمه الله - سائغ شرعاً، بل هو قُرْبَة يُتَقَرَّب بها إلى الله تعالى يثبت عليها الثواب الجزيل، بالقصد الجميل، وكيف لا يسوغ ذلك شرعاً والحال أنَّ هؤلاء الفرنج لا يد لهم في دار الإسلام؛ لأنَّهم داخلون بأمان، دون عقد جزية، وبتقدير كونهم بعقد جزية فلسلطان الإسلام أنْ يجلي طائفة من الكفار عن بلد من بلاد الإسلام، وعمّا فيها من الكنائس لمصلحة تظهر في ذلك، لما قرّره السبكي وغيره من الأدلّة التي سنشير آخر هذا الجواب إلى بعضها، فكيف لا يكون له أنْ يجليهم عن بيت من دير لمصلحة الاحتياط في صيانة جناب نبي كريم عن دفن جيف الكفار بقربه، وعن الإتيان بكلمات الكفر عنده؟ فلا يحلُّ في دين الله إعادة هذا المسجد مقبرة للنصارى، ولا محلَّ كفر بعد أنْ صار مسجداً من مساجد المسلمين بأمر سلطان الإسلام[1] إذ ذاك، وقد كان بُنِي به محراب لقبلتهم، لا سيّما وقد أقيمت به الصلوات، وتردّد الناس إليه للزيارة المذكورة، وبالله

---

(1) العبارة في الأصل: «مقبرة للنصارى...بأمر السلطان الإسلام» خطأ ظاهر.

أُقْسم أنَّ الساعي في إعادة هذا المسجد[1] مقبرة لجيف الكفَّار، أو محلَّ كفر لمرتكبٌ أمراً من العظائم، في الاستخفاف بالدين، وانتهاك حرمة الإسلام والمسلمين، وقد اسْتُفْتِي شيخ الإسلام، إمام عصره الشيخ، سراج الدين البُلْقَيْنِي[2] ـ رحمه الله ـ في مثل هذه الواقعة سنة ثمان وستين وسبعمائة[3] فأجاب فيها بمنع الإعادة، واستنكر الكلام في إعادتها استنكاراً كثيراً، وذكر لتوجيه جوابه بالمنع أحد عشر وجهاً، منها ما هو خاص باليهود، ومنها ما هو مشترك بين اليهود والنصارى، كما هو مدوَّن في «فتاويه» التي جمعها ولده العلاَّمة قاضي الشافعيَّة بالديار المصريَّة علم الدين صالح[4] ـ رحمه الله ـ وقال الشيخ، الوجه العاشر منها، بعد أنْ قرّره منكِراً على من يحاول ردَّ أمر السلطان، ذلك الوقت باتخاذها مسجداً، فقال: هذا أمر يُسْتَغَاثُ منه، ويُجْأر إلى الله تعالى، ويقال: وا غوثاه، وا غوثاه، وا غوثاه، وا محمَّداه، وا محمَّداه، وا محمَّداه، اللَّهمَّ فرِّج كربتنا، وأجب دعوتنا، وانصرنا على أعدائنا ـ هذا كلام شيخ الإسلام البُلْقَيني ـ ولا يعتبر لصحَّة ما فعل من رفع يد الفرنج عن المكان من قِبَل

---

(1) في الأصل: «هذه المسجد» خطأ.

(2) أبو حفص، عمر بن رسلان (724 ـ 805 هـ/ 1324 ـ 1403 م) فقيه، أصولي مفسر، نحوي، شاعر، شيخ الإسلام في عصره، ومن كبار العلماء، له مؤلفات كثيرة منها «ترجمان شعب الإيمان»، و «تصحيح المنهاج». انظر: السخاوي: الضوء اللامع جـ 6/ ص 85، وانظر: ابن طولون: قضاة دمشق ص 109، وانظر: السيوطي: حسن المحاضرة جـ 1/ ص 183، وانظر ابن العماد: المصدر السابق جـ 7/ ص 51، وانظر: الزركلي المرجع السابق جـ 5/ ص 46، وانظر كحالة: المرجع السابق جـ 7/ ص 284.

(3) توافق سنتي 1365 ـ 1366م. انظر: مختار باشا: المرجع السابق جـ 2/ ص 804.

(4) أبو البقاء، صالح بن عمر (791 ـ 868 هـ/ 1389 ـ 1464م) فقيه، محدّث، مفسر، شاعر، متكلم، ولي قضاء الشافعية بمصر، له مؤلفات كثيرة، منها: «الغيث الجاري على صحيح البخاري». انظر: ابن حجر: رفع الإصر ص 169، وانظر: السخاوي: الذيل على رفع الإصر ص 155، وانظر: السيوطي: حسن المحاضرة جـ 1/ ص 444، وانظر له أيضاً: نظم العقيان ص 119، وانظر: ابن العماد: المصدر السابق جـ 7/ ص 307، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 3/ ص 194، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ 5/ ص 9.

سلطان الإسلام أنْ يثبت بالتواتر أنَّ بذلك المكان قبر داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل يكفى لذلك رعاية الاحتياط؛ ومما يَقْوَى به رعاية الاحتياط أنَّـه مع اشتهار كونه قبر داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الألسنة ما في بعض التواريخ من أنَّ صـهيون كانت دار داود.

بل قد نُقـل أنَّ معنـى صـهيون ـ بالـسريانيـة ـ بيـت داود[1]، وقـد كانـت بيـت المقدس[2] دار مملكة السيِّد داود، وولده سليمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بعده، وكثـير من ملوك بني إسرائيل وأنبيائهم ولم يرد أنَّ وفاة داود كانت بغير بيت المقدس، فالظاهر أنَّه مات بمنْزِله، وقد ورد في صحيح البخاري، وغيره مرفوعاً إلى النبي ﷺ: ﴿الْأَنْبِيَاءُ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ﴾[3]، فقد ظهر فوق رعاية الاحتياط بما ذكرناه.

---

(1) لا يعرف معنى «صهيون» على وجه التحديد، ولا الأصل الذي اشتق منه اللفظ، وأكثر الآراء قبـولاً عند العلماء تُرْجِع اللفظ إلى أصل عبري، أو إلى أصل عربي؛ فيرجعـه ديلتـزك Delitzsh إلى الأصـل العبري «سوى»، بمعنى أقام.

ويرجعه جسينيوس Gesenuis إلى أصلين:

الأول: أصل عبري «صها» بمعنى يَبِس، أو جَفَّ.

والثاني: الأصل العربي «صهوة» بمعنى قمّة الجبل، أو القلعة، وهو معنى يطابق موقع المدينة، حيـث كانت تدعى أصلاً «حصن صهيون».

انظر: دائرة المعارف الكتابية CD مادة «صهيون».

ومعروف أنَّ اللغات العبرية والعربية والسريانية كلها ترجع إلى أصل واحد هو اللغـة الـسامية الأم؛ ولذلك يصعب إرجاع اللفظ إلى لغة بذاتها ما لم يكن هناك دليل تاريخي مؤكد.

(2) هكذا في الأصل، والصواب «كـان بيـت المقـدس»، ويمكـن اعتبـاره أراد البلـدة؛ فتـصح العبـارة بالتأويل.

(3) في فتح الباري بشرح البخاري، باب «أمور الإيمان»، يقول ابن حجر:

هذا الحديث رواه ابن ماجة في حديث ابن عبَّاس ﷺ عن أبى بكر ﷺ مرفوعـاً (مَـا قُـبِضَ نَبِـيٌّ إلاَّ دُفِـنَ حَيْثُ يُقْبَضُ)، وفي إسناده حسين بن عبد الله الهاشمي، وهو ضعيف، وله طريق أخرى مرسـلة. انظـر: ابن حجر: فتح الباري «باب أمور الإيمان» جـ 1/ ص 529 وانظر: الآمدي: الأحكـام جــ 2/ ص 77، وانظر: شرح السيوطي جــ 3/ ص 200، وانظـر: الـشوكاني: نيـل الأوطـار جــ 2/ ص 139، وانظـر المباركفوري: تحفة الأحوذي جـ 2/ ص 437.

وأمَّا نَقْلُ من نَقَلَ عن بعض التفاسير أنَّ سليمان دَفَنَ أباه داود بالقرب من غار إبراهيم[1] ـ عليهما الصلاة والتسليم من الربِّ الرحيم ـ فأمر لا يعرف عند مكان الأراضي المقدَّسة أصلاً ولا ذَكَر له ناقله سنداً، ولا ما يصلح مُسْنداً، وإنَّما المتوارث عن جيل فجيل منهم أنَّ قبر داود بهذا المكان الذي بصهيون، وهؤلاء الفرنج الداخلون دار الإسلام بمجرَّد الأمان، المقيمون فيها بغير عقْد جزية لا يد لهم على شيء من دار الإسلام ـ كما قدَّمْنا الإشارة إليه ـ فمن أعان الفرنج المذكورين على إعادة هذا المكان مقبرة كفَّار ومحلاً لدفن جيفهم الخبيثة، بعد مصيره مسجداً، فهو آثم ظالم، يُخْشَى عليه الوقوع في الكفر؛ قال الله تعالى ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ...﴾[2] الآية الشريفة، وسواء أعانهم بشهادة بأنَّ المكان كان بأيديهم؛ ليلبس على كل سقيم الفهم، ويوهمه أنَّه كان ملكاً لهم ـ ولم يكن ملكاً لهم قط؛ لما سنُبيِّن، إذْ يدهم على كنائسهم ليست يد ملك ـ وأعانهم بكتابة يتوصَّل بها إلى ترويج باطلهم، وإبطال حقِّ الإسلام.

وأمَّا فتوى من أفتاهم من العلماء قديماً برفع يد ذلك الرجل المنازع لهم في بوَّابة المكان فقد كانت قبل ولاية الملك الظاهر جقمق الذي رُفِع إليه الأمر، فأزال يدهم عن المكان، وجعله مسجداً؛ فلا يقتضي تلك الفتوى بطلان ما فعله سلطان الإسلام إذْ ذاك من رفع يدهم عنه، وجعله مسجداً.

وأمَّا كون المكان المذكور داخلاً في بناء صهيون فلا يمنع من رفع يدهم عنه، واتخاذه مسجداً، كما قدَّمْناه، هذا كله بتقدير ثبوت يد معتبرة لهم شرعاً على المكان

---

(1) لم يرد هذا الاسم في كتب الجغرافية العربية التي اطلعت عليها، ولعله يريد مغارة المكفيلة في حقل عَفْرُون بن صُوحر الحِثّي الذي تجاه «ممرا»، في الحقل الذي اشتراه إبراهيم من بنى حَتّ، حيث دفن هو وامرأته سارة. انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين الإصحاح 25، الآيات 9 ـ 11، وانظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 14.

(2) سورة البقرة 2: 114.

المذكور، ونحوه، ولا يثبت لهم الآن يد معتبرة، لا باستصحاب المتعارف[1] الذي يعتبره الجمهور من العلماء ولا يعتبرون الاستصحاب المقلوب، ولا بالاستصحاب المقلوب[2] الذي يعتبره بعض المتأخرين؛ لأنَّ العبرة عندنا بفتح السيِّد عمر ﷺ، وتقريره، ولا يمكن استصحاب ما كان في عهده بشيء من الطرفين؛ لأنَّ ما عرض من اضطراب أمر اليد المستندة إلى تقرير السيِّد عمر يمنع من كل منها:

أمَّا **الأول**: فلأنَّ شرطه تحقق وجود اليد المستصحبة في عين المتنازع المستند فيه بالاستصحاب، ليستصحب ما هو محقق الوجود.

وأمَّا **الثاني**: فلأنَّ اضطرابها أولى بالقدح فيه؛ لأنَّه ضعف، والاضطراب هو بما وقع من الفرنج في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة[3] من أخذهم بيت المقدس، ونصبوا عليها أربعين منجنيقاً، ولم يزالوا حتى استولوا عليها بالسيف، وقتلوا بمسجدها الأقصى، ونقضوا العهد قهراً ما يزيد على سبعين ألفاً؛ لأنَّ أهلها وأهل

---

(1) الاستصحاب: عند الأصوليين معناه: إبقاء الأمر على ما كان عليه لانعدام المغيِّر، أو هو الحكم الذي يثبت في الزمان الثاني بناء على الزمان الأول، وهو حجّة عند الشافعي، وعند أكثر الحنفيّة ليس بحجّة. انظر: الجرجاني: المصدر السابق، ص 29، وانظر: التهانوي: المصدر السابق، جـ1/ ص153.

وعرَّفه المناوي، وبيَّن أنواعه، فقال: «الاستصحاب: التمسك بما كان سائداً إبقاء لما كان على ما كان لفقد المغيِّر، أو مع ظن انتفائه، عند بذل المجهود في البحث والطلب، وهو أربعة أنواع: استصحاب حال الفعل ـ واستصحاب حال العموم إلى ورود مخصص ـ واستصحاب حكم الإجماع ـ واستصحاب أمر دلَّ الشرع على ثبوته في دوامه».

انظر: المناوي: المصدر السابق، ص 57.

(2) لم أجد تعريفاً للاستصحاب المقلوب، ويشير التهانوي إلى نوعين من الاستصحاب، أحدهما عكس الآخر، قال: «هما جعل الحكم الثابت في الماضي مصاحباً للحال، أو جعل الحال مصاحباً للحكم الماضي»؛ فلعل الاستصحاب المقلوب هو النوع الثاني الذي يتخذ من الزمن الثاني دليلاً على الحكم في الزمن الأول. انظر: التهانوي: المصدر السابق جـ 1/ ص 154.

(3) في الأصل: «سنة اثنتين..» وهو خطأ نحوي، وهذا التاريخ الهجري يوافق سنة 1098م انظر: مختار باشا: المرجع السابق جـ 1/ ص 524.

ضواحيها، والقرى المجاورة لها لجؤوا إليها[1]، وإلى مسجدها فقُتل أكثرهم، وأقام الفرنج يقتلون من ظفروا به منهم وللقصة تفاصيل مذكورة في التواريخ، يتصدَّع لها القلوب، واستولوا عليها تسعاً وتسعين سنة، ودرست معالمها، وتغيَّرت أحوالها ومراسمها، فكيف يثبت لهم بذلك يد على مكان معيَّن منها من عهد السيِّد عمر رضي الله عنه بالاستصحاب؟ ولقد بلغني عن بعض المتعصِّبين لحزب الشيطان أنَّه قال: كيف يصلِّي المسلمون، ويذكرون الله بمكان سفلي، والكفَّار يكفرون بمكان علوي فوق مكانهم؟ وزعم أنَّ ذلك يقتضي إبطال كَوْن المكان المذكور مسجداً، وتسليمه للكفار، وما درى هذا الزاعم أنَّ ذلك خطأ ووَبَالٌ، والعياذ بالله على قائله، بل ينبغي أنْ يكون الأمر على العكس مما قاله، وهو أنْ يمنع الكفَّار من الاستعلاء بالكفر على المسلمين، كيف، وقد قال نبيُّنا ﷺ: **(لاَ تَكُونُ قِبْلَتَانِ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ)**[2] رواه أبو داود[3]، والترمذي[4]، ولفظ الترمذي: **(لاَ تَصْلُحُ قِبْلَتَانِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ)**[5] فليت شعري ما الذي يفهمه هذا الزاعم من هذا الحديث الشريف؟

---

(1) هذا النص بالغ الأهميَّة؛ فهو يشير إلى هروب المسلمين من وجه الصليبيين، من خارج القدس إلى داخلها، والالتجاء إلى الحرم الآمن، ليجدوا الأمان، ولكنهم قتلوا، ولم تشر الحوليات التي بين أيدينا إلى هذا الأمر.

(2) في الأصل: «لا يكون»، والمثبت رواية أبي داود. انظر: السنن «باب في إخراج اليهود من جزيرة العرب» جـ 3/ ص 165، ومثله في سنن البيهقي الكبرى جـ 9/ ص 208.

(3) أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق، الأزدي، السجستاني (202 ـ 275 هـ/ 817 ـ 889م) محدِّث، حافظ، فقيه، له كتاب «السنن».
انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ 13/ ص 203، وانظر له العبر جـ 1/ ص 396، وانظر: الصفدي: الوافي بالوفيات جـ 15/ ص 353، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ 3/ ص 122، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ 4/ ص 255.

(4) أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة، الترمذي (209 ـ 279 هـ/ 824 ـ 892 م) من أئمة علماء الحديث وحفاظه، كان يضرب به المثل في الحفظ، من كتبه «الجامع الصحيح» المشهور بسنن الترمذي.
انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ 13/ ص 270، وانظر له العبر جـ 1/ ص 402، وانظر: السيوطي: طبقات الحفاظ ص 263، وانظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ 3/ ص 8، وانظر: الزركلي: المرجع السابق جـ6/ ص 322، وانظر: كحالة: المرجع السابق جـ11/ ص104.

(5) في الأصل: «لا يصلح»، والمثبت رواية الترمذي، انظر: السنن «باب ما جاء ليس على المسلمين جزية» جـ3/ ص 27.

هل يفهم تعطيل قبلة النصارى أو اليهود لأجل قبلة المسلمين، أو يفهم العكس، والعياذ بالله، وهو تعطيل قبلة المسلمين لأجل قبلة النصارى واليهود؟

ومن الغريب ـ أيضاً ـ قولٌ آخرٌ: يقال من جهة من يتعصَّب لنصر الفرنج وهو: إنَّ ببلاد الفرنج مساجد للمسلمين، وأنَّه بسبب منع الفرنج من هذا المكان يُضَيِّق الفرنج على من ببلادهم من المسلمين، ويخرِّبون مساجدهم، وهل يحسن أنْ يقال هذا مع أنَّ المسلم يجب عليه الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام حيث لم يتمكّن من إظهار دينه؟ فكيف يستوطن المسلمون دار الحرب، ويتخذون بها مساجد؟ ومع ذلك فهذا الذي قيل خلاف الواقع؛ لأنَّه لم يزل الإفرنج يجتهدون في أذى المسلمين، بكل ممكن، وكأنَّ هذا القائل لم يسمع ما يقع منهم كل قليل من سَبْي المسلمين للقتل أو للفداء، ولا سمع ما حلَّ بالمسلمين في بلاد الأندلس التي هي مسير أشهر، وقد استولى الإفرنج على المدائن العظيمة بها مثل: قرطبة[1] وسبتة[2] وإشبيلية[3]، وطنجة[4]، وغيرها من المدائن الحافلة التي أفنوا معظم أهلها قتلاً، وأسراً، وأخربوا مساجدها، ومشاهدها، وجعلوها مرابطاً لخيولهم، ومن

---

(1) قرطبة: أعظم مدينة بالأندلس، وهي حصينة بسور من حجارة، وتقع على غربي النهر الكبير. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 324، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 174.

(2) سبتة: مدينة شمالي المغرب، بين البحر المتوسط والمحيط. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ3/ ص 182، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 132.

(3) إشْبيلية: من قواعد الأندلس، على شرقي نهرها الأعظم، وهي تقع غربي قرطبة، بينهما أربعة أيام. انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 1/ ص 195، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 174.

(4) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ 4/ ص 43، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 132.

ومعروف أنَّ مدينتي سبتة، وطنجة من بلاد المغرب العربي، وليستا من بلاد الأندلس، وقد وهم المؤلف إذ ظنهما من البلاد التي استولى عليها الفرنج.

جملتها جامع قرطبة الذي هو من أعظم جوامع أهل الإسلام، وهم مستمرّون على هذه القبائح إلى الآن، والله المستعان.

وأمّا السؤال عن حكم الكنيسة والدير، ونحوهما، فهل هي مملوكة لأهل الذمة، أو ليس لها حكم الملك؟

فجوابه: إنّها ليست مملوكة لهم، فليس ليدهم عليها حكم اليد على الملك، أمّا هؤلاء الفرنج الذين لم يعقد لهم عقد جزية، وإنّما يدخلون بأمان، ثمّ إذا أرادوا الذهاب ذهبوا؛ فلأنّه لا يد لهم في دار الإسلام أصلاً كما قدّمناه، وأمّا غيرهم من الكفّار الذين عقد لهم عقد جزية فلأنّهم لا يعتقدون ملكهم لها، ولا يدّعونه، وليست وقفاً عندنا؛ لأنّ وقف الكنيسة، ونحوها من متعبدات الكفار باطل، ولو كان واقفه ذمّياً، فإذا دخلت في أيدي المسلمين، وهي غير مملوكة للكفّار كان حكمها حكم ما لم يجر عليه ملك كالموات[1]، وقد نبّه على ذلك الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ فإذا أُقِرَّ للكفار عليها لم يفدهم التقرير ملكاً، إذ لا يقبلون التقرير على أنّها ملك، لا يعتقدونه، فلا يمتنع على سلطان الإسلام أنْ يرفع يدهم عنها، أو عن بعضها ولا أنْ يجليهم عن بلاد من بلاد الإسلام بعد تقريرهم فيها، لمصلحة تظهر له، فقد أجلى سيّدنا عمر ﷺ أهل خيبر[2]، بعد أنْ أقرّهم النبيّ ﷺ

---

(1) الموات: ما لا مالك له، ولا ينتفع به من الأراضي؛ لانقطاع الماء عنها، أو لغلبته عليها أو لغيرهما مما يمنع الانتفاع بها. انظر: الجرجاني: المصدر السابق ص 264.

(2) خيبر: زعم أبو الفداء أنّ «الخيبر» في لغة اليهود تعني «الحصن»، ويطلق هذا اللفظ على معنيين:

الأول: ناحية على بُعْد ست مراحل من المدينة المنورة، في جهتي الشمال والشرق وتشتمل على سبعة حصون، وبها مزارع، ونخيل كثير.

والثاني: مدينة صغيرة كالحصن، ذات نخيل وزروع، وكانت في صدر الإسلام دارا لبنى قريظة وبني النضير من اليهود.

انظر: الحموي: معجم البلدان جـ2/ ص 409، وانظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص 88.

كما في صحيح البخاري[1]، وغيره لمَّا ظهرت له المصلحة في إجلائهم رضى الله تعالى عنه.

والله سبحانه المسؤول أنْ يَمُنَّ بتأييد الدين، وصلاح أحوال المسلمين، إنَّه على كل شيء قدير.

نقل ذلك من الكتاب، بخط محمد بن أبى شريف، الشافعي، حامداً لله، ومصلياً، ومسلماً، بتاريخ 10 شهر ربيع الأول سنة 1094 هـ.

---

(1) رواه البخاري، في باب «إذا قال رب الأرض أقرّك ما أقرّك الله، ولم يذكر أجلاً معلوماً، فهما على تراضيهما»، الحديث رقم 2213، وفيه أنَّ عمر بن الخطاب - رضى الله عنهُ - أجلى اليهود والنصارى، من أرض الحجاز إلى تيماء، وأريحاء، بعد أنْ كان النبى ﷺ قد أقرهم عليها، مقابل نصف الثمر.
انظر: صحيح البخاري جـ 2/ ص 824، وانظر: الحموي: معجم البلدان جـ 2/ ص 410.

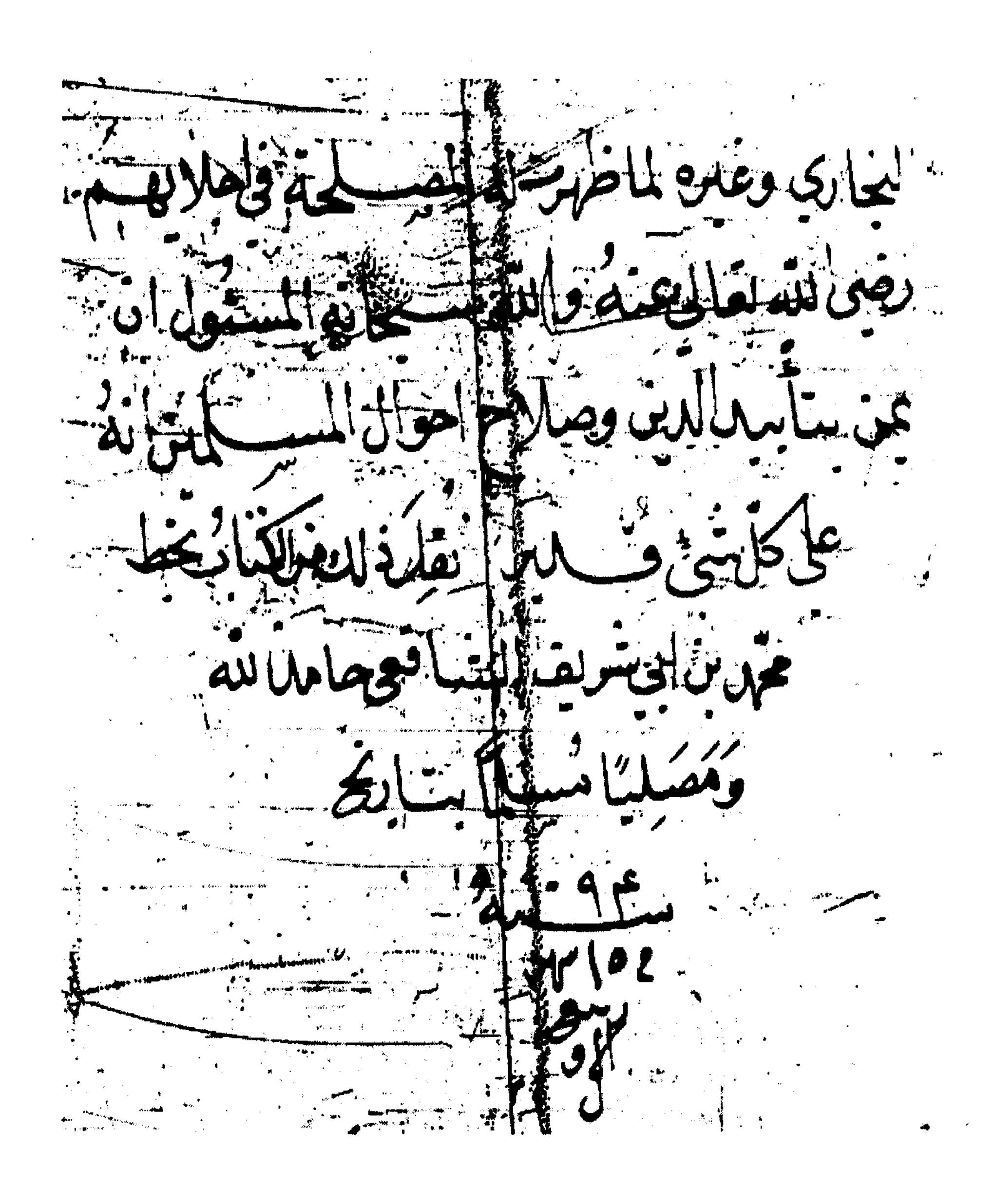
اتيا اليها فمن كان صادقا مسها بيده ووجد اليها
سبيلاً ومن كان كاذباً لا يقدر على ذلك الى ان جرت
الحكاية التي مشهورة فارتفعت وكان القدس
الشريف في زمن بني سرايل اربعين فرسخاً في اربعين
فرسخاً والله اعلم بالغيب واحكم بالصواب وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً دايماً ابداً الى يوم الدين
ورضي الله عن اصحاب رسول الله
اجمعين والحمد لله رب
العالمين

سؤال ابن ابي شريف في دير صهيون
والافرنج رضي الله عنه ونفعنا
الله تعالى ببركاته امين
م

الحمد لله رب العالمين جاعل الأنبياء سادة للعالمين
والعلماء قادة للمؤمنين والفقهاء حافظة للحق فطين
والصلوة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين
وشفيع المذنبين وعلى آله الطيبين وأصحابه
الطاهرين نقل من خط شيخ الإسلام الكمالي بن أبي
شريف رحمه الله ما نصه بحروفه الحمد لله سئلت
في ذي الحجة سنة ثمانية خمس وتسعون ثما صورته
٨٩٥
في واقعة وقعت ببيت المقدس وهي أن بالقدس
مكان يقال له صهيون وهو دير يأتيه من بلاد
الفرنج من يقيم به وإذا شاء انصرف منه يدخل
هؤلاء بأمان دون عقد جزية فانضم إليهم
شخص نصراني ماردوني من بلاد طرابلس وحسن
لهم التلبيس والكذب فأنهوا بقصته لسوا فيها

كذي

صورة اللوحة الأخيرة من المخطوطة



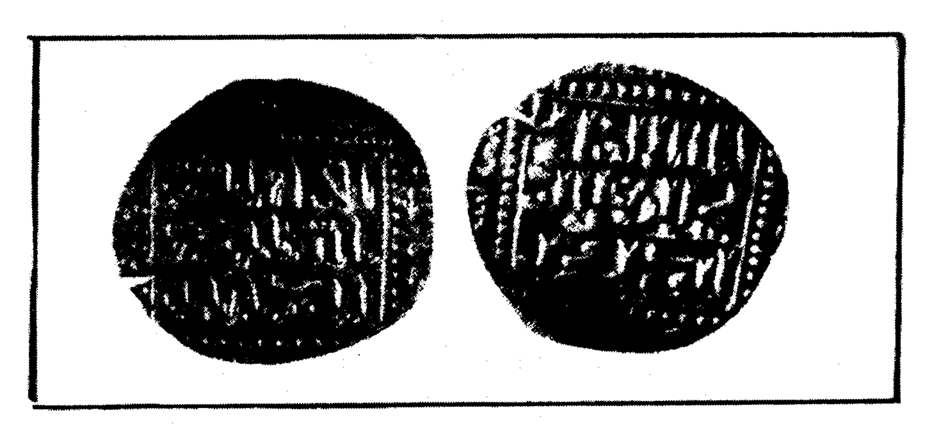
البخاري وغيره لما ظهر له المصلحة في اهلاكهم
رضي الله تعالى عنه والله سبحانه المسئول ان
يمن بتأييد الدين وصلاح احوال المسلمين انه
على كل شيء قدير نقل ذلك من الكتاب بخط
محمد بن ابي شريف الشافعي حامدا لله
ومصليا مسلما بتاريخ
سنة ٩٠٤

الملحق الرابع
صور وخرائط

بيان: صور النقود الآتية نقلاً عن كتاب النقود الصليبية في الشام ومصر لرأفت محمد النبراوى صفحات: 298، 312، 314، 316، الصورة التي على اليمين «وجه»، والتي على اليسار «ظهر».



دينار صليبي مقلَّد بعبارات إسلامية



درهم صليبي مقلَّد بعبارات إسلامية

تابع صور النقود الصليبية



دينار صليبي بعبارات مسيحية



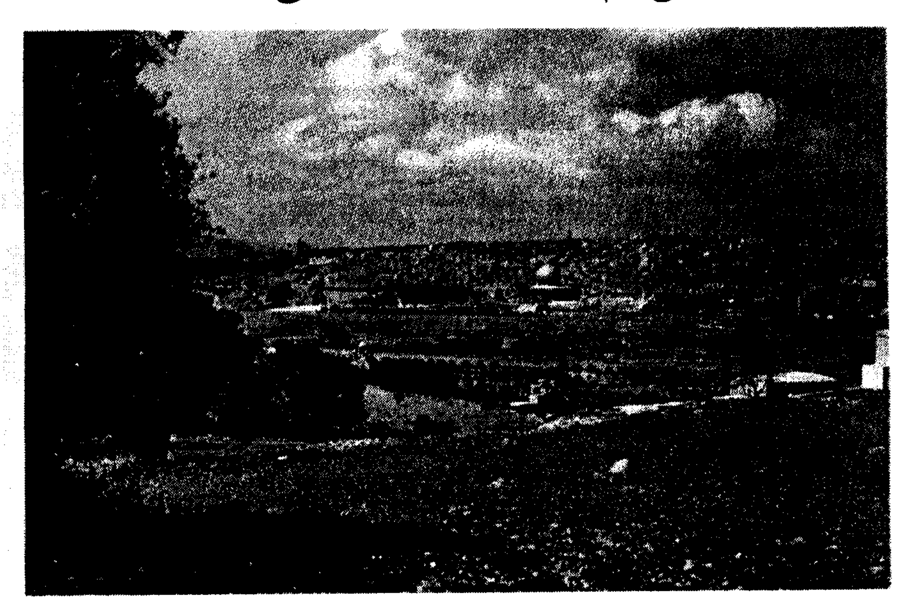
تنكريد بلحية طويلة، وزي إسلامي



نقد نحاسي ضربه بوهيموند على الوجه صورة نصفية للمسيح

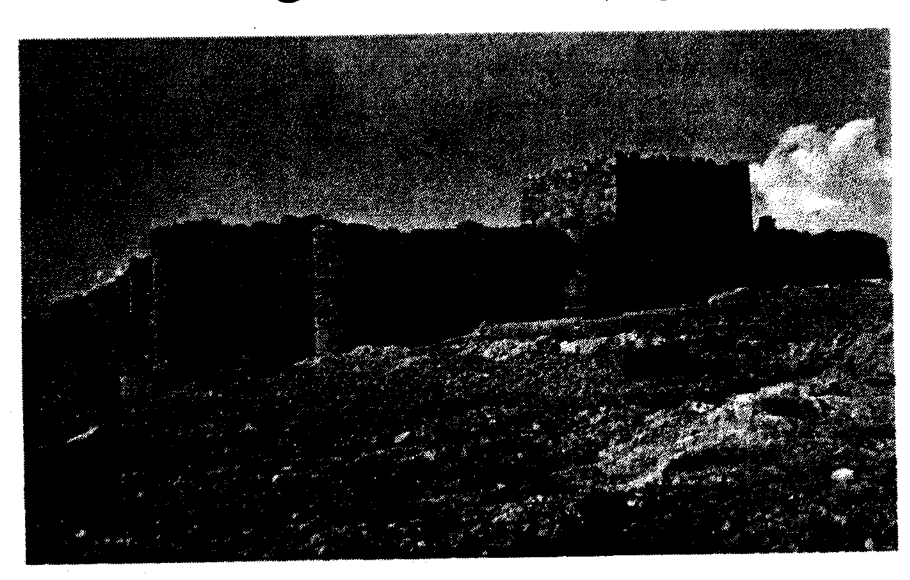
مدينة القدس ـ منظر عام

من كتاب القلاع أيام الحروب الصليبية لفولفغانج مولَّر فيز ص 12



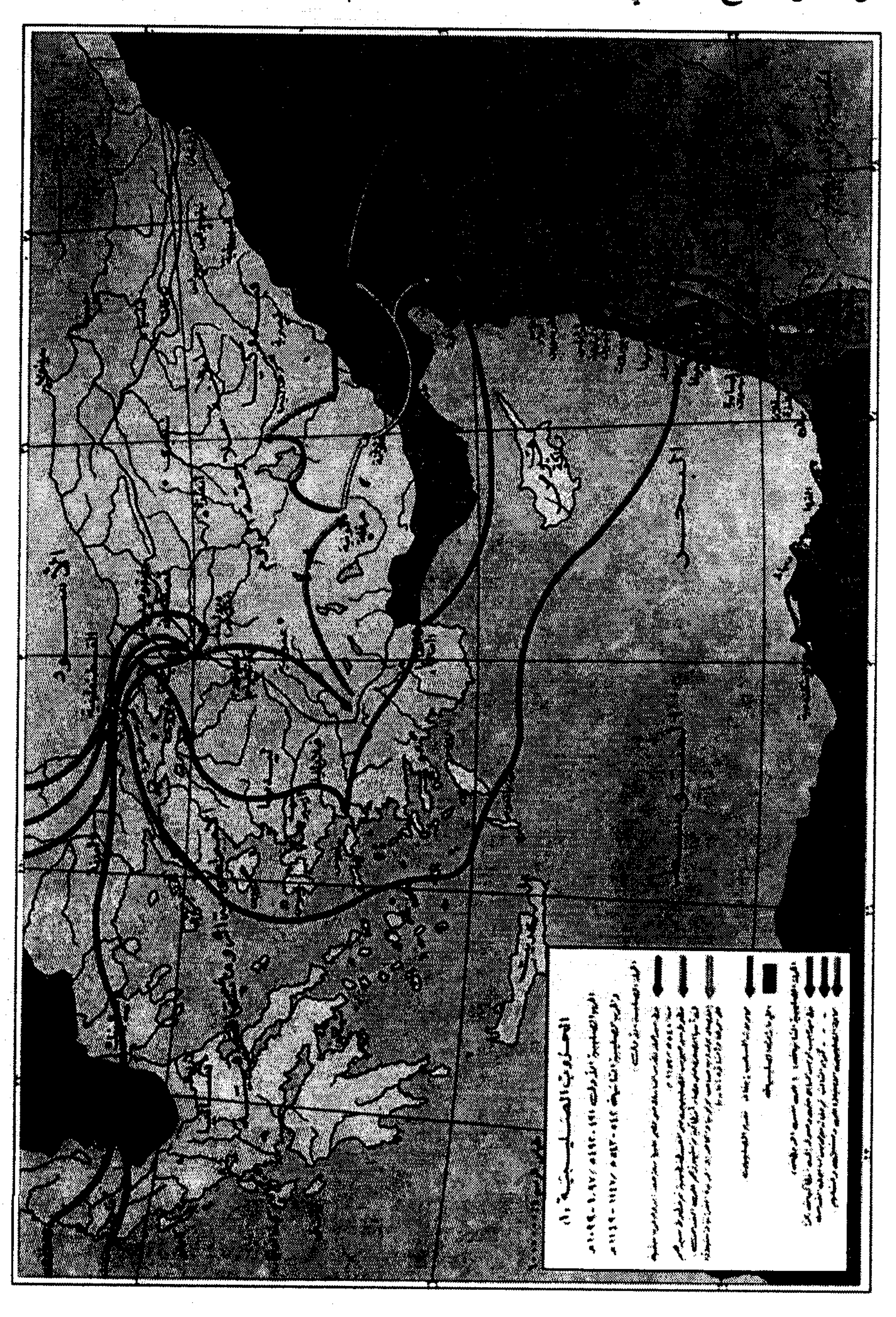
قلعة صهيون ـ منظر عام

من كتاب القلاع أيام الحروب الصليبية لفولفغانج مولَّر فيز ص 13



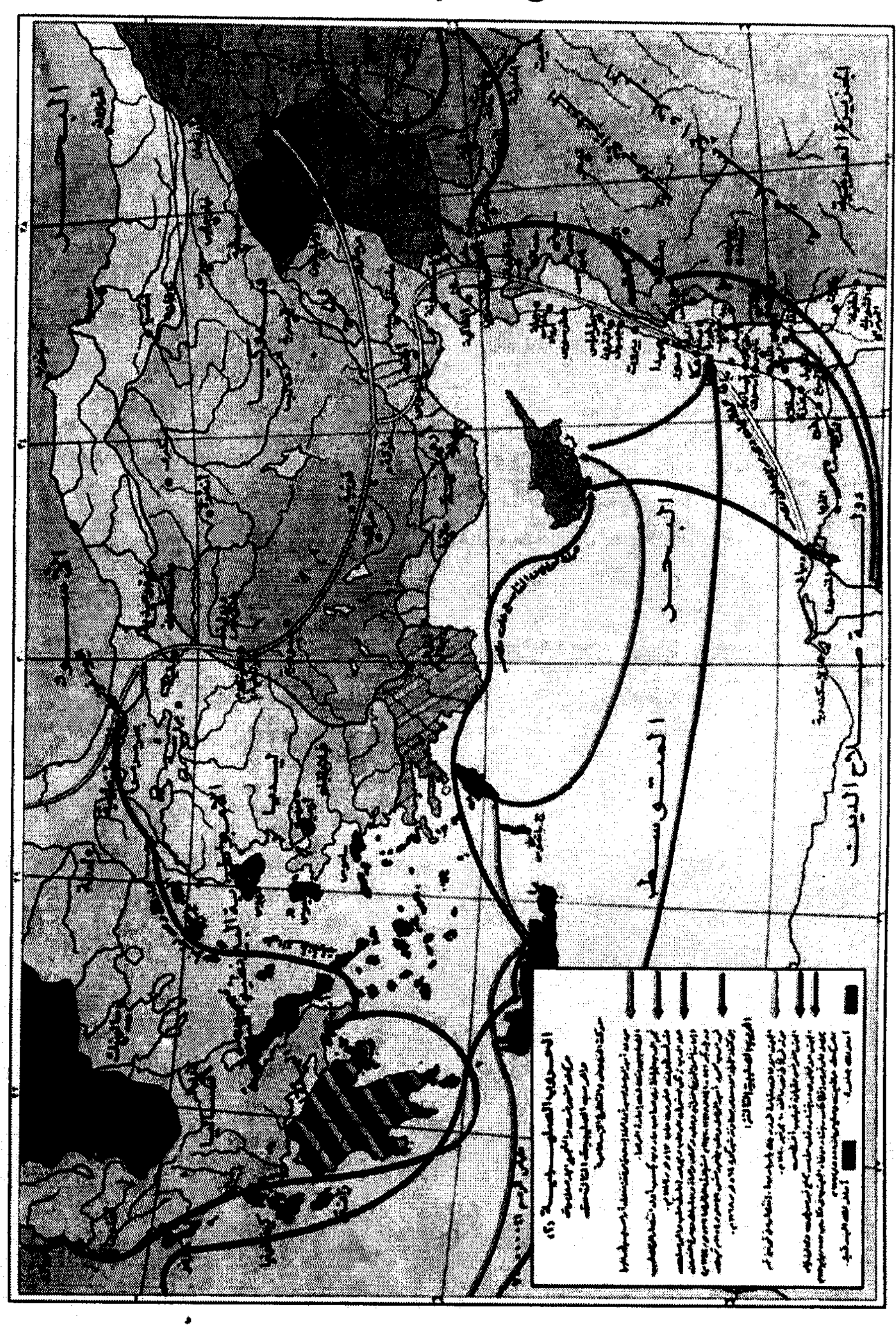
الحروب الصليبية الأولى

من أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي ،القاهرة، 1987م، ص 262



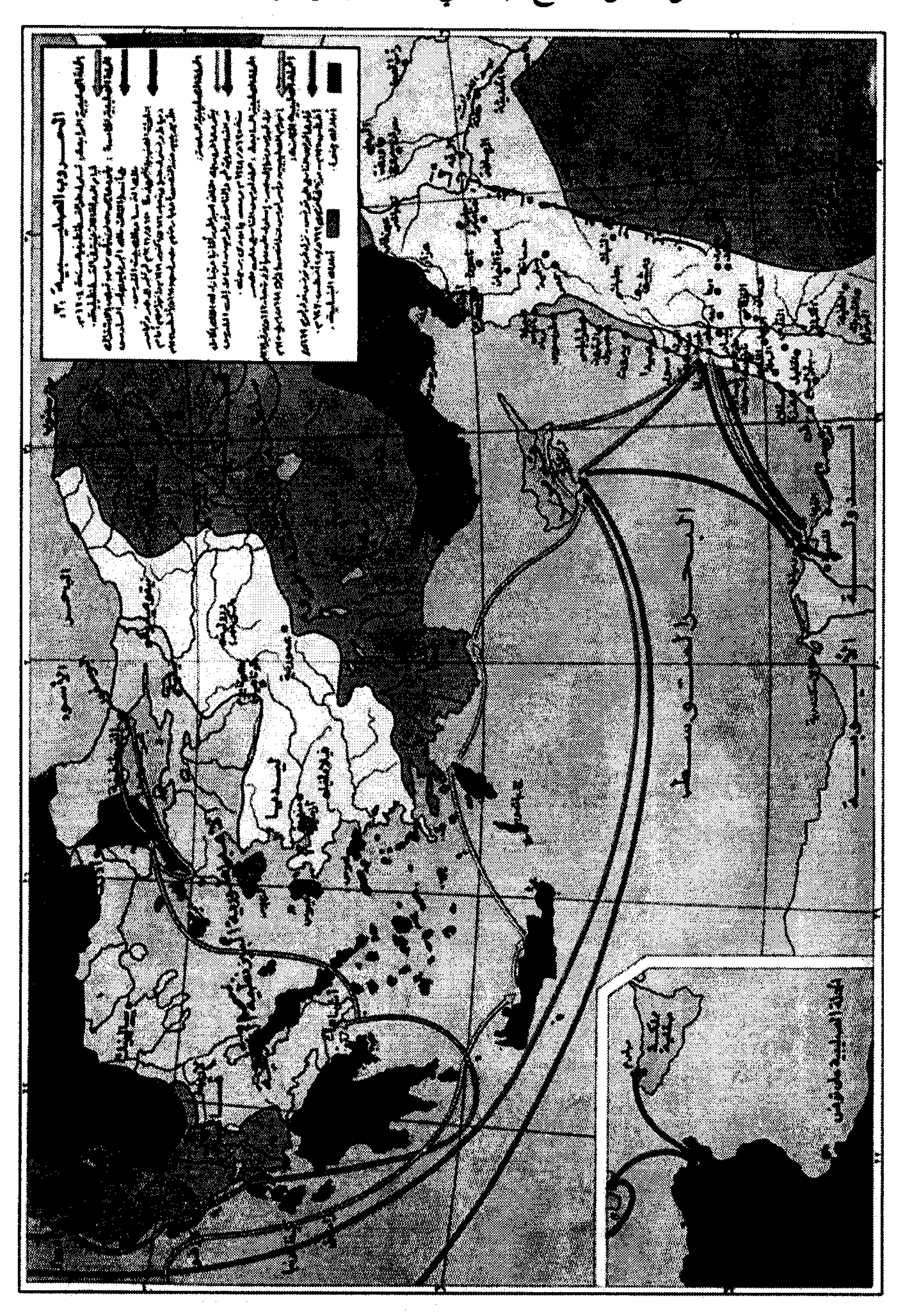
الحروب الصليبية الثانية

من أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس ص 264



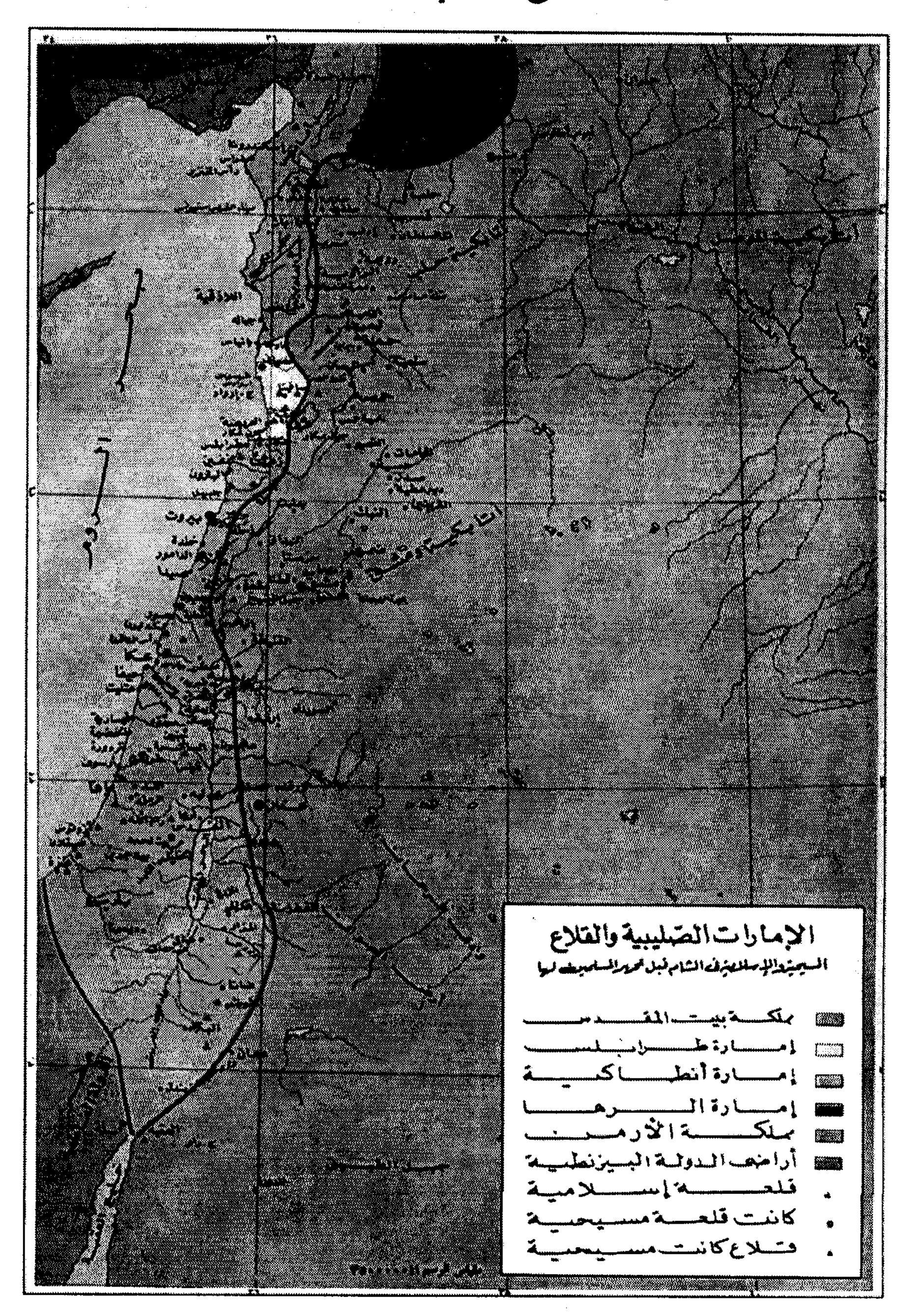
الحروب الصليبية الثالثة

من أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس ص 265



الإمارات الصليبية والقلاع

من أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس ص 263



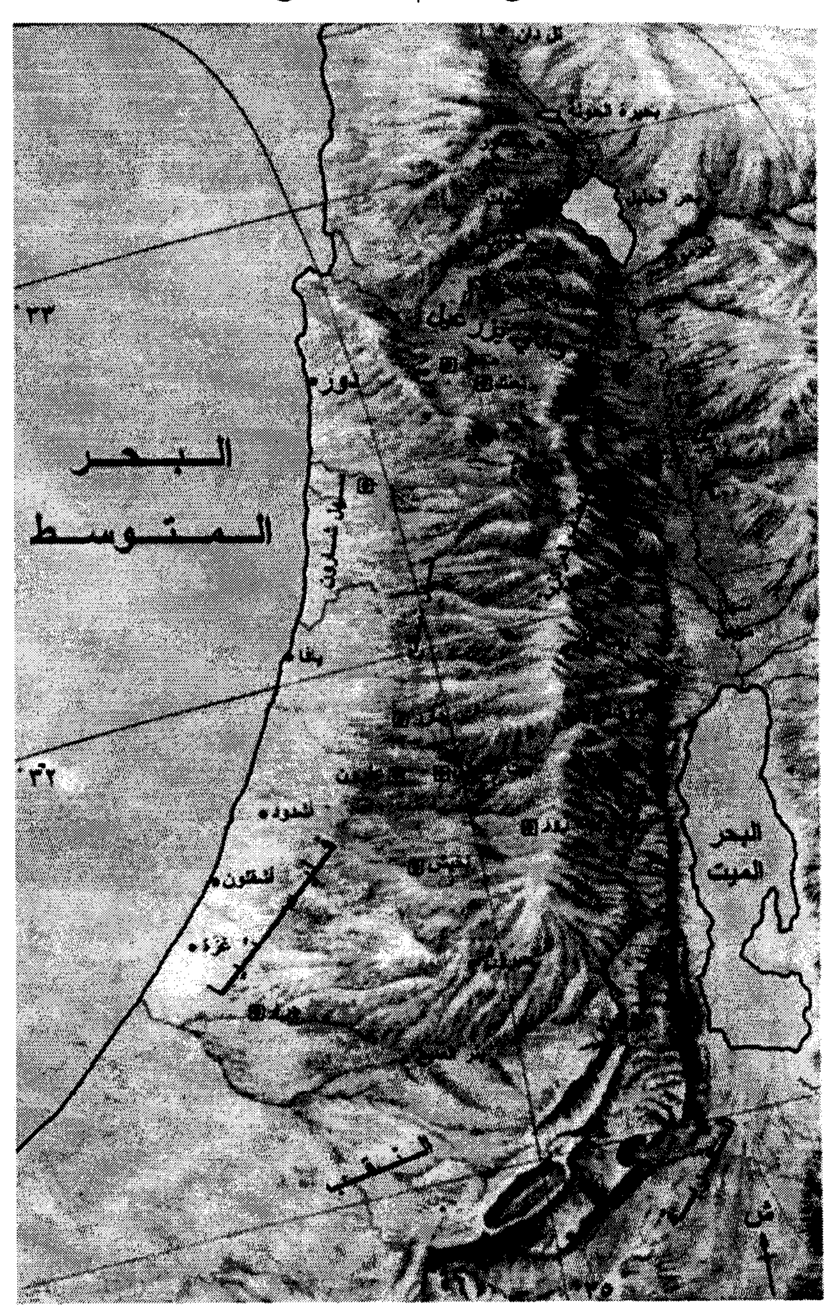
تصفية الوجود الصليبي

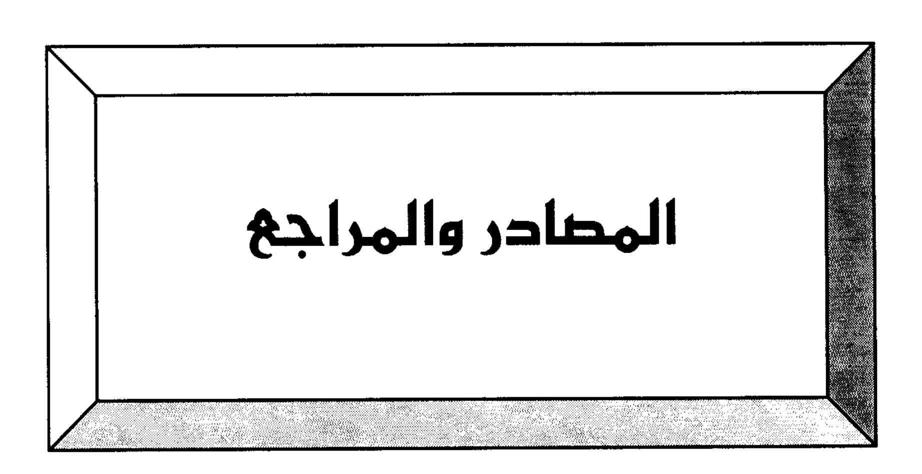
من أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس ص 266



مصور فلسطين الطبيعية، وعليه أهم المواقع الفلسطينية القديمة

من كتاب تاريخ أورشليم لفراس السوَّاح ص 291




المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب السماوية

* القرآن الكريم

* الكتاب المقدس، نشر جمعيَّات الكتاب المقدّس ط/ 3، دار المشرق، بيروت، 1994م.

ثانياً: المصادر المخطوطة

- **ابن أبي شريف**: محمد بن محمد بن أبي بكر، المقدسي (ت 906 هـ/ 1500م):

* سؤال ابن أبي شريف في دير صهيون والإفرنج، مخطوط دار الكتب المصرية رقم / 514/ مجاميع، منه مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم 1712/ تاريخ.

- **ابن حبيب**: الحسن بن عمر بن الحسن (ت 779 هـ/ 1377م):

* درة الأسلاك في دولة الأتراك، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم 6170/خ.

- **ابن الساعي**: علي بن أنجب بن عثمان (ت 674 هـ/ 1275م):

* الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير، الجزء التاسع، دار الكتب المصرية، المخطوط رقم 597 تاريخ/ تيمور، منه مصورة في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، رقم 1554/ تاريخ، وقد حققه مصطفى جواد، وطبعته المطبعة السريانية الكاثوليكية، ببغداد، سنة 1934م ولكن لم يتيسَّر لي الاطلاع على الكتاب المحقق.

- **ابن طولون**: محمد بن علي بن أحمد (ت 953 هـ/ 1546م):

* الشمعة المضيّئة في أخبار القلعة الدمشقية، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم759/ مجاميع، منه مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم 1769/ تاريخ.

- **الجنَّابي**: أبو محمد، مصطفى بن حسن بن سنان، الحسيني، الهاشمي، القرشي (ت 999هـ/ 1590م):

* العيلم الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر، مخطوط مكتبة محمد راغب، إستانبول، رقم 983.

- **الساحلي**، نعيمة عبد السلام:

* التوجهات السياسية للدولة الأيوبية، رسالة ماجستير، قدمت إلى كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، جامعة الفاتح، قسم التاريخ، سنة 1997 م.

- **العماد الكاتب**، محمد بن محمد بن حامد، الأصفهاني (ت 597 هـ/ 1200م):

* نصرة الفترة وعصرة الفطرة، مخطوط المكتبة الوطنية، باريس، رقم 2145 ومنه مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم 2133/ تاريخ.

ـ **القونوي**: عبد الرحمن بن إسحاق بن شيث:

* في فضل المسجد الأقصى وبنايته، من كتاب «مفتاح المقاصد ومصباح المراصد»، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 514/ مجاميع، منه مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم 1867/ تاريخ.

ـ **مجهول**:

* رسائل بين الملوك في أيام الأيوبيين، مكتبة نور عثمانية، المخطوط رقم 3745 منه مصورة في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة رقم 419/ أدب.

ـ **المقدسي**: أبو المعالي، المشرف بن المرجَّى بن إبراهيم (ت 838 هـ/ 1434م):

* الأسنى في محل الإسرا في فضائل المسجد الأقصى، مصورة معهد المخطوطات العربية رقم 1365/ تاريخ.

ـ **المنهاجي السيوطي المصري**: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن علي، شمس الدين (ت880هـ/ 1475 م):

* إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط بلدية الإسكندرية رقم 627/ 3/ 3217ج/ تاريخ.

وقد حُقِّق الكتاب، وطبع الجزء الأول منه فقط، انظر: المصادر المطبوعة.

ثالثاً: المصادر

ـ **ابن أبي حاتم الرازي**، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (ت 327 هـ):

* الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1952م، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى في حيدر أباد الدكن ـ الهند، في سنة 1373 هـ.

ـ **ابن الأثير الجزري**، عز الدين، علي بن أبي الكرم محمد (ت 630 هـ/ 1232م):

* التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ط/ 1، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، 1963م.

* الكامل في التاريخ، ط/ 3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980م.

ـ **ابن الأثير الجزري**، مجد الدين، المبارك بن أبي الكرم محمد (ت 606 هـ/ 1209م):

* النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي ط/ 1، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1963م.

- **ابن الأزرق**، أحمد بن يوسف (ت بعد 577 هـ/ 1181م):

* تاريخ الفارقي «الدولة المروانية» تاريخ ميّافارقين وآمد، تحقيق بدوي عبد اللطيف عـوض، ط/ 1، الهيئة العامـة لشؤون المطابـع الأميرية، القاهرة، 1959م.

- **ابن بَرّي**، عبد الله بن بري (ت 499 هـ/ 1105م)

* في التعـريب والمعرَّب، المعروف بـ «حاشية ابن برّي على كتاب المعرَّب للجواليقي» تحقيـق إبراهيم السامـرائي، ط/ 1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م.

- **ابن بسّام**، علي بن بسّام الشنتريني (ت 542 هـ/ 1147م):

* الذخيرة في محاسن أهـل الجزيـرة، تحقيـق إحـسان عبـاس، الـدار العربيـة للكتـاب، ليبيـا، وتونس، 1978م.

- **ابن بطوطة**، محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/ 1377م):

* رحلة ابن بطوطة المعروفة باسم: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائـب الأسـفار»، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- **ابن تغرى بردي**، أبو المحاسن يوسف (ت 874 هـ/ 1469م)

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القـومي، القـاهرة، نـسخة مصورة عن طبعـة دار الكتب المصرية، بدون تاريخ.

- **ابن جبير**: محمد بن أحمد، الكناني (ت 614 هـ/ 1217م)

* تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف بـ «رحلة ابن جبـير»، بـيروت، دار الكتـاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بدون تاريخ.

- **ابن الجوزي**، عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ/ 1200م):

* تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر، ط/ 1، دار المعرفة، القاهرة، 1966م.

* فضائـل القـدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، ط/ 2، بيروت، 1980م.

* المنتظم في تاريخ الأمم والملـوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القـادر عطـا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط/ 1، 1992م.

- **ابن حجر العسقلاني**، أحمد بن علي (ت 852 هـ/ 1448م):

* تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعـة حيـدر أبـاد الـدكن الأولى، 1327 هـ.

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن 45 ـ 1950م.

* رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ط/ 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ.

ـ ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ/ 1063م):

* الفصل في الملل والأهواء والنحل، بولاق، القاهرة، 1317 ـ 1321 هـ .

ـ ابن الحنبلي، محمد بن إبراهيم بن يوسف، رضى الدين (ت 971 هـ/ 1563م):

* در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق محمد الفاخوري، ويحيى عبارة، دمشق، 1972 ـ 1974م.

ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد، النصيبي (ت 380 هـ/ 990م):

* صورة الأرض، تحقيق دوجويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1938م.

ـ ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت نحو 300 هـ/ 912م):

* المسالك والممالك، تحقيق دوجويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1989م.

ـ ابن خلدون، الرحمن بن محمد (ت 808 هـ/ 1405م):

* مقدّمة العلامة ابن خلدون، الطبعة الأخيرة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000 م.

* تاريخ ابن خلدون «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» دار الكتاب اللبناني بيروت، 1958م.

ـ ابن خلِّكان، أحمد (ت 681 هـ/ 1282م):

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 69 ـ 1973م.

ـ ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت 809 هـ/ 1406م)

* الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ط/ 1، عالم الكتب، بيروت، 1985م.

ـ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت نحو 300 هـ/ 912م):

* الأعلاق النفيسة، طبع منه الجزء السابع، تحقيق دو جويه، مطبعة بريل، ليدن، 1891م.

- **ابن سعيد**، أبو الحسن، علي بن موسى (ت 685 هـ/ 1286م):

* كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، ط/ 1، المكتب التجاري، بيروت، 1970م.

- **ابن شدَّاد**، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت 684 هـ/ 1285م):

* الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

أ - الجزءان الأول والثاني: «تاريخ لبنان والأردن وفلسطين»، تحقيق سامي الدَّهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1962م.

ب - الجزء الثالث، تحقيق يحيى عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م.

- **ابن شدَّاد**، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت 637 هـ/ 1239م):

* النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية «سيرة صلاح الدين» تحقيق جمال الدين الشيال، ط/ 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م.

- **ابن الصابوني**: محمد بن علي المحمودي (ت 660 هـ/ 1261م):

* تكملة إكمال الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المجمع العلمي العراقي، 1957م.

- **ابن الصلاح**: تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن، الشهرزوري (ت 643 هـ/ 1245م):

* طبقات الفقهاء الشافعية، هذَّبه الإمام يحيى بن شرف النووي، ونقّحه الإمام يوسف بن عبد الرحمن المزى، تحقيق محيى الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1992م.

- **ابن الصيرفي**: أبو القاسم، علي بن منجب بن سليمان (ت 542 هـ/ 1147م):

* الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط/ 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1990م.

* القانون في ديوان الرسائل، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط/ 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1990م.

- **ابن طولون**: محمد بن علي بن أحمد (ت 953 هـ/ 1546م):

* القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، تحقيق محمد أحمد دهمان، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980م.

* قضاة دمشق، المسمى «الثغر البسام في ذكر من ولى قضاء الشام»، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، منشورات المجمع العلمي العربي، 1956م.

- **ابن الطوير**، أبو محمد، عبد السلام بن الحسن، المرتضى (ت 617 هـ/ 1220م):

* نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط/ 1، سلسلة النشرات الإسلامية، جمعية المستشرقين الألمانية، فرانتس شتاينر شتوتغارت، فسبادن، ألمانيا، 1992م.

- **ابن ظافر**: على، الأزدي (ت 613 هـ/ 1216م):

* أخبار الدول المنقطعة ـ تحقيق عصام هزايمة، ومحمد محافظة وآخرين، مؤسسة حمادة ودار الكندى للنشر، إربد، الأردن، 1999م.

- **ابن عبد الظاهر**، محيى الدين، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان (ت 692 هـ/ 1293م):

* تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961م.

* الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط/ 1، الرياض، 1976م.

- **ابن العبري**، غريغوريوس الملطي (ت 685 هـ/ 1286م):

* تاريخ الزمان، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية، المجلد الخامس ص ص 313 ـ 464.

* تاريخ مختصر الدول، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1958م، نسخة مصورة عن طبعة 1890م.

- **ابن العديم**، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660 هـ/ 1261م):

* بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار دمشق، 1988م.

* زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط/ 1، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م.

- **ابن العماد**، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، الحنبلي (ت 1089 هـ/ 1678م):

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة الأولى.

- **ابن الفرات**، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807 هـ/ 1404م):

* تاريخ ابن الفرات «تاريخ الدول والملوك»، طبع منه الأجزاء الآتية:

1 ـ المجلد الرابع، في جزأين، والمجلد الخامس، الجزء الأول، تحقيق حسن محمد الشماع، نشر جامعة بغداد، 1969 ـ 1970م.

2 ـ المجلد السابع، تحقيق قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942م.

3 ـ المجلد الثامن، تحقيق قسطنطين زريق، ونجلا عز الدين، بيروت، بدون ذكر للناشر، وبدون تاريخ.

4 ـ المجلد التاسع، جزءان:

الجزء الأول، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، بدون تاريخ.

والجزء الثاني، تحقيق نجلا عز الدين، بيروت، بدون تاريخ.

ـ **ابن فضل الله العمري**، شهاب الدين، أحمد بن يحيى (ت 749 هـ/ 1348م):

* التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.

ـ **ابن فضلان**، أحمد بن فضلان (ت بعد 310 هـ/ 922م):

* رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ط/ 1، مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، 1987م.

ـ **ابن الفقيه**، أبي بكر بن محمد (ت 340 هـ/ 951م):

* مختصر كتاب البلدان، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، 1885م.

ـ **ابن الفُوَطي**، كمال الدين، عبد الرزاق بن أحمد (ت 723 هـ/ 1323م):

* تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة، دمشق، 1962 ـ 1967م.

ـ **ابن قتيبة**، عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ/ 889م):

* الشعر والشعراء، ط/ 4، دار الثقافة، بيروت، 1980م.

ـ **ابن قدامة**، أو الفرج، قدامة بن جعفر (ت 337 هـ/ 948 م):

* الخراج، نشر دوجويه، المكتبة الجغرافية، جزء 6، ليدن، 1892م.

ـ **ابن القلانسي**: حمزة بن أسد (ت 555 هـ/ 1160م)

* ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، تحقيق آمدروز، بيروت، 1908م.

* تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ط/ 1، 1983م.

ـ **ابن الكازروني**: علي بن محمد البغدادي (ت 697 هـ/ 1297م):

* مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، دار اقرأ، ط/ 1، 1990م نشر وزارة الإعلام العراقية.

- **ابن كثير**، إسماعيل بن عمر (ت 774 هـ/ 1372م):

* البداية والنهاية، ط/ 5، مكتبة المعارف، بيروت، 1983م، نسخة مصورة عن طبعة مصر الأولى، 1951م.

- **ابن المستوفي**: المبارك بن أحمد اللخمي الإربلي (ت 637 هـ/ 1239م):

* تاريخ إربل، المسمى «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل»، تحقيق سامي بن السيد خماسي الصقار، بغداد،وزارة الثقافة والإعلام، 1980م.

- **ابن مكي**، أبو حفص، عمر بن خلف (ت 501 هـ 1107م):

* تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

- **ابن مَمَّاتي**: أسعد بن مهذب بن مينا (ت 606 هـ/ 1209م):

* قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1991م.

- **ابن منظور**، محمد بن مكرّم (ت 711 هـ/ 1311م):

* لسان العرب، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة الجوائب، 1300 هـ.

- **ابن منقذ**، أسامة مرشد (ت 584 هـ/ 1188م):

* الاعتبار، تحقيق ونشر سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الجزء 12.

- **ابن واصل**، محمد بن سالم بن نصر الله (ت 697 هـ/ 1297 م):

* مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وحسنين محمد ربيع، القاهرة، مركز تحقيق التراث، بدار الكتب المصرية، بدون تاريخ.

- **ابن الوردي**، عمر بن مظفر (ت 749 هـ/ 1349م):

* تاريخ ابن الوردي المسمى «تتمة المختصر»، ط/ 2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م.

- **ابن الوكيل**، يوسف الملواني (ت 1131 هـ/ 1719م):

* تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، ط/ 1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م.

- **أبو حيّان**، محمد بن يوسف (ت 745 هـ/ 1344 م):

* البحر المحيط، مكتبة ومطبعة النصر الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق الأولى.

ـ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 660 هـ/ 1261م)
* ذيل الروضتين المسمى «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، تصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوثري، بيروت، دار الجيل، نسخة مصورة عن طبعة السيد عزت العطار الحسيني، ط/ 1، القاهرة، 1947م.
* الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مطبعة وادي النيل، بمصر، 1288 هـ.
* عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.
ـ أبو شجاع الروذراوري، محمد بن الحسين بن عبد الله (ت 488هـ/ 1095م):
* ذيل تجارب الأمم، تحقيق آمدروز، مطبعة شركة التمدن، مصر 1916م.
ـ أبو الفداء، إسماعيل بن محمد (ت 732 هـ/ 1331 م):
* تقويم البلدان، تحقيق رنو، ودو سلان، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة باريس، 1840م.
* المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة المصرية الأولى، 1325هـ.
ـ الإسفرائيني، عبد القاهر بن طاهر، البغدادي (ت 429 هـ/ 1037م):
* الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
ـ الإصطخري، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد الفارسي، المعروف بالكرخي (ت 346 هـ/ 957م):
* مسالك الممالك، تحقيق دو جويه، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة بريل، في ليدن، 1927م.
ـ الآمدي، أبو الحسن، علي بن محمد (ت 631 هـ/ 1233م):
* الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، ط/ 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404 هـ.
ـ أنّا كومينا:
* من الألكسياد، ترجمة سهيل زكار ـ الجزء 6 من الموسوعة الشامية.

- **الأنطاكي**، يحيى بن سعيد (ت 458 هـ/ 1066م):

* تاريخ الأنطاكي، ويضم تاريخ سنوات (328 ـ 425 هـ/ 939 ـ 1033م) ذيّل به الأنطاكي «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق في معرفة التواريخ من عهد آدم إلى سني الهجرة» المسمى «نظم الجوهر» والمعروف بتاريخ «أوتيخا» لسعيد بن البطريق، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، 1990م.

ويذكر في بعض المصادر العربية باسم «صلة كتاب سعيد بن بطريق».

أو بصلة تاريخ أوتيخا.

- **الأيوبي، الملك المنصور**: محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت 617 هـ/ 1220م):

* مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب 1968م.

- **الباخرزي**، علي بن الحسن (ت 467 هـ/ 1074م):

* دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **بدران**، الشيخ عبد القادر (ت 1346 هـ/ 1927م):

* تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ط/ 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م.

- **البغدادي**، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت 739 هـ/ 1338م):

* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط/ 1، دار الجيل، بيروت، 1992م.

- **البكري**: عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ/ 1094م)

* معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، عالم الكتب، نسخة مصورة عن طبعة مصر، 1364هـ.

- **البلاذري**، أبو الحسن، أحمد بن يحيى (ت 279 هـ/ 892م)

* فتوح البلدان، ط/ 1، دار صادر، بيروت، 1983م.

- **البُنْدَاري**، الفتح بن علي (ت 643 هـ/ 1245 م):

* سنا البرق الشامي تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

- **البيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي (ت 458 هـ/ 1065م):

* سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، 1994م.

- **البيهقي**، أبو الفضل، محمد بن حسين (ت 470 هـ/ 1077م):

* تاريخ البيهقى، «أو صحائف مسعودى»، ترجمة يحيى الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1956م.

- **الترمذي**، محمد بن عيسى بن سورة (ت 279 هـ/ 892 م):

* سنن الترمذى «الجامع الصحيح»، تحقيق أحمد محمد شاكر، وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة.

- **التهانوي**: محمد علي (من علماء القرن 12 هـ/ 18م):

* كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، إشراف رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، ط/ 1، مكتبة لبنان، بيروت، 1996م.

- **توديبود**، بطرس:

* تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطيّة، ط/ 1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998م.

- **الجرجاني**، علي بن محمد، السيد الشريف (ت 816 هـ/ 1413م):

* كتاب التعريفات، تحقيق عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، 1991م.

- **الجوهري**، إسماعيل بن حمَّاد (ت 393 هـ/ 1002م):

* تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط/ 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

- **الحريري**، القاسم بن علي ت (ت 516 هـ/ 1122م):

* درَّة الغوَّاص في أوهام الخواص، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

- **الحسيني**، صدر الدين علي بن ناصر (ت بعد 622 هـ/ 1225م):

* زبدة التواريخ «أخبار الأمراء والملوك السلجوقية» تحقيق محمد نور الدين، ط/ 2، دار اقرأ، بيروت، 1986م.

- **الحلبي**، شهاب الدين، أبو الثناء، محمود بن سلمان بن فهد (ت 725هـ/ 1324م):

* حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، سلسلة كتب التراث، بغداد، 1980م.

- **الحموي، ياقوت بن عبد الله** (ت 626 هـ/ 1228م):
* المشترك وضعاً والمختلف صقعاً، تحقيق فرديناند فستنفيلد، عالم الكتب، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة كوتنجن، 1846م.
* معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة وزارة المعارف بمصر، بدون تاريخ.
* معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979م.
- **الحنبلي**، أحمد بن إبراهيم (ت 876 هـ/ 1471م):
* شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م.
- **الحنبلي**، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 928 هـ/ 1522م):
* الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمّان، الأردن، وتوزيع دار الجيل، بيروت، 1973م.
- **الخطيب**: أحمد بن علي البغدادي (ت 463 هـ/ 1070م):
* تاريخ بغداد «أو مدينة السلام»، بيروت، دار الكتاب العربي، نسخة مصورة عن طبعة الخانجي بالقاهرة، 1931م.
- **الخفاجي**، أحمد بن محمد بن عمر (ت 1069هـ/ 1658م):
* شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط/ 1، مكتبة الحرم الحسيني التجارية الكبرى، القاهرة، 1952م.
- **الداودي**، شمس الدين، محمد بن علي (ت 945 هـ/ 1538م):
* طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر مكتبة وهبة، القاهرة، 1972م.
- **الدواداري**، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت 736 هـ/ 1335م):
* كنز الدرر وجامع الغرر، يصدره المعهد الألماني للآثار، بالقاهرة، ظهر منه الأجزاء الآتية:
1 ـ الدرة العليا في أخبار بدء الدنيا، تحقيق بيرند راتكة، 1982م.
3 ـ الدر الثمين في أخبار سيد المرسلين والخلفاء الراشدين، تحقيق محمد السعيد جمال الدين، 1981م.
6 ـ الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، 1961م.

7 ـ الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، 1972م.
8 ـ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، 1971م.
9 ـ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، 1960م.

ـ **الذهبي**، محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ/ 1347م):

* الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق مصطفى بن علي عوض، وربيع أبو بكر عبد الباقي، ط/ 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993م.
* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام:

1 ـ الطبقتان [61، 62] تحقيق بشار عواد، والأرنؤوط، وصالح مهدى ط/ 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م.
2 ـ [38 مجلداً، من المغازي إلى سنة 560 هـ] تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط/ 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م.

* دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
* سير أعلام النبلاء، تحقيق بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط/ 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م.
* العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
* ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، القاهرة، 1963م.

ـ **الرازي**، أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد (ت 327 هـ/ 938م):

* الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1952م، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، بحيدر أباد الدكن.

ـ **الراوندي**، محمد بن علي بن سليمان (ت 599 هـ/ 1019م):

* راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نشر وتصحيح محمد إقبال، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسانين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، 1960م.

- **الرهاوي، متَّى:**
* روايات المؤرخ الرهاوي المجهول، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية مجلد5، ص 29.
- **ريمون دو جيل:**
* الفرنجة الذين استولوا على القدس، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية، مجلد 6، ص ص 178 ـ 304.
* تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002م.
- **الزبيدي، محمد بن الحسن، أبو بكر (ت 379 هـ/ 989 م):**
* لحن العوام، تحقيق، رمضان عبد التواب، ط/ 1، المطبعة الكمالية، القاهرة، 1964م.
- **الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد (ت 1205 هـ/ 1790 م):**
* ترويح القلوب في ذكر الملوك من بنى أيوب، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق، منشورات مجمع اللغة العربية، 1969م.
- **ساوولف:**
* رحلة حج ساوولف لبيت المقدس، ترجمة سعيد البشاوي، ط/ 1، دار الشروق، عمَّان، الأردن، 1997م.
- **سبط بن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت 654 هـ/ 1256م):**
* مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، طبع منه الأجزاء التالية:
1 ـ الفترة [345 ـ 347 هـ] تحقيق جنان جليل محمد الهموندي، الدار الوطنية، بغداد، 1990م.
2 ـ الجزء الأول تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1985م.
3 ـ الجزء الثامن في مجلدين، حيدر أباد الدكن، 1951 ـ 1952م.
4 ـ الفترة [499 ـ 480 هـ] نشر علي سويم، أنقرة، 1968م.
- **السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت 902 هـ/ 1496م):**
* الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنثال، ترجم التعليقات والمقدمة صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

* الذيل على رفع الإصر، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م.
* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مصر 1353 ـ 1355 هـ.
ـ **السوري، ميخائيل:**
* روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية مجلد 5.
ـ **السيوطي**، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ/ 1505م):
* تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة دار الفكر العربي 1988م.
* حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ 1، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1967م.
* شرح السيوطي لسنن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط/ 2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1986م.
* طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر ط/ 1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1973م.
* نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره فيليب حتِّي، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، 1927م.
ـ **الشابشتي**، أبو الحسن علي بن محمد (ت 388 هـ/ 998م):
* الديَّارات، تحقيق كوركيس عوَّاد، ط/ 2، مكتبة المثنى، بغداد، 1966م .
ـ **الشريشي**، أبو العباس، أحمد بن عبد المؤمن (ت 619 هـ/ 1223م):
* شرح مقامات الحريري البصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976م.
ـ **الشريف الإدريسي**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت 560 هـ/ 1164م):
* نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط/ 1، عالم الكتب، بيروت، 1989م نسخة مصورة عن طبعة المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى، بروما، 1970 ـ 1984م.
ـ **الشهرستاني**، محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ/ 1153م):
* الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1968م.
ـ **الشوكاني**، محمد بن علي (ت 1250 هـ/ 1834م)
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، بمطبعة السعادة بمصر، 1348 هـ.

* نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، دار الجيل، بيروت، 1973م.

- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت نحو 580 هـ/ 1193م):

* نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط 2 / ، دار الثقافة بيروت، 1981م، نسخة مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة.

- الصابي: هلال بن المُحَسِّن (ت 448 هـ/ 1065م):

* رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، ط/ 2، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.

- الصريفيني: إبراهيم بن محمد، انتخاب من كتاب السياق، لأبى الحسن، عبد الغافر الفارسي (ت 529 هـ/ 1134م):

* المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.

- الصفدي، خليل بن أيبك (ت 764 هـ/ 1362م):

* أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، ومحمد موعد، ومحمود سالم محمد، ط/ 1، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1997م مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي.

* أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، منشورات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م.

* تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.

* تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق السيد الشرقاوي، ط/ 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م.

* الشعور بالعور، تحقيق عبد الرزاق حسين، ط/ 2، دار عمار، عمّان، 1994م.

* الوافي بالوفيات، تحقيق عدد من العلماء، تشرف على إصداره جمعية المستشرقين، فسبادن، ألمانيا، صدر منه 24 جزءاً في سنوات مختلفة.

- الصوري، وليم:

* تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية مجلد 7.

ـ **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 922م):

* تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ 4، دار المعارف، بمصر، 1967م.

ـ **عبدان**، الداعي القرمطي (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي):

* شجرة اليقين، تحقيق عارف تامر، ط/ 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1982م.

ـ **العتبي**، أبو النصر، محمد بن عبد الجبار (ت 427 هـ/ 1035م):

* تاريخ اليميني، مطبعة بولاق، القاهرة، 1290هـ.

ـ **العظيمي**، أبو عبد الله، محمد بن علي (ت 556 هـ/ 1161م):

* تاريخ العظيمي، تحقيق كلود كاهن، منشور في المجلة الآسيوية Journal Asiatique، باريس، 1938م.

ـ **العماد الكاتب**، محمد بن محمد بن حامد، الأصفهاني (ت 597 هـ/ 1200م):

* البرق الشامي.

أ ـ الجزء الثالث، تحقيق مصطفى الحباري.

ب ـ الجزء الخامس، تحقيق فالح صالح حسين.

ط/ 1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 1987م.

* تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، ط/ 3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.

* خريدة القصر وجريدة العصر، طبعت منه الأجزاء الآتية:

أولا: قسم شعراء العراق:

1 ـ تحقيق محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد، منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد، 1955م.

2 ـ الجزء الرابع في مجلدين، تحقيق محمد بهجة الأثرى، وزارة الإعلام، بغداد، 1973م.

ثانياً: قسم شعراء الشام: تحقيق شكري فيصل، منشورات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م.

ثالثاً: قسم شعراء مصر: تحقيق أحمد أمين، وشوقي ضيف، وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م.

رابعاً: قسم شعراء صقلية والمغرب والأندلس: تحقيق عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.
خامساً: قسم شعراء المغرب والأندلس: تحقيق آذرتاش آذرنوش، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م.
* الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد علي صبيح، القاهرة، سنة 1965م، وأعادت نشره الهيئة العامة لقصور الثقافة، بمصر، سلسلة «الذخائر»، رقم 90، 2003م.
ـ **الغزي**، الشيخ كامل البالي الحلبي (ت 1351 هـ/ 1933م):
* نهر الذهب في تاريخ حلب، تحقيق شوقي شعث، ومحمود فاخوري، ط/ 2، دار الفكر العربي، حلب، 1999م.
ـ **الغزي**، نجم الدين، محمد بن محمد بن محمد (ت 1061 هـ/ 1651م):
* الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، نشر جبرائيل جبور، المطبعة الأمريكية، بيروت، 1945 ـ 1959م.
ـ **الفردوسي**، أبو القاسم، منصور (ت نحو 411 هـ/ 1020م):
* الشاهنامه، ترجمة الفتح بن علي البنداري، تحقيق عبد الوهاب عزام، ط/ 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.
ـ **فولتشر أوف تشارترز، أو فوشيه الشارتري**:
* تاريخ الحملة إلى القدس، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية، مجلد 6.
* تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، ط/ 1، دار الشروق عمّان، الأردن، 1990م.
* الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، ط/ 1، دار الشروق، القاهرة، 2001م.
ـ **الفيروزبادي**، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ/ 1933م):
* القاموس المحيط، مكتبة النوري، دمشق، نسخة مصورة عن طبعة دار العلم للجميع، بيروت، بدون تاريخ.
ـ **القرطبي**، محمد بن أحمد (ت 671 هـ/ 1272 م):
* تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1966م، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

ـ **القزويني**: زكريا بن محمد بن محمود (ت 682 هـ/ 1283م):

* آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ودار بيروت، 1960م.

ـ **القسطنطيني**: علي بن بالي (ت 992 هـ/ 1584م):

* خير الكلام في التقصِّي عن أغلاط العوام، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط/ 3، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م.

ـ **القفطي**، أبو الحسن، جمال الدين، علي بن يوسف (ت 646 هـ 1248م):

* تاريخ الحكماء، بعناية جوليوس ليبرت، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد نسخة مصورة عن طبعة ليبزج، 1903م.

ـ **القلقشندي**، أحمد بن علي (ت 821 هـ/ 1418م):

* صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بمصر، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، 1331 ـ 1338 هـ.

* مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد القادر أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، 1980م.

ـ **الكاشغري**، محمود بن الحسين بن محمد (ت 469 هـ/ 1076م):

* ديوان لغات الترك، تصحيح كليسي معلم، دار الخلافة العلية، إستانبول 1332 ـ 1335 هـ.

ـ **الكتبي**، محمد بن شاكر (ت 764 هـ/ 1362م):

* عيون التواريخ، طبع منه الأجزاء الآتية:

1 ـ الجزء الأول «السيرة النبوية، وخلافة الصديق» تحقيق حسام الدين القدسي مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1980م.

2 ـ [219 ـ 250 هـ] تحقيق عفيف حاطوم، دار الثقافة، بيروت، 1996م

3 ـ الجزء 12 [505 ـ 555 هـ] تحقيق فيصل السامر، دار الحرية، بغداد، 1977م.

4 ـ الجزء 20 [645 ـ 670 هـ] تحقيق فيصل السامر، دار الحرية، بغداد 1980م.

5 ـ الجزء 21 [671 ـ 687 هـ] تحقيق فيصل السامر، دار الحرية، ونبيلة عبد المنعم داود، وزارة الشؤون الثقافية، بغداد، 1984م.

6 ـ الجزء23 [688 ـ 699 هـ] تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، دار المصطفى، بغداد، 1991م.

* فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973م.

- الكرديزي، أبو سعيد، عبد الحي (ت أواسط القرن 5 هـ):

* زين الأخبار، ترجمة محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة محمد الخامس الجامعية الثقافية، فاس، المغرب، 1972م.

- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ/ 1058م):

* الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

- المباركفوري، أبو العلاء، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت 1353 هـ/ 1934م):

* تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذى، نشر حسن ليراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1359 هـ.

- المتنبي، أحمد بن الحسين (ت 354 هـ/ 965م):

* ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق عبد الوهاب عزّام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1944م.

- مجهول:

* يوميات صاحب أعمال الفرنجة، نشر سهيل زكار، الموسوعة الشامية مجلد 6، ص ص 78 - 175.

- المسبحي، الأمير محمد بن عبيد الله (ت 420 هـ/ 1029م):

* أخبار مصر، تحقيق وليم ج. ميلود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.

- المسعودي، علي بن الحسين (ت 346 هـ/ 975 م):

* التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت، 1965م.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط/ 4، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1964م.

- المقدسي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت 380 هـ/ 990م):

* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دو جوية، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الثانية، مطبعة بريل، في مدينة ليدن، 1906م.

- المقريزي، أحمد بن علي (ت 845 هـ/ 1441م):

* اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971م.

* السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، سعيد عبد الفتاح عاشور، ومحمد مصطفى زيادة، ط/ 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الكتب المصرية، القاهرة، 1956 ـ 1973م.

* شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق الأب أنستاس الكرملي، ونشره ضمن كتابه «النقود العربية وعلم النميات».

* المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، ط/ 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة إحياء العلوم، بيروت، 1959م، نسخة مصورة عن طبعة بولاق، بمصر، 1270هـ.

ـ **المناوي**، محمد عبد الرءوف (ت 1031 هـ/ 1621م):

* التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، ط/ 1، دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، بيروت، ودمشق، 1410 هـ.

ـ **المنذري**: عبد العظيم بن عبد القوى (ت 656 هـ/ 1258م):

* التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط/ 2، 1981م.

ـ **المنصوري**: بيبرس (ت 725 هـ/ 1324م):

* التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط/ 1 الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1987م.

ـ **المنهاجي السيوطي المصري**: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن على، شمس الدين (ت 880 هـ/ 1475م):

* إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م.

ـ **المنيني**: أحمد بن علي بن عمر (ت 1172هـ/ 1758م):

* الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبى، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1286هـ.

ـ **النابلسي**: عثمان بن إبراهيم (ت 632 هـ/ 1234م):

* كتاب لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، نسخة مصورة عن طبعة أوربا.

ـ **ناصر خسرو**:

* سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، ط/ 2، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1970م.

ـ **النرشخي**، أبو بكر، محمد بن جعفر (ت بعد 337 هـ/ 948م):

* تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى، ونصر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، 1965م.

ـ **نظام الملك**، أبو على، الحسن بن إسحاق الطوسي (ت 485 هـ/ 1092م):

* سياسة نامه أو سير الملوك، ترجمة يوسف حسين بكار، ط/ 2، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1987م.

ـ **النعيمي**، عبد القادر بن محمد (ت 927 هـ/ 1520م):

* الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنى، منشورات المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقى، بدمشق، 1948م.

ـ **النويري**، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ/ 1332م):

* نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عدد من العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، صدر منه 32 جزءا، في سنوات مختلفة.

ـ **الواقدي**، أبو عبد الله، محمد بن عمر (ت 207 هـ/ 823م) منسوب إليه كتاب:

* فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

ـ **اليافعي**، أبو محمد، عبد الله بن أسعد (ت 768 هـ/ 1366م):

* مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط/ 2، مؤسسة الأعلمي، بيروت، سنة 1970م، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن، 1339 هـ.

ـ **اليزدى**، محمد بن محمد بن عبد الله (ت 743 هـ/ 1342م):

* العراضة في الحكاية السلجوقبة، ترجمة وتحقيق عبد النعيم محمد حسانين، وحسين أمين، منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1979م.

ـ **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت 284 هـ/ 897م):

* كتاب البلدان، تحقيق دو جويه، مطبعة بريل، ليدن، 1891م، ملحقا بالجزء السابع من كتاب الأعلاق النفيسة، لابن رستة.

ـ **اليماني**، محمد بن الحسن، الديلمي (ت القرن 8 هـ/ 14م):

* قواعد عقائد آل محمد «الباطنية»، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1950م.

ـ **اليمنى**، عمارة بن أبي الحسن علي (ت 569 هـ/ 1173م):

* النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق هرتويغ درنبرج، مكتبة المثنى، بغداد، نسخة مصورة عن طبعة باريس، 1897م.

ـ **اليوسفي**، موسى بن محمد بن يحيى (ت 759 هـ/ 1358م):

* نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ط/ 1، عالم الكتب، بيروت، 1986م.

ـ **اليونيني**، قطب الدين موسى بن محمد (ت 726 هـ/ 1326م):

* ذيل مرآة الزمان، ط/ 2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1992م نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن، 1960م.

رابعاً: المراجع

ـ **أبو النصر**، محمد عبد العظيم:

* السلاجقة، تاريخهم السياسي والعسكري، ط/ 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001م.

ـ **أبو يصير**، صالح مسعود:

* جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ط/ 1، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1968م.

ـ **أحمد**، أحمد رمضان:

* شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، القاهرة، 1977م.

ـ **أحمد**، محمد مؤنس:

* فصول في ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية، ط/ 1، مؤسسة عين، القاهرة، 1996م.

ـ **أرسلان**، الأمير شكيب (ت 1946م):

* الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ.

ـ **أرنست باركر**:

* الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط/ 4، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م.

ـ **استانلي**، لين بول:

* طبقات سلاطين الإسلام، ط/ 1، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، 1986م.

ـ أطلس العالم:

* (أطلس جغرافي مصور)، مكتبة الصغار، بيروت، 1996م.

ـ ألبير بايبه:

* تاريخ الفكر الحر، ترجمة عاطف علبي، ط/ 1، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1996م.

ـ الإمام، رشاد:

* مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979م.

ـ أمين، أحمد:

* الصعلكة والفتوة في الإسلام، القاهرة، دار المعارف، سلسلة «اقرأ» العدد 111، 1952م.

ـ الباش، حسن مصطفى:

* القدس بين رؤيتين، ط/ 1، دار قتيبة، دمشق، 1997م.

ـ بدران، عبد القادر:

* تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، ط/ 2، دار المسيرة، بيروت، 1979م.

ـ براور، يوشع:

* الاستيطان الصليبي في فلسطين «مملكة بيت المقدس» ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البنا، ط/ 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001 م.

* عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن، ط/ 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1981م.

ـ برصوم، البطريرك مار إغناطيوس إفرام الأول:

* منارة أنطاكية السريانية، دار الرُّها، حلب، 1992م.

ـ برنارد، لويس:

* الغرب والشرق الأوسط، ترجمة نبيل صبحي، الشركة المتحدة للتوزيع بيروت، 1965م.

ـ بروكلمان، كارل:

* تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير البعلبكي، ط/ 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م.

ـ البستاني، المعلم بطرس:

* دائرة المعارف، مؤسسة مطبوعاتي إسماعليان، تهران، 1880م.

ـ تارن، السير وليم وود ثورب:
* الحضارة الهللنيستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ومراجعة زكي علي لجنة التأليف والترجمة والنشر «سلسلة الألف كتاب»، القاهرة، 1966م.
ـ تدمري، عمر عبد السلام:
* تاريخ طرابلس، ط/ 2، مؤسسة الرسالة، ودار الإيمان، بيروت، 1984م.
ـ جوان،كوماس:
* خرافات عن الأجناس، ترجمة محمد رياض، ومراجعة محمد عوض محمد مكتبة نهضة مصر، سلسلة الألف كتاب، وزارة التربية والتعليم بمصر، بدون تاريخ.
ـ جورج ليفه، وورولان موسينييه، المشرفان على موسوعة:
* تاريخ أوربا العام، ترجمة أنطوان أ. الهاشم، ط/ 1، منشورات عويدات بيروت ـ باريس، 1995م.
ـ حاطوم، نور الدين:
* تاريخ العصور الوسطى في أوربة، تعريب نور الدين حاطوم، ط/ 1 دار الفكر، دمشق، 1967م.
ـ حبشي، حسن:
* الحرب الصليبية الأولى، ط/ 2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م.
* نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، 1948م.
ـ حتّي، فيليب:
* تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق وكمال اليازجي، بإشراف جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، 1983م.
* تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة، ومراجعة نقولا زيادة، بإشراف جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
ـ حرب، طلال:
* معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
ـ الحريري، سيد علي:
* الحروب الصليبية، تحقيق عصام محمد شبارو، ط/ 1، دار التضامن، ومؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1988م.

ـ حسن، حسن إبراهيم:

* تاريخ الدولة الفاطمية، ط/ 5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1993م

ـ حسونة، خليل إبراهيم:

* لكي لا ننسى فلسطين، ط/ 1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998م.

ـ حسين، حسن عبد الوهاب:

* تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م.

ـ حسين، حمدي عبد المنعم:

* دراسات في تاريخ الدول الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.

ـ حمادة: محمد ماهر:

* الوثائق السياسية والإدارية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط/ 2، 1985م.

ـ الحملاوي: الشيخ أحمد:

* شذا العرف في فن الصرف، تقديم مصطفى السقا، القاهرة، 1953م.

ـ خلة، كامل محمود:

* فلسطين والانتداب البريطاني، ط/ 2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1982م.

ـ دائرة المعارف الإسلامية:

* ترجمة الفندي، وخورشيد، والشنتناوى، وعبد الحميد يونس، دار المعرفة بيروت، نسخة مصورة عن طبعة انتشارات جهان، بتهران، بدون تاريخ.

* موجز دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة نخبة من العلماء بإشراف الأستاذ سمير سرحان، ط/ 1، نشر مركز الشارقة للإبداع الفكري، وطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.

ـ الدباغ، مصطفى مراد:

* بلادنا فلسطين، ط/ 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1965م.

ـ دحلان، السيد أحمد بن زيني:

* تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية، راجعه وصححه محمد رضوان مهنا، ط/ 1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2000م.

ـ درَّاج، أحمد:

* وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م.

ـ **دنلوب، د. م.:**
* تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1987م.
ـ **ديورنت، ول:**
* قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، وآخرين، ط/ 5، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1973 م.
ـ **ربَّاط، أدمون:**
* الوسيط في القانون الدستوري العام، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م.
ـ **رستم، أسد:**
* الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، 1956م.
ـ **رنا قبّاني:**
* أساطير أوربا عن الشرق، ترجمة صباح قباني، ط/ 1، دار طلاس، دمشق، 1988م.
ـ **زابوروف، ميخائيل:**
* الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفيتي، 1986م.
ـ **زايد، عبد الحميد:**
* القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
ـ **الزركلي، خير الدين (ت 1976م):**
* الأعلام، ط/ 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.
ـ **زكّار، سهيل:**
* مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ط/ 4، دار الفكر، دمشق، 1981م .
* الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، صدر الجزء الأول منها في 1995م، وما زالت تصدر.
ـ **زيَّات، حبيب:**
* سمات أهل الكتاب في المصنفات العربية، باعتناء غادة يوسف خوري، ط/ 1، دار الحمراء، بيروت، 1992م.

- **زيان**، حامد زيان غانم:

* الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983م.

- **زيدان**، جورجي:

* تاريخ التمدن الإسلامي، ط/ 3، دار الهلال، القاهرة، 1931م.

* الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، مراجعة وتعليق مراد كامل، ط/ 3، دار الهلال، القاهرة، 1969م.

- **سالم**، السيد عبد العزيز:

* دراسة في تاريخ مدينة صيدا، منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت، 1970م.

* طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1966م.

- **السامرائي**، إبراهيم:

* المجموع اللفيف معجم في المواد اللغوية التاريخية الحضارية، ط/ 2، دار عمّار، عمّان، الأردن، 1994م.

- **ستيفن رنسيمان**:

* تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني ط/ 3، بيروت، 1993م، بدون ذكر للناشر.

- **سركيس**، يوسف إليان:

* معجم المطبوعات العربية والمعربة، عالم الكتب، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مصر، 1346 هـ/ 1928م.

- **سرهنك**، إسماعيل بن عبد الله (ت 1343 هـ/ 1924م):

* حقائق الأخبار عن دول البحار، ط/ 1 ، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة 1316 هـ.

- **سرور**: محمد جمال الدين:

* تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994م.

- **سليمان**، أحمد السعيد:

* تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، القاهرة، 1972م.

* تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

- سليمان، سليمان حسن:
* مدخل للثقافة السياسية، الشركة العامة للورق والطباعة، الخمس، الجماهيرية العربية الليبية، 1999م.
- السوَّاح، فراس:
* آرام دمشق وإسرائيل، ط/ 1، دار علاء الدين، دمشق، 1995م.
* تاريخ أورشليم، ط/ 1، دار علاء الدين، دمشق، سنة 2001م.
- سميل، ر. سي:
* الحروب الصليبية،ترجمة سامي هاشم، ط/ 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- سوسة، أحمد:
* العرب واليهود في التاريخ، ط/ 7، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1990م.
- السيد أدِّي شير:
* معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت، 1980م.
- السيد، علي أحمد:
* الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبي، ط/ 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.
- شحاتة: عادل عبد الحفيظ عثمان حمزة:
* العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986م.
- شقير، نعوم:
* تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، القاهرة، 1916م.
- الشيخ محمد محمد مرسى:
* الإمارات العربية في بلاد الشام، ط/ 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1980م.
* تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م.
* الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (1097 ـ 1144 م) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.
* النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م.

- **الصيَّاد**، فؤاد عبد المعطى:
* المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م.
- ضو، الأب بطرس:
* تاريخ الموارنة، بيروت، 1970م.
- **الطراونة**، طه ثلجي:
* مملكة صفد في عهد المماليك، ط/ 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م.
- **طربين**، أحمد:
* محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1958م.
- **طرخان**، إبراهيم علي:
* النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1978م.
- **طعيمة**، صابر:
* التاريخ اليهودي العام، ط/ 1، دار الجيل، بيروت، 1975م.
- **العارف**، عارف:
* تاريخ بئر السبع وقبائلها، مطبعة المعارف، القدس، 1934م.
* المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، 1961م.
- **عاشور**، سعيد عبد الفتاح:
* أوربا العصور الوسطى، ط/ 7، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978م.
* تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م.
* الحركة الصليبية، ط/ 3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975م.
- **العامري**، محمد أديب:
* عروبة فلسطين في التاريخ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1972م.
- **العاملي**، السيد محسن الأمين العاملي (ت 1952م):
* أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، 1986م.
- **العبادي**، أحمد مختار:
* في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978م.

- العبادي، أحمد مختار، وسالم، السيد عبد العزيز:
* تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- عبد التواب، رمضان:
* التطور اللغوي، ط/ 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.
- عبد الدائم، عبد العزيز محمود:
* بيت المقدس في العصر الأيوبي، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1989م.
- عبده، سمير:
* السريانية - العربية الجذور والامتداد، ط/ 1، دار علاء الدين، دمشق 2000م.
* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام، ط/ 1، دار علاء الدين، دمشق 2000م.
* المسيحيون السوريون قديما وحديثا، ط/ 1، دار علاء الدين، دمشق، 2000م.
- عبودي، هنري س:
* معجم الحضارات السامية، ط/ 2، جروس برس، طرابلس - لبنان، 1991م.
- العربي، إسماعيل:
* معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، المغرب، دار الآفاق الجديدة ط/ 1، 1993م.
- العريني، السيد الباز:
* الحضارة والنظم الأوربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1963م.
* المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.
- العسلي، بسّام:
* الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ط/ 2، دار النفائس، بيروت، 1983م.
- عطا، زبيدة محمد:
* الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ط/ 2، دار الأمين، القاهرة، 1994م.
- عطية، حسين محمد:
* إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (1171 - 1268م / 567 - 666هـ) ط/ 1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م.
- عنان، محمد عبد الله:
* الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط/ 2، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1959م.

ـ عنبر، محمد عبد اللطيف، وعيسى، محمود حزين:

* المختار في قواعد الإملاء وعلامات الترقيم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1969م.

ـ عودات، أحمد، وجميل بيضون، وشحادة الناطور:

* تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، إربد، الأردن، 1990م.

ـ غانم، غالب:

* القوانين والنظم عبر التاريخ، ط/ 1، دار المنشورات الحقوقية، وتوزيع دار صادر، بيروت، 1991م.

ـ فرنان برودل:

* الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ترجمة مصطفى ماهر، ط/ 1، دار الفكر، القاهرة، وباريس، 1993م.

ـ فشر هـ. أ. ل.:

* تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، والباز العريني، وإبراهيم أحمد العدوى، القاهرة، 1950م، و 1954م.

ـ قاسم: قاسم عبده:

* أهل الذمة في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، 1977م.

ـ القُمِّي، عباس بن محمد رضا (ت 1940م):

* الكنى والألقاب، ط/ 2، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1984م.

ـ كافين رايلي:

* الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب محمد المسيري، وهدى عبد السميع حجازي، ومراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م، العدد 90.

ـ كانتور، نورمان ف.:

* التاريخ الوسيط، قصة حضارة، والبداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم القاهرة، 1981م و 1983م.

- **كتن**، هنري:

* القدس، ترجمة إبراهيم الراهب ط/ 1، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1997م.

- **كحّالة**، عمر رضا:

* معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- **كرامب ج، وجاكوب أ**:

* تراث العصور الوسطى، ترجمة عدد من أساتذة الجامعة بإشراف محمد بدران، ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة 1965م، و1967م.

- **الكرملي**، الأب أنستاس ماري:

* النقود العربية وعلم النميات، مكتبة لويس سركيس، القاهرة، 1939م، وأعادت طبعه مكتبة الثقافة الدينية، بالقاهرة، باسم «النقود العربية والإسلامية وعلم النميَّات»، بدون تاريخ.

- **كريمر**، صموئيل نوح:

* إينانا ودموزي «طقوس الجنس المقدس عند السومريين» ترجمة نهاد خياطة ط/ 3، دار علاء الدين، دمشق، 2000م.

- **كلود**، كاهن:

* الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط/ 1، سينا للنشر القاهرة، 1995م.

- **كليفورد**، أ. بوزورث:

* الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، ط/ 2، مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995م.

- **كوبلاند ج. و.، وفينوجرادوف ب.**:

* الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا، ترجمة محمد مصطفى زيادة، ط/ 3، دار النهضة المصرية، بيروت، 1958م.

- **كولتون ج ج**:

* عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط/ 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

- **كيت**، ماجواير:

* تهويد القدس، دار الآفاق، بيروت، 1981م.

ـ لسترنج، كي:
* بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرسيس، وكوركيس عوَّاد، ط/ 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.
ـ لوموند: الفرنسي «الأب»:
* خلاصة تاريخ الكنيسة،ترجمة الخوري يوسف البستاني، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1881.
ـ ماجد، عبد المنعم:
* الإمام المستنصر بالله الفاطمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م.
* تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م.
* الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1959م.
ـ ماريوباي:
* لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، القاهرة، 1970م.
ـ ماهر، سعاد:
* البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، 1967م.
ـ مختار باشا، اللواء محمد:
* التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، تحقيق محمد عمارة، ط/ 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م.
ـ مسعود، جبران:
* الرائد، معجم لغوي عصري، ط/ 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م.
ـ المطوى، محمد العروسى:
* الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.
ـ معلوف، لويس، وآخرين:
* المنجد في اللغة والأعلام، ط/ 39، دار المشرق، بيروت، 2002م.
ـ معهد الإنماء العربي:
* الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير معن زيادة، ط/ 1، بيروت 1988م.

ـ مكسي، ميخائيل:
* القدس عبر التاريخ، مراجعة وتقديم الأنبا غريغوريوس، القاهرة، 1972م
ـ ممفود، لويس:
* المدينة على مر العصور، أشرف على الترجمة إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1964م.
ـ منصور، محمد صالح:
* أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، ط/ 1 منشورات جامعة قار يونس، 1996م.
ـ مؤنس: حسين:
* أطلس تاريخ الإسلام، ط/ 1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987م.
ـ مولَّر ـ فينر، فولفغانغ:
* القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، مراجعة سعيد طيَّان، ط/ 2، دار الفكر، دمشق، 1984م.
ـ النبراوى: رأفت محمد:
* النقود الصليبية في الشام ومصر، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001م.
ـ النبراوي: فتحية عبد الفتاح:
* العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط/ 1، 1982م.
* علم التاريخ دراسة في مناهج البحث، ط/ 2، دار الآفاق العربية، القاهرة 1996م.
ـ نجم، مهندس رائف يوسف، وعبد الجليل عبد المهدى، ويوسف النتشة، وبسَّام الحلاق، وعبد الله كلبونة:
* كنوز القدس، ط/ 1، نشر منظمة المدن العربية، ومآب مؤسسة آل البيت، عمَّان، الأردن، 1983م.
ـ النخيلي، درويش:
* السفن الإسلامية على حروف المعجم، نشر جامعة الإسكندرية، 1974م.
ـ النقَّاش، زكى:
* العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، 1946م.

- **نورمان، بينـز:**
* الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، ومود يوسف زاد، ط/ 2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.
- **نورمان، كانتور:**
* العصور الوسطى الباكرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.
- **هارتمان ل. م.، وباراكلاف ج.:**
* الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط/ 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- **هانس، أبرهارد ماير:**
* تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، تقديم نجاح صلاح الدين القابيي، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، الجماهيرية العظمى، 1990م.
- **هايد ف:**
* تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة أحمد محمد رضا، ومراجعة وتقديم عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.
- **هلستر س. ورن:**
* أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988م.
- **وزيري، يحيى:**
* العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد يونيو 2004م.
- **وهيبة، عبد الفتاح محمد:**
* الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.
- **يوسف، جوزيف نسيم:**
* دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعية، الإسكندرية، 1988م.
* العدوان الصليبي على بلاد الشام «هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة» دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

* العدوان الصليبي على مصر «هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور» دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
* العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
* الوحدة وحركات اليقظة العربية إبّان العدوان الصليبي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

خامساً: الدوريات العربية

الأهرام:

* جريدة الأهرام المصرية، العدد 41378، بتاريخ 21/ 3/ 2000م.
* جريدة الأهرام المصرية، العدد 42247، بتاريخ 7/ 8/ 2002م.
* جريدة الأهرام المصرية، العدد 24246، بتاريخ 10/ 3/ 2003 م.
* جريدة الأهرام المصرية، العدد 47425، بتاريخ 3/ 6/ 2003 م.
* الأهرام العربي العدد 157 بتاريخ 25/ 3/ 2000م.
* **التصوّف الإسلامي**، العدد 5، السنة 23، في جمادى الأولى 1142هـ، أغسطس 2000م، يصدرها المجلس الصوفي الأعلى في القاهرة.
* **حوليات كلية الآداب**، جامعة عين شمس، المجلد الرابع.
* جريدة الشعب المصرية الإلكترونية، بتاريخ 26/ 7/ 2005 م.
* **مجلة المشرق**، السنة السادسة، العدد 6، سنة 1903م.
* **منبر الإسلام**، العدد 7، السنة 58، في رجب 1420هـ، أكتوبر ـ نوفمبر 1999م، يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة.

سادساً: الأقراص المضغوطة CD

* **أطلس العالم** 2000، قرص مضغوط CD، من إصدار أون لاين Online بالتعاون مع شركة العريس، بالقاهرة.
* دائرة المعارف الكتابية، قرص مضغوط CD، من إصدار دار الثقافة، وكتابة بالكمبيوتر في وكالة الأهرام، بالقاهرة.
* **موسوعة المورد**، قرص مضغوط CD، من إصدار أون لاين Online بالتعاون مع شركة العريس، بالقاهرة.

- المسيري، عبد الوهاب:

* موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، قرص مضغوط CD، من إصدار بيت العرب للتوثيق العصري والنظم، بالقاهرة.

سابعاً: المواقع على الإنترنت

- الحسيني، محمد:

* التكييف الدستوري لشكل الدولة الإسلامية.

انظره تحت عنوان «الدولة».

* الذاكرة والمصالحة.

انظرها في الموقع:

http://www.vatican.va/rom.../rc con cfaith doc 2000307 memory - reconc - itc en.htm 03/07/00

ثامناً: المصادر الأجنبية

- Albert Bayet;

* Pacifisme et christianisme aux premiers siècles, Paris 1962.

- Atiya A. S.;

* The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

- Bailley A. E.;

* The Arts and Religion, New York, 1944.

- Baldwin M. W.;

* The Medieval Church, New York 1960.

- Barthold W.;

* The Ghaznavids, Edinburgh, 1963.

- Baynes N. H.;

* Byzantine Studies and Other Essays, London, 1960.

- Bréhier L.;

*Vie et Mort de Byznce, Paris. 1947.

- Bruce C.;

* Tripoli of Lebanon, Beirouth, 1961.

- Burrows Millar;

* What Mean These Stones, New Haven, 1941.

- Cahen C.;

❋ Une Famille Byzantine au Service des Seldjuqides d'Asie Mineur, in Variorum, London, 1974.

❋ La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Paris, 1940.

- Cambridge;

❋ Cambridge Medieval History, Cambridge, 1957.

- Chalandon F.;

❋ Essai sur la Règne d'Alexis Comnène, Paris, 1900.

❋ Histoire de La Première Croisade, Paris, 1925.

- Coulborn R.;

❋ Feudalism in Hustory, Princeton, 1956.

- Daniel-Rops;

❋ L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade, Paris, 1952.

- Davis J. D.;

❋ Jerusalem, Dictionary of the Bible, London, 1958.

- Deanesly M.;

❋ A History of Early Medieval Europe, London, 1956.

- Delaville Le Roulx J.;

❋ Cartulaire Générale de L ' Ordre Des Hospitaliers de St, Jean de Jérusalem (1100 - 1310) München, 1980.

- Derenbourg H.;

❋ Ousama Iben Mounkidh: Extrait du Livre de Baton par Ousama, Paris, 1889 - 1895.

- Dill S.;

❋ Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, London, 1926.

- Dozy R.;

❋ Supplement Aux Dictionnaires Arabes, librairie du LIBAN, Beyrouth, 1981.

- Duby G.;

❋ Le Chevalier, La Femme et le prêtre, le Mariage dans La France Féodale,Paris, 1981.

- Duggan A.;

❋ The Story of The Crusades, London, 1969

- Dussaud R.;

❋ Histoire et Roligion des Nosairis, Paris, 1900.

❋ Topographie historique de la Syrie antique et médiéval, Paris, 1927.

❋ Encyclopؤdia Britannica, William Benton, publisher Chicago: London: Toronto: Geneva, U.S.A., 1963.

❋ Encyclopؤdia of Islam, Leyden, 1913 – 1934.

- Eyre E.;

❋ European Civilization, (V. III the Middle Ages), London, 1935.

- Fliche A.;

❋ La Chrestienté Mediévale, Paris, 1929.

- Frey A.;

❋ Dictionary of Numismatic Names, New York, 1947.

- Friedman J. B.,

❋ The Monstrous Races in Medieval Art and Thought, Cambridge Mass., 1981.

- Ganshof F L.;

❋ Feudalism, trans. By Ph. Grierson, London, 1952.

- Gregory of Tours;

❋ The History of The Franks, London 1969.

- Grousset R.;

❋ L'Empire du Levant, Paris,1946.

❋ L'Épopée des Croisades, Paris, 1947.

❋ Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 vols, Paris, 1943-46.

- Hagenmeyer, H;

❋ Le Vrai et le faux sur Pierre l'Ermite, trans. By Furcy Rayanaud, Paris, 1883.

- Halphen L.;

❋ L'Essor de l' Europe (XIe – XIIIe siècle), Paris, 1941.

- Haskines C. H.;

❋ The Normans in European History New York, 1959.

- Heer F.;

❋ The Medieval World, Europe from 1100 to 1350, trans. From the germn by J. Sondheimer, London, 1962.

- Hill G.F.;

❋ Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia, London,1910.

- Hussey T. M.;

❋ The Byzantine Worled, London,1967.

- Iorga N.;

❋ Histoire des Croisades, Paris, 1924.

❋ L'Armenie Cilicienne, Paris, 1932.

- Jacques de Vitry;

❋ The History of Jerusalem, tr. Aubrey Stewart, London, 1896.

❋ Lettres de Jacques de Vitry, évêque de saint Jean d' Acre, Leiden, 1960.

- Joinville, Jean de;

❋ Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV ème Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly, Paris, 1874.

- Keller W.;

❋ The Bible as History Archæology Confirms The Book of Books, London, 1957.

- Kiernan V.G.;

❋ The Lords of Human Kind: European Attitudes towards the Outside World in the Imperial Age, London 1969.

- King E. J.;

❋ The Knights Hospitallers in the Holy Land; London, 1931.

- La Monte J. L.;

❋ Feudal Monarchy in The Latin Kingdom of JERUSALEM, Cambridge 1932.

- Lane - poole Stanley;

❋ The Muhammadan Dynasties, chronological and genealogical tables with historical introductions, Paris 1925.

❋ SALADIN And the fall of The Kingdom of JERUSALEM, New York City 1988.

- LAROUSSE;

❋ Grand LAROUSSE encyclopédique, paris, 1960.

❋ Nouveau Petit LAROUSSE Illustré, paris, 1951.

- Lavoix H.;

❋ Monnaies a Legendes Arabes Frappées en Syrie par Les Croisés, Paris 1877.

- Longnon J.;

❋ Les Français d 'Outremer au Moyen Âge, Paris, 1929.

- Lot F.;

❋ The End of the Ancient World and the Beginning of The Middle Ages, London; 1966.

- Michel Mourre;

  ❋ Dictionnaire Encyclopédique d ' Histoire, Bordas, Paris.

- Michaud J. F.;

  ❋ Histoire des Croisades, Paris, 1817 - 1822.

- Noth Martin:

  ❋ The History of Israel, Adam and Charles Black, London, 1960.

  ❋ Nouveau Petit LAROUSSE, paris, 1951.

- Ostrogorsky G.;

  ❋ A History of the Buzantine State, trans. By Hussey, Oxford, 1956.

- Painter S.;

  ❋ Medieval Society, Neu York, 1955.

  ❋ A History of The Middle Ages, New York, 1954.

- Pirenne. H.:

  ❋ Econnomic and Social History of Medieval Europe, London 1947.

- Pirenne H., Cohen G., et Focillon H.;

  ❋ La civilisation Occidentale au Moyen Âge du XIème au milieu du XVème siècle, Paris, 1941.

- Prawer J.;

  ❋ The Latin Kingdom of Jerusalem, jerusalem, 1972.

- Prawer Yoshua;

  ❋ The Latin Kingdom of Jerusalem European Colonialism in the Middle Ages, London, 1973.

- Rey E.;

  ❋ Les Colonies Franques en Syrie Aux XII et XII Siècles, Paris, 1883.

- Richard, J;

  ❋ Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris 1945.

  ❋ Le Royaume Latin de Jérusalem, Paris 1953.

- Schlumberger;

  ❋ Campagnes du Roi Amaury de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906.

- Setton K. M.;

  ❋ A History of The Crusades, 3 vols, Pensylvania, 1958

- Smith J.R.;

  ❋ The Knights of st. John in Jerusalem and Cyprus (1050-1310), London, 1967.

- Stephenson C.;

* Medieval Feudalism, New York, 1942.
* Medieval History, New York, 1943.

- Stevenson W. B.;

* The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

- Taylor H. O.;

* The Medieval Mind, London, 1930.

-Thompson J. W.:

* Econnomic and Social History of Middle Ages, London 1959.
* The Middle Ages, London 1931.

- Ullmann W.;

* The Growth of Papal Government in the Middle Ages, London, 1955.

- Vasiliev A. A.;

* History of The Byzantine Empire, University of Wisconsin press, 1961.

- Wiet, Gaston;

* Histoire de la Nation égyptienne, Paris, 1931 – 1940.

- Workman H. B.;

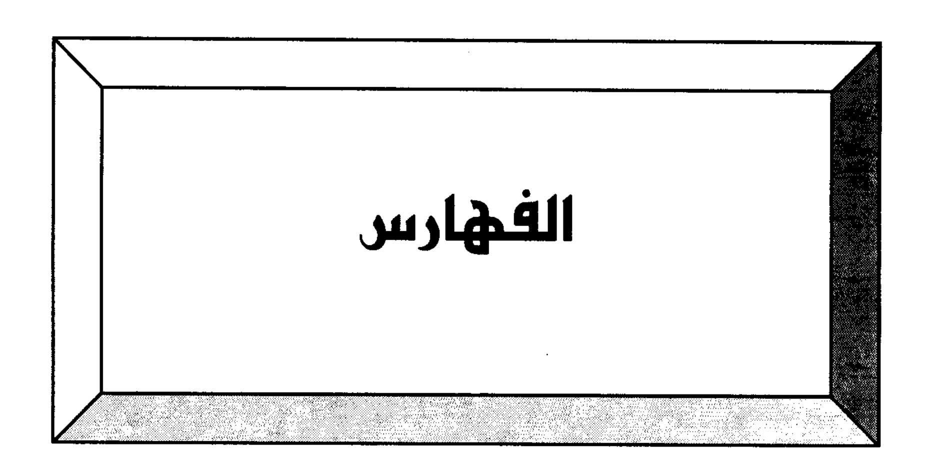
* The Evolution of Monasticideal, London, 1957.

- Zakkar Suhayl;

* The Emirate of Aleppo, 1004 – 1094, Beirut, 1971.

تاسعاً: الدوريات الأجنبية:

* The American Historical Review, 53, 1948.


الفهارس

فهرس آيات القرآن الكريم

فهرس الحديث الشريف (الأخبار والآثار)

فهرس آيات الكتاب المقدس

فهرس اللوحات والصور

فهرس الخرائط

العنوان | الصفحة

الفهرس المفصل للموضوعات

الفصل السابع: تأثير الاستيطان في البنية الاقتصادية للدويلات الصليبية

الفصل الثامن: تأثير الاستيطان في البنية الاجتماعية للدويلات الصليبية

الملاحق

الفهارس العامة

الاستيطان الفرنجي

- تعد الحروب الصليبية واحدة من أطول الحروب العالمية وأقساها وأكثرها دموية وشراسة وفي عام 1095م أعلن البابا أوربان الثاني قيام الحروب الصليبية و التي مازالت قائمة حتى الآن وخلال قرنين وبعد مذابح طويلة تمكن المسلمون من إنهاء الوجود الصليبي عن أرض الشام .

- وشهدت أوروبا الغربية و الشرقية منذ أواخر القرن الثالث عشر أوضاعاً سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية جديدة ولابد لنا من معرفة أن الفكر الغربي لم يلغ أبداً المشاعر الصليبية في إزالة الأمة العربية من الوجود ومعها الإسلام بكل وسيلة من الوسائل ولعل آثار الاستيطان الفرنجي في فلسطين والساحل الشامي تمحورت حول

- أنظمة الحكم ونظرية الحقوق والواجبات المتعلقة بالتاج والأمراء الاقطاعيين وعامة الناس .
- نظام الدفاع والعمارة العسكرية.
- الطوائف الدينية والأحوال الشخصية.
- التجارة والفنون والآداب العامة والعمارة.